

دوستویقسکی

الأعمال
الأدبية
الكاملة
١٧

الافخوة كارامازوف

٢

ترجمة: الدكتور سامي الدروبي

أعمال دوستويفسكي الأدبية

١٧

ترجمة
الدكتور سامي الدروني





الإخوة كرامازوف



الباب الخامس
مال الأمر وما عليه

١ الخطوبة



السيدة هوخلاكوفا هي التي استقبلت أليوشا من جديد في الدهليز . كانت تبدو منهكة جداً . لقد وقع حادث خطير : ان نوبة الهستريا التي أصابت كاترين ايفانوفنا قد انتهت الى اغماء أعقبه ضعف فظيع واعياء رهيب . لقد رقدت كاترين ايفانوفنا ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تهذى ، وارتفعت حرارتها . واستدعينا الدكتور هرتمسنشوبه والعمتين ، فوصلت العمتان ، ولكن الطبيب تأخر وصوله . الجميع محتشدون الآن في غرفتها . انهم ينتظرون قلقين خائفين . ماعسى يحدث ؟ انها في غيبوبة . آمل أن لا تكون قد أصابتها حمى دماغية . . .

كانت هيئة السيدة هوخلاكوفا تدل على ذعر حق . فهي تصبح في كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع : « الأمر في هذه المرة خطير ، خطير جداً » ، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شيء من خطورة . كان أليوشا يصغى اليها بمرارة . أراد أن ينهى اليها نتيجة المساعي التي قام بها ، ولكنها كانت تقاطعه منذ ينطق بأول كلمة قائلة له : « ليس الآن » . ان وقتها لا يتسع للاستماع اليه . وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند ليزا ، واعدة اياه أن تلحق به فيما بعد .

قالت له بما يشبه الهمس في أذنه ، مفضية اليه بسر :

- تصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش ! لقد أدهشتى ليزا أشد الدهشة منذ قليل ؛ ولكنها تبلغ من التأثير فى قلبى أننى أغفر لها راضيةً ما ان خرجت أنت حتى استبدت بها ندامة صادقة جداً ، لأنها فيما تزعم قد سخرت منك أمس واليوم . الحقيقة أنها لم تسخر سخرأ ، فأنا أعرفها ، وانما هى مزحت مزاحاً . ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكى ، فما وسعنى الا أن أدهش . لم يتفق لها أن تدمت يوماً حين كانت تسخر منى ، سخرأ لا خبث فيه على كل حال . وهى تسخر منى بغير انقطاع كما تعلم . أما الآن فالأمر خطير . لقد أصبح كل شئ خطيراً . انها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسى فيدوروفتش ، وما ينبغى لك أن تؤاخذها وأن تستاء منها . لا تسوءنك أساليبها . أما شخصياً أفعل ما أستطيع أن أفعله لأداريها وأراعها ، ذلك أنها لطيفة جداً ، ذكية جداً . . . ليتك تعلم كم هى لطيفة وذكية ! ولقد ذكرت لى منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها ، أنك كنت « خير أصدفاه طفولتها ، وأخلصهم ، وأصدقهم » . كذلك قالت . أصدقهم ، هل تفهم ؟ فأين مكاني أنا من نفسها إذن ؟ ان لها فى هذا المجال ذكريات حية وعواطف عميقة . وهالك خاصة تلك العبارات وتلك الكلمات التى تجيد استعمالها ، تلك التراكيب التى لا يتوقعها المسرء ! ذلك يخرج من فمها فجأة ، ارتجالاً . قصة الصنوبر تلك مثلاً . لقد كان فى حديقتنا شجرة صنوبر ، أيام كانت ليزا صغيرة جداً . أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة الى الآن ، فما ينبغى أن نتحدث عنها بصفة الفعل الماضى . ليست الأشجار بشراً يا ألكسى فيدوروفتش ، انها لا تتغير . قالت ليزا منذ أيام : « ماما ، اننى أرى شجرة الصنوبر هذه كأنها فى حلم ، أى « Sosna nak so sna » . الحق أنها قالت لى ذلك بطريقة أخرى * . نسيت الآن كيف قالت لى ذلك . المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة فى ذاتها . ولكن ليزا بلغت من

الطرفة والأصالة في توشيتها أتني لا أستطيع أن أنلدها • ثم ان هذا كله قد خرج من رأسي • والآن ، الى اللقاء • ان هذه الأحداث قد قلبت نفسي رأساً على عقب ، حتى لأخشى أن تذهب بعقلي • لقد أوشكت يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش أن أجنّ مرتين في حياتي • فاضطروا الى معالجاتي • اذهب الى ليزا ، وواسها كما تجيد أنت ذلك ايما اجادة •

ثم صرخت تنادى ليزا وهي تقترب من الباب :

- ليزا ! جئتُك بألكسي فيدوروفتش الذي تظنين أنك أسأت اليه اساءة كبرى • انه غير غاضب منك ولا عاتب عليك ، أؤكد لك ذلك ، بل انه ليدعشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر !
- شكراً يا ماما ! ادخل يا ألكسي فيدوروفتش •

دخل أليوشا الفسرفة • ان ليزا تبدو مضطربة اضطراباً شديداً ، خجلي خجلاً قوياً ، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين • كان واضحاً أنها تشعر بشيء من الخزي • وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالة ، طفقت تتحدث في أمور لا شأن لها في نظرها ، متظاهرة بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة اهتماماً كبيراً • قالت :

- حدثتني أمي منذ برهة يا ألكسي فيدوروفتش عن المائتي روبل ، وعن المهمة التي كلفت بها ••• لدى ذلك الضابط المسكين ••• وقد وصفت لي الاهانة الفظيعة التي ألحقت به ••• رغم أن أمي لا تحسن سرد قصة من القصص ، وانما هي تخلط الأمور بعضها ببعض ، وتُسقط في جميع الأحيان تفاصيل هامة ••• لقد تأثرت تأثراً شديداً ، وبكيت • فقل لي الآن : هل أعطيته المبلغ وكيف تصرف هذا الانسان الشقي المعذب ؟

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضاً بأن اخفاق مسماه هو ما يشغل باله ، أجاب يقول :

- المشكلة هي أنتى لم أعطه المبلغ ! تلك قصة طويلة !

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يشيح عينيه فى ضيق وحرص ، ويحاول مثلها تماما أن يتحدث فى أمور ليست بذات بال . وجلس ألبوشا قرب المائدة وأخذ يروى الحكاية ، فما أن قال بضع كلمات حتى زال ارتباطه تماما ، وحتى أسر انتباه ليزا . كان يتكلم وهو ما يزال تحت وطأة الانفعال الذى ما يزال قوياً فى نفسه لم يخمد أواره ، ذلك أن الضابط المتقاعد قد أحدث فى نفسه أثراً شديداً . وقد عرف كيف يروى القصة رواية أمينة صادقة ، جذابة أخاذة . كان قد اعتاد فى الماضى ، بموسكو ، أن يجرى إلى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة ، فيقص عليها حادثاً وقع له منذ وقت قصير ، أو يحدثها عن قراءاته ، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنه الأولى ، فكان يتفق لهما فى كثير من الأحيان أن يلققا أحلاماً مشتركة أو أن يخترعا حكايات هي فى الغالب مضحكة خيالية غريبة . وها هما يستعيدان الآن جو موسكو ، ويشعران فى نفسيهما باستيقاظ مناخ الحياة التى قضياها هنالك قبل سنتين . اضطربت ليزا من رواية هذه القصة اضطراباً قوياً . لقد عرف ألبوشا كيف يرسم للصبي ألبوشا صورة حارة . فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد ، ووصف كيف داس المسكين الورقتين النقديتين ، هتفت ليزا تقول وقد استبد بها انفعال عنيف :

- ألم تعطه المال اذن ؟ أتركه ينصرف ؟ أوه ! يا رب ! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه ، فتحاول أن تكلمه مزيداً من الكلام ...
- لا يا ليزا ، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه . ذلك أفضل ...

قال ألبوشا ذلك وهو ينهض شارد النظرة حالم الهبة ، وأخذ يسير فى الغرفة .

— هذا أفضل ؟ كيف يكون هذا أفضل ؟ لسوف يهلكون الآن
فقراً !

— لن يهلكوا ، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل
حال • سيقلهما في الغد حتماً •

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير في الفرقة مطرقاً مفكراً :

— نعم ... لن يعارض في الغد ... هذا أكيد ...

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال :

— لقد ارتكبت خطأ ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة •

— ما هو الخطأ الذي ارتكبته ، ولماذا تصور أنه ستكون له ثمرات
طيبة ؟

— اسمعى • ان هذا الرجل له طبع ضعيف وجل • لقد أرهقه
القدر ، ولكن له قلباً طيباً • حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأة بأنه أٌهين
فأخذ يدوس هاتين الورقتين التقديتين ، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل
حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف ، تقي بهذا ! وأحسب أنني
استشف الآن الأسباب الكثيرة التي جعلت شعوره نجرح ... وكان ذلك
أمراً لا بد منه ... فهو أولاً قد أسرف في اظهار ابتهاجه بهذا المال
أمامي ، ولم يكتف سعادته في اللحظة الأولى • فلا بد أنه شعر بعد ذلك
بمذلة من استجابته تلك السريعة التي لم يستطع أن يسيطر عليها وأن
يتحكم بها • فلو أنه اغتبط اغتباطاً أقل ، لو أنه امتنع عن اظهار هذا
الاغتباط ، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس
لأخذ المال ، لقبل الوضع بسهولة أكبر ، ولما رفض هذه المساعدة • لقد
أسرف في الصدق والاخلاص ، وذلك هو ما يجرح شعوره • آه يا ليزا !

انه انسان طيب صادق ، وهذا يصعب الأمور دائماً فى مثل هذه الأحوال .
لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكثود متعجل .
وكان يضحك ضحكة صغيرة أيضاً ... يضحك أو يبكي ... لا أدرى ...
بل أدرى ... لقد كانت ضحكاته أقرب الى البكاء .. كان يبكي حماسة ...
حدثنى عن ابتيه ... عن الوظيفة التى عرضت عليه فى مدينة أخرى ...
لقد فتح لى قلبه ، وأسرَّ لى بذات نفسه ، وأفاض فى الإفصاح عن عواطفه ...
فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزى وعار ... ثم اذا هو يشعر تحوى بكرمه على حين فجأة . انه واحد من أولئك الناس المساكين الذين يسرفون فى الاحساس بالخجل والعار .
لقد شعر بالذل من انه سارع يعدنى صديقا ، وأنه استسلم لى بغير مقاومة .
فى بيته كان قد هدّنى وتوعّدنى تقريبا ، ثم ها هو ذا حين تلقى المال يسارع فيوشك أن يرتدى على عتقى . لقد ودَّ لو يقبلنى ، وكانت يده تلامسنى فى كل لحظة .
فلهذه الاسباب جميعا أحسَّ أنه أذلَّ نفسه أمامى ؛ ومما زاد الطين بلة أننى ارتكبت تلك الخطيئة ، أننى عرفت تلك الغلطة الخطيرة :
لقد صرّحت له فجأة بأنه سيمنح مزيدا من المال اذا كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة الى مدينة أخرى ، حتى لقد عرضت عليه أن أسهم أنا فى ذلك بمالى اسهاماً كبيراً . ذلك ما فاجأه . لقد تساءل :
لماذا أقحم نفسى فى مساعدته أنا أيضاً ؟ يجب أن تعلمى يا ليزا أن المذنبين أمثاله لا يجوبون أن يروا جميع الناس تتقدم اليهم محسنة . ذلك يشق على أنفسهم كثيراً .
سمعت هذا الرأى كثيراً ، ولا سيما من الشيخ زوسيماء . لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة ، ولكن أتيح لى أن ألاحظها بنفسى مرارا .
ثم اننى لو كنت فى مكانهم لكان ردّى كردّهم . اننى أشعر بذلك فى ذات نفسى . يجب أن تتصور خاصة أنه رغم جهله حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال أخيراً ، كان يشعر بذلك شعوراً غامضاً مبهماً .

هذا أكيد . ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله الا لأنه كان يحس هذا الاحساس الغامض المبهم بأنه سيقوم بهذه الحركة ... على كل حال ، مهما تكن هذه الخاتمة داعية الى الأسف والحسرة ، فما ينبغي أن تقلق منها . بل اننى لعلى يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل ، وأن الأمور هى الآن على خير ما يرام ...

- على خير ما يرام ؟ كيف هذا ؟ اننى لا أفهم !

كذلك هتفت ليزا وهى تلقى على أليوشا نظرة دهشة . فقال أليوشا :

- لو أنه لم يدس الورقتين القديتين بقدميه ، لو أنه أخذ المال ، اذن لظل يبكى فى بيته من الذل ساعة بكاملها ، ذلك أمر محتوم ، ولندم على ما فعل ولجأنى مع الغد حائقاً ساخطاً ليرمى بهما وجهى ، أو يدوسهما يقدميه كما فعل منذ قليل . أما وقد صنع ما صنع ، فيشعر بعد الآن بالكرامة والكبرياء ، وبالظفر والانتصار ، رغم علمه بأنه قد « ضيَّع » فعلته نفسه . • يترتب على ذلك أنه لن يكون هناك شيء أسهل من ردّه الى قبول هاتين المائتين من الروبلات منذ لغد ، ما دام قد برهن على شرفه برفض المال ودوسه . ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين يقدميه لم يكن يتبأ أننى سأردهما اليه فى الغداة . وهو فى حاجة رهية الى هذه المساعدة المالية ؟ ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء ، فانه سيظل يفكر فى هذا الأمر طوال النهار ، وسيدرك مدى الخسارة التى منى بها . وسيكون أمره فى الليل أدهى ، فان الندم والحسرة سيقضان مضجعه ، وسيعذبانه فى أحلامه ، فما ان يطلع الصبح حتى يكون ميالاً الى المجيء الى « متندراً » . وفى تلك اللحظة انما سأذهب اليه أنا ، وقد لاح فى وجهى اننى أقول له معترفاً : « أنت انسان كريم على نفسك ، وقد برهنت على ذلك ، فاقبل الآن هذا

المال ، واغفر لى واعف عني ، • وسوف يقبل المال عندئذ ، ما فى ذلك ريب •

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه السكر • وصفت ليزا يديها احدهما بالأخرى ، وقالت :

- هذا صحيح جدا ! هذا واضح جدا ! فهمت كل شىء فهماً تاماً !
أوه ! أليوشا ، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها ؟ ما تزال فى ريعان الشباب ثم تدرك ما يجرى فى النفس الانسانية هذا الادراك العميق ... ما كان لى أنا أن أستطيع ذلك !

تابع أليوشا كلامه يقول وهو فى غمرة الحماسة :

- الأمر الأساسى الآن هو أن نقنعه بأننا نتعامله على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا • يجب أن يشعر بأننا لا نعامله على قدم المساواة فحسب ، بل على قدم التفوق أيضا ...

- « على قدم التفوق » هذا تعبير رائع يا ألكسى فيدوروفتش ، ولكن هلاً شرحته لى ...

- أقصد ... الحق أنتى، لم أحسن الانفصاح ... لا ... ليس الأمر أمر قدم ... ولكن سيان ...

- طبعاً ... سيان ... أنت على حق ! اغفر لى يا أليوشا ، ياعزيزى أليوشا ... لقد كنت حتى الآن لا أكاد أحترمك كثيراً ، هل تعلم ؟ أقصد ... كنت أحترمك ، ولكن على قدم المساواة ، أما بعد الآن فسأحترمك على قدم التفوق ...

وسرعان ما أردفت بقول بحرارة :

- لا تؤاخذنى يا صديقى العزيز اذا أنا تفككت وتندرت قليلاً •

أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك ، ولكن أنت ، أنت ... قل لي يا ألكسى فيدوروفتش ، ألا تظن أن فى استدلالنا ، أو قل فى استدلالك أنت - لا فى استدلالنا نحن - شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين ، شيئاً من الازدراء له ؟ انا نشرح عواطفه واضمين أنفسنا فوقه . أفلا نبرهن على احتقار له حين نطمئن كل هذا الاطمئنان منذ الآن الى أنه سيقبل أخذ المال ؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة ، كأنه كان ينتظر هذا السؤال :

- لا يا ليزا ، ليس يداخل هذا شيء من احتقار البتة . لقد أُلقيت على نفسى هذا السؤال ذاته وأنا عائد الى هنا . فكرى قليلاً : كيف يمكننا أن نحتقره ونحن جميعاً مثله ، كيف يمكننا أن نحتقره والبشر جميعاً مثله ؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذا المسكين ، وهينا خيراً منه الآن ، فأتانا لن نبقى خيراً منه متى وجدنا فى ظرف كالظرف الذى هو فيه . لا أستطيع أن أقطع برأى فيما يتصل بك أنت يا ليزا ، ولكننى على يقين من أننى أنا « مسكين » فى بعض الأمور . أما ذلك الضابط فليس « مسكيناً » ، ان له نفساً مرهفة جداً . لا يا ليزا ، صديقى ، ليس فى موقفنا هذا احتقار ولا ازدراء . هل تعرفين ماذا علمنى شيخى مرة ؟ قال لى : يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً ، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى ...

- قل لي يا ألكسى فيدوروفتش ، قل يا صديقى ! ما رأيك فى أن نذر نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى ؟

- أوافق يا ليزا ، أتمنى . ولكننى لست متأهباً بعد كل التأهب . ان صبرى ينفذ فى بعض الأحيان ، فأضيق ذرعاً . وفى أحيان أخرى أراهم غائباً فما ألاحظ شيئاً . أما أنت فشأنك شأن آخر .

- لا أصدق من هذا الكلام شيئاً ! آه يا ألكسى فيدوروفتش !
ما أعظم سعادتي !

- ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا ليزا !

- ألكسى فيدوروفتش ، أنت طيب طيبة خارقة . ولكنك توهم فى بعض اللحظات بأنك متفهب قليلا . ومع ذلك فإن المرء حين يعرفك مزيدا من المعرفة ، يدرك أنك لست كذلك ... اقرب من الباب فى رفق وهدوء ، فافتحه بلا ضجة ولا ضوضاء ، وتأكد من أن ماما ليست تنصت علينا .

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبى . فاتجه أليوشا نحو الباب ، فشقه قليلا ، ثم عاد فقال ان أحدا لا يتجسس عليهما .

وتابعت أليوشا كلامها تقول وهى تزداد احمرارا :

- أقرب منى مزيدا من الاقتراب . هات يدك ... هكذا ...
يجب أن أبوح لك بسر كبير : ان الرسالة التى بعثت بها اليك أمس لم تكن مزاحا ، بل جدأ ...

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها . كان واضحا أنها تشعر من هذا الاعتراف بحياء شديد . وفجأة ، أمسكت يد أليوشا فلمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة .

هتف أليوشا يقول :

- أوه ! ليزا ! حسن منك هذا ! ولقد كنت مقتنعا كل الاقتناع على كل حال بأنك كنت جادة فى رسالتك .

- كنت مقتنعا ؟ أهذا كلام ؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا ، ولكن دون أن تتركها ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا مرة أخرى ، وضحكت ضحكة خفيفة سعيدة •

ـ ألتئم يده فيقول « حسن منك هذا » !

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم ، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضا •

تمتم يقول بخراقة ، وهو يحمر أيضا :

ـ لشد ما أحب أن أرضيك يا ليزا ، ولكنني لا أعرف كيف أحتال لهذا ولا كيف أتدبره •

ـ أليوشا ، عزيزي ، أنت فاجر ووقع • أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء ؟ لقد تفضل فاخترني زوجة له ثم ها هو ذا هادىء النفس ! كان مقتنعا بأننى جادة فى رسالتى ، لا مؤاخذه ! ولكن هذه وقاحة ، وقاحة ...

سألها أليوشا ضاحكا :

ـ أكان عيبا الى هذا الحد اذن أننى كنت مقتنعا بذلك ؟

فقالت له ليزا وهى تلقى عليه نظرة حنونا رقيقة سعيدة :

ـ أوه ! أليوشا ! بالعكس ... كان ذلك منك حسنا جدا ، حسنا جدا جدا •

وكان أليوشا ما يزال ممسكا يدها بيده ، فما هى اللحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها فى قمها •

هتفت ليزا تسأله :

— ما هذا أيضا ؟ ماذا دهاك ؟

كان أليوشا قد فقد سيطرته على نفسه • قال :

— اغفرى لى ••• ان كنت قد أخطأت ••• لعلنى ••• حقا انها
لحماقة رهية ••• لقد أخذت علىَّ أننى بارد ، لذلك ••• قبلتك •••
ولكننى أدرك الآن أن هذا كان حماقة منى •

انفجرت ليزا ضاحكة ، وأخفت وجهها بيديها • ثم لم تملك أن
تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها وقد اتخذ وجهها هيئة
رصينة بل قاسية :

— أتفعل هذا وأنت فى مسوح الراهب أيضا ؟ ان علينا أن نتنظر
قليلا فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا • نحن لا نعرف حتى الآن كيف
تدبرها ، لا أنا ولا أنت • لا بد لنا أن نتنظر زمنا طويلا أيضا •

بهذا ختمت كلامها فجأة • ثم أردفت بعد لحظة تقول :

— ولكن اشرح لى : ما الذى حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلى
هى فوق ذلك كسيحة ، فى حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء
والتمقل والفطنة ؟ ••• أوه ! أليوشا ، أنا سعيدة جدا ، لأننى لا أستحقك
أبدا •••

— لا تقولى مثل هذا الكلام يا ليزا • سوف أترك الدير تماما بعد
بضعة أيام • فاذا عشت فى العالم فسيكون علىَّ أن أتزوج ، أنا أعرف
ذلك • ثم انه « هو » الذى أمرنى بهذا • فأين عسى أجد امرأة خيرا
منك ••• ومن عسى يريدنى سواك ؟ لقد فكرت فى كل شيء • أنت
أولا تعرفينى منذ الطفولة • وأنت ثانيا تملكين مزايا كثيرة لا أملكها •
نفسك أقرب الى المرح من نفسى • وأنت خاصة أكثر براءة منى • فأنا

قد عرفت حتى الآن أشياء كثيرة • أوه ! أنت لا تعلمين هذا ! اننى كارامازوف أنا أيضا • أى خير فى أن تضحكى وأن تمزحى دائما وأن تسخرى حتى منى ؟ بالعكس : اسخرى ما شاء لك هواك أن تسخرى •• اننى لأسعد بهذا ••• انك تضحكين كطفلة صغيرة ، وتحكمين على نفسك بأنك شهيدة •

— شهيدة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

— نعم يا ليزا • انظرى مثلا فى ذلك السؤال الذى ألقته منذ لحظات حين قلت : أليس فى نفسنا شيء من احتقار لذلك المضابط المسكين الذى نشرَّح قلبه ؟ تلك فكرة تخطر ببال شهيدة يا ليزا ••• لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول ، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع من القلق قادر فى رأى على أن يتألم كثيرا ••• لا شك أنك قلبت معانى كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسي المتقل •••

قالت ليزا بصوت أوهته السعادة :

— أليوشا ، ناولنى يدك ! لماذا تسحبها دائما ؟ قل لى يا أليوشا : أى زى تنوى أن ترتدى حين تترك الدير ؟ لا تضحك ، ولا تقضب ، ذلك أن هذا الأمر يهمنى كثيرا •

— لم أفكر بعد فى الزى الذى سأرتديه يا ليزا • ولكننى أريد أن ألبس ما يرضيك أكثر من غيره •

قالت ليزا :

— أحب أن ترتدى سترة من مخمل أزرق قاتم ، وصديرة من « بيكيه » بيضاء ، وقبعة رمادية من جوخ طرى ••• قل لى الحقيقة : لقد

صدقتَ فى مساء أمس أننى لا أجبك ، حين تكررت لرسالتى ، أليس كذلك ؟

- لا ... لم أصدق !

- أوه ! ألا انك لفتى لا سبيل الى اصلاحه ! انك لا نطاق ولا تحتمل ، هل تعلم ذلك ؟

- كنت أعرف أنك ... تحببى ، ولكننى تظاهرت بأننى أعتقد بأنك لا تحببى ... وذلك لأجعلك ... أكثر ارتياحا ...

- هذا شر وأدهى ! ولكن لا ... حسنا فعلت يا أليوشا ! اننى أجبك حباً رهيباً ! قلت لنفسى فى هذا الصباح وأنا أنتظر زيارتك : « سأطلب منه مرة ثانية أن يردَّ الى رسالتى ، فاذا أخرجها من جيبه بلا مقاومة فمدّها الى (كما يمكن توقع ذلك منه) فانه يكون فتى أبله لا يحببى ولا يستحق حبى ... وأكون أنا قد هلكت . . . غير أنك تركت الرسالة فى الدبر ، فردَّ هذا الى شيئاً من شجاعتى . انك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أننى قد أطلبها منك ، وأنت لا تريد أن تردّها ، أليس كذلك ؟ قل ! نعم ؟

- أوه ! ليزا ! كلا ... الرسالة معى الآن ، ولقد كانت معى من قبل . هى هنا ، فى هذه الجيب . انظرى !

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكاً ، وأظهرها عليها من بعيد ، ثم أضاف :

- اعلمنى مع ذلك أننى لن أردّها اليك . انظرى إليها من بعيد .

- كيف هذا ؟ أكذبت اذن حين طالبتك بها ؟ أنكذب وأنت راهب ؟

فقال أليوشا مسلماً باتهامها وهو يضحك :

- نعم أكذب ! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردّ اليك الرسالة •

ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد :

- هذه الرسالة عزيزة علىّ الى أقصى حد • سأحتفظ بها ما حييت، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها مني !

كانت ليزا شاخصةً اليه ببصرها مأخوذة مفتونة • ثم قالت له هامةً :

- أليوشا ! هبّا انظر هل تنتصت علينا ماما وراء الباب ؟

- طيب يا ليزا ، سأنظر، ما دمت تريدان ذلك • ولكن أليس الأفضل أن لا نحاول التثبت من هذا ؟ لماذا نظن في أمك هذا الظن ؟ لماذا نتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه ؟

فقالت ليزا مستاءةً وقد احمر وجهها احمراراً شديداً :

- أية سماجة ؟ فيم الكلام عن السماجة ؟ هل من السماجة أن تراقب أمّ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها ؟ ان من واجب الأم أن تفعل هذا مع ابنتها • وليس في عملها ذاك أى اخلال بقواعد اللباقة وأصول الأدب • كن على يقين يا ألكسى فيدوروفتش من أنني حين سيكون لى ابنة أنا أيضاً ، فلن يفوتنى أن أتجسس عليها فى كل مناسبة !

- صحيح ؟ ولكن هذا شر يا ليزا !

- لماذا يكون هذا شراً ؟ أى ضرر فيه ؟ لو قد تجسست هذا التجسس

على حديث عادى يجرى فى المجتمع ، اذن لكان ذلك منى ضعةً وحقارة بدون ريب . أما هنا فالأمر مختلف كل الاختلاف . هنا فتاة مختلة بشاب ... اسمع يا أليوشا : أحب أن أقول لك منذ الآن اننى سأراقبك أنا أيضا متى تمت خطوبتنا ، وسأفرض بريدك ، وأقرأ جميع رسائلك . اعلم هذا . هاأناذا أبلغك منذ الآن .

— موافق ... ما دمت تريدان ذلك ... ولكن هذا ليس حسناً ، صديقى .

بهذا تتم أليوشا . فقالت ليزا :

— أوه ! هذا الاحتقار ! أليوشا ، صديقى ، لا تتشاجرن منذ أول يوم . اننى أوتر أن أترف لك بالحقيقة : أنا أعرف أن التجسس على الناس مريب جدا . لقد أخطأت أنا ، وأصبت أنت . ولكننى سأراقبك مع ذلك .

فقال أليوشا ضاحكاً :

— راقبنى ، راقبنى .. ولن تكتشفى أشياء كثيرة ، أقول لك ذلك منذ الآن .

— أليوشا ، هل ستطيعنى ؟ تلك أيضا مسألة يجب أن تسوئها سلفاً .

— سأطيعك يا ليزا ، سيسرنى جدا أن أطيعك ، ولكن لا فى الأمور الأساسية . فى الشؤون الهامة ، سأعمل بما يمليه على ضميرى ، حتى ولو خالفتنى .

— هكذا أفهم أنا الأمر . ألا فاعلم يا أليوشا أننى مستعدة من جهتى لأن أطيعك لا فى الشؤون الأساسية فحسب ، بل فى كل شيء ، وفى كل

وقت ، مدى الحياة ... أعاهدك على هذا منذ الآن . وإذا خضعت لك ،
فانتى أخضع راضيةً سعيدة فرحة . (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة) .
واننى لأحلف لك أيضاً أنتى لن أراقبك أبداً ، لن أراقبك مرةً واحدة ،
لا ولن أقرأ رسائلك قط ، فى يوم من الأيام . ذلك أنك على حق ، واننى
على خطأ . أعرف أن رغبة رهبة فى مراقبتك سوف تتأجج فى نفسى ،
ولكننى سأحبس هذه الرغبة ، لأن هذا ميب فى نظرك . ستكون لى
بمناسبة العناية الالهية ... اسمع يا ألكسى فيدوروفتش : لماذا أنت حزين
هذا الحزن كله فى هذه الآونة الأخيرة ، أمس واليوم ؟ أنا أعرف أن
هناك أنواعاً من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك ، ولكننى لاحظت فىك
حزناً خاصاً ... أهو ألم سرى ؟

قال أليوشا بصوت مكبوح :

- نعم يا ليزا ، هو حزن سرى . انتى أرى أنك تحيىنى حقاً
ما دمت قد أدركت ذلك .

سأله ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة :

- ما سبب حزنك ؟ هل أستطيع أن أعرفه ؟

فأجابها أليوشا محرّجاً :

- سأذكره لك يا ليزا ... ولكن فيما بعد . اذا حدثك الآن عن
سبب حزنى ، فلن تفهمى . ثم انتى لن أحسن شرحه كما ينبغى .

قالت ليزا :

- أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذى يعذبك !

قال أليوشا حالماً مفكراً :

- نعم ، هناك أخواى أيضا !

قالت ليزا فجأة :

- أنا لا أحب أذاك ايفان يا أليوشا •

استقبل أليوشا هذا التصريح بشئ من الدهشة • وتابع كلامه

يقول :

- أخواى يسيران الى الضياع ، وكذلك أبى • وهم يجربون الى الشقاء كائنات أخرى • انهم ألعوبة فى يدي « القوة الخفية الغامضة التى تحرك آل كارامازوف » ، كما قال الأب بائسى فى الآونة الأخيرة ••• هى قوة خفية ، عارمة ، لا يمكن السيطرة عليها والتحكم به ••• حتى أنى لست واثقا من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة ••• ولكنى أعلم أننى واحد من آل كارامازوف ، أنا أيضا • أنا فى الظاهر راهب • فهل أنا راهب حقاً يا ليزا ؟ لقد قلت منذ هنيهة اننى راهب •••

- نعم قلت ذلك ••

- راهب ••• ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله •••

- أأنت لا تؤمن بالله ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك سألته ليزا قلقة محاذرة بصوت خافت •

ولكن أليوشا لم يرد • ان هذا القول الذى أفلتت من لسنه يعبر عن فكرة توى فى قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفسه أن يستينها ، ولكنها كانت تعذبه ما فى ذلك ريب • وتابع أليوشا كلامه :

- وفوق ذلك كله ، هذا هو يموت ••• ان الانسان الذى أعده

خير انسان فى هذا العالم سيأرح الأرض • آه ! ليزا ! لو علمت مدى

تعلقى بهذا الانسان ، ومدى شعورى بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له !
 ... سوف أكون بعد اليوم وحيداً ... سأجىء اليك كثيراً يا ليزا ...
 لن نفرق بعد الآن ...

- نعم سيظل كل منا قرب الآخر . سنكون متحدين مدى الحياة ،
 متحدين الى الأبد ... أليوشا ، قبلنى الآن ... اسمح لك الآن بأن
 تقبلنى .

قبلها أليوشا .

- والآن اذهب . كان المسيح معك . (قالت ذلك وهى ترسم عليه
 اشارة الصليب) . أدركه « هو » قبل أن يموت . الآن أفهم أنتى
 أضعت لك وقتاً ثميناً . سأصلى له ولك اليوم . أليوشا ، سنكون سعيدين ،
 سنكون سعيدين ، أليس كذلك ؟
 - أعتقد يا ليزا .

لم ير أليوشا ، حين خرج من عند ليزا ، أن من الضرورى أن
 يذهب أولاً الى السيدة هوخلاكوفا ، وانما تأهب لمغادرة المنزل دون أن
 يودعها . ولكنه ما ان فتح باب البيت وخطا خطوة على السلم حتى
 انبجست السيدة هوخلاكوفا أمامه . فأدرك أليوشا فوراً أنها كانت تترقب
 انصرافه .

- هذا قطع يا ألكسى فيدوروفتش ! هذه أمور صيانية ، هذه
 سخافات وحماقات . أأمل أن لا تحمل أقوال ابنتى على محمل العبد ،
 وأن لا تهدهد أوهاماً وأحلاماً ! يا للحماقة ! يا للحماقة !
 كذلك أخذت تردد وقد لاح عليها أنها تُدينه . فقال لها أليوشا :
 - لا تقولى هذا الكلام لها على الأقل ، والا اضطربت اضطراباً
 شديداً وساءت حالها كثيراً .

- هذا أخيراً كلام متزن يبرهن لى على أنك شاب عاقل • هل أفهم من كلامك هذا أنك انما وافقتنا اشفاقاً على حالتها ، حتى لا تثير بمعارضتك حقها ؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

- لا بل كنت جاداً فى حديثى معها كل الجد •

- لا شأن للجد هنا • هذا شىء لا يمكن تصوره ، لا يمكن تخيله ! اعلم أولاً اننى لن أستقبلك بعد اليوم فى منزلى ، واعلم ثانياً اننى سأسافر من هذه المدينة مبتعدةً بابتى • هل فهمت ؟

قال أليوشا :

- فيم تقلقن هذا القلق كله ؟ انما الأمر أمر مشروع ما يزال تحقيقه بعيداً جداً • لا بد أن تنتظر سنة ونصفاً على الأقل •

- لعلك على حق يا ألكسى فيدوروفتش • فالى ذلك الحين يتسع الوقت للتشجر معها والانفصال عنها مائة مرة • آه ••• ما أشقائى ! ما أشقائى ! صحيح أن هذا كله صيانيات ، ولكننى صعدت حقاً • أنا الآن فى موقف فاموسوف فى آخر مشاهد المسرحية الهزيلة * • أما تشاتسكى فانت ، وأما صوفيا فهى • انظر الى هذا التطابق • لقد رابطت على السلم لأنتظرك • وفى تلك المسرحية الهزيلة حدثت جميع المصائب على السلم أيضاً • سمعت كل شىء • وتجلدت تجلداً شديداً حتى أستطيع أن أسيطر على نفسى • هذا هو اذن سرُّ الأرق الرهيب فى الليل وسرُّ نوبات الهستيريا بالأمس ! البنت عاشقة • ولم يبق للأُم الا أن تموت ! هو قبرى اذن يهياً ! أجب عن سؤالى الثانى الآن وهو أهم : ما تلك الرسالة التى تحدثما عنها ؟ هل كتبت اليك رسالة ؟ أرنيها فوراً ! اننى أطالبك بذلك وأصر •

- لا تلحني . والأفضل من هذا أن تقول لي كيف حال كاترين
ايفانوفنا الآن . انني أحرص على معرفة ذلك .

- ما زالت تهذي . لم تستردّ حواسها بعد . وعمّتها معها ،
ما تنفكان تنفجسان وثّان وتصطمان مظاهر الأبهة . أما الدكتور
هرتسنشتوبه فقد وصل ، ولكنه بلغ من الذعر أنني أصبحت لا أعرف
ماذا يجب عليّ أن أعمل لأهديء روعه . حتى لقد خطر ببالي أن أستدعي
طيبيا له . وجيء بالطبيب في عربتي . ثم هأنذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة
هذه الرسالة ، تمةً للشقاء والبلاء ! صحيح أن هناك ثمانية عشر شهرا
... ولكنني أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك ، أستحلفك
بشيخك المحتضر ، أن تريني هذه الرسالة يا ألكسي فيدوروفتش . أرنى
الرسالة ، أرنها أنا ، أنا أم ليزا . امسكها بأصابعك اذا شئت ، فلن
آخذها ، وانما أقرؤها من بعيد .

- لا يا كاترين أوسيوفنا ، لن أريك الرسالة . لا جدوى من
الالاحاح . لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لي هي بذلك . سأعود غدا ،
فاذا شئت ناقشنا جميع المشاكل . أما الآن فالى اللقاء .

قال أليوشا ذلك ، وهبط السلم راكضا ، فخرج الى الشارع .

قيثارة سمردياكوف



يُغْذُّ الخُطى • فحين ودَّعَ ليزا كانت قد برقت
 فى ذهنه فكرة عن الطريقة التى يستطيع بها أن
 يفاسجى أخاه دمترى الذى كان واضحا أنه
 يحاول أن يتجنب لقاءه • الوقت متأخر • هى
 الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا • كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود
 الى الدير قرب شيخه المحتضر ، ولكن حاجته الى رؤية أخيه دمترى
 مرة أخرى قد تغلبت أخيرا : ان احساسه بوشك وقوع كارثة ، بوشك
 حدوث أمر رهيب ، يرسخ فى نفسه مزيدا من الرسوخ كلما انقضت
 الساعات • أما ما هى تلك الكارثة التى ستقع ، أما ما هو ذلك الشقاء الذى
 سينزل ، فان ذلك شئ لم يكن يعلمه أليوشا ، لا وكان يستطيع فى تلك
 اللحظة أن يوضح لنفسه ما يريد أن يقوله لأخيه دمترى • « اذا مات
 شيخى المحسن الى أثناء غيابى ، فلن ألوم نفسى فى أقل تقدير ، مدى
 الحياة ، على اننى كان فى وسعى أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت
 أن أفعل ذلك ، وأغفلت واجبى وأسرعت أعود الى مسكنى بأقصى سرعة •
 واننى اذ أفعل الآن ما أفعل انما أطيع أوامر معلمى • »

كانت خطته هى أن يعثر على دمترى فجأة ، متسللاً الى الحديقة
 من خلال السياج الذى سبق أن تخطاه أمس داخلها الى « لكشك » •
 وكان يقول لنفسه : « فان لم أجده ، فسأختبئ فى الجناح دون أن أنبئ »

لا أهل الدار ولا توماس ، ثم انتظرو هـنالك حتى المساء اذا وجب الأمر .
فاذا كان ينوى أن يتربح جروشكا كما فعل أمس ، فربما جاء الى هذا
الكشك ولم يتأخر أليوشا فى وضع خطته بجميع تفاصيلها ،
ولكنه قرر أن يضمها موضع التنفيذ فوراً ، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع
الى الدير فى ذلك اليوم

وقد جرى كل شىء على ماصورته نه نيواته . تخطى السياج فى
موضع غير بعيد عن الموضع الذى تخطاه فيه أمس ، وتسلك الى الجناح
دون أن يراه أحد . وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد . ذلك أن
من الجائز أن يكون أهل الدار وتوماس (فى حالة وجوده بالدار)
منحازين الى صف دمترى ، فقد يمنعونه اذن من دخول الحديقة ، أو
قد يلغون دمترى وصوله فى الوقت المناسب ، تنفيذاً لتعليمات دمترى
نفسه . لم يكن فى الحديقة أحد . جلس أليوشا فى مكان الأمس
وانتظر . ونظر الى الكشك فبدأ له أكثر تداعياً مما بدا له كذلك فى
اليوم السابق ، وأحدث فى نفسه شعوراً بالشقاء . ولكن النهار كان
مضيئاً مشمساً كما كان يوم زيارته الأولى . وعلى المائدة الخضراء ترى
علامة مستديرة خلفها قدح الكونياك الذى لعله صُدم أثناء المناقشة .
وساورت أليوشا خواطر نافهة كثيرة لا صلة لها بالظروف الراهنة ، كما
يحدث عامة أثناء انتظار مضجر ممل . تساءل مثلاً : لماذا جلس فى
المكان نفسه الذى جلس فيه بالأمس ، ولم يجلس فى مكان آخر .
واجتاحه شيئاً فشيئاً حزن كبير مردّه الى قلة التأكد وشدة القلق . وبعد
أن مكث هـنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك ، سمع ألحان قشادة
تنطلق قريبة منه . لا شك أن أحداً كان متلبساً فى الغابة الصغيرة على
مسافة عشرين خطوة فى أكثر تقدير ، أو أن أحداً وصل الى ذلك المكان
منذ برهة قصيرة . وتذكر أليوشا فجأة أنه حين ترك أخاه أمس ، وابتمد

عن « الكشك » قد لمح على اليسار قرب الحجز دكة ريفية قديمة غائرة في الأدغال . فهنالك اذن لا بد أن يكون قد جلس الواصل أو الواصلون . ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون ؟ وهذا رجل ينطلق في تلك اللحظة مضيّاً أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثارة (ان الصوت صوت مترقق من طبقة التنور ، عامي^٢ النبرات) :

بقوة عظيمة أنجلب *
الى الجميلة التي لا تغلب
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

وصمت الصوت ذو الشيات العامة . وهذا صوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً في غنج ودلال :

— لماذا لا تجيء إلينا الا نادرا يا بافل فيدوروفتش ؟ أأنت تكره صحبتنا ؟

فقال صوت الرجل في تأدب ، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئا من ارادة تأكيد الرصانة والوقار والتفوق :

— لا ... لا ...

كان واضحا أن الرجل مسيطر على الموقف ، في حين أن المرأة تبدو مستعجلة . قال أليوشا لنفسه : « ولكن هذا سمردياكوف ! هذا صوته على الأقل . أما المرأة فأخيل أنها ابنة صاحب الدار ، التي رجعت من موسكو في الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل ، والتي تجيء كل يوم الى مارفا اجناتقنا التماسا لشيء من حساء .. » .

وعاد صوت المرأة يقول :

- اننى أعبد الأشعار ، ولا سيما اذا كانت متسقة متناغمة • لماذا توقفت عن الغناء ؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه :

تاج الملوك هين فى نفسى
هادمت أحظى بصديقة أنسى
وفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

قال صوت المرأة :

- غنيتها فى المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن • كنت فى المرة الماضية تقول : « صديقة أنسى العذبة » ، فكان ذلك أرق عاطفة • هل نسيت ؟

فقال سمردياكوف بلمهجة قاطعة :

- ما الأشعار الا سخف وحمافة !

- أوه ! لا ••• أنا أحب الأشعار كثيرا •

- الشعر هزل لا جد • اقضى فى الأمر بنفسك : من ذا الذى يتكلم فى هذا العالم مقفياً ؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً ، بأمر صادر عن السلطات مثلاً ، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها • لا ••• صدقيني يا ماريا كوندرايتفنا : ما الشعر الا كذب وتصنع !

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلاً وقد ازداد غنجاً ودلالاً :

- ما أذكرك ! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافة ؟

- كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك ، وأن أصبح أوسع ثقافة وأغزر علماً ، لو أن القدر لم يحاربني منذ المهد . كن يملئني أن أفتلي في مبارزة بالسيف ذلك الذي قد يصفني بأنني امرؤ جلف لأنني ليس لي أب ، ولأن أمي امرأة تنه * . لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو ، حيث شاع سر مولدي بفضل جريجوري فسيفتش . ان جريجوري فسيفتش يعيب على تمردي على ميلادي . وقد قال في معرض حديثه عن أمي : « لقد مزقت لها أحشاءها . » . انني أسلم بذلك ، ولكنني كنت أوتر أن أقتل في بطنها على أن أجيء الى هذا العالم . ان الناس يتناقلون في السوق (وقد ظننت أمك ، لقلعة لباقتها ، ان من واجبها أن تقول لي ذلك أيضا) أن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر ، وأن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام . وكانت أمك تمط أحرف المد وهي تكلمني ، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جدا على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس ؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفتها . ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك) . هل يستطيع الموجيك أن يشعر بمواطن نحو رجل مثقف ؟ انه أجهل من أن يشعر بأي شيء . انني حين أسمع أحرف المد تمط هذا المط أتمنى لو أعلم رأيي بجدار . وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي ! أوه ! انني أكره روسيا يا ماريا كوندراتفنا .

- لو كنت ضابطاً أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير ، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا .
- لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا ، بل ان من رأيي الغاء الجيش أصلاً .

— فمن يدافع عنا اذن اذا هاجمنا ، لمدو ؟
 — لا داعى الى الدفاع • فى عام ١٨١٢ غزا امبراطور الفرنسيين ،
 نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى * ، غزا روسيا ، فلو قد تم نه
 الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى ، وحظاً عظيماً ؛ لأن أمة ذكية
 تُخضع لنفسها عندئذ أمة غبية ، وتلحقها بها • فلو قد تم تحقيق ذلك
 اذن لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف •

— كأنهم خير منا ! ... ألا اتنى لأرفض أن أستبدل بشاب واحد
 من شبانا الحسان ثلاثة رجال من الانجليز ...

كذلك هفت تقول ماريا كوندرا تفنا بأرق صوت وأعذب نغمة •
 ولا شك أنها كانت تلقى على صاحبها عندئذ نظرات تفيض حباً
 وحناناً •

قال الرجل :

— المسألة مسألة ذوق !

— هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبية ، أجنبي نبيل جداً • أعترف لك
 بهذا دون أن أحمر خجلاً •

— هل تريد أن أقول لك الحقيقة ؟ انهم جميعا سواسية من ناحية
 التحلل من الأخلاق ، أجنب كانوا أم روساً • هم جميعا أوغاد أوباش ،
 مع فارق واحد هو أنهم هناك يمتلكون أحمذية ملمعة ، فى حين أن أهلنا
 الحفاة هنا قانون بئسهم التن ، لا يجدون فيه ضيراً • إن الشعب الروسى
 يستحق أن يُجلد • لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا
 الكلام ، رغم أنه مجنون ، هو وأبناؤه جميعا •

— ولكن سبق لك أن قلت انك تحترم ايفان فيدوروفتش احتراماً
 كبيراً •

- ذلك لم يمنعه من أن يصفى بأتى خادم نذل • هو يتخيل أتى واحد من أولئك المتمردين • ولكنه مخطئ • لو ملكت قدراً كافياً من المال ، اذن لسافرت منذ زمن طويل • أما دمترى فيدوروفتش فهو شر من خادم ، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه • هذا رجل لا خير فيه ، ولا يصلح لشيء • ومع ذلك يحترمه جميع الناس • أنا أعلم أتى لست الا طباحاً فاشلاً ، ولكن لو أوتيت شيئاً من حظ فسوف أفتح « مقهى مطعماً » بموسكو ، فى شارع بتروفكا • اتنى أجيد اعداد أطباق حسب الطلب ، وما من أحد من زملائى قادر على ذلك ، الا الأجانب • ودمترى فيدوروفتش هذا ليس الا انساناً دنيئاً ، ومع ذلك لو طلب الى المباراة أنبل أبناء أحد الكونتات ، لرضى هذا أن يبارزه • فيم هو يفضل غيره ؟ انه أقل منى ذكاء ! وما أكثر ما أتلغ من مال فى سبيل حماقات وترهات ! ...

قالت ماريا كوندراشفنا :

- لا بد أن المباراة شيء جميل جداً •

- لماذا ؟

- هى خطيرة جداً وتحتاج الى شجاعة ، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات فى سبيل سيدة ! ما أروع من منظر ! لو كانت تقبل فتيات فى مشاهدة مباراة ، لو هبت أى شيء فى سبيل أن أشهد مباراة •

- المباراة ممتعة حين يسدّد المرء بنفسه ، أما حين يكون الآخر هو الذى يسدّد اليك ، فالأمر يصبح عندئذ كريهاً ، وربما تهرين ياماريا كوندراشفنا •

- أتخاف أنت فى مثل هذه الحالة ؟

لم يتأزل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها • وبعد برهة من الوقت
سُمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترق من طبقة التينور يصدح
مغنياً :

سأرحل مهما أكابد
فانى سئمت العذابا •
سيبهجنى ان أعيش بعيدا
امتع نفسى وأحيا سعيدا
حياة العواصم •
فلا شيء يمسكنى ها هنا
ولست بيباك عليك كذلك
ولست بيباك على أى شيء ••

وفى تلك اللحظة حدث شيء ليس فى الحسبان : لقد عطس أليوشا
فجأة • فسرعان ما صمت الأصوات • فنهض أليوشا عن مكانه وانجه
نحو الدكة • الرجل هو سمردياكوف فعلاً ، شبابه الجميلة ، وحذاءيه
- الملمعين ، وشعره المدهن حتى وكأنه مجعد • كان قد وضع القيثارة على
الدكة • والمرأة الشابة هى ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار • انها
ترتدى ثوباً أزرق فاتحاً ذا ذيل طويل جداً • وكان يمكن أن تبدو جميلة
لولا تلك البقع الحمراء البشعة فى وجهها المسرف فى الاستدارة •
سأل أليوشا بلهجة هادئة وهو يحاول أن يسبق على سؤاله مظهر
سؤال بسيط لا قيمة له :

- هل سيأتى أخى دمترى الى هنا بعد قليل ؟
فنهض سمردياكوف بدون تعجل ، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا •
- أتنى لى أن أعرف ما يفعله دمترى فيدوروفتش ؟ اننى لم أكلف
بحراسته فيما أعلم •••

كذلك أجاب سمردياكوف مقطّعا ألفاظه دون أن يرفع صوته ،
وقد بدا في وجهه الاهمال .

فقال أليوشا شارحا :

- انما سألتك لتجيبني اذا كنت تعلم .

- أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن ، ولا أحرص على أن
أعرف ...

- لكن أخى أسرّ الى أنك تطلعه على كل ما يحدث فى الدار ،
وأنتك وعدته ببلاغه عن مجيء آجرافين ألكسندروفنا .

فرفع سمردياكوف بصره الى أليوشا ببطء دون أن يضطرب . ثم
قال وهو يحدّق الى أليوشا ويتفرس فيه :

- هل يمكننى أن أسألك أنا أيضا كيف فعلت حتى استطعت أن
تدخل الى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بلمفتاح منذ أكثر من ساعة ؟

قال أليوشا :

- مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل الى الكشك رأسا .

ثم أضاف يقول مخاطبا ماريّا كوندراتفنا :

- أرجو أن لا تؤاخذينى على عدم تحرجى . لقد كنت أحرص على
أن أرى أخى بأقصى سرعة .

فأجابت المرأة الشابة تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحا
أن اعتذار أليوشا اليها قد سرها كثيرا :

- كيف أوأخذك ؟ ان دمترى فيدوروفتش يسلك هذا الطريق

نفسه لبلوغ الكشك ، فما ان نلاحظ وصوله حتى يكون قد استقر فيه .

- لا بد لى أن أراه حتماً . اننى أبحث عنه فى كل مكان . ألا تستطيعين أن تقولى لى أين يمكننى أن أعثر عليه الآن ؟ ان الأمر أمر مسألة تهمة كثيرا .

فتمتت المرأة ، الشابة تقول :

- انه لا يطلعنا على تنقلاته .

واستأنف سرد دياكوف كلامه فقال :

- اننى أجبىء الى هنا زائراً ، فإذا هو يلاحقنى حتى الى هذا المكان ليسألنى عن أخبار سيدى . لقد طالبنى بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه ، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها ، وكل ما يمكننى أن أطلع عليه من أمور أخرى . حتى لقد هدّنى بالقتل مرتين !

- بالقتل ؟ لماذا ؟

- انه ، بما له من طبع خاص ، لا يتورع عن شئ ولقد أتبع لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال . لقد أنذرنى بأن عاقبتى ستكون وخيمة اذا أنا تركت لأجرافين ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضى ليلةً فى الدار . اننى أخافه وأخشاه ، ولولا أنه يثير فى نفسى هذا الجزع كله اذن لأبليت، عنه السلطات . الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله دمترى فيدوروفتش !

وأضاف ماريّا كوندراتفنا تقول :

- وقد صرّح له منذ أيام بأنه سيسحقه بالهاون سحقاً ، ويدقه دقاً

قال أليوشا :

— لئن تكلم عن الهساون ، فليس الأمر بالجد . ليتنى أستطيع أن أعرّ عليه الآن ، اذن لقلت له كلمةً عن هذه التهديدات أيضاً .

قل سمردياكوف وكأنه قد غيّر رأيه فجأة :

— اليك المعلومات الوحيدة التى أستطيع أن أنهىها اليك . اتنى أجيء الى هنا كصديق قديم ، ولم لا أزور جيرانا ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ايفان فيدوروفتش قد أرسلنى فى ساعة مبكرة من هذا الصباح الى أخيك فى « شارع البحيرة » . لقد كلفنى ، دون أن يحملنى رسالة مكتوبة ، بأن أعلم دمترى فيدوروفتش جهاراً أنه يرجو ملحقاً أن يجيء لتناول طعام الغداء معه فى الكاباريه الذى يقع فى الميدان . لم أجد دمترى فيدوروفتش فى مسكنه . كانت الساعة هى الثامنة صباحاً . وقالت لى صاحبتا المنزل « ان دمترى فيدوروفتش قد خرج » . أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه . من الجائز جداً أن يكون أخوك دمترى فيدوروفتش الآن فى ذلك الكاباريه مع ايفان فيدوروفتش ، لأن ايفان لم يرجع الى المنزل للغداء . أما فيدور بافلوفتش فقد تفتدى أخيراً منذ ساعة ، ولا يد أنه الآن يُقيل . أتوسل اليك مع ذلك أن لا تحدث أخاك عنى ، وأن لا تقول له اتنى ذكرت لك هذه المعلومات . فلتقد يقتلنى اذا هو عرف ذلك !

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيداً من التأكد :

— هل ضرب ايفان موعداً لدمترى فيدوروفتش فى الكاباريه ؟

— تماماً .

— أهو كاباريه « العاصمة الكبرى » الذى يقع فى الميدان ؟

- هو نفسه •

هتف أليوشا يقول وقد ألمَّ به انفعال شديد :

- جائز جدا • شكرا يا سمردياكوف • هذه معلومات ثمينة •

سأذهب الى هناك فوراً •

قال سمردياكوف ملحاً :

- اياك أن تفضحنى !

- لا تخف • سأظاهر بأننى دخلت الكاباريه مصادفةً •

وبينما كان أليوشا يتجه نحو السياج ، هتفت ماريا كوندراتفنا

قائلة :

- الى أين أنت ذاهب ؟ سأفتح لك باب البستان •

- لا داعى الى ذلك • من هنا أقرب • سأخطى السياج •

أحدث هذا النبأ فى أليوشا أثراً قويا • وأسرع متجهاً الى الكاباريه •

ليس من الحشمة طبعاً أن يدخل أليوشا الكاباريه وهو فى مسوح راهب •

ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة ، وأن

يستدعيهما اليه على السلم • وانه ليقترّب من مبنى الكاباريه اذا بايفان

يناديه سائلاً :

- هل تستطيع أن تجيئنى الى هنا يا أليوشا ؟

- طبعاً • ولكننى أخرج من الدخول بثوبى هذا •

- أنا فى حجرة خصة • تعال الى السلم المداخل ، فألتقاك هناك •

وبعد دقيقة ، كان أليوشا يجلس الى جانب أخيه • لقد كان ايفان

وحيداً ، وكان يتناول غداءه •

الأخوة يتعارفون



يكن ايغان يحد حجرة خاصة بمعنى الكلمة •
وانما كان جالساً قرب النافذة في ركن تغزله عن
الصالة حواجز • فلاشخاص الذين يجلسون
في هذا المكان الخاص لا يراهم رؤاد الكاباريه
الآخرون • هي قاعة مدخل تفضي الى الصالات التي بعدها ، قد نصب
« بوفيه » أمام جدارها الجانبي • والخدم يجتازون هذه القاعة في كل
لحظة • ولم يكن في القاعة حينذاك الا زبون واحد هو ضابط محال على
التقاعد كان يحتسى الشاي • ولا كذلك الصالات الأخرى فهي تزخر
بما تزخر بها أمثال هذه الأماكن عادةً من نداءات عالية ، وصرخات
فرحة ، وقرقعات الزجاجات التي تُفتح ، وطقطقات الكرات على مائدة
البلياردو ، مع أصوات أرغن بربارى تشق هذه الجلبة كلها •

كان أليوشا يعلم أن أخاه ايغان لا يكاد يرتاد هذا الكاباريه أبداً ،
لأنه لا يحب جو الأماكن التي من هذا النوع على وجه العموم • فقال
أليوشا لنفسه : « فانما هو جاء اذن ليلقى دمترى ، ولكن دمترى لم يلب »
دعوته • •

قال ايغان وكان يبدو سعيدا بحضور أليوشا :

- هل تريد أن أمر لك بحساء سمك ؟ يخيّل الى أنك لا تتفدى بالشأى وحده !

وكان ايفان قد فرغ من تناول طعامه ، فهو الآن يحسو فنجاناً من الشأى • أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً :

- يسرنى أن أصيب طبقاً من حساء السمك ؟ واطلب لى كذلك شاياً ، فأننى جائع •

- فما قولك اذن بشئ من مربب الكرز ؟ ان عندهم هنا مربب كرز • وعهدى بك أنك كنت تحب هذا المربب فى الماضى حين كنت صغيراً وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف • أما تزال تذكر هذا ؟

- أأنت تذكره اذن يا ايفان ؟ موافق على المربب ، فتنى ما أزال أحبه كما كنت أحبه فى الماضى •

نادى ايفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك ، وبشأى ، وبمربب كرز •

- اننى أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحادية عشرة من عمرك • وكنت أنا عندئذ فى الخامسة عشرة • ما كان يمكن أن تمنقذ أواصر رفاقة بين أخوين فى ذلك العمر اذا كانت تفصل بينهما أربع سنين • ولست على يقين من أننى أحيتك فى ذلك الأوان • وبعد سفرى من موسكو لم تخطر ببالى قط أثناء السنين الأولى • حتى اذا جئت بعد ذلك الى موسكو أنت أيضاً ، لم أصادفك الا مرة واحدة لا أدرى أين ! وهأنذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، دون أن يتاح لنا أن تبادل حديثاً حقيقياً مرة واحدة • وانى مسافر غداً ، لذلك تساءلت منذ لحظات : « ترى أين يمكن أن أجده لأودعه ! » وفيما أنا أتساءل هذا التساؤل لمحتك من النافذة •

- أكنت تحرص حرصا كبيرا على أن ترانى اذن ؟

- نعم ، حرصا كبيرا • انتى أود أن أعرفك مرة ، وأن تصرفنى كذلك مزيدا من المعرفة • ان أفضل لحظة للتعارف هى فى رأى اللحظة التى تسبق الفراق • لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة • كان فى عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر ، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله • لذلك لم أحاول أن أقرب منك • ولكننى تعلمت أن أحترمك • قلت لنفسى : « ما يزال الرجل الصغير ثابتا على مواقفه » • انتى أمزح قليلا ، ولكننى أتكلم الآن جاداً • أنت فتى ثابت جدا ، أليس هذا صحيحا ؟ وأنا امرؤ يجب الثبات كيف ظهر وأين ظهر ، حتى لدى صية صفار مثلك • لهذا أصبحت نظراتك التى تعبر عن الانتظار والتوقع لا تسوئنى ولا تفترنى ، حتى لقد أصبحت محببةً الى ... يبدو لى أنك تحبنى يا ألبوشا ، أليس كذلك ؟

- أحبك يا ايفان • دمترى يصفك بأنك « قبر » ، أما أنا فأقول انك لفرز • ولم أستطع أن أحل هذ اللغز حتى الآن • هناك نقطة مع ذلك أحسب أننى أبصرتها واضحةً فى نفسك ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب •

سأله ايفان ضاحكاً :

- فما هى ؟

- أنى تغضب ؟

- طبعاً لا ...

- اذن فعلم أنتى اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم فى الثالثة والعشرين من أعمارهم ، تزخر فتوة ونضارة وغفوية مثلهم ، ويموزك النضج كما يموزهم ، أى ... هل كدرك قولى هذا كثيراً ؟

- بالعكس ! بل أدهشنى صدق رأيك ، وهو يتفق ورأى . لقد كنت منذ لقائنا فى هذا الصباح أفكر فى هذا الجانب من طبيعتى ، فى هذا الفتوة العارمة الجامعة التى تزخر بها سنتى الثالثة والعشرون ، فإذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة ! ... هل تعلم بماذا كنت أحدثت نفسى قبل وصولك ؟ كنت أقول لنفسى : مهما تخيَّب الحياة ضئى ، ومهما أفقد إيمانى بالمرأة التى أحبها ، ومهما أقتنع بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان ، فلن يغير هذا من الأمر شيئاً ... قد أغوص فى جميع وهاد اليأس الانسانى ، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شئ . • أود لو أعب كأس الحياة متلذذاً حتى الثمالة ، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه . ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمى الكأس قبل نفاذه ، ثم أمضى ... الى أين ؟ لا أدرى بعد ... أما حتى ذلك الحين ، أى الى أن أبلغ الثلاثين ، فإن الشباب سيتنصر على كل شئ . - أنا واثق من هذا - سيتنصر على تبديد الأحلام وعلى مشاعر الاشتزاز . لقد تساءلت مرارا : « هل فى هذا العالم يأس يمكن أن يخلق فى نفسى هذا الظمأ الى الحياة ، هذا الظمأ المسعور الذى قد لا يكون لائقاً ؟ » . وانتهيت الى الاعتقاد بأن لا ، ولكن حتى الثلاثين من عمرى فحسب ، ثم أزهده وأعف من تلقاء نفسى بعد ذلك ... فيما أظن ... ان الواعظين بالأخلاق ، المصدرين الحزائى ، وكذلك الشمرء ، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعفة هذا الحب الحارَّ للحياة . ويجب أن نتعرف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف ارادةُ الحياة هذه بأى ثمن . لا بد أن تكون هذه الارادة قائمة فيك أنت أيضاً . ولكن لماذا توصف بالجبن والضعفة ؟ ان القوة الصادرة عن المركز لم تنفذ فى كوكبنا السيَّار هذا يا ألبوشا . الحياة ممتعة ، وإنى لأحيا ولو على خلاف كل منطق . أنا لا أومن بقيمة النظام الذى يحكم العالم . لنسلم بهذا .

ولكننى أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع فى الربيع * ،
وأحب السماء الزرقاء ، وأحب أيضا دون أن أدري لماذا - هل تصدق
ذلك ؟ - أحب أيضا بعض البشر وتهزنى الحماسة لأعمال من أعمال
البطولة الانسانية التى انقطعت مع ذلك عن الايمان بها منذ زمن طويل ،
ولكننى ما زلت أقدسها بحكم عادة عزيزة على نفسى أثيرة فى قلبى .
جاءوك بحساء السمك . كلُّه وتذوقه . انهم يحسنون اعداده هنا .
أنوى أن أسافر الى الخارج يا أليوشا . سأسافر الى الخارج من هنا رأساً .
وانى لأعلم مع ذلك اننى لن أجد هناك الا مقبرة ، ولكننى شديد
الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى . ان كل حجر بذكرنى بسورة جامعة
من سورات الايمان بالحياة ، وبقيمة العمل ، وبالحقيقة ، وبالكفاح ،
وبالعلم أيضا . أوه ! أنا أعلم سلفاً أننى سأرتضى على ركبتيَّ جاثياً أمام
هذه الذكريات الكثيرة ، وأننى سأبكي على أحجار القبور هذه ، وأغمرها
بالقبل ، مع شعورى فى قرارة قلبى بأن ذلك ماضٍ تصرَّم ولن يعود .
على أننى لن أبكى من كرب ويأس ، بل من سعادة الشعور بانسكاب
دموعى . سيسكرنى حزنى وحنانى . اننى أحب البراعم فى الربيع ،
أحب السماء الزرقاء . ليس الأمر أمر عقل ومنطق . ان حب الحياة
ينبجس من أرحامى ، وان قوى شبابى التى لم تضعف ولم تهين ولم
يمسسها سوء هى التى أحبها هذا الحب . أأنت تفهم شيئاً من هذه
المعانيات يا صغيرى أليوشا ؟ هه ؟

ألقى ايفان هذا السؤال وهو يضحك . فأجابه أليوشا بقوله :

- أفهماها جداً يا ايفان ، أفهماها أكثر مما يجب ! من قرارة الأرحام
انما ينبع حب الحياة ؛ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة . وانى لأبتهج
لك كثيراً حين أراك راغباً فى الحياة رغبة قوية هذه القوة .
كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف :

- وعندى أن على كل انسان فى هذا العالم أن يتعلم حب الحياة قبل كل شئ .

- حب الحياة لا محاولة فهمها ؟

- نعم ، حب الحياة ، دون اكتراث بالمنطق ، كما قلت أنت . وبهذا وحده انما يصل الانسان الى اكتشاف معنى الحياة . أنا من جهتى أفكر فى هذا منذ زمن طويل . لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن تحيا ، ولم يبق عليك الا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص والسلامة .

- أنت تهتم بخلاصى وسلامتى ؟ ما كنت أحسب أننى بسبيل الضياع والهلاك . وما هو النصف الثانى فى رأيك ؟

- النصف الثانى هو بعث أولئك الموتى الذين لهم لم يبرحوا الحياة . اعطنى الشئ . اننى سعيد جدا بحديتنا هذا يا إيفان .

- ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلاً . ما أكثر ما أحب « اعترافات الصدق » هذه التى يقولها ... رهبان مبدئون ! أنك رجل ثابت يا أليوشا . هل صحيح أنك تفكر فى ترك الدير ؟

- صحيح ! ان شيخى أمرنى بالذهاب الى العالم .

- سوف نلتقى اذن ، سوف نلتقى اذن فى هذا العالم قبل حلول الثلاثين ، قبل أن أرمى الكأس . أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل أن يبلغ السبعين ، ولعله يحلم أن يعيش ثمانين عاماً ، كما يقول ذلك هو نفسه . انه جاد فى هذا كل الجدة ، مهما يكن مهرجاً . انه يتهالك على اللذة ، ويحسب أنه مقيم عليها اقامته على صخرة وطيدة ... صحيح أن الانسان لا يبقى له بعد الثلاثين شئ غير اللذة ... ولكن الحياة على

على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت • فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين • وبذلك يستطيع أن يحافظ على « مظهر نبل » في أقل تقدير ، كاذباً على نفسه • هل رأيت دمتري اليوم ؟

- لا ... ولكنني رأيت سمردياكوف •

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعة تفاصيل لقائه بالخدام • فكان إيفان يصفى إليه وقد اكسى وجهه تعباً عن الهمّ والقلق على حين فجأة ، حتى أنه استوضح أليوشا بمض النقاط •

وأضاف أليوشا قوله :

- وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمتري شيئاً مما أسرّ به إليّ •

فقطب إيفان حاجبيه ، ووجم يفكر لحظة •

سأله أليوشا :

- أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج ؟

- نعم ، بسببه • شيطان يأخذه على كل حال !... •

ثم أضاف يقول كأنما على مضض :

- حقاً لقد كنت أرغب في أن أرى دمتري ، ولكن لم تبق بي حاجة

إلى ذلك الآن •

- هل تنوى أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً ؟

- نعم •

فسأله أليوشا قلقاً :

- ما عسى يصير إليه حال دمترى والأب ؟ ترى كيف ينتهى هذا الأمر كله ؟

- انك ما تفتأ تعود الى هذا الموضوع ! فيم يعنينى نزاعهما ؟ أنا حارس لأخيكَ ؟

كذلك أجاب ايفان بلهجة حائقة ، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه ، فابتسم ابتسامة مرة وقال :

- ذلك جواب قابيل لله عن الأخ الذى قتله قابيل ، أليس هذا ما خطر ببالك فى هذه اللحظة ؟ الى جهنم على كل حال ! ... أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأراقبهما ! لقد أنهيت أعمالى ، وسأسافر . أتراك تتخيل أننى غيور من دمترى ، واننى حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أترزع منه جميلته كاترين ايفانوفنا ؟ دعك من هذا ! لقد كانت لى أنا شئونى وأعمالى . وقد أنجزتها فسأسافر . أنجزتها فى هذا الصباح ، وكنت أنت شاهدا عليها .

- هل تعنى ذلك الحديث الذى جرى بينك وبين كاترين ايفانوفنا ؟

- نعم . لقد قطعت صلتى بها دفعة واحدة . أليس هذا طبيعيا جدا ؟ فيم يهمنى دمترى ؟ انه لا شأن له بهذا الأمر ، ولا دخل له فيه . كانت علاقاتى بكاترين ايفانوفنا شأنا خاصا بى . ثم انك تصرف أنت نفسك أن دمترى قد تصرف فى هذا الأمر كله تصرف متواطىء معى . أنا لم أطلب منه شيئا ، وإنما هو تركها لى من تلقاء نفسه ، وزاد على ذلك فبارك . لكنّها تمثيلية . أف ... ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعورى بالتخفف الآن ! حين كنت أتناول غدائى منذ قليل هنا ، اشتبهتُ أن أطلب شيئا من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حررتى التى عادت الىّ . حين أفكر فى هذا الأمر ... آه ... لقد دام ستة أشهر ، وهأنذا

أُحرر دفعةً واحدة • حتى أمس ، ما كنت لأتخيل أنني سأستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت !

- أعن حبك تتكلم يا إيفان ؟

- عن الحب أتكلم ان شئت أن تستعمل هذا التعبير • لقد عشقت آنسة من الآنسات ، فتاةً هي طالبة في مدرسة داخلية ؟ قتألت ، وجعلتني هي أتألم • وكنت أحسب أنني مشدود إليها ... ثم اذا بكل شيء يتبدد في طرفة عين • في هذا الصباح كنت أكلهما مستههماً ، حني اذا صرت في الشارع انطلقت أضحك ضحكا مجلجلا ، هل تصدق هذا ؟ تلك هي الحقيقة بعينها مع ذلك •

قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الهادئ المطمئن :

- أنت حتى في هذه اللحظة تتكلم في الأمر بمرح وحبور •

- كيف كان يمكنني أن أحزر أنني لا أحبها البتة ؟ هاها ! ... ومع ذلك فهذه هي الحقيقة • أنا لا أحبها • وضع هذا الآن • ولكن ما أكثر ما كانت تعجبنى ! في هذا الصباح نفسه ، حين أجريت معها ذلك الحديث ، كنت لا أمل ولا أكل من الاعجاب بها ! وحتى في هذه اللحظة تعجبنى كثيرا ، هل تصدق ؟ ورغم هذا فما كان أسهل تركها على ! أتخسبني أقول هذا الكلام تباهياً وتبجحاً ؟

- لا ... ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً ؟

قال إيفان ضاحكاً :

- يا صغرى أليوشا ، لا تدفع في اصدار آراء في الحب ! ذلك لا يناسب حالتك • انتي أفكر في اندفاعك هذا الصباح يا بني ! أي ... كان ينبغي لي أن أقبلك عندئذ ! ومع ذلك ما أشد ما آلتني وعذبتني ! ...

لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات • أوه ! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها • وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً) ، ولم يكن دمتري الا عذراً لها وتعلّة في سبيل أن تعذب نفسها • ان كل ماقلته لها هو الحق ، هو الحق اطلاقاً • ولكن من المؤسف أنها تحتاج الى خمسة عشر عاماً أو الى عشرين عاماً أخرى - وهذا هو الشيء الأساسي - من أجل أن تدرك أخيراً أنها لا تحب دمتري البتة ، ولا تحب أحداً سواي رغم أنها تؤلني وتعذبني • وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الايام على كل حال ، رغم درس هذا الصباح ! بالمناسبة ، ما الذي صارت اليه ؟ ماذا حدث بعد انصرافي ؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصية التي أملت بهسا ، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها في أغلب الظن ، وأنها ما تزال تهذي •
- لعل هو خلا كوكفا قد بالفت ؟
- لا أظن •

- يجب أن أذهب أستطلع أنباءها • على كل حال ، لا أحد يموت من نوبة عصية !... ولقد يحسن اليها هذا •• قد ينفعها ولا يضرها •• ان الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة: النوبات العصبية • لا ••• لن أذهب اليها ! فيم استئاف الامر ؟

- زعمت لها منذ قليل أنها لم تحبك يوماً •

- زعمت ذلك عامدا يا أليوشا ! سأطلب شيئاً من الشهبانيا فنشرب احتفالاً باستردادى حريتي • ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !
أجابه أليوشا بحرارة قائلاً :

- أخى ، الأفضل أن لا تشرب • اننى أحس بحزن شديد • ثم

ان •••

- أنت حزين منذ زمن طويل ، لقد لاحظت أنا هذا .

- أأنت مصرّ على أن تسافر غداً في الصباح ؟

- لماذا في الصباح ؟ أنا لم أقل اننى مسافر في الصباح ... على أننى قد أفعل . هأنت ذا ترى أننى أصبت غداً هنا حتى لا أدخلوا إلى العجوز على مائدة واحدة ، فالى هذا الحد يثير العجوز اشمئزاًى ... كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده . ولكن لماذا يقلقك سفرى هذا الاقلاق ؟ ما يزال أماناً وقت طويل ، ما يزال أماناً أبداً تقريباً ...

- أيمكن أن أماناً أبداً وأنت مسافر غدا ؟

قال إيفان ضاحكاً :

- قيم يهنا هذا السفر ؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحدث عما يهنا نحن الاثنين ، لأن نتحدث عما جمعنا في هذا المكان . لماذا تنظر الى بهذه الدهشة ؟ ما هو الأمر بالنسبة لنا ؟ أجب ! نحن هنا من أجل أن نتحدث عن الحب ، وعن كاترين والعجوز ودمترى ، وعن ظروف الحياة في الخارج ، وعن أحوال روسيا المتردية وعن الامبراطور نابوليون ؟ نحن هنا من أجل أن نتحدث في هذه الأمور ؟

- لا ... طبعاً ...

- هأنت ذا تدرك بنفسك اذن ما يجمعنا هنا . هناك أناس آخرون يتناقشون في شئون هذا العالم ، أما نحن ، نحن الأغوار البسطاء ، فتريد أن نحلّ أولاً مشكلات الحياة الميتافيزيقية . ذلك هو همتنا نحن شباب روسيا . ان جميع شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة . وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التي قرر الشيوخ

فيها أن يدرسوا المسائل العملية • ما الذى كان يدفعك طموال هذه الأشهر الثلاثة الى أن تنظر الى نظرةٍ فيها ذلك التعبير عن الانتظار ؟ كنت تريد أن تعرف أنا مؤمن أم ملحد ... ذلك ما كان يثوى فى أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر ، أليس هذا صحيحاً يا ألكسى فيدوروفتش ؟

أجاب أليوشا مبتسماً :

— جائر جداً • ولكننى أرجو أن لا تكون فى هذه اللحظة بسيل السخر منى والضحك على يا أخى •

— آنا أسخر ، أنا ؟ ألا اننى لا أحب أن أشجى قلب أخى الصغير الذى يبدو أنه انتظر منى أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة • أليوشا ، انظر الى جيداً • ألسنتى ، أنا أيضاً ، فى صغيراً مثلك ، مع فاروق واحد هو اننى لست راهباً مبتدئاً ؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل ؟ انهم يلتقون فى خمارة تفوح فيها رائحة كريهة كهذه الحجرية ، ويجلسون الى مائدة ... لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن ، وسينكر بعضهم بعضاً من جديد ، بعد اربعين عاماً ، متى خرجوا من الخمارة ! ... فما الذى يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصار التى تتيحها لم المصادفة فى كاباريه ؟ يتناقشون فى الكون وسراً الكون حتماً • هم يتساءلون : هل الله موجود ، وهل النفس خلدة بعد الموت ؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجود الله ، يتناقشون فى الاشتراكية والفوضوية ، وفى إعادة بناء الانسانية بناءً كاملاً على أسس جديدة ، والفريقان كلاهما سواء • فالمشكلات التى يعالجها هؤلاء ، هى المشكلات التى يعالجها أولئك ، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضة • ان عددهم لا يحصى فى بلادنا ، هؤلاء الشباب الروس ، الذين يفيضون

أصالة وطرافة ، والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا الا المسائل الأبدية . ألسنت متفقاً معي في هذا الرأي !

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر إليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة ، كأنما ليشجبه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيداً من الإفصاح :

- حتماً . ان المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التي تعالج من الجهة المعارضة كما قلت ، هي في نظر الروسي الحق ذات خطورة حيوية ، ومن الخير جدا أن تكون كذلك .

- اعلم يا أليوشا أن الروسي لا يلمع دائماً بالذكاء والعقل ، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التي تشغل بال الشبان في روسيا هي أغبي ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور . غير أن بين هؤلاء المراهقين واحداً أحبه كثيراً يا أليوشا .

قال أليوشا ضاحكاً :

- هذه نتيجة بلغت في استخلاصها غاية اللطف .

- بماذا تريد أن تبدأ ؟ انني أترك لك الخيار . هل تريد أن تتكلم عن الله وأن تتساءل أهو موجود أم لا ؟ قل ...

- ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ ، ولو بمعالجة تلك المسائل التي وصفتها بأنها تعالج من « الجهة المعارضة » . ألم تؤكد أمس ، في منزل أينا ، أن الله غير موجود ؟

كذلك سأل أليوشا أخاه ، وهو يحدق إليه متفرساً فيه .

- تمتدت أن أقول ذلك بالأمر لدى العجز لأناكذك وأغيطك ، ورأيت لهياً ينبجس في عينيك . أما الآن فأنا أنسمر بأنني على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الأمر معك ، ولسوف أناقشه جاداً لا هازلاً .

اننى أحب كثيرا أن أفهم معك يا أليوشا ، لأننى لست لى أصدقاء • اننى أحاول أن أقرب منك •

قال :يقان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكا :

- هل تتصور أننى ربما سلّمت بوجود الله ؟ هذا يدهشك ، أليس كذلك ؟

- نعم اللهم الا أن تكون مازحاً من جديد ؟

- مازحاً ؟ لقد أخذوا على ذلك بالأمس ، عند شيخك ، ولكنهم أخطأوا • اسمع يا عزيزى : ان عجزوا آتماً عاش فى القرن الثامن عشر قد قال : « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه » * . والحق ان الانسان قد اخترع الله • وليس أغرب ما فى الأمر ولا أبرزه أن الله لا وجود له فى الواقع ، بل أن هذه الفكرة ، فكرة وجود الله بالضرورة ، قد أمكن أن تثبت فى دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الانسان من توحش وخبث وشر ، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر فى القلب ، وهى فى الوقت نفسه ذكية عاقلة • الحق أن هذه الفكرة تشرف الانسان • أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذى تصور الانسان ، أم الانسان هو الذى تخيل الله • فسأعفى نفسى اذن من فحص البديهيات التى يستند اليها شبابنا الروس فى هذه الأيام والتى يستمدونها فى حقيقة الامر كما هى من الافتراضات التى يفترضها الناس فى البلاد الأوروبية الأخرى • ذلك أن ما هو افتراض لا أكثر ، فى نظر العلماء الأجانب ، سرعان ما يصبح بديهية فى نظر مراقبينا ، بل وفى نظر أساتذتهم الذين لا يفضلون المراقبين سداد رأى وصدق حكم فى كثير من الأحيان • فسأترك جانباً جميع الافتراضات اذن ، وأتساءل ما هى غايتنا الآن على وجه الدقة ؟

أما أنا فانما يهمنى أن أشرح لك طبيعتي بأقصى سرعة ممكنة ، يهمنى أن أفهمك أى إنسان أنا ، وما هو إيماني ، وأين أضع آمالي ؟ لذلك سأقول لك فوراً اننى أسلم بوجود الله دون مناقشة أخرى . ولكننى أحب أن تلاحظ ما يلى : اذا كان الله موجوداً ، واذا كان قد خلق الأرض فعلاً ، فهو انما اتبع فى هذا الخلق ، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة ، قوانين هندسة اقليدس ، ولم يهب للعقل الانسانى الا فكرة مكان ذى ثلاثة أبعاد . ومع ذلك فقد وجد وما يزال يوجد الى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشككون فى أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعم ، مستنداً الى قوانين هندسة قليدس وحدها؛ حتى ليقررون أن الخطين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة اقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض ، يمكن فى الواقع أن يتقاربا ويتلاقيا فى نقطة موجودة فى اللانهاية* . ولقد قلت لنفسى يا عزيزى: اذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة ، فلن أستطيع أن أعرف أى شئ عن مسألة الله ! اننى أعترف فى كثير من التواضع اننى لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأى فى مسائل من هذا النوع ، لأن عقلى اقليدسى قد خلق للأرض ، ومن العبث الذى لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمر ليس من هذا العالم . وانك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا اذا أنت لم تفكر فى هذه الأمور ، واذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود ! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا الى ادراكها ، لأن عقلنا قد خلق لمعرفة مكان ليس له الا ثلاثة أبعاد . ذلك هو السبب فى اننى أسلم بوجود الله . ولست أسلم بوجود الله فحسب ، ولكننى أسلم أيضاً بحكمته العليا وبغاياته ، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات . اننى أوؤمن بوجود نظام كونى شامل يضافى على الحياة معنى ، وأؤمن بانسجام أبدى علينا أن نذوب فيه جميعاً ذات يوم فيما يسدو . أوؤمن « بالكلمة » التى

يتجه إليها الكون ، « الكلمة التي هي الله » ، وهلمَّ جراً إلى غير نهاية .
لقد قيل في هذا المجال كلام كثير مسرف في « الكثرة » . ولكنني على طريق
الصواب ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فاعلم اذن الآن ، ختاماً لكل ماقلة ، أنني
لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله ، ولا أستطيع الموافقة على قبوله ، رغم
علمي بوجوده . لست أرفض الله ... افهمني جيداً ... وإنما أنا أرفض
العالم الذي خلقه ولا أريده . وهأنذا أشرح لك ما أريد قوله : أنني
أؤمن ايماناً جازماً ، كإيمان طفل ، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئاً بعد
شيء وستزول آخر الأمر ، وأن هذه المهزلة الحقيرة ، مهزلة التناقضات
الإنسانية ستبدد تبدد سراب باطل ، تبددَ شيء تافه اخترعه كائن ضعيف
صغير ، وأنها ستبدد تبدد الذرة في ذهن أفليدس . أؤمن بأن حقيقة عليا
ستتبقى في خاتمة المطاف من هذه الحياة ، حين يتأكد الانسجام الأبدي ،
فإذا هي تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدى جميع القلوب ، وتسكن جميع
أنواع الغضب ، وتكفر عن جميع جرائم الإنسانية ، وتقضى كل الدم
الذي سُفح على الأرض . وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء
الإنسانية فحسب ، كائناً ما كانت تلك الأخطاء ، وإنما هي ستسوّغها
فوق ذلك . لنسلم بهذا كله ! ولكن حتى في هذه الحالة ، فأنني لن
أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله ! ألا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتوازية
ولأرها ، فاعترف بأنها التقت ، ولكنني لن أقبل ذلك . تلك طبيعتي
يا ألبوشا ، وذلك إحساسي بالعالم . لقد حدثت حديثاً جاداً كل الجد
في هذه المرة . تمعدت أن أبدأ حديثاً على أغبي نحو ممكن ، ولكنني
قدته إلى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً ، لأن ذلك وحده يهلك . ليس
الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني ، وإنما كنت تريد أن
تسمعي متحدثاً عن نفسي ، بغية أن تعرف ما يدور في نفس أخٍ تحبه .
فهأنث ذا عرفت ذلك الآن .

أنهى إيفان كلامه المطب الطويل بفيض من عاطفة كن يبدو غير متوقع منه .

سأل أليوشا أخاه وهو يلقي عليه نظرة شاردة :

- قل لى : لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا « على أغبى نحو ممكن » ؟

فأجابه إيفان بقوله :

- أولاً لأننى أحببت أن أجارى عادات الناس : فان الأحاديث حول هذا الموضوع فى روسيا غيبة دائماً . وثانياً لأن المرء يكون أقرب الى الحقيقة حين يكون غيباً . ان الغباء يمضى نحو الهدف رأساً ، دون لف ودوران غامضين . الغباء بساطة وإيجاز ، أما الذكاء فمكر ومخاتلة . ان الفكر الذكى فاجر فاسد ، أما الغباء فمستقيم شريف . لقد شرحت لك يأسى ، وعلى قدر ما يكون الشرح غيباً ، يكون الأمر أفضل فى نظرى .

سأله أليوشا مرة أخرى :

- أقول لى لماذا ترفض « قبول الخليفة » ؟

- طبعاً أقول لك . ليس هذا بسر . وأنا انما بدأت هذه المناقشة لأصل منها الى ذلك .

بهذا أجابه إيفان ، ثم أردف يقول وهو يتسم ابتسامة بريئة كمرهق خجول :

- يا أخى الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أصرفك عن إيمانك ، وأن أحوّلك عن اعتقاداتك ... بالعكس ... اتنى أتمنى أنا نفسى أن أشفى وأبرأ بالاتصال بك .

لم يره أليوشا يتسم هذه الابتسامة فى يوم من الايام .

٤ التمرد



ايفان كلامه يقول :

يجب أن أعترف لك بهذا الأمر : اننى لم أستطع
فى يوم من الأيام أن أفهم أن يجب المرء الناس
القريين منه • ففى رأى أن أقرب الناس إلينا
يصعب علينا أن نجهم أكثر مما يصعب علينا
أن نجب غيرهم • ان الانسان لا يجب الا من بعد • لقد قرأت فى
موضع ما أن رجلاً اسمه « يوحنا الرحيم » * (هو قديس من القديسين)
قد تضرع اليه فى ذات يوم متشرداً جائعاً مرتعداً من شدة البرد أن ينجده
ويدفئه • فأضجعه على سريريه وأحاطه بذراعيه ونفخ فى فمه التبن المتفح
المصاب بمرض رهيب • اننى أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعه هذا القديس
مصطنعة ، وأنه لا يقوم بفعله هذا من تلقاء نفسه ، وانما هو يلزم نفسه
به : لزماً باسم حب لا يشعر به ، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير
عن ذنبه ، فهو يعاقب نفسه على افتقادها المحبة • اننا لا نستطيع أن نجب
انساناً الا اذا ظل مختفياً عن نظرنا • فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب •

قال ألبوشا :

— هذه ملاحظة طالما ردّها الشيخ زوسيمّا • كان يقول ان وجه
الانسان يخلق فى كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك
الذين لما يتعلموا بعد أن يحبوا • ومع ذلك فان فى الانسانية كثيراً من

المحبة ؟ ان هناك محبة تكاد تشبه محبة المسيح ... أنا أعرف ذلك بتجربة يا ايفان ...

- جازز • أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه ، وما أكثر الناس الذين يشبهوننى من هذه الناحية ! وإنما السؤال هو : هل يرجع هذا الى خبث القلب الانسانى أم هو قانون طبيعى • وانى لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض • ان المسيح اله ونحن بشر • لنفرض مثلاً اننى قادر على أن أتألم كثيراً • ان من الصعب على شخص آخر غيرى أن يعرف عمق الألم الذى أعانيه ، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخر • ثم انه يعزُّ على المرء دائماً أن يسلِّم بألم غيره (كما لو كان ذلك عزةً وإباءً !) • فهل تعلم لماذا يعزُّ عليه أن يسلِّم بألمى ؟ ربما لأن رائحة فمى كريهة ، أو لأن وجهى غبى ، أو لأننى دست على قدمه فى يوم من الأيام ! على أن الآلام أنواع : فهناك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا ، كالجوع مثلاً ؛ فالناس تحب أن تصدقنا فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام ، ليجعلوا من أنفسهم محسنين لنا بعد ذلك • أما اذا كان الألم أرفع من ذلك درجةً أو درجتين ، اذا كان ألماً نحتمله فى النضال من أجل فكرةٍ مثلاً ، فان الناس يرفضون أن يصدِّقوه ، باستثناء فئة قليلة • وهم لا يصدقونه لأنهم حين يظفروا الى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذى لا بد أن يكون فى نظرهم رأساً من يتألم فى سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها • وهم عندئذ يأتون أن يتعاطفوا معه أى تعاطف ، دون أن يكون فى موقفهم هذا شئ من روح الشر على كل حال • ان على الشحاذين المستعطين ، ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة ، أن يظلوا محتبئين عن الأنظار ، وأن لا يطلبوا الاحسان الا باعلانات ينشرونها فى الجرائد • ان من الممكن أن يحب الانسان الانسان حباً مجرداً ، وأن يحبه فى بعض الأحيان

فعلاً ، ولكن من بعد . أما من قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً . لو كانت الأمور تجرى كما تجرى على المسرح ، فى باليه نرى فيه الشحذين يظهران ، اذا ظهروا ، لا بسين اسمالاً من حرير ومنطّين بتخاريم ممزقة ، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة ، فقد نعجب بهم عندئذ ، نعجب بهم ولكن دون أن نجهم . حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع . لقد كان فى نيتى ان أحدثك عن آلام الانسانية عامة ، ولكننى أحسب أن من الأفضل أن تقتصر على آلام الأطفال وحدهم . ولئن كانت حجتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها ، فانتى أظن أحسب أن هذا أفضل . لسوف تكون المناقشة أقل موثاقاً لى بطبيعة الحال . ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يجهم من قرب ، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وان كنت أعقد أن وجه طفل لا يمكن أبداً أن يكون دميماً) ؟ ثم انتى لا أحب أن أتكلم عن الكبار ، لا لأنهم يعيشون على الاشتزاز ولا يستحقون الحب فحسب ، بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض : فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا « شبيهين بالآلهة » ، وما يزالون يأكلون منها ... أما الأطفال فانهم لما يذوقوا تلك الثمرة ، فبرامتهم ما تزال سليمة لم يمسهما سوء . هل تحب الأطفال يا أليوشا ؟ أحسب أننى أعلم أنك تجهم ، ولسوف تفهم اذن لماذا لن أحدثك الا عنهم . اذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً فى هذا العالم ، فذلك لا يمكن الا أن يكون بذنوب آباؤهم الذين أكلوا التفاحة ، ومن أجل أن يكفروا عن تلك الخطيئة . ألا ان هذا فهم ليس من هذا العالم ، وسنظل قلب الانسان على هذه الأرض عاجزاً عن ادراكه . ان من الظلم أن يعذب أبرياء - أبرياء الى هذه الدرجة من البراءة - لذنوب اقترفه غيرهم . أنا أيضا أحب الأطفال كثيرا يا أليوشا ، تخيل هذا ... سجل هذا ! ان القساة الضواري أصحاب الأهواء الجامحة ، من

أمثال آل كارامازوف ، كثيرا ما يجنون الأطفال • فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صفاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم ، حتى لكانهم يتمنون الى نوع آخر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا • انتى أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً فى أحد السجون • لقد اتفق لهذا اللص أثناء حياته أن قتل أسراً بكاملها فى المنازل التى تسلك إليها ليلاً يسرقها ، فلم يوفر الأطفال ... ومع ذلك استبدت بهذا الرجل أثناء وجوده فى السجن عاطفة قوية نحو الصغار ، فكان يقضى وقته ناظراً من خلال الكوة الى الصبية يلعبون ويتسلون فى ساحة السجن ، واستطاع أخيراً أن يكسب مودة واحد منهم ، فكان هذا يجيء يتحدث معه بغير تخلف وفاقاً تحت الكوة ... لا شك فى أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله ؟ ان بى صداعاً ، وهأنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة •

قال أليوشا قللاً :

- انك تكلم بطريقة عجيبة غريبة ، كأنك لا تملك وعيك كله •

وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه :

- بالمناسبة ... لقد قصّ على بلغارىّ فى الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون فى بلاده بلغاريا الى أنواع شديدة من القسوة بنية ارباب الشعوب السلافية التى يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة • فهم يحرقون القرى ، وينهبون الأرزاق ، ويذبجون السكان ، ويتهكون النساء والأطفال ، ويسمّرون بعض السجناء من أذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون اليهم فى الصباح ليشنقوهم • أمور تفوق الخيال • يقال أحيانا ان الانسان « حيوان كاسر » • ألا ان فى هذا القول اهانةً للحيوانات لا داعى إليها : فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر فى

القسوة أبدأ ، وهى لا تتفنن فى قسوتها تفنن الانسان . النمر يكتفى بتمزيق فريسته والتهامها . انه لا يمضى الى أبعد من ذلك ، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج ، ولو قدر على ذلك . وأولئك الأتراك يتسلّون خاصةً بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً . انهم يتزعون بالسيف صفاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيلقفهم فى الفناء أتراك آخرون بأسنة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتى يعدّ حضورهن أهمّ عنصر من عناصر هذه المتعة . ولقد حفظت ذاكرتى على الخصوص مشهداً وُصف لى : أمٌ ترتجف جزعاً وهلعاً وفى يديها طفل صغير ؟ وأتراك يحيطون بها ويتخللون لعبةً صغيرة . انهم يلعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلّونه ويضحكونه . والطفل سعيد فما هو ذا يمد اليهم ذراعيه . وفى تلك اللحظة يصوّب اليه أحد الأتراك مسدسه ، فينفجر الطفل ضاحكاً ، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس ، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم جمجمة الصبى ... أليس هذا فناً فى الواقع ؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلوى ...

— أخى ، الى ماذا تريد أن تنتهى ؟

— أعتقد أنه اذا لم يكن الشيطان موجودا ، واذا كان الانسان قد خلقه ، فلا شك فى أن الانسان قد خلقه على صورته هو .

— كما خلق الله اذن ؟

— انك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس فى « هملت » .

كذلك قال ايفان ضاحكاً ، وتابع كلامه يقول :

— هذه حرب شريفة ، وأنا أقبلها . ألا فاعترف مع ذلك أنه جميل الهك اذا كان الانسان قد خلقه على صورته . لقد سألتنى الى أين أريد

أن أنتهى ؟ اننى امرؤ يجمع وقائع شتى يقتطفها مصادفةً من الجرائد أو من أحاديث الناس ثم يدونها على الفور • تخيل هذا • لقد جمعت منذ الآن حصداً كبيراً من هذه الوقائع • والأتراك يحتلون فى هذه الوقائع مكاناً كبيراً بطبيعة الحال ، ولكن الأتراك أجانب • وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة تفوق حتى وقائع البلاد الأخرى • فى بلادنا روسيا انما يُعتمد خاصةً الى السوط والمصا ... هذا اختصاص قومى لنا ان صح التعبير • نحن لا نسمّر الناس من آذانهم ، لأننا أوروبيون رغم كل شئ • ولكننا فى مقابل ذلك نملك السياط والعصى ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا • يظهر أن الناس فى البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب • فاما أن العادات هنالك أصبحت أقرب الى اللين ، واما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للإنسان أن يجلد أخاه الإنسان • على أن الإنسان قد وجد هنالك ما يعوّض به ما افقده تمويضاً يتصف كذلك بطابع قومى خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً فى بلادنا • على أن هنالك علامات تدل ، والحق يقال ، على أن أساليب التمويض هذه قد أخذت تسرب الى روسيا منذ زمن ، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التى تنتشر فى الآفاق العليا من مجتمعنا • ان عندى نشرة شائعة* مترجمة عن الفرنسية تروى قصة اعدام مجرم فى مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار فى الثالثة والعشرين من عمره ، فيما أظن ، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد الى المقصلة • ان الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالى خمس سنين • وريشار هذا زعيم كان أبواه قد « أهدياه » وهو فى السادسة من عمره الى رعاة جبلين ربّوه بغية أن يعمل لهم بعد ذلك • شبَّ الصبى كحيوان صغير متوحش • والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً ، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً ، وذلك فى

جميع الفصول والأجواء • وكانوا ياملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأن عذاب • لأن الصبي كان قد • أُهدى • اليهم كما يُهدى شيء من الأشياء • فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبه أن يطعموه كما يجب أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل • وقد روى ريشتر هذا أمام المحكمة أنه كان يتفق له خلال هذه السنين (كالابن الضال الذي يحدثنا عنه الانجيل) أن يشتهي أن يأكل ثمار الخروب التي كانت تُعلف بها الخنازير المسنة للميع • ولكن لم يكن يُسمح له بذلك • وكان يُضرب اذا سرق بعضها من المذود • هكذا عاش ريشتر سنى طفولته وشابه الى الساعة التي شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً • فترك الرعاة وأخذ يسرق • وأصبح هذا المتوحش يجنى رزقه فى جنيف من العمل بأجر يومى • ولكنه كان ينفق ما يجنيه فى السكر ويعيش حياة كريمة مستهجنة • وانتهى به الأمر الى قتل رجل عجوز فى سبيل أن يسلبه ما معه • وقد اعتقل وحوكم وحكم عليه بالاعدام • ان الناس ليسوا عاطفين فى البلاد الأجنبية • وسرعان ما وجد نفسه فى السجن محاطاً بقرسٍ بروتستانتى وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مترسات الأعمال الخيرية • الخ ؛ فاذا هو أثناء مدة اعتقاله يُعلّم القراءة والكتابة ويُفسر له الانجيل ويوعظ • ويُردُّ الى الصواب • ويُلَام ويُقرَّع • ويؤوب ويوبخ • وتُشرح له العقيدة ويُلقنَّ تعاليم المسيحية • فاذا هو يعلن جهاراً فى ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب • وقد وجه الى المحكمة رسالتين فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً • وأضاف الى ذلك قوله ان الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهده الى الحق وأتم عليه نعمته • وقد اهتزت المدينة كلها للأمر • فاذا جنيف الفاضلة المساقلة الحكيمة تقلى وتفور • واذا جميع الناس فى المجتمع الراقى • اذا جميع « الأخيار » يريدون أن يزوروه فى سجنه : حضنوه وعانقوه وقبّلوه • وقالوا له :

« أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله » ، فكان ريشار يبكي حنانا ويكرر قوله : « نعم لقد أدركتني نعمة الله . كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها ، وها هو ذا الرب يرسل إلى الآن نعمته . ساموت في صلح مع الله » ؛ فيجيبه الآخرون : « نعم ما تقول يا ريشار ، ستموت متصالحاً مع الرب . لقد سفحت دماً فيجب أن تموت . صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ جهلت الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تضرب إذا أنت سرقت بعض هذا العلف من منودها (وأنت مخطيء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام) ، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت . » وحان اليوم الأخير . فكان ريشار ، وقد ضعف ضعفاً شديداً ، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال : « هذا أسعد يوم في حياتي ، فإني ذاهب إلى ملكوت الرب » ، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين : « نعم نعم . . . هذا أسعد يوم في حياتك ، لأنك ذاهب إلى ملكوت الرب ! » . وقد رافق هذا الجهمور ريشار إلى المقصلة ، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً . ووقف الجميع أمام المقصلة ، وأخذ الصباح يتعالى من كل مكن قائلاً : « مت أيها الأخ ، مت في صلح مع الله ، لأن نعمة الله قد أدركتك . » . ودفع ريشار إلى المقصلة تغمزه القبلات ، وأضجع عليها ، وقطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد أدركته . أليس هذا شيئاً يتميز بطابع خاص ؟ لقد ترجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية . . . ترجمها أشخاص ينتمون إلى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسى ، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة إلى جميع الصحف لتوزع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا .

« ان حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومى . فنحن في بلادنا ، والحق يقال ، لا نقطع رأس رجل* لأنه أصبح أخانا ولأن

نعمة الله قد أدركته • ولكنَّ عندنا شيئاً لا بأس به هو أيضاً • نحن فى روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً ، وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخى ومتمعة مألوفة طبيعية مشروعة • لقد صوّر نكراسوف ، فى إحدى قصائده ، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين ، على «عينيه الوديعتين» * •• من ذا الذى لم يشهد فى يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيراً ، الروسى جدا ان جاز التعبير ؟ ان ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذى كان يجبر عربة مثقلة بأحمال فوق طاقته قد سقط فى الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه • فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه ••• وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه فى الهواء ويهوى به على الحيوان أنه أصبح لا يشعر بما يفعل ، فهو فيما هو فيه من سكر وحشى بضراوته المستقطعة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً : « أصبحت لا تقوى على جر العربة ، ولكنك ستجرها رغم أنفك ••• سأجبرك على ذلك اجباراً أيها الحيوان القذر • مت ان شئت ، ولكن عليك أن تجر العربة ! » • وأخذ الحيوان يتخبط ، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى الا أن أخذ يجلد على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة ••• على « عينيه الوديعتين » العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسيهما الأذى • واستطاع الحيوان بوثبة مستميتة قصوى أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتشئاً مجللاً بالخزى والعار ، لا يكاد يستطيع أن يتنفس ، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة فى القلب • ان أشعار نكراسوف هذه تحدث فى النفس أثراً رهيباً • والأمر مع ذلك أمر حيوان ، ونحن نعلم ان الرب قد وهب لنا الحيوانات لنضربها ، أو هذا على الأقل ماتعلمناه من السر الذين أورتونا السوط هدية تذكرونا بهم • ولكن البشر يُضربون أيضاً • اننى أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته فى ضرب ابنته الصغيرة وهى

طفلة فى السابعة من عمرها * . لقد دَوَّنت الواقعة بجميع تفاصيلها . كان للمصيّ أشواك ، فسَرَّ الأب من ذلك أعظم السرور . قال : « لتسمرن بالقوبة شعوراً أقوى ، ... وأخذ يضرب ابنته . هناك أشخاص - وأنا أعلم ذلك علم اليقين - يسكرون من الضربات التى يكيلونها ، وبلغون من التشوة بها حدَّ اللذة الجسدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً . ضُربت الصبية دقيقة ، فخمس دقائق ، فعشر دقائق ، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة . والصبية تصرخ وتبكي ، ثم تقول مختففة الصوت بدموعها : « بابا ، بابا ، بابا الحبيب ! » . وبمصادفة شيطانية غير لاقئة ، رُفعت القضية الى المحكمة . واستعان الأبوان بمحام . ان الشعب يقول منذ زمن طويل : « المحامى ضمير يؤجر نفسه » . وأخذ المحامى يصيح قائلاً أمام المحكمة : « أب أدب ابنته . فما هذا الاحداث مبتذل شائع من حوادث الحياة العائلية . ومن عار هذا المصر الذى نعيش فيه أنه ظُنَّ أن هذه قضية يجب أن ترفع الى المحكمة ! » . وقد تأثر المحلفون أشد التأثر بأقوال المحامى ، فمضوا يتداولون فى الأمر ، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة . وضجَّ الجمهور فرحاً حين سمع الحكم ببراءة الجلاد . انتهى لم أشهد المحاكمة ، والا لا ترحت انشاء صندوق اعانة ، تكريماً لهذا الأب الجلاد ! هذه لوحة جميلة يا أليوشا ، غير أننى أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها ، وهى تتعلق خاصة بالأطفال من الروس . اليك قصة بنية فى الخامسة من عمرها ، غضب منها أهلها ، وهم « أناس محترمون ، موظفون مثقفون ، نشأوا نشأة كريمة وأحسن تربيتهم » . أوكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون ميل خاص الى تعذيب الأطفال ، الأطفال وحدهم دون سواهم . ان هؤلاء الجلادين يرهنون فى تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماعة والليونة ، كما يليق ذلك . بأوروبيين متعلمين متورين . ولكنهم فى مقابل ذلك يجدون

لذة كبيرة فى تعذيب الأطفال ، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة • ان منظر هذه الكائنات الصغيرة المزلاء التى لا تحسن الدفاع عن نفسها ، ولا تعرف كيف تشتكى ولا الى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم ، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية ، يملك القدرة على ايقاظ القسوة الغريزية فى نفوس أولئك الناس • لا شك أن فى قرارة كل انسان وحشاً نائماً ، وحشاً ضارياً مسموراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته ، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التى ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما الى ذلك • ولتعد الى أهل تلك البنية • لقد أنزل الأبوان المثقفان فى ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال • كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أى سبب ، حتى انهك جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء • وشيئاً فشيئاً توصلا الى صور من القسوة فيها كثير من التفنن • من ذلك أنهما أثناء الليالى الباردة كانا يجلسان الطفلة فى المرحاض ، بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها فى حينها (كأن طفلاً فى الخامسة من عمره يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه الهادئ العميق فى الوقت المناسب للذهاب الى المرحاض) ؟ وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه « لتعليمها » ، ويجبرانها على أن تبلع غائطها ، وكانت أمها ، أمها نفسها ، هى التى تكرهها على ذلك • وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة فى ذلك المكان الموبوء ! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذى ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجرى له ، هل يستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين فى غياهب الظلام والبرد ضارعاً الى « الرب الرحيم » بدموع شقية بريئة أن يحميه ؟ هل يستطيع أن تفهم علة وجود عالم سخيف هذا السخف ، باطل هذا البطلان ، مستحيل هذه الاستحالة ..

قل لى يا صديقى ويا أخى ... هل تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تنهياً لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً ؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوّره خالياً من الألم ومن الظلم للذين يستطيعان وحدهما أن يهباً للانسان معرفة الخير والشر ! ألا بسّست تلك المعرفة اذا كان ثمنها هذا الثمن ! ان كل ما فى العالم من علم لا يكفى للتكفير عن دموع تلك الطفلة التى تتوسل الى « الرب الرحيم » أن ينجدّها . لن أقول شيئاً عن الآلام التى يعانيتها الكبار . فان الكبار قد أكلوا الثمرة المحرّمة ، فليجنوا جزاء ما فعلوا ، وليأخذهم الشيطان جميعاً اذا كان الشيطان ما يزال يلوى عليهم ويهتم بأمرهم ... أما الأطفال ، أما الصغار الأبرياء ، فما ذنبهم ؟ ألا حظ أنتى أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا . ان فى وجهك حزناً وشقاء . سأسمك عن الكلام ان شئت .

تمتم أليوشا يقول :

- لا ... انتى أحب أن أتألم أنا أيضا .

- لن أقصّ عليك الا قصة واحدة أخرى ، لأنها شائقة جداً ، ولأنها تتسم بطابع مميز حقاً . لقد قرأتها منذ زمن قصير فى مجلة « السجل الروسى » أو مجلة « الماضى الروسى » * ، لا أدرى على وجه الدقة ... يجب التحقق من ذلك ... لقد وقعت هذه القصة فى أحلك عهود الرق عند بداية هذا القرن . عاش محرر الشعب ! كان يعيش فى ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيناً واسعة . هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى فى ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقدانهم حق الحياة والموت . لقد وجد أمثال

هؤلاء الرجال في الماضي • كان ذلك الجنرال يعيش في أراضيه التي يعمرها ألفان من الأذن • وكان يصطنع الأبهة والمظلة ، وينظر نظرة استعلاء الى جيرانه المتواضعين ، متظاهرا بأنه يعدمهم مهرجين أو طفيلين • وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراها على خيولهم ، لابسين زياً واحدا • ففي ذات يوم كان قن صفيح هو صبي في الثامنة من عمره يتسلى برمي الأحجار • فاذا هو يصيب باحداها الكلب الأثير لدى الجنرال ، سهواً وغفلة • وسأل الجنرال مستظلاً : « لماذا يمرج هذا الكلب الذي هو خير كلابي ؟ » فقبل له انه قد جرح بحصى رماها ذلك الصبي • قال الجنرال وهو يتفرد في الصبي : « أأنت السبب إذن ؟ » • ثم أضاف : « احبسوه ! » • انتزع الصبي من أمه ، وألقى في زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طول الليل • وفي ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب الى الصيد في احتفال عظيم • انه يمتطي صهوة جواده وقد أحاط به طفيلوه وكتابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب يطاردون الفرائس ، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعا • وأمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً ، وجعلت أم الصبي الجاني في أول صف من صفوفهم • وأخرج الصبي من زنزانته • كان ذلك في صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف ، صباح يشر بصيد وافر • وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخلعت حتى صار عارياً كل العرى • ان الصبي يرتعش مصفراً من الخوف ، ولا يجرؤ أن يفتح فاه ••• قال الجنرال أمرا : « اجعلوه يركض » ، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له : « اركض ، اركض » ، فأطاع الصبي أمرهم وأخذ يركض ، فاذا بالجنرال يقول صائحاً : « عليه ! » مهيباً بكتابه أن تطارده ، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي على مرأى من أمه ••• أحسب أن الجنرال قد حُجِر عليه بعدئذ

فما رأيك ؟ أما كان يستحق أن يعصم رمية بالرصاص ؟ ألم يكن من الضروري اعداده تهديّة للضمير الأخلاقى ؟ هلاًّ أجبت يا أليوشا !

قل أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتشتين ابتسامة ضعيفة :

- نعم كان يجب رميه بالرصاص •

فصاح ايفان يقول بنوع من الحماسة :

- مرحى ! ما دمت تقر بذلك أنت نفسك ، فلا بد ... هاه ...

يا لرسول المحبة ! ذلك هو الشيطان الذى تؤويه فى قلبك يا أليوشا
كارامازوف !

قال أليوشا :

- لقد قلتُ سخافة ، ولكن ...

صاح ايفان :

- ولكن ... هذا هو الأمر : « ولكن » ... أليس كذلك ؟ ألا

فاعلم أيها الراهب المبتدىء أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم • ان
الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شيء وقد لا يحدث شيء •
نحن نعلم ما نعلم !

- ماذا تعلم ؟

- لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف ايفان كلامه قائلاً فى هذيان) ،
ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئاً • أريد أن أكتفى بالوقائع وأن
أقتصر عليها • لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها • فلو
حاولت أن أفهم اذن لشوّهت الوقائع فوراً ، وأنا أحرص على أن أبقى
فى الواقع لا أخرج منه ...

صاح أليوشا يقول بمرارة :

- لماذا تمذبني هذا التعذيب ؟ هلاًّ قلت لى أخيراً ...

- سأقول لك • ذلك ما كنت أريد الوصول اليه منذ البداية • أنت عزيز فى نفسى يا أليوشا ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيمما بدون كفاح •

قال ايفان ذلك وصمت لحظةً مظلمَ الوجه ، ثم أردف يقول :

- اصغ الىّ الآن • لقد اخترت لأمتلى أطفالاً حتى يكون برهانى أكثر اتقاعاً • ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الانسانية التى تتبلل بها الأرض ، انتى أضيّق موضوع منافستنا عامداً • ما أنا الا حشرة صغيرة من الحشرات • وانى لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزى عن فهم نظام هذا العالم • هل يجب أن تؤمن بأن البشر مسئولون وحدهم عن شرورهم ؟ لقد وُهب لهم الجنة ، ولكنهم آثروا أن ينالوا حرمتهم واحتفظوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء ، فلا داعى اذن الى أن نشفق عليهم ونرثى لحالهم • ولكن عقلى ، عقلى المسكين الاقليدى الأرضى يؤكد لى ، على عكس ذلك ، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون ، وأن جميع الأفعال الانسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة ، وأن كل شىء ينقضى أخسر الأمر ، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه • ذلك على الأقل وهم أنشأه عقلى الاقليدى ، أعرف هذا ... وأنا لا أقبل أن أحيا فى عالم كهذا العالم • فيم يهمنى أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون ؟ انتى فى حاجة الى عدل ، والا دمرت نفسى • وهذا العدل الذى أطلب به ، أنا لا أريده فى • لا نهاية ، لا يمكن الوصول اليها ، وفى « أبدية » تفوقى ، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض ، أن أراه بعينى • لقد آمنت ، وأريد أن

أشهد انتصار الحقيقة ! فإذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأُبعث حياً ! لسوف يسىء الى كثير أن يتحقق هذا المجد للإنسان فى غيابه . هل تأملت أنا من أجل أن أمهد الطريق بخطاياى وآلامى لانسجام مقبل لن يتفجع به الا آخرون ؟ اننى أريد أن أرى الوعلة بعينى مستقلة أمام الأسد فى هدوء وسلام ، وأن أرى الضحية مرتدة الى الحياة تعانق قاتلها . أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سرُّ هذا العالم للجميع . ان هذا الانتظار هو القاعدة التى تقوم عليها جميع الأديان ، وأنا امرؤ مؤمن . ولكن الأطفال ... ما ذنب الأطفال ؟ كيف نسوّع عذاب الاطفال ؟ تلك مشكلة لا أجد الى حلها سبيلاً . أعود فأقول لك للمرة المائة : ان هناك فى هذا العالم مشكلات كثيرة ، ولكننى اخترت هذه المشكلة ، مشكلة الاطفال ، لأنها تتيح لى أن أعبر عما يشغل بالى وبقض مضجعى تعبيراً أوضح . قل لى : اذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهّدوا بأنفسهم لانسجام الكلى ، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضاً ؟ لماذا حبس الأطفال فى هذه الدائرة ، لماذا يجب عليهم هم أيضاً أن يساهموا فى الانسجام بعذابهم ؟ ذلك أمر لا سبيل الى فهمه اطلاقاً . ماذا جنوا حتى يُجرّوا فى هذه الزوبعة ؟ قد أُسلم عند الاقتضاء بتضامن البشر فى الخطيئة وتضامنهم فى التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا فى الخطيئة فان قيل انهم يحملون فى أجسادهم خطايا آبائهم وانهم متضامنون اذن مع آبائهم فى هذه الخطايا قلت : هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل ! ربّ ما زح خبيث يترض بقوله ان الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان الوقت ولكننى أقول ان ذلك الصبى الذى ما يزال فى الثامنة من عمره لما يشتد ساعده بعدد وقد مزقته الكلاب ! آه يا أليوشا هيهات أن يكون فى نيتى أن أجدف . اننى أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين يستدوى

أصوات السماء والأرض جميعاً منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين : « أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقتك ! » • سوف تعانق الأم عندئذ الجلاذ الذي أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان أنت على حق يا رب • ستتجلى عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة • ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأننى لا أقبل هذا الحل للغز وأنا أسارع الى اتخاذ اجراءات ما زلت فى هذا العالم • قد يحدث يا اليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائى للحقيقة وحين أبث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصبح أنا أيضاً مع الجميع اذ أرى الأم والجلاذ والطفل يتعانقون ويتصالحون : « أنت على حق يا رب ! » • ولكننى لا أريد أن أفعل ذلك وأحرص على أن أحمى نفسى سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب ترانى أتنازل تنازلاً حاسماً عن الانسجام الأعلى • ان هذا الانسجام لا يعدل فى رأى دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب الذى كان يلطم صدره بقبضتى يديه فى مكان موبوء ويضرع الى الله الرحيم من خلال دموعه التى لا يكفر عنها شئ • نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها والا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها ؟ ما الذى يمكن أن يمحوها ؟ أهو القصاص الذى سينزل بالجاني ؟ فما قيمة هذا القصاص ؟ فيم يهمنى هذا القصاص ؟ اننى لا أريده ! اننى لا أطالب بتعذيب الجلاذيين فى الجحيم • ان جهنم لن تغير من الامر شيئاً ولن تنفى أن الطفل قد عذب • وأين عسى أن يكون الانسجام اذا كان ثمة جحيم ؟ اننى أحب أن أغفر وأن أصلح • اننى أتمنى أن لا يبقى فى الكون عذاب • فاذا كانت دموع الأطفال أمراً لا يد منه ولا غنى عنه لاكمال مقدار الألم الذى سيكون دية للحقيقة فأنى أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظاً

الى هذا الحد انتى لا أريد أن تصالح الأم الجلاد الذى أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها • ليس من حقها أن تغفر له • لها أن تتقاضى عن ألمها • عن عذاب الأم العظيم الذى قاسته • لها أن لا تحقد على الجانى اذا شامت ولكن ليس لها أن تغفو عن التعذيب الذى نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها • فاذا كان الامر كذلك • اذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين أين الانسجام ؟ قل لى : أين الانسجام ؟ هل فى الكون فرد يجب عليه ويحق له أن يغفر ؟ انتى لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالانسانية • انتى أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير • انتى أؤثر أن يظل ألمى بغير فدية وأن يظل استيائى متأجباً بغير ارتواء ولو كنت على خطأ • ان الثمن المطلوب للانسجام باهظ جدا وهو فوق ما نطبق أن ندفع من ثمن ان بطاقة الدخول غالية مسرفة فى الغلاء • لذلك أسارع فأرد بطاقتى • انتى أشعر بأن على أن أردّها بأقصى سرعة لأننى انسان شريف وذلك ما أفعله • انتى لا أجد الرب يا أليوشا وانما أقصر على أن أعيد اليه بطاقتى بكثير من الاحترام •

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه :

— هذا عصيان •

فقال ايفان بلمهجة نافذة مؤثرة :

— عصيان ؟ لا أحب أن تحكم على هذا الحكم • ان من المستحيل على المرء أن يحيا فى العصيان • وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا • أجبني عن سؤال أليوشا ولكن أجبني بصراحة • فانتى أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال : لو كنت مهندس المصائر الانسانية وأجيت أن تبنى عالماً تجد فيه الانسانية السعادة والهدوء والأمن أخيراً أفترض فى هذا العمل اذا علمت أنه لن يتحقق الا اذا كان العذاب ثمنه ولو لم يكن الا

عذاب انسان واحد صغير برىء هو مثلاً تلك الطفلة التى كانت تلطم صدرها بقبضتى يديها ؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم الا على تلك الدموع التى لا فدية لها تذرّفها تلك البنية الصغيرة ، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظن توافق على أن تكون مهندس الكون فى تلك الشروط ؟

أجاب اليوشا بصوت جازم :

- لا ... لا أوافق •

- وهل فى وسعك أن تسلم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبنى لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل برىء وأن يعرفوا السعادة الى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك ؟

- لا ... لا أستطيع أن أسلم بهذا •

كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه :

- أخى لقد سألتنى منذ لحظة هل فى الكون كائن فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ ان هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البرىء للانسانية بأسرها لقد نسيته أنت وهو هو الذى يقوم عليه البناء كله وهو الذى يقع عليه أن يصيح : « أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقتك » •

- آه ... انك تتكلم عن « ذلك المبرأ وحده من الخطيئة وعن دمه ! لا يا اليوشا أنا ما نسيته وانه ليدهشنى أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمثالك فى العادة 'يرزون هذه الحجة منذ بداية المناقشة ، اسمع يا اليوشا هل تعلم أنتى نظمت قصيدة فى ذات مرة ؟ لا تسخر منى لقد فعلت ذلك منذ سنة فاذا وافقت على أن تضع فى صحتى بضع دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة •

- کتبت قصيدة ؟

- لا لم أكتبها (كذلك أجاب إيفان ضاحكاً) ولا كنت قادراً في يوم من الأيام على أن أُسطر بيتين من الشعر ولكنني تخيلت هذه القصيدة وحفظتها في فكري لقد تصورتها وأنا في نوع من سورة النفس وستكون أنت أول قرائي أو قل أول المستمعين إلى • ولماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذي يملك أن يتلو عليه ما ألف (كذلك أضاف إيفان مبتسماً) أقول القصيدة أم لا ؟

أجاب أليوشا :

- انني أصفى اليك باهتمام وشوق •

- عنوان القصيدة « المفتش الكبير » • هي قصة خيالية ولكن يسرني أن أقصها عليك •

المفتش الكبير



ايفان كلامه يقول :

- لا بد من مقدمة • هذا من التقاليد الأدبية
(قال ايفان ذلك ضاحكاً) • ألسنت مؤلفاً أنا
أيضاً ؟ ان الأحداث تجرى فى القرن السادس
عشر • ولقد كان رائجاً فى ذلك الزمان ادخال القوى السماوية فى
القصائد ، كما لا بد أنك تعلمت ذلك فى المدرسة • يكفى أن أذكرك،
حتى دون أن أستشهد بمثال داتى ، بأن رجال الدين والرهبان كانوا
يقدمون تمثيلات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون ، ويظهر فيها
المسيح ، ويظهر فيها حتى الله نفسه • تمثيلات ساذجة • وقد وصف
فكتور هوجو فى روايته « أحذب نوتردام » * تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت
للشعب فى قاعة « الأوتيل دوفيل » فى عهد لويس السادس عشر احتفالاً
بميلاد ابنه البكر ، وكان عنوان التمثيلية هو « الرأى الصائب للعذراء
مريم المقدسة المنعمة » ، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لاصدار رأياها
الصائب وحكمها السديد • وعندنا فى موسكو* ، قبل عهد بطرس الأكبر،
كانت أسرار من هذا النوع تُمثل من حين الى حين ، وكانت تُستوحى
من التوراة خاصة • وعدا هذه التمثيلات ، فقد انتشرت فى العالم طائفة
من الأفاضل أو القصاصد يظهر فيها القديسون وتظهر فيها الملائكة
والقوى السماوية الأخرى ، تبعاً للحاجات • وفى أديرتنا كانت تُترجم

وكانت تنسخ أشياء كثيرة ، بل لقد كانت تؤلف قصائد فى بعض الأحيان، حتى فى عهد الاحتلال الترى . فكذلك على سبيل المثال ، احتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعا) عنوانها : « نزول العذراء الى الجحيم » * ، مليئة بلوحات تكاد تبلغ فى جراتها وجسارتها لوحات دانتى . وفى تلك القصيدة تذهب العذراء الى المعذبين فى الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل ، فتراهم وترى ما يقاسون من عذاب أليم ، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطاة تختبئ فى بحيرة مشتعلة ، فالذين يغوصون فى هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك الى سطحها قط ، ويقال عنهم « ان الله قد نسيهم » ، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة ؛ وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية ، فسقطت بكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبي الجحيم ، وأن يغفر لهم جميعا بغفر تميز . ان حديثها مع الرب شائق جدا ، فهى تضرع اليه وتلح وتأتبى أن تصرف ، فازأما الرب الى قدمى ويدى ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها : « كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين » ، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطاة بغفر استثناء . واستطاعت أخيرا أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كل سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين ، وأن يسارع المعذبون عندئذ الى أن يشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل : « أنت على حق يا رب ، وعادلٌ حكمك * * . »

ان قصيدتى أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أننى عشت فى ذلك العصر . ان الرب يظهر فى قصتى ، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح . لقد انقضت خمسة عشر قرنا منذ أن وعد بأن يعود الى مملكته ، منذ أن كتب رسوله : « سأعود قريبا * . أما اليوم والساعة فان الابن نفسه لا يعرفهما ، وانما يعرفهما

أبى الذى فى السموات ، ، على حد الأقوال التى نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالأرض . ولكن الانسانية ما تزال تنتظره بايمان واحد وحماسة لم تغيب ، بل ان الايمان قد قوى واشتد ، لأن خمسة عشر قرنا قد انقضت منذ أن كفت السموات عن بذل ضمانات للبشر .

صلق صوت قلبك أيها الانسان

ان السموات لا تبدل ضمانات * *

فلا قيمة بعد الآن الا ليقين القلب دليلا وبرهانا . صحيح أن المعجزات كانت كثيرة فى ذلك العصر . فلقد كان هنالك قديسون يبرثون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة ، واذا صدق ما يروى فى سير بعض الصالحين ، فان ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها . ولكن الشيطان لم ينم ، وأخذت الانسانية تشك فى صدق هذه المعجزات . وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة فى شغال ألمانيا * فاذا بكوكب كبير « شيه بشعلة (هو الكنيسة طبعاً) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرة » . لقد كان أولئك المجدفون الهرطقة ينكرون المعجزات . فازداد ايمان المؤمنين ، واشتدت حماستهم . وأخذت الانسانية ترفع أعينها الدامعة الى الرب منتظرة مجيئه ، محبة اياه بقلب حار ، مؤمنة فيه ، ظامنة الى التألم من أجله والموت فى سبيله ، كما حدث فى الماضى ... ان صلوات البشر ترتفع الى السموات حارة منذ قرون طويلة قائلة له : « تفضل بالمجيء الينا يا رب » ، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة ، أن يعود الى أولئك الذين يضرعون اليه هذه الضراعة . لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تروى سيرة حياتهم . وفى بلادنا روسيا تغنى الشاعر تيوتشيف به فى هذه الأبيات (وكان يؤمن ايماناً عميقاً بما يقول) :

أيتها الأرض التي ولد فيك ملك السموات *
لقد طاف في كل جهة من جهاتك في صورة عبد ،
منحنيا تحت ثقل صليبه ،
يهب لك بركته الواسعة •

ذلك كله صحيح ، أؤكد لك • لقد قرر الرب أن يظهر في هذه
المرّة لا لافراد من القديسين ، بل للشعب بأسره ، لجمهرة الناس المغمورين
الذين يتألمون في خطاياهم وعارهم ولكنهم يجسونه بقلب ساذج كقلب
الأطفال • الأحداث تجري في اسبانيا ، بمدينة اشيلية ، في أحلك عهود
« التفطيش » ، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لاحتراق المتهمين كل يوم
في جميع أرجاء اسبانيا تمجيذا للرب :

في نيران دائعة *

كان يحرق الزنادقة الأشرار •

لم يكن يقصد في هذه المرّة أن يرجع الى الأرض ذلك الرجوع
الذى بشرت به الكتب الدينية حين قالت انه سيرجع في آخر الدهور ،
فيتجلى فجأة بكل مجده السماوى « كبرق يسطع من الشرق الى الغرب »*
فكل ما كان يريده هو أن يقضى بضع لحظات عابرة بين أبنائه في تلك
الأماكن نفسها التى تزفر فيها النيران الموقدة لاحتراق الهراطقة • لقد
أراد بفعل من أفعال محبته الالهية أن يظهر للناس مرة أخرى في
الصورة الانسانية التى اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا أثناء حياته
الأرضية التى دامت ثلاثة وثلاثين عاما • فهكذا نزل الى الشوارع الملتهبة
من المدينة الجنوبية التى تم فيها أمس ، بأمر الكاردينال ، المفتش الكبير ،
احتراق مائة من الزنادقة ، تمجيذاً لله ، بمعاونة الأهالى وحضور الملك
ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسنات وسائر

من يعدون ألمع أبناء المجتمع فى أشيلية • وقد ظهر الرب خفية بدون ضوضاء ، ولكن الامر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه •
 وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة : لماذا عرفه الناس جميعا ؟ لقد انجذب اليه الجمهور بقوة لا تقاوم ، وأحاط به ، واحتشد حوله ، وتابع خطواته • فسار هو بين الجمهور صامتا وهو يتشم ابسامة عطف لانهاية له • ان شمس المحبة تنقد فى قلبه ، ومن عينيه يشع الضياء وتشع القوة فينتشران فى المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم • وهو يمد ذراعيه نحو الشعب ليباركه • ان ملامسته ، وحتى ملامسة ثيابه ، تملك القدرة على ابراء المرضى • فهذا شيخ من الجمهور ، أعشى منذ طفولته ، يهتف قائلا على حين فجأة : « ردّ الىّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك » فما هى الا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو يرى الرب • وبكى الشعب تأثرا ، وأغرق بالقبلات الأرض التى مشى عليها • وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين : « رحماك أنقذنا » • وتعال الصيحات من كل جانب تقول فى حماسة : « انه هو ، انه هو ، لا يمكن الا أن يكون اياه • » • ووقف فى الساحة أمام كاتدرائية أشيلية لحظة كان يؤتى الى المعبد ، بين عبرات الحضور ، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرفد فيه جثمان بنية فى السابعة من عمرها هى البنت الوحيدة لرجل من عبود سكان المدينة • ان الميتة مغطاة بالأزهار • صاح الجمهور يقول للأم المحزونة : « سيحى لك ابتك » • وكان كاهن الكنيسة قد تقدم نحو التابوت ، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه • فأجهشت أم البنية الميتة باكية وارتمت على قدمي المسيح وضعت اليه وهى تمد نحوه ذراعها قائلة : « اذا كنت أنت هو حقاً ، فأحى ابنتى ! » • توقف الموكب ، ووضع التابوت على البلاطات عند قدميه • فالتقى على جثمان البنية نظرة تفيض بالعطف ، وتحركت شفاهه فى رفق تقولان مرة أخرى : « قومي أيها

البنية ، * فما ان نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت ، وجلست مبتسمة ، ونظرت حولها بعينين محمقتين مدهوشتين . انها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها . اضطرب الجمهور وصاح وبكى . وفي تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال كبير المفتشين في الساحة أمام الكاتدرائية . انه شيخ في نحو السنة التسعين من عمره ، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين ، غير أن في عينيه شعلة تسطع . انه لا يرتدى الآن ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذي ظهر به للشعب في الليلة البارحة حين كان يُرمى الى النيران أعداء الكنيسة الرومانية . وانما هو يلبس في هذه المرة ثوب الكاهن ، مصنوع من خشن الصوف . وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وخدمه وحرس القديس الاحتفالي . وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد . لقد رأى كل شيء ، رأى التابوت عند قدمي المسيح ، ورأى البنية تَبْعَتْ حية ، فأظلم وجهه واكفهر . انه يقطب حاجبيه الكثيفين الأبيضين ، وان يريقاً متوحشاً كاسراً يومض في عينيه . وهذا هو يشير الى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه . ان هذا الرجل الذي عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع اراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الزبانية ، فاذا بهؤلاء ، وسط صمت الموت الذي خيّم على حين فجأة ، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه . وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الكبير الذي بارك الجمهور صامتا وانصرف . أخذ السجين الى المبنى العتيق الذي يقام فيه القديس ، وحُبس في زنزانة مظلمة ضيقة مقببة . انقضى النهار ، وهبط الليل . هي ليلة من ليلالى اشيلية تلك الثقيلة الحالكة الخائفة الحارة . « الهواء معطر بمبق أشجار الرُند والليمون* » . وفجأة ، في الظلمات ، فُتِح الباب الحديدي ، وتقدم المفتش المعجوز يسير في المر

ببطء حاملا بيده شمعة • وقف لحظة على عتبة الزنزانة وتفرد في وجه السجين طويلا • ثم اقترب منه آخر الامر بخطى صامتة ، ووضع الشمعة على المنضدة وقال له :

« - أهذا أنت اذن ؟ أهذا أنت ؟ (ولكنه حين لم يتلق جوابا أسرع يضيف :) اسكت ! لا تقل شيئا ! وما عساك تعلمنى على كل حال ؟ اننى أعرف سلفا كل ما قد تقوله لى • وبأى حق تريد من جهة أخرى أن تضيف أى شئ الى ما سبق أن قلته ؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب فى حياتنا ؟ ذلك أنك انما جئت لتبث فينا الاضطراب ما فى ذلك ريب ، وأنت لا تجهل ذلك • فهل تعلم مع هذا ما الذى سيقع غدا ؟ اننى لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرفك • أأنت هو حقا ، أم لست الا طيفه ؟ سيان ... لأننى سأحكم عليك بالاعدام وسأمر باحراقك مثلما أمر باحراق أسوأ الزنادقة • ان ذلك الجمهور نفسه الذى كان يقبل قدميك منذ بضع ساعات ، سيهرع غدا ، بإشارة بسيطة منى ، فيورى لهيب النار ، هل تعلم ذلك ؟

ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول شاردا الفكر نافذ النظرة دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة :

« - لا شك أنك تعلم ذلك !

قال أليوشا الذى كان الى ذلك الحين يصنى الى أخيه صامتا ، قال وهو يتسم :

- لست أفهم جيدا يا ايفان • أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك المحموم ، أم أنت تريد أن تقول ان الشيخ قد خدعه ظنه ، وان لبسة ما قد أضلته ؟

قال ايفان ضاحكا :

- لنسلم بأن هناك لبسةً ما ، ما دامت واقعية هذا العصر قد دمغتك أنت أيضا الى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة .
لنفرض أن هناك لبسةً ما ، اذا كنت تحرص على ذلك •
ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة أخرى :

- يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو فى التسعين من عمره ، وأن من الجائز أن يكون قد جُنَّ منذ زمن طويل فى عزله المتكبرة المستعيلة .
ولعل منظر السجين قد أدهشه • ولعل هذا كله لم يكن أيضا الا هذيان رجل عجوز قد أهاجه احراق المائة زنديق الذين أحرقوا فى اللبلة البارحة ، أو أهاجته هلوسة من تلك الهلوسات التى تسبق الموت فى بعض الأحيان • وانه ليستوى على كل حال أن يكون الامر أمر تهاويل خيالية أو أمر لبسة ، فانهما المهم أن هذا الشيخ سيقول فى هذه المرة ، وهو فى التسعين من العمر ، سيقول ما فى قلبه وما فكَّر فيه صامتا طوال حياته •

- والسجين ؟ أهو صامت ؟ أهو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة ؟

قال ايفان شارحا وهو ما يزال يضحك :

- على هذا النحو انما يجب أن تجرى الأمور • ألم يفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئا الى ما سبق أن قاله فى الماضى؟ بل ان هذا فى رأى سمة من السمات الاساسية للكاثوليكية الرومانية :
« لقد عهدت برسالتك الى البابا ، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن .
فلا تأت الينا لبث القلق والاضطراب فى حياتنا بغير طائل ، لا تأت الآن ، لا تأت قبل الساعة المحددة على كل حال ! » • فهذا ما يقوله صانعو الكنيسة الرومانية ، أو هذا ما يقوله اليسوعيون على الأقل • لقد قرأت

هذا بنفسى فى كتب لاهوتيينهم • ان العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال :
 « هل من حَقِّك أن تكشف لنا ولو عن سرٍّ واحد من أسرار العالم الذى
 جئت منه ؟ » ثم لم ينتظر جوابه ، بل أضاف يقول فوراً : « لا • • ليس
 من حَقِّك أن تفعل • • • ليس لك أن تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت
 فى الماضى ، وذلك حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التى كنت تقدرها
 قدراً عظيماً حين عشت على الأرض • ان كل كشف جديد قد تأتى به
 سيسىء الى حرية الايمان ، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات ، وأنت
 قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمن حرية الايمان أمر أساسى • ألم
 تكن تردد على مسامعهم بغير كلال ولا ملال : « لقد جئتكم بالحرية » ؟
 وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكّرة على حين
 فجأة : « ولقد رأيتم بعينيك ، هؤلاء البشر « الأحرار » • • • ان هذه
 الحرية هى من صنعنا ، وقد كلفتنا جهوداً لا نهاية لها (كذلك أضاف
 العجوز وهو يلقى على المسيح نظرة قاسية) ، ولكننا أتمنا عملنا أخيراً
 باسمك • لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نظل نتحرك جاهدين
 بهذه الحرية ، ولكن الامر انتهى الآن ، انتهى تماماً ! ألا تظن أنه انتهى
 الى الأبد ؟ انك تنظر الى « بوداعة ولين ورفق » فلا شك أنك قددر أنك
 ان أظهرت استياءك كنت تشرفنى تشريفاً لا أستحقه ! ألا فاعلم اذن أن
 البشر هم فى هذا اليوم بعينه أشد اقتناعاً منهم فى أى وقت مضى بحريتهم
 الكاملة ، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها فى أيدينا بكثير
 من المذلة ! ذلك هو عملنا ! أهذه هى الحرية التى كنت تشدها لهم ؟

قاطعهُ أليوشا مرة أخرى قائلاً :

— مرةً أخرى أصبحت لا أفهم • أهو يسخر ؟ أهو يتهكم ؟

— كلا • • • انه لا يسخر ولا يتهكم البتة ! بالعكس : انه يتباهى ،
 لنفسه ولصحبته ، بأنهم أوقفوا نمو الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس

بذلك سعداء • « ذلك أننا الآن ، للمرة الأولى ، نستطيع أن نحلم للانسانية بالسعادة (انه يتكلم طبعاً باسم محاكم التفتيش) • ان الانسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد • ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء ؟ لقد بُهت الى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات ، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها ، ونبذت الطريق الوحيدة التى كان يمكن أن تقود البشر الى السعادة • ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الارض عهدت لنا بمهمة اتمام رسالتك • لقد كلفتنا بأن نوجه الانسانية وأن نرشدها • بذلك لنا وعدك ، وأقمتم سلطتنا على كلمتك ، ووهبت لنا حق العقد والحل ، ولن نستطيع طبعاً أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن • فلماذا جئت تعرقل عملنا فى هذا العالم ؟

قال أليوشا سائلاً :

— ماذا كان يعنى بقوله ان النصائح والتحذيرات لم تعوز ؟

وأجاب ايفان :

— ذلك هو العنصر الأساسى فى التفكير الذى كان العجوز يريد أن

يعرب عنه •

— تابع العجوز يقول : ان الروح الرهيب العميق ، روح الدمار والعدم ، قد خاطبك فى الصحراء ؟ وتروى الكتب المقدسة أنه أغواك ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع فى الواقع أن نتخيل حقائق اكبر من الحقائق التى عرضها لك فى أسئلته الثلاثة ؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ ، والكتب المقدسة تصفها بأنها « غوايات » • ومع ذلك ، لئن وجدت على هذه الارض فى يوم من الايام معجزة كبرى ، معجزة صادقة ، فان تلك المعجزة انما تحققت فى ذلك اليوم بعينه ، وفى تلك الغوايات الثلاث • لقد كانت تلك الاسئلة معجزةً من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت • لتصور

على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة ، وأن علينا أن نعر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة . لتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الارض - رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء - وقلنا لهم : « أوجدوا لنا ، تخيلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب ، بل تلخص بالاضافة الى ذلك ، في ثلاث جمل انسانية بسيطة، كل مستقبل العالم والانسانية » . فهل تظن أن كل حكمة الارض المجمعة في هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ، ولو من بعيد ، شيئاً يشبه بقوته وعمقه ، تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي العميق ؟ ان تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة ، أغنى كون الأسئلة قد أُلقيت ، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل انساني عادي، بل أمر فكر خالد مطلق . ذلك أنها تضم في ذاتها ، تشتمل في ذاتها على كل التاريخ المقبل للانسانية ، وتقدم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية ، التي لا سبيل الى حلّها . ان تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهوراً واضحاً ، لأن التطور الذي تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفاً ؛ أما الآن ، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً ، فاننا نرى أن كل شيء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسئلة الثلاثة ، وأنها قد تحققت تحقّقاً يبلغ من الكمال والتمام أننا لن نستطيع أن نضيف اليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم .

« فاحكم في الأمر بنفسك : من ذا الذي كان على حق ، أنت أم سائلك ؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة ، لا نهسه بل معناه العام : « تريد أن تمضي الى الناس ، وأنت تمضي اليهم خالي اليدين الا من وعد بحريرة لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن

يفهموها ، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونها ويخافون منها ، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك فى يوم من الأيام حالة لا يطبقها البشر والمجتمع مثلما لا يطبقان الحرية . هل ترى هذه الحجارة فى الصحراء الوعرة المحرقة ؟ حوّلها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع ، وتصيح شاكراً لك مطيعةً اياك ، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من ان تسحب يديك وأن تُحرم هي من الخبز . « غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية ، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث 'تشتري' الطاعة بالخبز . لقد أجبت بقولك : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . أفكنت تجهل اذن أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضى نفسه ، وأنه سيقا تلك ويغلبك ؟ وأن الجمهور سيهرع عندئذ نحوه قائلاً : « من ذا الذى يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذى وهب لنا نار السماء ؟ » . لسوف تنقضى قرون ، فيأتى يوم تنادى فيه الحكمة الانسانية ويندى فيه العلم الانسانى بأن الشر لا وجود له ، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها ، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب . « أطعمهم تجعلهم فاضلين ! » . بهذه الصيحة انما سيجملون الراية ضدك وسيقوؤن مبدك . وسيقيمون فى مكانه مبنى آخر ، هو « برج بابل » ثانٍ مهْدَد . صحيح أن البناء لن يتم ، كما لم يتم فى المرة الأولى ، ولكن كان فى وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة . ذلك أن البشر انما سيتجون الينا نحن بعد أن يجهدوا فى بناء برجهم مدة عشرة قرون ! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا فى الماضى ، وسيجدوننا فى الأقيية التى نكون قد لجأنا اليها (لأننا سنُضطهد وسنُعذَّب من جديد) ، سيجيئون قائلين لنا : « أطعمونا » لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا . « وسنتهى عندئذ بناء البرج ، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى

النهاية . وسوف نطعمهم ، سوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا ، وسوف نفعل ذلك باسمك ، كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك . بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا في هذا العالم ، وسيظلون دوماً جائعين ساغين . لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحرارا ، ولكنهم سيتهون الى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين : « استعبدونا ولكن أطعمونا » . سيدركون هم أنفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الأرض ، ولا تتيج أن يصب كل منهم من هذا الخبز كفايته ، لأنهم لن يتوصلوا الى اقتسامه بالعدل في يوم من الأيام . وسيقتنون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارا ، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والمصيان . لقد وعدتهم بخبز السماء ، ولكنني أسألك مرة أخرى : هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر الكثرة التي ستظل الى الأبد فاسدة عاقبة ؟ اذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدة لأن تبك في سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء ؟ أتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية ، وهل يجب على ملايين البشر ، هل يجب على الجموع التي لانهاية لعددها ، كرمل البحر ، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضا ، أن لا يكونوا الا مادة مسخرة للكبار والأقوياء ؟ اننا نحن نرى غير هذا الرأي ، وان الضعاف أعزة على قلوبنا . انهم شريرون عصاة ، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون في آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعا . سوف يعجبون بنا ويمدوننا آلهة ، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادة لهم ، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم ، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة في نظرهم بتقدم الزمن ! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم انما يطيمنونك أنت وبأنا

نحكمهم باسمك • سوف نكذب عليهم فى هذه النقطة أيضا ، لأننا لن
نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل فى شئوننا وسيكون هذا الكذب الضرورى
عذابنا • ذلك ما كن يعنيه السؤال الأول فى الصحراء ، ولقد رفضت
نداء الروح الجبار باسم الحرية التى وضعتها فى أعلى منزلة ، وفضلتها
على كل شئ • ولقد كان ذلك السؤال يخفى مع ذلك كل سر هذا
العالم • فلو قد رضيت أن تعطى الخبز ، اذن للبست ما تنتظره الانسانية
انتظارا أبديا منذ عهود سحيقة ، ولهدأت القلق الذى يعذب الفرد
ويعذب الجماعة كليهما : « من تطيع ؟ » فلا رغبة أقوى ولا هم أبقى
لدى الانسان الذى أصبح حراً من همّ العور على سيد يحكم بأقصى
سرعة • ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد ،
حقيقة يحترمها جميع الناس برضى اجماعى • ان حاجة هذه المخلوقات
الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من
الأفراد ، وانما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بهنا الجميع ،
ويمكن أن ينحنى لها « الناس كافة » • فهذه الحاجة الى « الاشتراك »
هى بعينها الهمّ الرئيسى الذى يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملة ،
منذ أقدم عهود التاريخ • فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة
انما أفتت الشعوب بعضها بعضا خلال الأحقاب • كانت الشعوب تصنع
آلهة ثم تأخذ تشاتم : « اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا • والا فالموت
لكم ولآلهتكم ! » • وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم ؛ وحتى
بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لمبودات جديدة • ولقد كنت تعلم
هذا السر الأساسى من أسرار الطبيعة الانسانية ، فليس يمكن أن تجهل
هذا السر ، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التى تملك قوة جذب مطلق
والتي قدّمت لك للتأدى بجميع البشر الى الانحاء أمامك بغير تردد -
أعنى راية الخبز الأرضى • لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم

الخبز السماوى • فانظر الآن فيما صنعت ! انظر فيما فعلت باسم الحرية ! أعود فأقول لك انه لا قلق أرسخ فى قلب الانسان من قلق الحاجة الى الثور على من يستطيع أن يضحي له سريما بالحرية التى وهبت له ، هو المخلوق التمس ، منذ ولد • ولكن لا سبيل الى التصرف فى حرية البشر الا بتهدئة ضميرهم • ولقد كان فى وسعك أن تتخذ الخبز راية لا تخطئ • اطعم الانسان يطعمك ، فلا شئ فى هذا العالم أعز على الجحود من الحاجة الى الأكل • ولكن اذا استولى غرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذى يكون قد أخضع نفوسهم • فى ذلك كان رأيك صحيحا • ان سرّ الوجود الانسانى ومبرّزه ليسا فى ارادة الحياة ، بل فى الحاجة الى معرفة السبب الذى يدعو الانسان الى الحياة • فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته ، لا يقبل أن يوجد فى العالم بل يؤثر أن يدمر نفسه ، ولو ملك الخبز وافرأ كل الوفرة • تلك هى الطبيعة الانسانية • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية أردت لها مزيداً من النمو • فهل نسيت اذن أن الانسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار فى معرفة الخير والشر ؟ لا شئ يخلب اللب فى الوهلة الأولى أكثر من حرية الضمير ، ولكن لا شئ فى الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية • بدلاً من أن تحمل للانسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية للهدوء النفسى والطمأنينة الروحية ، وبدلاً من أن توفر لها هذه الأسس الى الأبد ، عرضت عليها ما فى هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الانسانية ، وكنت فى عملك هذا كأنك لا تحب البشر ، أنت الذى انما جئت مع ذلك لتهب لهم الحياة ! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية وسعتها ، وبذلك ضاعفت ، الى غير نهاية ، الآلام التى تولّدها هذه

الحرية فى نفوس البشر • أردت من البشر أن يمنحوك جهنم أحراراً، وأن يتبعوك بإرادتهم ، مفتونين بشخصك • ألغيت القانون القديم الذى كان قاسياً ولكنه كان وطيداً راسخاً ، فأصبح على الانسان أن يميّز الخير والشر بنفسه ، مستلهماً حكم قلبه ، غير مسترشد فى تروده الا صورتك أمام عينيه • أفلم تتبأ اذن بأن البشر سينوون بهذا الحمل الرهيب ، حمل حرية الارادة ، فاذا هم آخر الأمر ينبذون فى يوم من الأيام صورتك ويشكون فى تعاليمك ؟ لسوف ينادون فى النهاية بأن الحقيقة لم تكن فىك ، فمن المستحيل القاؤهم الى اضطراب أشد وعذاب أربح من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم اليهما حين تركت لهم كل هذه الأنواع من القلق ، وكل هذا العدد من المشكلات التى لاسيل الى حلّها. لقد زودتهم أنت نفسك بالأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك ، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها • فهل هذا ما عرّض عليك مع ذلك ؟ ليس على الأرض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف قروناً ، وأن تخضعه فى سبيل سعادته نفسها ، ألا وهى: المعجزة، والسر ، والسلطة • ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعاً وعلمت البشر بقدوتك أن يحرقوها • فحين تقلق الروح الرهيب (ابليس) الى سطح المعبد وقال لك : « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك فى الفضاء ، لأنه كتب أن الملائكة ستلقفه وتسندنه فلا يقع ولا يتحطم ، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك » * ، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك فى الفضاء • صحيح أنك تصرف فى تلك اللحظة تصرفاً فيه ما فى تصرف اله من عظمة وجلال ، ولكن هل تصور أن البشر ، وهم جنس ضعيف متمرّد ، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله ؟ لقد فهمت فى تلك اللحظة أن حركة بسيطة هى أن تهم بالقاء نفسك فى الفضاء كان ستعنى اغراء الرب ، فلو قمت بها

لكنك بطلب المعجزة تبرهن على قلة ايمانك ، فاذا حرمت من الايمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التي جئت لتخلصها وتقذها ، وتهلل الروح المحتال جذلا وطرباً • ولكننى أعود فأسألك : هل أمثالك كثير فى هذا العالم ؟ هل وقع فى وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضا فوق اغراء من هذا النوع ؟ هل فى طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده فى الساعات العصية من الحياة ، أم الم المشكلات الخطيرة الأليمة التى تعرض للنفس ؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولى سينتقل بالكتب المقدسة الى آخر العصور ، وكنت تأمل أن يقتدى البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدى مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات • ولكنك لم تقدر أن الانسان متى جحد المعجزة أسرع يبحد الرب ، لأن ظمأه هو الى العجائب لا الى الرب ؛ وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات ، سيخلق بنفسه معجزات ، فيهوى ، ولو كان متمردا وكفرا وملحداً ، الى خرافات سخيفة ، تنطلي عليه أباطيل السحرة وخزعاتهم • انك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء : « انزل عن الصليب فصدّق أنك أنت » • انك لم تنزل ، لأنك مرة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة ، وانما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان لا بتأثير العجائب • كنت تريد أن يهوا لك محبتهم أحرارا لا أن ينصاعوا لك عبيدا أذلتههم قوتك • هنا أيضا أسرفت فى تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم ، ذلك أن البشر عبيد ، رغم انهم مغطورون على التمرد • انظر فيما حوذك : ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم الى مستواك ؟ أحلف لك ان الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت ! هل يستطيع هو الوضع أن يحقق ما حققته أنت ؟ انك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه ،

لأنك سألته فوق ما يطيق ، أنت الذى أحبيته أكثر من نفسك ! فلو أنك قدرته أقل مما قدرته اذن لطلبت منه أقل مما طلبت ، ولكان موقفك عندئذ أقرب الى المحبة ، لان العبد عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً . ان الانسان ضعيف وجبان . لا يهمنى أن يكون الآن قد ثار فى كل مكان على سلطتنا ، وأنه يرى فى عصيانه الآثم هذا مجداً يعتز به . ذلك غرور طفل ، ذلك غرور تلميذ . ان البشر يشبهون تلامذة صغراً ثاروا فى المدرسة وطردوا معلمهم . ولكن فرحتهم لن تدوم ، وستكلفهم ثمناً باهظاً . سوف يهدمون المعابد ، وسوف يجرى الدم سيولاً على الأرض . وسوف يدركون عندئذ ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء ، أنهم ان خلقوا عصاة متمردين ، فليس يتح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً فى التمرد والمصيان . وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذى وهب لهم روح العصاة قد غرر بهم وسخر منهم . سيقولون هذا محزونين مكروبين ، وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضاً ، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف ، ولا بد أن تتأثر لنفسها منه آخر الأمر . القلق ، الاضطراب ، العذاب ، ذلك هو المصير الذى كتب على البشر الآن ، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته فى الماضى من أجل أن تنهب لهم الحرية ! ان رسولك الكبير* يروى أنه أبصر ، فى رؤيا ، جميع المشتركين فى البعث الاول ، فرأى اثنى عشر ألفاً من كل سبط . لقد كانوا ، مهما يكثر عددهم ، أقرب الى آلهة منهم الى بشر : قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين فى الصحراء القاحلة ، وأضناهم الجوع ، واقتاتوا بالجراد والجنود . صبح أن فى وسعك أن تتمتع بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحراراً ، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحو فى سبيلك بأنفسهم فى سورة رائعة . ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف ، وأنهم أشبه بآلهة منهم بشر . والآخرون ؟ ما ذنب

الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن ؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لاتعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفة الى هذا الحد ؟ أتراك جثث من أجل هذه الصفوة وحدها ؟ أنت لا تفكر الا فيها ولا يخطر ببالك من عداها ؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سر" يفوق ما نملك من قدرة على الفهم ؟ ومن حقنا في هذه الحالة نحن أيضا أن نلجأ الى السر ، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسي ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً ، وانما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل الى معرفته ، وأن يطيعونا اذن ولو عارضهم في ذلك ضميرهم . وهذا بعينه هو ما فعلناه . أصلحنا خطأك الذي ارتكبته حين عدلت ذلك المدول ليطولى عن المعجزة ، فبيننا عملك على ما هو « فوق الطبيعة » ، بنينا على « السر » ، بنينا على « المعجزة » . وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطع ، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشثومة التي وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها . قل : هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو ؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نجب الاساتية جاً كفاً ، بينما نحن اعترفنا بوهنها في كثير من الأذعان والتسليم ، وخففنا عنها الحمل في كثير من الالاح حتى لقد أبخنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلنا بضعفها الروحي ، شريطة أن تستأذنا في ذلك كل مرة ؟ فلماذا تجيء الآن لتبث الفوضى في عملنا ؟ مالك نحددق الى هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النعاذتين ؟ أخرى بك أن تنضب . انتى لا أريد محنتك ، لأنتى أنا نفسى لا أحبك . ولست أحاول أن أخفى عنك ذلك ، لأنتى أعلم من ذا الذى أخاطب ، أليس كذلك ؟ ثم انك تعرف كل ما قد أقوله لك ، أقرأ ذلك فى عينك . ففيم المواربة والحالة هذه ؟ ان سرنا لن يخفى عنك ، فلعل ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمى ؟ ليكن لك ما تريد

ألا فاعلم أننا لسنا معك ، بل معه « هو » . ذلك هو سرنا . اننا منذ زمان طويل قد كفنا عن أن نكون معك ، وتحيزنا له « هو » . فمئذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً ، أعنى الهبة الأخيرة التى عرضها عليك وهو يشير لك الى ممالك الأرض* : لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر ، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين ، رغم أننا لم تنجز الى الآن عملنا . ولكن من المذهب فى هذا ؟ ان هذا المشروع ما يزال فى أوله ، ولكنه بُدئ . ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به الى غايته ، ولا بد من آلام كبيرة فى هذه الحياة الدنيا ، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون . وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر فى سعادة مشتركة تنعم بها الانسانية . لقد كان فى وسعك أن تقبل السيف من قيصر فى الماضى ، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة ؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التى نصحك بها الروح القوى ، اذن لكان فى وسعك أن تحقق كل ما تتمناه الانسانية ، وهو أن تعرف : من تطيع ، والى من تمهد بقيادة ضميرها ، وبأى وسيلة توحد جميع البشر فى مجتمع كمجتمع النمل ، واحد كبير منظم . ذلك أن الحاجة الى الوحدة الشاملة هو ثالث هموم النفس الانسانية وهو فى الوقت نفسه أقوى هذه الهموم طراً . ان الانسانية قد حاولت فى جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل . ان هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد ، ولكن شقاءها كان كبيراً على مقدار نبليها ، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة الى توحيد النوع البشرى . ان الغزاة الكبار ، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان ، الذين مروا على الأرض مرور اعصار مخرب وعاصفة مدمرة ، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم بأسره ، ولكن شوقاً عميقاً واحداً الى توحيد جميع الشعوب كان يحركهم دون أن يشعروا بذلك . فلو أنك قبلت قانون القياصرة ومقامهم ، لكان فى

وسمك أن تبني الامبراطورية الشاملة وأن تكفل السلام للانسانية الى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر ان لم يقع على أولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويملكون الأغذية الأرضية ؟ لقد أخذنا السيف اذن من قصر ، واذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لتتبعه « هو » . ستتقضى قرون طويلة فى فوزى التحلل الفكرى والعلم الباطل وأكل لحوم البشر ، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا فى بناء برج بابل بدوتنا لا بد أن ينحدروا حتماً الى أكل لحوم البشر . ولكن « الوحش » سيجيء بعد ذلك الينا زاحفاً ، وسيلقم أرجلنا التى سيملها بدموعه الدامية . وسوف نركبه ، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة : « السر » . ويومئذ انما ستدق ساعة السلام والسعادة للانسانية . انك فخور بصفتك المختارة ، ولكن الصفوة وحدها معك ، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس . وحتى بين أبناء هذه الصفوة المختارة ، حتى بين هؤلاء الأقوياء ، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك ، فانتظروك عبثاً ، ثم سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم ، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلوبهم على غايات أرضية صرفة ، وانهى بهم الأمر الى رفع راية حريتهم عليك ! ألسنت أنت الذى أعطيتهم راية الحرية هذه ؟ أما نحن الذين نهش على البشر بعصانا ، فإن البشر سيكونون سعداء معنا ، وسيعزفون عن التمرد علينا . ولن يبيد بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن فى كل مكان بفضل الحرية التى تركها لهم . وسوف نعرف كيف نقتنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً الا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم ، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا رجعة عنه . هل ما تقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب ؟ انهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة ، لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التى قادتهم اليها حريتك . ان التحلل ، وحق حرية النقد ، والعلم ، ان كل ذلك سيؤدى بهم الى طريق غير

نافذة ، لأنه سيلقيهم فى اضطراب لا مخرج منه على الألفاظ التى لا سبيل الى حلها ، زاحر بالمعجزات المحيرة . فأما العصاة العنيفون منهم فسيدمرون أنفسهم من شدة الكرب ، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً . ولكن الجمهرة الكبرى من الضعاف ، وهم أشقى من أن يتردوا ويعصوا ، فانهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا : « أتم على حق . انا نعرف بهذا الآن ، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسرارهم . نحن نعود اليكم . اتقنونا من أنفسنا ! » . وحين سيتلقون الخبز من أيدينا ، سيرون حق الرؤية انهم هم الذين أنتجوه بعملهم ، وأنا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة . سيفهمون أننا لم نقلب حجارة الى خبز ، ولكنهم سيغتبطون بأنهم طعموا ، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا : لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنوه كان ، بدوتنا ، يتحول فى أيديهم الى حجارة ، حتى اذا رجعوا اليها تحولت الحجارة خبزاً لهم . سيعرفون كيف يقدرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائى ! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم الا شقاء ، ما ظلوا لا يفهمون ذلك . فمن ذا الذى ساهم أكثر من غيره فى قلة الفهم تلك ؟ من الذى خرب تلاحم القطيع وبعثه فى طرق مجهولة ؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد ، وسعود الى طواعيته ، الى الأبد فى هذه المرة . وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة البجانة سعادة متواضعة وادعة هى السعادة الوحيدة التى تناسبهم . سنعلمهم أخيراً أن لا يزهاوا بأنفسهم ، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم متكبرين . سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم ولا شجاعة ، وأنهم أطفال يرئى لحالهم ، ولكن سعادة الأطفال هذه هى أعذب سعادة . سوف يصبحون خجولين ، وسوف ينظرون الينا نظرتهم الى حماة يحمونهم ، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراس الدجاجة حول أمها . سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا ، فخورين بأن لهم سادة يملفون

هذا المبلغ من القوة والذكاء ، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع من البشر الذى لا تهدأ حركته ولا يحصى عدده . سوف يرتشون خوفاً أمام غضبنا ... سوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال . ولكنهم ، بإشارة منا ، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة الى الفرح والمرح والغبطة ، ضاحكين بهناء ، مقنين كالصبيبة الصغار . وسنجبرهم على العمل طبعاً ، ولكننا سنهيء لهم فى ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب ، فيها أغانٍ وجوقات وحتى رقصات بريئة . أوه ! وسنسمح لهم أيضاً بأن يأثموا ما داموا ضعافاً الى هذا الحد من الضعف ، وسيجبوتنا كالأطفال بسبب تسامحنا . سنقول لهم ان كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هى ارتكبت بموافقتنا . سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نجبهم ، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنا ، لا بأس ... لسوف يجبوتنا على أننا مخلصون لهم ، لأننا سوف نقبل أن نكون مسئولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب . ولن يكتموا عنا سراً . سنبيح لهم أو نخطر عليهم ، تبعاً لدرجة طاعتهم ، أن يعيشوا مع نساءهم أو خلياتهم ، وأن ينسلوا أو أن لا ينسلوا ، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين . سيفضون لنا بأخفى ما يعانون من آلام ، وأخفى ما يضطرم فى ضميرهم من أنواع العذاب . وسنفصل فى جميع الحالات ، وسيرتضون حلولنا سعداء ، لأنها ستحررهم من القلق الذى يعاينهم المرء متى كان عليه أن يتخذ قراراً حراً . وسيكون جميع الناس سعداء ، جميع هؤلاء الملايين من البشر ، باستثناء بضعة مئات من الألوف الذين ستقودهم : سنكون وحدنا أشقياء ، نحن الذين نملك السر . سيكون فى هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء ، لن يكون فيه الا مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة ، معرفة الخير والشر . وسوف يموت أولئك موتاً غامضاً ، ينطفئون باسمك وادعين مسالمين ، فلا يجدون فى الحياة الآخرة الا

العدم • ولكننا سنعرف كيف نحفظ بسر الموت ؟ ومن أجل سعادتهم سنألىء أمام أبصارهم جمال المكافات السماوية والحياة الأبدية • لكن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء الضعاف ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى • ان النبوءات تزعم أنك ستمود فى يوم من الأيام لتحقيق نصرأ جديداً على الشر ، وأنت ستظهر محاطاً بمن اصطفت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم • لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء انما أنقذوا أنفسهم وحدها ، أما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة • يقال ان الزانية الدنيئة التى تركب « الوحش » * وتحمل يديها « كأس السر » ، سيجلها الخزي والعار ذات يوم وان الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون رداءها الدينى الكاذب ويعرّون جسد « النجس » • ولكننى سأنهض عندئذ فأثير لك الى تلك الميارات من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة ؟ ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لتحقيق سعادتهم ، سوف نمثل أمامك ونقول لك : « احكم علينا اذا كنت تستطيع ، اذا كنت تجرؤ ! » • ألا فاعلم اننى لا أخشاك • ألا فاعلم اننى عشت أنا أيضا فى الصحراء أقات بالجراد وجذور النبات ، وأننى باركت الحرية التى وهبتها للبشر • وكنت أنهيأ لأن أدخل سلك صفوك المختارة ، وأن أكون واحدا من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير ، وكنت أحترق شوقاً الى أن « أكمل عددهم » • ولكننى رجعت الى صوابى فى الوقت المناسب ، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة • لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضمت الى صف أولئك الذين يعملون فى « اصلاح ما قمت أنت به » • تركت صفوف المتكبرين ، وانضمت الى المساكين لأعاون فى تحقيق سعادتهم • ان ما أعلنه لك اليوم سيتحقق ، وان مملكتنا ستبنى فى هذا العالم • أعود فأكرر لك : انك سترى غدا هذا الجمهور المطيع ، هذا القطيع الطيِّع

يسرع بإشارة منى الى اضرام ألسنة اللهب التى ستُحرق بها مزيدا من الاضرام باضفة فحمٍ متقد الى النار . ذلك أنتى سأمِر بحرقك لأعافيك على أنك جئت تدخل البلبلة فيما تقوم به من عمل . لئن وجد زنديق يستحق أن يهلك فى النار ، فهذا الزنديق هو أنت . غداً ستُحرق . انتهى كلامى . . .

صمت ايفان . كان قد تحمس أثناء الكلام ، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامح . حتى اذا فرغ من حديثه ظهرت فى شفتيه ابتسامة على حين فجأة .

وقد أصغى اليه أليوشا صامتاً ، ولكنه فى أواخر الحديث حاول مراراً ، وقد استبد به اضطراب داخلى عنيف ، أن يقاطع أخاه . ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية . وها هو ذا الآن يدع لاستيائه أن ينفجر ، ويكاد يشب عن مقعده . صاح وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

- ولكن . . . ولكن . . . ان قصيدتك تمدح المسيح فى الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو . من ذا الذى يقبل تأويلك هذا للحرية ؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية ؟ ان الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه . . . انك تعرض تصور الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية ، بل ان هذا التصور ليس تصور جميع الكاثوليكين - ذلك خطأ ! - وانما هو تصور أشرارهم فحسب ، هو تصور أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين ! . . . ثم ان صاحبك كبير المفتشين رجل لا صلة له بالواقع ، وانما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها . ما هى خطايا البشر التى يدعى أنه أخذها على عاتقه ؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا لا أدرى أى عذاب

فى سبيل سعادة الانسانية ؟ أين وجد هؤلاء ؟ انا نعرف اليسوعيين •
 لقد قيل فيهم سوء كثير ، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التى ترسمها
 لهم ؟ انهم ليسوا كذلك البتة ... كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش
 الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا فى المستقبل امبراطورية الأرض
 التى سبأها جبر روما بربتة امبراطور ... ذلك هو مثلهم الأعلى ،
 وهو لا يشتمل على سر ولا على ذلك الحزن النبيل الذى لا يفهم ...
 انه الظلم إلى السيطرة والتسلط ؛ انه شهوة الفوز بخيرات الأرض
 الفقيرة ؛ انه الرغبة فى استعباد الناس ... انهم يحملون العودة الى نوع
 من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين والمتنعين ... ذلك هو طموحهم
 كله ! ولعلمهم لا يؤمنون حتى بالله ... ليس صاحبك المفقش وليس عذابه
 النبيل الا خيالاً محضاً ...

قال ايفان ضاحكاً :

- لحظة ، لحظة ... لماذا تتحمس ؟ ثمرة من ثمرات خيالى ؟
 لا أعارض فى هذا • ذلك كله خيال طبعاً • ولكننى أرجو أن تسمح لى
 بالقاء هذا السؤال : هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية فى القرون
 الأخيرة لم تستلهم الا الظلم إلى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الفقيرة ؟
 لا شك أن الأب بائيسى هو الذى قال لك هذا الكلام !

- بالعكس ! ان الأب بائيسى قد قال لى فى يوم من الأيام كلاماً
 يشبه كلامك تقريباً ...

كذلك قال ألبوشا ، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً :

- أعنى ... انه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة ...

قال ايفان :

- اسمع اسمع • هذا اعتراف له شأنه رغم قولك « بالعكس » !

كيف تستطيع أن تصدق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لأشياء الامتلاك الخيرات المادية الخفية ؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم في يوم من الايام ولو انسان واحد من الصفوة المختارة يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب الانسانية ؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم ، في عداد هؤلاء الطامعين الظالمين الى المباحج الأرضية السافلة رجل واحد ، رجل واحد شبيه بصحبي كبير المفتشين عاش في الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته في سبيل الوصول الى الحرية والى الكمال . تخيل أن هذا الرجل قد أحب الانسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفسية التى يقال ان السمو الروحى يحققها انما هى وهم باطل ما دام ملايين البشر الآخرين ، وهم مخلوقات الالهة مثله ، ما يزالون غارقين فى أقذار الفحش ، وأن حريتهم المزعومة ليست الا سخرية لاذعة مرة ، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا فى يوم من الايام عمالقة قادرة على اكمال بناء البرج ... أى أنهم لن يصلوا فى يوم من الايام الى حريتهم ، وأن حلم الانسجام والتناسق الذى حلم به المثالى الكبير لم يخلق لهذا التنوع من الأوز ! ... تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك ، فعاد الى صوابه ، وانضم الى الناس الأذكياء ... أهذا فى رأيك افتراض مستحيل ؟

قال أليوشا فيما يشبه الغضب :

- الى من انضم ؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء ؟ انهم لا ذكاء لهم البتة ، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر ! هؤلاء زنادقة ... ذلك سرهم كله ! ان صاحبك المفتش لا يؤمن بالله ... الأمر بسيط !

- لنسلم بهذا . لقد فهمتَ أخيراً . صحيح ، انه أصبح لا يؤمن بالله ، ذلك كل سرّه . ولكن أليس هذا عذاباً بالنسبة الى رجل مثله

أفسد مستقبله ب حياة التقشف في الصحراء ثم لم يستطع أن يتحرر من حبه الانسانية ؟ لقد رأى في أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التي أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العصاة الضعاف ، حياة هذه « المخلوقات الناقصة التي كانت للخالق تجربة ، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة » . فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذي نصح به الروح العميق ، الروح الرهيب ، روح الموت والعدم . واذ كان منطقياً مع نفسه ، فقد أقر ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم ، بنية السير بهم الى الموت والى العدم سيراً واعياً ، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق ، حتى لا يكتشفوا الى أين يسار بهم . فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء . لاحظ أنه يرى نفسه مضطراً الى مقارفة هذا الكذب باسم ذلك الذى آمن به ايماناً مشبوحاً طوال حياته . أفليس هذا عذاباً ؟ ألا انه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف « الجيش الظالم الى السيطرة والى اللذات المادية الدنيئة » ، لكان فى هذا ما تخلق منه مأساة حقّة ! أكثر من ذلك : يكفى أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاتوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجّهة فى فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكنيتها ويسوعيتها ، فكرة " عليا . أقول لك بصراحة : اتنى على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وجدوا فى جميع الازمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية ، وربما وجد منهم بين الباباوات انفسهم ! ومهما يكن من أمر ، فان ذلك المعجوز اللعين الذى يصرّ ذلك الاصرار كله على حب الانسانية على طريقته يمكن أن يوجد فى أيامنا هذه ، مع عدد من أمثاله ، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله

نتيجة مصادفة ، بل ثمرة تفاهم واتفاق ، وأن يكون نوعاً من جمعية سرية أنشئت من زمن طسويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضمءاء والبؤساء ، وتأمين سعادتهم بذلك . لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً . هذا لا مناص منه . ويبدو لى من جهة أخرى أن الماسونيين الأحرار لا بد أن يكون لهم هم أيضاً سر من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم . ولعل هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وبغض ، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون الى وحدة الفكرة ، بينما يجب أن لا يكون هناك الا قطع واحد وراع واحد ... ولكننى ألاحظ اننى فى دفاعى عن فكرتى أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال تقدمك . كفى هذا ...

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله فى تلك اللحظة :

— أترأى تنتمى الى الماسونيين الأحرار ؟

ثم أضاف يقول :

— أنت لا تؤمن بالله .

ولكنه أضاف هذه العبارة بلمهجة تنم عن حزن عميق فى هذه المرة . حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح فى وجهه السخر .

وسأله فجأة وهو خافض عينيه :

— كيف تنتهى قصيدتك ؟ أهى تقف عند هذا الحد ؟

— خطر ببالى أن أختمها على النحو التالى : صمت كبير المقتشين ينتظر من مسجنيه رداً . ان صمت السجين قد ثقل على نفسه . لقد أقصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدث الى بنظرة رقيقة نافذة ، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل فى مناقشة معه . كان العجوز يؤثر على ذلك أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهية . ولكن السجين لم

ينطق بكلمة واحدة • وهذا هو يقترب من المعجوز فجأة فيقطع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتى من بلغ من عمره التسمين • كان ذلك كل جوابه • ارتمش المعجوز بتأثير هذه القبلة ، واختلج شيء ما فى طرفى فمه • واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه : « اذهب الآن ، ولا تعد بعد اليوم أبدا ، أبدا ! » • وأوماً له بيده إلى « الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة » • وانصرف السجين •

– والمعجوز ؟

– حرق القبله قلبه ، ولكنه لم يعدل عن فكرته •

– التى هى فكرتك أيضاً ، أليس كذلك ؟

بهذا صاح أليوشا يقول فى مرارة • فأخذ ايفان يضحك • وقال :

– ما بك يا أليوشا ؟ ما هذا كله بجذ • هى قصيدة سخيفة ألّفها طالب غبى لم يكن فى يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر • فلماذا تهتم بها هذا الاهتمام كله ، ولماذا توليها هذا الشأن كله ؟ أترك سستظن أننى ذاهب الى الخارج لأنضم الى هؤلاء اليسوعيين ولأنخرط فى صفوف أولئك الذين يدعون « اصلاح ما قام به المسيح » ؟ فيم يعينى هذا كله ؟ لقد سبق أن قلت لك ان كل ما يعينى هو أن أديم ابتهاجى الى الثلاثين من العمر ثم أرمى الكأس !

هتف أليوشا يقول ممثلاً مرارة :

– وبراعم الربيع الفضة ، ماذا أنت صانع بها ؟ والقبور العزيزة عليك ، والسماء الزرقاء ، والمرأة التى تحب ؟ كيف ستعيش اذن ، وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب ؟ انك بهذه الأفكار الجهنمية فى رأسك وفى قلبك لن تستطيع ذلك ! بلى بلى ... انك مسافر الى الخارج لتضم اليهم ، والا فستقتل نفسك ... انك لن تصمد !

قال ايفان ببطء وهو يتسهم ابتسامة باردة :

- فى نفسى قوة ستتيح لى أن أصمد مع ذلك •

- أية قوة ؟

- قوة آل كارامازوف ... قوة الحطة والخسة فى آل كارامازوف !

- ماذا اذن ؟ أفرق فى المهر والفجور والفحش ، أخلق الروح فى حضيض الجسد ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟

- ربما ... ولكننى سأعرف كيف أتحاشاه حتى الثلاثين من العمر • وبعدئذ ...

- ستعرف كيف تتحاشاه ؟ كيف ؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هى هذه الأفكار ...

- بل سأعرف كيف أتحاشاه ، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضاً •

- على طريقة آل ... أ يكون ذلك باستيحائك النظرية القائلة ان « كل شىء مشروع » متى كان متفقاً والمصلحة ؟

قطب ايفان حاجبيه وشحب لونه شحوبا غريبا • وقال :

- آه ! أأنت تلمع الى الفكرة التى عبّرتُ عنها أمس عند شيخك ، فكان أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف ... تلك الفكرة التى تلقفها دمترى فصاعها تلك الصياغة الساذجة المفرطة فى السذاجة ؟ (أضاف ايفان ذلك وهو يتسهم ابتسامة متكلفة) ... ليكن ! هو كذلك على وجه الاجمال ! كل شىء مباح • قلت ذلك ولن أنقضه • أما صياغة ميتيا فليست رديئة هى الأخرى ...

نظر اليه أليوشا صامتا •

واستأنف ایفان كلامه يقول بانفعال مباغت :

- كنت أحدث نفسي يا أخى بأننى سأحتفظ حين أسافر بانسان واحد يحبني على الأقل ، ولكنني ألاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي المعتزل . أنا لن أنكر فكرتي القائلة بأن « كل شيء مباح » ؛ ولكنك أنت ستكرني بسبب هذه الفكرة ، اذا صدق فهمي ، أليس كذلك ؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه ، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئاً .

هتف ایفان يقول في حماسة :

- هذا سطو أدبي . لقد سرقت الفكرة من قصيدتي . شكراً شكراً على كل حال . انهض يا أليوشا . آن أوان الانصراف ، لي ولك على السواء .

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الكاباريه .

قال ایفان بصوت جازم :

- اسمع يا أليوشا ... اذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحب براعم الربيع النضرة ، فيسكون هذا بفضل ذكراك . سوف يكفيني في ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا في مكان ما حتى أسترده حب الحياة فوراً . هل يرضيك هذا ؟ عُدَّ تصريح حب ان شئت . والآن ... ان طريقينا يفترقان . ستمضي أنت يمنية ، وسأمضي أنا يسرة . كفي ثمرات ، هل فهمت ؟ وحتى اذا لم أسافر غداً (وأنا أعقد انني سأسافر) ، فالتقينا مرة أخرى ، فلا تعد الى هذه المسائل التي ناقشناها اليوم ، أرجوك . حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع ! ولا تكلمني أيضا عن دمتری في المستقبل ، انني أطلب منك هذا جازماً

قاطعاً • والأفضل أن لا تكلمنى بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بمصيبة مباغته) • لقد استفدنا كل ما كان علينا أن نقوله ، أليس هذا صحيحاً ؟ وفى مقابل ذلك فانتى أقطع لك هذا الوعد : حين سأقرر فى الثلاثين من العمر أن « أرمى الكأس » ، فسوف أجيء لأراك مرةً أخرى ، حينما كنت أعيش فى ذلك الحين ••• ولو كنت أعيش فى أمريكا ••• سأجيء اليك فنتناقش من جديد ••• فى وسعك أن تعوّل على هذا • سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض • سيشوقنى أن أراك عندئذ وأن أعرف ما الذى صرت اليه • ذلك عهد أقطعه على نفسى • وقد لا نلتقى قبل انقضاء سبع سنين أو عشر سنين • اذهب الآن ، أسرع الى صاحبك «الأب سيرا فيكوس» ، لأنه يحتضر • فإذا مات فى غيابك فقد تحقد على لأنتى أخرتكَ • الى اللقاء • قبلنى أيضاً ••• هكذا ••• والآن فاذهب •••

تركه إيفان وسار فى طريقه دون أن يلتفت • ان هذا الانصراف المباغت يذكر بالطريقة التى ترك بها دمترى أخاه أليوشا أمس ، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف • مسَّ هذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً ، فشعر فجأةً بحزن وارهاق • لبث فى مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذى كان يتبعده لاحظ ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك فى تلك اللحظة ، أن مشية إيفان كانت متمايلة بعض التمايل وان كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف الأخرى • انه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل • وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً • كان الظلام قد هبط • شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه • لقد نبت فى نفسه احساس لم يستطع أن يستبين طبيعته • هبَّت الريح كما هبت فى الليلة البارحة • وغمرته أشجار الصنوبر التى تبلغ السنة المائة من أعمارها ، غمرته

بحفيف شجى حزين حين دخل غابة المنسك • كان يركض • « الأب سيراڤيكوس » ، أين تراه وجد هذا الاسم ؟ كذلك تسأل أليوشا •

- ايفان ، أخى المسكين ، متى عسى أراك ؟ ... هذا هو المنسك ! آه ... يارب ! نعم نعم ، سوف يتقضى « الأب سيراڤيكوس » * ... سوف يتقضى منه الى الأبد •

سوف يتسأل أليوشا مرارا أثناء حياته ، فى دهشة عميقة ، كيف أمكنه فى ذلك اليوم ، بعد أن ترك أخاه ايفان ، أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمتري ، مع أنه كان قد عزم عزمًا أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يشر عليه مهما كلف الأمر ، ولو اضطر فى سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب الى الدير فى تلك الليلة •

حيث لا سبيل إلى الفهم بعد



ايغان فيدوروفتش ، بعد أن ودّع أليوشا ، إلى مسكنه أى إلى منزل أبيه فيدور بافلوفتش . ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يطاق ، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته . وليس القلق والحزن اللذان يشعر بهما هما اللذان يدهشانه ، وإنما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد لهما سبباً . لقد سبق له كثيراً في الماضي أن أحس بحزن يستولى على نفسه ، ولا غرابة في أن يكون حزينا في هذه اللحظة التي يتهاى فيها للمسفر بعد أن قطع صلته بكل ما يشده إلى هذه المدينة ، والتي بهم فيها أن يسير في اتجاه جديد ما يزال يجهله . سوف يكون وحيدا من جديد ، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل ، مع آماله العريضة الواسعة ، لأنه ينتظر من الحياة أشياء كثيرة ، لعلها مسرفة في الكثرة ، دون أن يعرف ما هي هذه الأشياء من جهة أخرى . وهو يشعر بأنه عاجز عن أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة . غير أن الشيء الذي يعذبه في هذه اللحظة ليس هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد ، رغم أن هذه الخشية قائمة في نفسه . تساءل قائلاً : « أتراه هو الاشتزاز الذي يوقظه في نفس منزل أبي ؟ لكأني قد بلغت من كره هذا المنزل أنني لا أستطيع التغلب على

التقزز من الذهاب اليه رغم علمى بأننى أجتاز عتبه آخر مرة ... ولكن لا ... لا ... ليس هذا سبب الارهاق الذى أشعر به الآن . أهو اذن وداع أليوشا والحديث الذى جرى بينى وبينه ؟ لقد أصررت على الصمت سنين طويلة ، لا أتذلل أن أفتح فمى بكلمة لانسان ، ثم هأنذا أخرج جميع تلك السخافات دفعة واحدة . ، صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلّة تجربته وشدة غروره ، غرور المراهق ، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبر عن نفسه كما كان يمتنى أن يعبر ، ولا سيما أمام انسان كآليوشا ينتظر منه فى قرارة نفسه أشياء كثيرة . لا شك أن فى نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف ، ذلك لا بد منه . ولكن ليس هذا ما ينقل على صدره الآن ويخنفه خنقاً ... هناك شيء آخر ... ولكن ما هو ؟ ان غماً يملأ جـوانب نفسى حتى ليكاد يثير غيائى ، ولست أسئل الى معرفة ما يعوزنى ومعرفة ما أريد . لعل الأفضل أن لا أفكر فى هذا الأمر

حاول ايفان فيدوروفتش أن لا يفكر فى هذا الأمر ، ، ولكنه لم يفلح . ان الغم الذى يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة . ان ايفان يحس ذلك احساساً واضحاً . ان الأمر أمر شيء أو شخص - لا يدري ايفان على وجه الدقة - لا يطاق وجوده فى نظر ايفان . ان ايفان يحس بضيق شبيه بالضيق الذى يشهده فى النفس أحياناً ، أثناء العمل أو أثناء حديث حار ، وجود شيء مزعج لم يره المرء رؤية واعية بعد ، ولكنه يفتاظ منه غيظاً يحاصره ويسد عليه الأبواب الى أن يخطر بباله أخيراً أن يزيج سبب هذا الانزعاج الذى كثيراً ما يكون سبباً تافهاً : شيئاً ليس فى مكانه ، منديلاً ساقطاً على الأرض ، كتاباً نُسئ وضعه فى المكتبة ، الخ .

بلغ ايفان منزل أبيه أخيراً ، معتكر المزاج جدا ، محتاج الأعصاب

اجتياجا شديدا • وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدى ألقى نظرة على مدخل المنزل فأدرك على حين فجأة ما كان يحقنه ويعذبه طوال الطريق •

كان الخادم سمردياكوف جالسا على دكة قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة الجو • فما ان لمح ايفان فيدوروفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خياله على غير علم منه ، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يعطيقها • لقد اتضح كل شيء • فحين كان أليوشا يحدثه ، فى الكاباريه ، عن اجتماعه بالخادم ، شعر ايفان بانزعاج شديد ونفور قوى لم يلبث أن استحال الى غضب وحق • ولقد انقطع عن التفكير فى سمردياكوف أثناء الحديث الذى أعقب ذلك ، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقى فى قلبه ، فلما ترك أليوشا واتجه الى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحساس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء الى أصله • تسام ايفان محتداً : « كيف يمكن أن يقلقنى هذا الجرو الغبى مثل هذا الافلاق ؟ » •

والواقع أن ايفان فيدوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة • وكان يدرك هو نفسه أن العداء التى يشعر بها نحو هذا الانسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً • ولعل عداوته له قد استفحلت واحتدت لأن موقف ايفان فيدوروفتش من الخادم كان عند وصوله الى مدينتنا يختلف عن هذا الموقف كل الاختلاف • لقد أظهر ايفان فى ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام بالخادم ، حتى لقد عدّه امرءاً طريفاً كل الطرافة ، وشجّعهُ على أن يتحدث اليه ، دون أن يفوته مع ذلك ما كان فى أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك ، أو قل من بعض القلق ، وكان ايفان يتساءل : ترى ما الذى يهزُّ فكر هذا « المتأمل » على هذا النحو بغير انقطاع ؟ لقد عاجلنا موضوعات فلسفية ، وناقشنا ، فيما ناقشنا ، مسألة الضياء من أين جاء فى أول يوم من أيام خلق

العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق الا فى اليوم الرابع من أيام الخلق ؟ وتساءلا : كيف يمكن تأويل هذه الآية من التوراة ؟ ولكن ايفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالكواكب كثيرا وأن مسائل علم النجوم لا تعنيه كثيرا وان تكن جذابة . كان واضحا أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذا تماما . وشيئا فشيئا ظهرت أنانيته وظهر غروره ، يفاقمهما أنه سريع التأذى على ادعاء وتبجح . فهذه الخصال لم تعجب ايفان ، وولدت نفوره منه وكرهه له ، وبعد ذلك ، حين انبثقت المشكلات العائلية المعقدة بظهور جروشكا وقيام المنازعات بين دمترى وأبيه ، أتيح لايقان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع الخادم ، فكان يستحيل عليه ، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائما باضطراب شديد ، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقول ، وما هو الشيء الذى يتمناه هو نفسه . ان ما يلمح المرء فى رغباته من بعد عن المنطق والرشاد ، على نحو غامض ، يثير الدهشة والاستغراب . كان سمردياكوف يستوضح كثيرا ، ويلقى بعض الأسئلة موارد ، لغرض فى نفسه من غير شك ، ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض ، وكان يصمت فجأة فى بعض الأحيان أو ينتقل الى موضوع آخر فى وسط الكلام . ولكن ايفان انما أصبح يحقنه خاصة أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه ، فهو يخاطبه فى غير تحرج ، وهو يمعن فى ذلك مزيداً من الامعان يوماً بعد يوم . وقد ولّد هذا الموقف فى نفس ايفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكرهية قاطعة . ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع ايفان . بالعكس: لقد كان يصطنع فى مخاطبته كثيراً من الاحترام . ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم الى حيث اعتقد ، لا ندرى لماذا ، أنه متضامن مع ايفان فيدوروفتش . فهو يتحدث اليه بطريقة خاصة ، كأن بين الرجلين تفاهماً

مضمرأ سرياً ، وتواطؤاً قائماً منذ زمن طويل ، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما . ولقد لبث ايفان مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقي الذى يثير حنقه المتزايد ، ثم لم يدركه الا منذ بضعة أيام .

أراد ايفان ، وقد استبد به الاشتزاز والغضب ، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف . ولكن سمردياكوف نهض عن دكته ، فسرعان ما أدرك ايفان من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً . نظر اليه ايفان وتوقف . وما أشد ما أحنقه توقفه هذا ! لقد كان ينوى منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف ، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغضب شديد ! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة الى هذا الوجه المصوص الذى يشبه وجوه الخصيان ، والى هذا الشعر المصنف بكثير من العناية على الصديعين ، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس . وكانت عين سمردياكوف اليسرى التى تغضن حاجبها ، تغمز غمزة مأكرة ، فكأنه يقول : « قف ، لن أدعك تمر . ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن تتبادله نحن معشر الأذكيا ؟ » .

ارتعد ايفان غضباً ، وتمنى لو يصيح قائلاً : « امض أيها الجرو ! أنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك ؟ » . فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف ! - أما يزال أبى نائماً أم أنه استيقظ ؟

كذلك سأله برقة فيها اذعان وتسليم أدهشاه ؟ وعلى هذا النحو نفسه الذى لم يكن فى الحسبان أيضاً ، رأى نفسه يجلس على الدكة . وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه فى اللحظة الأولى . كان سمردياكوف واقفاً أمامه ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، ينظر اليه نظرة فيها ثقة بل وفيها قسوة . وقال دون تمجل :

- انه ما يزال يرتاح •

قال ايفان يخاطب نفسه: «آها ! هو الذى يبادرنى بالكلام الآن !»
وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت ، وهو يفض عينه فى
تصنع ، ويقدم رجله اليمنى ، ويهز رأسه حذائه الملمع :

- هل تعلم أنك تدهشنى يا سيدى ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية ، وهو يحاول أن
يسيطر على نفسه ، قائلاً :

- ما الذى يدهشك ؟

ولكن ايفان شعر فى الوقت نفسه ، على اشمزاز وتقزز ، أن فى
نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه •
واستأنف سمردياكوف كلامه قائلاً وهو يرفع عينه ، ويتنسم فى
ألقة :

- لماذا لم تسافر يا سيدى الى تشرماشنيا * ؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول : « ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله
فيجب أن تفهم سبب ابتسامتى » •

قال ايفان فيدوروفتش متعجباً :

- لأى غرض أذهب الى تشرماشنيا ؟

فأجابه سمردياكوف أخيراً :

- لقد رجلك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها فى كثير من الاحاح •

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولى جوابه هذا أى اهتمام
فكأنه يقول له : « انتى أجيبك بأى شئ » ، بأول جواب يخطر على بالى ،
لا لهدف الا أن أقول شيئاً ما •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول غاضباً ، منتقلاً من الاذعان الى الحق بدون تدرج :

- ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية ؟ هلاًّ تكلمت بوضوح ؟ ماذا تريد ؟

ردّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى ، ونصب قامته ، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه ، وظل يتسّم .

- ليس هناك أى شيء هام ... وانما تكلمت بغير هدف محدد أو غاية معينة ...

وساد صمت . صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة . أدرك ايفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب . وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقول له : « سئى الآن هل تغضب أو لا تغضب » . ذلك ما شعر به ايفان على الأقل . وهمّ ايفان أخيراً أن ينهض . ففتح سمردياكوف عندئذ فمه كأنه قد انتظر هذه اللحظة ليتكلم .

قال فى بطء ، بصوت جازم ، وهو يقطع كلامه :

- انتى فى وضع رهيب يا ايفان فيدوروفتش ، وأنا أفساهل كيف يمكننى أن أخرج من المأزق .

ثم تنهد تنهدة كبيرة . عاد ايفان يجلس . واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

- لكأنهما فقدتا كلاهما العقل . انهما يتصرفان تصرف أطفال صغار . انتى أتكلم عن أبىك وعن أخيك دمترى فيدوروفتش . سوف يأخذ فيدور بافلوفتش يعذبنى بأسئلته متى نهض من فراشه ، سوف يسألنى فى كل لحظة : « هيه ؟ ألم تجىء ؟ لماذا لم تجىء ؟ » . وسوف

تستمر هذه الأسئلة الى منتصف الليل ، والى ما بعد منتصف الليل . واذا لم تجب . أجرافين الكسندروفنا (وفى رأى أنها لا تتوى أن تجب . أبدا) ، فسوف يستأنف أسئلته فى صباح الغد منهجماً على : « لماذا لم تجب ؟ متى تجب ؟ » ، كأننى أنا المذنب . والقصة هى نفسها فى الجانب الآخر . فمتى هبسط الفسق ، بل وقبل هبوط الفسق ، يأخذ أخوك دمتري بالاستعداد فيكمن فى مكان قريب مسلحاً ، ويقول لى : « انتبه أيها الوغد ! حذار أيها الوغد ! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئنى ، لأقتلك أنت أول من أقتل ! » . حتى اذا انقضى الليل عاد يعذبنى بأسئلته كأنيك : « ألم تجب بعد ؟ هل تجب قريباً ؟ » . لكأنه يعدنى ، هو أيضاً ، مسئولاً عن سلوك هذه السيدة ! الأمور تسير من سىء الى أسوأ ، وغضبهما كليهما يزداد من ساعة الى ساعة . والخوف يحاصرني حتى لأفكر فى قتل نفسى تخلصاً من هذا المأزق . اننى لا أتوقع منهما أى خير يا سيدى !

قال ايفان منزعجاً :

— ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك فى هذا الأمر ! لماذا ارتضيت أن تكون لدمتري فيدوروفتش مُخبراً ؟

— كيف كان يمكننى أن أبقي بعيداً ؟ اننى لم أحشر نفسى فى الأمر ، اذا شئت أن تعرف ذلك . كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد ، ولكن أخاك ألح وأكرهنى على أن أكون له فى هذه القضية خادماً . وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مسامعى قوله : « لأقتلك يها الوغد ، لأقتلك اذا تركتها تمر ! » . أنا على يقين من أننى سأصاب غداً بنوبة طويلة .

— أية نوبة ؟

— نوبة صرع ، طويلة ، طويلة جداً . ربما دامت بضع ساعات ، وربما استمرت الى الغد . لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام .

سقطت من الشونة • وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الانعواء • يحدث لى هذا فجأة • وفى تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطيب ، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشتوبه ، فوصف لى نلجأ على الجين ودواء آخر • • وكدت أموت •

— يُقال ان نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها • فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة ؟

كذلك سأله ايفان باستطلاع يمازجه غيظ • فقال سمردياكوف :
— صحيح • • لا يمكن التنبؤ بها •

— ثم انك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة •

— ذلك أنتى أصعد الى ذلك الطابق كل يوم ، ومن الجائر جداً أن أسقط منه فى الغد أيضاً • واذا لم أسقط من طابق الشونة ، فقد أسقط فى القبو ، لأننى أذهب الى القبو كل يوم للقيام بالخدمة •

تفرس فيه ايفان فيدوروفتش طويلاً •

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شيء من التهديد :

— يبدو أنك تدبر أمراً • ما الذى تريد أن تصل إليه ؟ أترك ستظاهاً غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام ، هه ؟

كان سمردياكوف قد غص عينيه ، وعاد يهز رأسه حذائه •
وها هو ذا الآن يرجع رجله اليمنى ويقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة :

— هبنى دبرت لهم « مقلباً » من هذا النوع : ان هناك أسباباً وجيهة تدفعنى الى أن أفعل ذلك • لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع اذا كان يملك بعض التجربة ، فسيكون من حقى تماماً أن ألجأ الى هذه

الوسيلة انقاذاً لحياتى • فاذا حدث أن قررت أجرافين الكسندروفنا أن تجىء الى أليك ، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضاً : « لماذا لم تبلغنى ؟ » • سوف يستجى هو نفسه أن يفعل ذلك •

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضباً :

- شيطان يأخذك ! لماذا تخاف على جلدك أيها الجبان ؟ ليست تهديدات دمترى الا كلاماً فى الهواء ! انه لن يقتلك • قد يقتل ، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال •

- بلى ! سيقتلنى كذباً ، وسيقتلنى قبل أن يقتل أى انسان آخر! هناك مع ذلك شئ أخشاه أكثر من هذا أيضاً : هو أن أتهم بالتواطؤ معه اذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون فى حق أليك •

- علام تُتهم فى هذه الحالة ؟

- سيُظن اننى شريك لأننى أطلعت على تلك الاشارات السرية •

- أى اشارات تعنى ؟ سحقاً لأساليبك المخاتلة هذه! هلاً قلت كلاماً واضحاً آخر الأمر ؟

بدأ سمردياكوف يقول مقطعاً كلامه كانما ليضفى على نفسه قيمة وشأناً :

- يجب أن أعترف لك بأن هناك سرّاً بينى وبين فيدور بافلوفتش • فمنذ بضعة ايام ، كما لملك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال !) ، تعود فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفسه بالفتح ، منذ يهبط الليل ، ومنذ يهبط الفسق أحياناً • انك فى الآونة الأخيرة تصعد الى جناحك فى ساعة مبكرة ، وامس مثلاً لم تخرج قط ؛ لذلك فلملك لم تلاحظ شدة اعتصامه بفرقه الآن ، ومدى حرصه على احكام اغلاقها •

انه لايفتح الباب حتى لجريجورى فاسيلفتش اذا هو لم يتعرف سوته على وجه اليقين . ولكن جريجورى فاسيلفتش لا يجيء ، لذلك فأنا وحدى أخدمه فى غرفته . هذا ما قرر أن يعمد اليه منذ اندفع فى تلك المغامرة مع أجرافين ألكسندروفا . وتنفيذاً لأوامره . فأتى أترك المنزل أنا أيضاً متى حلَّ الظلام ، وأمضى أقصى الليل فى الملحقات ، ملزماً بالسهر الى منتصف الليل على كل حال ، لأتربص وأخرج الى الفناء من حين الى حين بنية أن أرى ألم تجيء أجرافين ألكسندروفا . ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بالحاح هو الجنون . انه يفكر على النحو التالى : لا شك أنها تخاف منه ، من دمترى فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) ، لذلك ستؤثر أن تجيء فى الليل مارة من الفناء . وأنا مكلف اذن بانتظارها كل مساء الى منتصف الليل والى ما بعد منتصف الليل . قال لى : « متى ظهرت » كان عليك أن تسرع الى ، فتقرع بابى أو نافذة الحديقة قرعتين أولاً ، قرعتين غير قويتين جداً ، هكذا : طق ، طق ، ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً : طق ، طق ، طق ؛ فاعلم عندئذ أنها جاءت ، فأفتح الباب برفق وهدوء . . ثم شرح لى بعد ذلك اشارة أخرى استعملها حين يحدث شيء استثنائي : أقرع فى أول الأمر قرعتين متقاربتين : طق طق ، وبعد برهة أقرع قرعةً ثالثة أقوى ، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجئ وأتى أريد أن أكلمه ، فيفتح لى الباب ، فأروى له ما وقع . هذا اذا لم تجيء أجرافين ألكسندروفا وانما أوقدت رسولاً برسالة ، أو اذا ظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، فيذلك أستطيع ابلاغه الأمر فوراً . انه يخاف دمترى فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرنى بأن على ، اذا حدث أن كانت أجرافين ايغانوفنا فى المنزل مختلّة به ، فظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، أن أبلغه ذلك فوراً بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات . لقد علمنى اذن اشارتين : الأولى تتألف من خمس

قرعات ، ومعناها أن أجرافين ألكسندروفنا جاءت ، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أنني أريد أن أكلمه حالا . وقد جرّب هاتين الاشارتين أمامي مرارا لا تعلمهما . واذ أن أحداً فى العالم لا يعرف هاتين الاشارتين ، الا أنا وهو ، فانه متى سمع الاشارة سيفتح الباب فوراً بلا تردد ، وبدون أن يلقى أى سؤال (لأنه يخاف أن يسمع صوته) . والمشكلة الآن هى أن دمترى فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الاشارتين . - من أين عرفهما ؟ أنت كشفت له اذن عنهما ؟ فكيف تجرأت أن تفعل ؟

- كيف تجرأت ؟ من الخوف طبعاً ! وهل من سبيل الى الصمت معه ؟ كان لا ينفك يكرر على مسامعى فى كل يوم قوله : « أنت تكذب ! أنت تخفى عنى شيئاً . لأحطمن سافيك ! » وعندئذ أطلعه على هاتين الاشارتين السريتين ليرى على الأقل اننى أطيعه ولا أعصى أمره ، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أنني أخفى عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية .

- اذا كنت تقدر أنه ينوى أن يستخدم هاتين الاشارتين ليدخل ، فما عليك الا أن تمنعه من الدخول ... الأمر بسيط ...

- فاذا اتفق أن كنت فى تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيى بسبب نوبة صرع ؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول ، هذا اذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه فى تلك الحالة من ضراوة وغنف !

- سحقاً لك ولنوبة الصرع التى تتكلم عنها هذه ! كيف علمت أنه نوبة صرع ستصيبك غداً ؟ أتراك تضحك على ؟ - وهل أجرو أن أضحك عليك يا سيدى ؟ هل تظن أن بى رغبة

فى الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع ؟ ان الخوف بعينه هو الذى سيحدث
لى هذه النوبة •

- طيب ... اذا كنت أنت مريضاً ، أمكن أن يتولى الحراسة
جريجورى ، وسوف يمنعه هو من الدخول فى جميع الأحوال •

- ولكننى ممنوع من اطلاع جريجورى فاسيلفتش على هاتين
الاشارتين الا باذن من السيد • أما عن امكان أن يسمع جريجورى
مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك ان جريجورى مريض
منذ أمس ، وان مارفا اجتافتنا تنوى أن تدأويه فى الغد • على هذا اتفاقا
اليوم • وان لها فى مداواة زوجها طريقة غريبة جداً : انها تعرف مزيجاً
من العقاقير تحتفظ به فى بيتها دائماً لمثل هذه الحالات ، وهو سائل قوى
جداً تعرف سره فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها فى الماء وتدأوى به
زوجها ثلاث مرات فى العام تقريباً حين يلح عليه مرض اللمباجو ويصبح
شبه مشلول • انها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش تأخذ تدلك بها ظهره
على طوله خلال نصف ساعة الى أن ينتفخ الجلد ويحمر ، حتى اذا
فرغت من ذلك جرعت ما يبقى فى الزجاجه من هذا السائل بعد أن تلو
دعاه معيئاً ؟ ولكنها تبقى لنفسها من السائل مقدارا قليلاً تشربه مع زوجها
اتهازاً للفرصة • ويجب أن أقول لك أيضاً انهما ، بسبب عدم تعودهما
الشراب ، ما يكادان يحسوان هذا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث
يكونان ، فيناما نوماً عميقاً خلال مدة طويلة • فاذا استيقظا شعر
جريجورى فاسيلفتش كل مرة بأنه شفى من مرضه ، أما مارفا اجتافتنا
فلا بد أن يصيبها صداد • فاذا نفذاً فى الغد عزمهما على استعمال هذا
الدواء ، فانهما لن يسمعا شيئاً ، لأنهما سينامان ، ولن يمنعا دمترى
فيدوروفتش من دخول المنزل •
صاح ايفان فيدوروفتش يقول :

- عجيب ! كل شيء يحدث فى آن واحد • أنت تصاب بنوبة الصرع ، وهما ينأمان نوما عميقا ! أمر لا يُصدق !

ثم أضاف يسأله مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد :

- أتراك ربت هذا التصادف بالمكر والحيلة ؟

- علام أفعل ؟ اننى لا شأن لى فى كل ما يحدث ! كل شيء رهن بارادة دمترى فيدوروفتش وحده ، وبما يعزم عليه ويقرره • فاذا كان ينوى أن يوقع مصيبة فيسفعل ؟ واذا لم يكن ينوى فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه الى ذلك دفعاً ، فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

عاد ايفان فيدوروفتش يقول وقد اصفر وجهه غضباً :

- لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمترى الى هنا ، وأن يتسلل تسلاً ، اذا كانت أجرافين الكسندروفنا لا تفكر فى المجيء الى أبى ، كما قلت هذا بنفسك • لقد أكدت لى أنت هذا منذ لحظة ، وكنت أنا على يقين منذ حللت هذا المنزل أن المعجوز تراوده أوهام ، لأن هذه المخلوقة لن تجيء اليه فى يوم من الأيام • فهلاً قلت لى ما هى الغاية التى يمكن أن يتسلل دمترى الى هنا فى سيلها والحالة هذه ؟ تكلم ... اننى أريد أن أعرف حقيقة ما يجول فى خاطرك •

- انك تعرف هذه الغاية حق المعرفة ، وليس لما يجول فى خاطرى شأن فيها البتة • سوف يقتحم أخوك منزل أبيه حباً بالشر وحده أو من فرط سوء الظن • سوف يتساءل عما يجسرى فى المنزل ، وسيحب من فرط نفاذ صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنها ليست مختبئة فى احداها • وهو يعلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ ظرفاً كبيراً يحوى ثلاثة آلاف روبل ، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط مقود ، وكتب عليه بخط يده : : الى ملاكى

جروشنكا ، اذا هي رضية أن تجيء ، ، وأضاف الى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام : « الى حمامتى الغالية » .

صرخ ايفان يقول خارجاً عن طوره :

- هذا سخف . لن يسرق دمترى مالا ، ولن يقتل أباه لهذا السبب ! لقد كان يمكن أن يقتله أمس ، كمجنون مهتاج ، بسبب جروشنكا ، ولكنه لن يجيء الى هنا ليسرق .

- انه الآن فى حاجة ملحة الى المال ، انه فى ضيق شديد ، صدقنى يا ايفان فيدوروفتش . لا تستطيع أن تتصور مدى رغبته فى الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير) . أضف الى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له . لقد أكد لى ذلك أمس . قال : « ان أبى ما يزال مديناً لى بثلاثة آلاف روبل تماما » . ويجب أن لا يغيب عن بالك يا ايفان فيدوروفتش ، لأن هذا هو الحقيقة بعينها ، أن أجرافين ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت فى ذلك أيسر رغبة . ومن الجائز جداً أن تراودها هذه الرغبة . يجب أن نقول هذا . لقد أسرفتُ أنا فى التعجل حين أكدت أنها لن تجيء الى هنا ، مع أنها قادرة جداً على ان تسدد الى هدف بعيد وأن تداور فى سبيل أن تصبح سيدة حقة . لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف ، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق ، قال لها بصراحة تامة ان هذا سيكون لها حلاً ذكياً ، وكان يضحك وهو يقول هذا الكلام . ليست جروشنكا امرأة غبية ، نق من ذلك ! لن تبلغ من الحماقة أن تزوج رجلاً فقيراً مثل دمترى فيدوروفتش . فما قولك والحالة هذه يا ايفان فيدوروفتش ؟ ولعلك تقدر أن دمترى فيدوروفتش ، اذا أصبحت أجرافين الكسندروفنا زوجة أبيه ، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته ، لا هو ولا أنت ولا أخوك ألكسى . ذلك أن أجرافين

الكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج الا فى سيل أن تنقل الى اسمه جميع ثروة أبيك ، جميع أملاكه العقارية ورؤوس أمواله السائلة • أما اذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج ، فان كلاً منكم سينال على الفور أربعين ألف روبل ، بالتام والكمال • ان دمترى سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه ، وذلك لأن فيدور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته ••• وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمترى فيدوروفتش •••

تقلص وجه ايفان فيدوروفتش ، وألمت به اختلاجة ، واحمر على حين فجأة ؟ وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً :

— قل لى : لماذا كنت تريد أن ترانى مسافراً الى تشرماشنيا ؟ ما هى الغاية التى تسعى اليها ؟ لا يعلم الا الله ما سيحدث بعد سفرى فى هذا المنزل !

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروية ، وهو يحدق الى ايفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه :

— هذا صحيح تماما •

قال ايفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه :

— صحيح تماما ؟ ما معنى هذا ؟

— لئن قلت هذا الكلام ، فلأنتى أشفق عليك وأرمنى لحالك • اسمع لى أن أقول لك : لو كنت فى مكانك لآثرت أن أسافر على أن أجد نفسى مقحماً فى قضية من هذا النوع •••

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طليقة ليس فيها شيء من تحرج ، دون أن يحول بصره عن ايفان فيدوروفتش الذى كانت عيناه قدحان شرراً •

وأعقب ذلك صمت •

ثم قال ايفان بعد لحظة وهو ينهض عن الدكة :

- لا بد أنك أبله ... أضف الى ذلك أنك وغد !

وكان يهمُّ أن يجتاز الباب الحديدى ، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف . وحدث عندئذ شئ غريب : لقد عض ايفان على شفتيه متشنجاً ، وقبض يديه ، فكأنه يهمُّ أن يهجم على الخادم . فأدرك سمردياكوف ذلك ، فارتجف ، وتراجع خطوة الى وراءه . وانقضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى . واتجه ايفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة . ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوى ، مقطّماً ألفاظه ، وقد فاضت نفسه حقاً :

- سأسافر غدا الى موسكو ، اذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك .

هذا كل شئ !

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر فى ذلك الظرف بالحاجة الى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر .

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضى اليه ايفان بهذا السر :

- هذه فكرة عظيمة ! ولكنك تظل معرّضاً للاستدعاء من موسكو

ببرقية اذا حدث هنا شئ .

فتوقف ايفان مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة قوية . فاذا بوضع سمردياكوف يتغير فجأة بمثل لمح البصر سرعة . تبددت الألفة التى كان يصطنعها وتبدد الاهتمام الذى كان يظهره ، تبدد بما يشبه السحر ... وعبر وجهه عندئذ عن انتباه شديد ، كما عبر عن انتظار ذليل خاضع ، وكان عينيه المحدثتان الى ايفان فيدوروفتش بالحاح غريب تسألانه : « ألن تقول شيئاً آخر ؟ ألن تضيف كلمة واحدة ؟ » . فوعود ايفان يقول رافعاً صوته بدون سبب ظاهر :

- اذا حدث شيء فيمكن أن أستدعى من تشرماشنيا أيضا ...
 فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس ، وكأنه ضائع الفكر
 شارد اللب ، ولكنه لا ينقطع عن التحديق الى ايفان فيدوروفتش بالحاج :
 - طبعاً ... اذا حدث شيء ... فستستدعى ... من تشرماشنيا ..
 - الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة ، أما تشرماشنيا فهي قرية
 من هنا كل القرب . هل النفقات التي لا داعي اليها هي التي تقلقك ، أم
 أنت تحب أن توفر على رحلة طويلة فتصحنى بأن أسافر الى تشرماشنيا
 بدلاً من أن أسافر الى موسكو ؟
 - هو كذلك تماماً !

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصوت مرتعش وهو يتسم ابتسامة
 خيثة .

وكان يستعد لأن يتقهقر الى وراء . فما كان أشد دهشته حين رأى
 ايفان فيدوروفتش ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ، ويتجه بسرعة نحو
 الباب وهو ما يزال يضحك . ولكن لو رآه ملاحظ يقف متنبه في تلك
 اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح . ثم
 انه هو نفسه ما كان يستطيع أن يقول ما الذي كان يشعر به حينذاك .
 وكانت مشيته مقطعة ، وكان في حركاته شيء يشبه أن يكون حركات
 آلة .

يلد للراء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى

الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها ايفسان قد ظهرت فى أقواله أيضاً • فانه ما ان دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش فى الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده :



— أنا صاعد الى غرفتى رأساً • لن آتى اليك •
ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر الى أبيه •

لعل مشهد الشيخ كان فى نظره عندئذ لا يطلق ، ولكن اظهاره هذه الكراهية بغير تحرج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه • وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضى به الى ابنه ، لذلك هبّ الى لقائه • ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من ايفسان فيدوروفتش توقف حيث كان ، دون أن ينطق بكلمة ، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب فى الطابق الأعلى •

وظهر سمردياكوف للمجوز فى تلك اللحظة ، فسأله المجوز :

— ماذا به اليوم ؟

فقال سمردياكوف متهرباً :

— انه معتكر المزاج جدا !

- شيطان يأخذه اذن ! ألا فليتك مزاجه اذا كان ذلك يسره ! أما أنت فهيء السماور ثم انصرف • أسرع ! أما من جديد حتى الآن ؟

قال المعجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذى كان سمردياكوف قد اشتكى منه لايفان منذ قليل • انه يلقي عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التى ينتظر زيارتها • ولا داعى الى تكرار هذه الأسئلة هنا • وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحكِمَ اقفاله بالفتاح ، وخلصا المعجوز الى جنونه ، فأخذ يسير فى غرفته طولاً وعرضاً ، منتظراً على نار كئاس الحصى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها اشارة الى أن جروشسكا قد وصلت ، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين الى حين ، فلا يرى فى الخارج الا الظلام •

انقضى شطر من الليل ، ولكن لايفان فيدوروفتش لم ينام بعد • كان يفكر ويتأمل • ولم يرقد على فراشه تلك الليلة الا فى نحو الساعة الثانية • لن نحلل مجرى الخواطر التى دارت فى رأسه ، لأن قراءة ما كان يعمل فى نفسه عندئذ لم يحن حينها ، وسيأتى دورها فيما بعد • ثم ان وصف ما كان يجيش فى قراة قلبه ليس بالأمر السهل ، لأن خواطره كانت غامضة ، وكانت مضطربة مسرفة فى الاضطراب خاصة • وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره • هذا عدا رغبات غريبة كانت تعذبه فى بعض اللحظات • من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية فى أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب الى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً • لماذا ؟ لو سألته هذا السؤال لما عرف بماذا يجيب على وجه الدقة ، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً ، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الاهانة • ثم انه قد اتفق له فى أثناء تلك الليلة أن وافته نوبات خوف مذل لا تفسر له ، بلغ من ادخال الاضطراب فى نفسه أنه أحس بشلل مفاجئ • فى قواه الجسمية •

وكان يشعر في الوقت نفسه بصداق ودوار • واستولى عليه بغض غامض ، كما استولت عليه حاجة الى الانتقام لم تنضج ولم تتحدد • انه يشعر بعداوة حتى لأليوشا ، حين يتذكر الحديث الذي جرى بينه وبينه في النهار • وكان يبدو له في لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها • أما كاترين ايفانوفنا فكأنه نسيها ، فلم تخطر على باله في تلك الليلة الا مرة أو مرتين • وقد أدهشته قلة الاكثرات هذه فيما بعد ، لا سيما وأنه كان في الصباح ، حين أعلن للمرأة الشابة صاحباً أنه مسافر غداً الى موسكو، قد سمع صوتاً يدمدم في قرارة نفسه (انه يتذكر هذا تذكرًا واضحاً) قائلا له : « كذبت ! لن تسافر ! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السهولة التي تتباهى بها الآن ! » • ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صغيرة ستظل تنبجس في خياله كثيرا أثناء السنوات اللاحقة ، فتملؤه استمرازا وتقرزا • لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته مراراً ففتح الباب بدون ضوضاء ، كانه يخشى أن يُسمع ، وخرج الى فسحة السلم ، وأصاح بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذي كان يمشى في غرف الطابق الأرضي • كان يتصت على حركاته بفضول غريب منجس الأنفاس خافق القلب ، لا يدري هو نفسه لماذا يتصرف هذا التصرف ، ولأى سبب يصيح بسمعه اليه دقائق طويلة • لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك في تلك الليلة بأنه « سلوك حقير » ، معتقداً في دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذي كان يحركه حينذاك هو أكبر دماء انحدر اليها في حياته كلها • كان لا يشعر في تلك اللحظات بأية عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه ، وانما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب ، محاولاً أن يتصور ، بفضول قوى ، كيف يمشى أبوه في غرفته محموماً من نفاذ الصبر ، وكيف يقترب من التوافذ المظلمة لينظر الى الخارج ، وكيف يتوقف بعد ذلك في وسط

الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الإشارة المتفق عليها • لقد خرج ايفان الى فسحة السلم على هذا النحو مرتين • فلما عاد الهدوء يخيم على كل شيء ، فأوى فيدور بافلوفتش الى فراشه ، فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، قرر أن يرقد هو أيضاً ، عازماً عزمًا قوياً على أن ينام بأقصى سرعة ، لأنه كان يحس بأنه مهدود القوى • وسرعان ما غرق فعلاً فى نوم عميق لم تتخلله أحلام • واستيقظ فى الصباح مبكراً ، فى نحو الساعة السابعة ، وكان النهار قد طلع • فما ان فتح عينيه حتى أحس فى نفسه بسيل خارق من القوة ، فأدهشه ذلك كثيراً • وما هى الا لحظة حتى نهض عن سريره بوثة واحدة ، ولبس ثيابه ، وأخرج حقيته ، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة • وكانت التسألة قد جاءت ببسيله أمس • ابتسم ايفان فيدوروفتش راضياً حين لاحظ أن كل شيء يسير على خير حال ، وأن سفره المفاجئ لا يصطدم بأية عقبة غير متوقعة • ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً ؟ فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترين ايفانوفنا ، ولأليوشا ، ثم لسمردياكوف) ، فانه لم يفكر فيه البتة حين رقد على سريره (انه يتذكر ذلك الآن) ، ولم يكن يتبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض فى الصباح هى أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل • وسرعان ما امتلأت حقيته وامتلا كيس السفر • فلما أذفت الساعة التاسعة جاءته مرفاً اجئافنا تلقى عليه سؤالها المألوف : • أين تريد أن تتناول الشئ ، هنا أم تحت ؟ • فنزل ايفان فيدوروفتش الى الطابق الأرضى • كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجل العصبى كان بادياً فى حركاته وفى أقواله • وبعد أن سلم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصة ، أعلن ، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله ، انه مسافر الى موسكو بعد ساعة ، ورجا أن يؤمر باعداد الخيل • لم يظهر العجز أية دهشة لاعلان ابنه سفره ونسى حتى أن يعبر عما اصطلاح

الناس على التعبير عنه في مثل هذه الأحوال من أسف ، فكان ذلك لا يخلو من قلة اللباقة . وفي مقابل ذلك لم يفقه أن يطلق فجأة على أمر من أموره الخاصة ، ورأى أن ينتهز الفرصة ليكلّمه فيه . قال :

- أوه ! كان ينبغي أن تبلفني أمس . لا بأس على كل حال ... سيتسع الوقت لحل هذه المسألة . أرجو أن تقدم لي هذه الخدمة يا بني الشهم : توقف في تشرماشنيا عابراً . لن يكون عليك ، حين تصل الى محطة فولفيا ، الا أن تعرج شمالاً مسافة اثني عشر فرسخاً في أكثر تقدير ، فإذا أنت في تشرماشنيا .

- مستحيل . صدقني . ان المسافة من هنا الى محطة القطار أربعة وعشرون فرسخاً ، وقطار موسكو يسافر في الساعة السابعة مساءً ، فلا يكاد يتسع وقتي لادراكه .

- تسافر في قطار الغد أو غداة الغد . أما اليوم فاذهب الى تشرماشنيا . أيصعب عليك الى هذا الحد أن تقدم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك ؟ لولا انني مضطر الى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت الى تشرماشنيا بنفسى منذ زمن طويل . الأمر مستعجل وهام جداً ، ولكننى لا أستطيع الاعتماد عن المنزل الآن ... ان لي في تشرماشنيا غابة من حصتين في أراضي بيجتشوفو ودياتشيكينو . والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان على الا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع ، على حين أن مشترياً آخر كان مستعداً في العام الماضى لأن يدفع لى اثني عشر ألف روبل بكل سرور . لم يكن ذلك المشتري من هذه المنطقة ، وهذا هو تفسير الأمر ، فما من سبيل الى العثور على مشتري من أهل المنطقة ، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها ارادتهم فرض القانون . انهم «كولاك» * وامن أحد يجرؤ أن يقف في وجههم وأن يصمد لهم . ولكن القس يلتسكى كتب لى يوم الخميس

الماضى يقول ان رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الاشجار .
والرجل تاجر هو أيضاً ، وأنا أعرفه . انه من مدينة بوجريبونو ، وهو
لا يخشى آل ماسلوف ، لأنه ليس من سكان المنطقة . انه يعرض أحد عشر
ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع ، فهمت ؟ وقد ذكر لى القس أنه
الآن فى تشرماشنيا الى حين ، وأنه سيأرحها بعد أسبوع . عليك أن
تذهب اليه لتناقش الأمر معه .

— ما عليك الا أن تكتب للقس ، فيتم لك الصفقة !

— انه لا يفهم فى هذه الأمور شيئاً ، ذلك هو المزعج . ان هذا
القس رجل أعمى فى الشؤون العملية . ان له قلباً من ذهب ، واننى لمستعد
أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل . ولكنه قصير النظر حتى لقد
يخدعه صوص . ما هو من هذه الناحية برجل . وهو مع ذلك عالم كبير ،
هل تصور هذا ؟ ان هيئة جورستكين هذا هى هيئة فلاح ، وهو يرتدى
قميصاً أزرق ، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً ! انه يكذب كما
يتنفس . حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشيء الا لذة
الكذب ! لقد روى منذ ثلاث سنين ، مثلاً ، أن امرأته ماتت ، وأنه تزوج
أخرى . فهل تصور أنه كان يكذب ؟ نعم لقد كان يكذب . حتى أن
امراته لم يخطر ببالها أن تموت . وهى ما تزال حية وما تزال تضربه
كل يوم . فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض
أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار .

— انك لتعلم جيداً أننى أنا أيضاً لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً . ففيم
يمكننى أن أفعل ؟

— لحظة . انتظر . يمكنك أن تنفنى ، لأننى سأطلمك على العلام
التي تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور فى نفس جورستكين .
اننى أعرفه منذ عهد بعيد . عليك أن تنظر الى لحيته فتتفد الى خفايا

سريرته • ان له لحية صغيرة حمراء مبشرة ، فاذا أخذت هذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام ، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة ؛ أما اذا رأيته يلعب لحيته بيده اليسرى وهو يتسم ، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يفش • لا تحاول أن تقرأ في عينيه • فليس في وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئاً • انه وغد لئيم ، وما عناه الا ماء عكر • وانما يجب عليك أن تنظر الى لحيته • سوف أعطيك رسالة ، فما يكون عليك الا أن تناوله الرسالة • وليس اسمه الحقيقي جورستكين وانما اسمه في الواقع لياجافى * • ولكن اياك أن تخاطبه باسم لياجافى ، والا استاء استياء رهيباً • ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجرى مجرى حسناً ، فأبلغنى ذلك فوراً : يكفى أن تكتب الىّ فى هذه الحالة هذه العبارة : « ليس يكذب » • حاول أن تصر على الثمن الذى ذكرته لك ، وهو أحد عشر ألف روبل • ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل اذا اقتضى الأمر ، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك • هذا مال يهبط علىّ من السماء لأن المشترين نادرون فى هذه الأيام • وأنا فى حاجة ماسة الى هذا المبلغ • انك لا تستطيع أن تتصور مدى حاجتى الشديدة اليه • فعتى أبلغتني أن الامر جدّ ، وثبت الى هناك لأتم الصفقة بنفسى • سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت • أما أن أذهب الى هناك منذ الآن ، فليس ينفعنى هذا فى شيء ، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله • هيه ؟ اتفقنا ؟ أتذهب أم لا ؟

— لا يتسع وقتى ، فلا تخرجنى !

— أرجوك ، اصنع هذا الجميل لأبيك ! سأذكره لك ما حيت • أأنتم جميعاً اذن بغير قلب ؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة ؟ الى أين تنوى أن تسافر ؟ الى البندقية ؟ ان البندقية لن تهوى الى قاع البحر خلال هذين اليومين ! كان يمكن أن أرسل أليوشا ، ولكن أليوشا لا يفهم فى هذه

الأمر شيئا • ولئن تجهت اليك فلأنك ذكى ، أنا أعرف ذلك • ما أنت بتاجر ، ولكنك ترى رؤية واضحة • المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد • أعود فأكرر أنه يكفى النظر الى لحيته ، فإذا ارتعشت كان يقول صدقا •

صاح ايفان يقول وهو يضحك ضحكة خيشة :

— سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً اذا أنا ذهبت الى تشرماشنيا هذه اللعينة •

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبوة المعادية فى كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الصيحة على الفور فقال :

— اذن وافقت ، وافقت على أن تذهب الى تشرماشنيا • سأكتب الرسالة الصغيرة حالا •

— لا أدرى بعد أأذهب أم لا أذهب • سأقرر ذلك أثناء الطريق •

— لماذا أثناء الطريق ؟ قرر حالا ! بادرة طيبة يا عزيزى ! فاذا سَوَّى الأمر وتمت الصفقة ، كتب الى سطرين تودعهما القس ، فيبادر الى ارسالهما الى بغير ابطاء • ولك بعد ذلك أن تسافر الى البندقية ، فلن أمنعك • وسيعيدك القس الى محطة فولوفيا بعربته ...

تهلل المعجوز فرحاً • وأسرع يكتب الى التاجر رسالة قصيرة • ثم أمر باعداد العربة • وجيء للرجلين بوجبة خفيفة باردة ، وجيء لهما بكونياك • ان عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح فى لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو فى هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه • وقد تحاشى أيضا أن يجيء على ذكر دمترى فيدوروفتش • ولم يكن يلوح عليه من جهة أخرى أنه متأثر لفراق ابنه ، وكان

صامتاً كأنه أصبح لا يجد ما يقوله • فوجيء ايفان بذلك ، وقال يحدث نفسه : « لا شك أن وجودى يضايقه منذ زمن » • ومع ذلك فإن العجز حين شيع ابنه الى درجات الباب بدا متأثراً بعض التأثير وتظاهر بأنه يريد أن يقبله • ولكن ايفان أسرع يمد اليه يده ، راغباً فى تحاشي القبلات رغبة واضحة لا تخفى على الناظر • أدرك أبوه ذلك ، فلجم اندفاعه وأمسك عن تقيله ؛ وأخذ يقول مردداً من على درجات الباب :

— كان الله فى رعايتك ، كان الله فى رعايتك • سوف تأتى لرؤيتى فى يوم من الأيام ، أليس كذلك ؟ أهلاً وسهلاً بك فى منزلى دائماً • اذهب ، ولكن المسيح معك !

ركب ايفان فيدوروفتش العربى • وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة :

— فى أمان الله يا ايفان • لا تؤاخذ أباك !

وكان الخدم قد خرجوا للوداع • كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجورى • أعطى ايفان كلاً منهم عشرة روبلات • وحين استقر ايفان فى العربى أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية • فقال له ايفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصية صغيرة :

— أرايت ؟ هأنذا ذاهب الى تشرماشنيا أخيراً !

وكما حدث بالأمس ، تساءل ايفان لماذا شعر بالحاجة الى أن يبلغ سمردياكوف ذلك ، ولقد ظل يتذكر هذا الامر كثيراً فى المستقبل •

— صحيح اذن أنه يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى ، كما يقول الناس •

هكذا أجاب سمرديا كوف بصوت قاطع جازم وهو يفرس فى ايفان
فيدوروفتش نظرة نافذة •

تحركت العربية ، وانطلقت تعدو • كان المسافر فى البداية فى حالة
نفسية مضطربة ، وكان ينظر الى ما حوله بشراهة ، متأملاً الحقول
والروابى والأشجار • ومرّ سرب من الأوز البرى فوقه ، محلّقاً فى
السماء الصافية • فاذا بايفان يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة • فخطب
الحوذى ، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذى ، ومع ذلك رأى
بعد بضعة لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه ، وانه لم
يدرك ما أراد هذا الموجيك أن يقول له • ولكنه صمت راضياً • الهواء
نقى طرى ، نشيط بعض النشاط ، والسماء صافية لا غيوم فيها • وفى
لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترين • ولكنه ابتسم ابتسامة رفيقة ، وتهد
على الطيفين العزيزين اللذين غابا ، وحدث نفسه قائلاً : سوف
أراهما • • ولم يلبث أن وصل الى محطة العربات • فأبدلت خيله ، واستأنف
طريقه الى فولوفيا • سأل ايفان نفسه فجأة : « لماذا قال لى انه يلد للمرأة
أحياناً ان يتحدث مع رجل ذكى ؟ ماذا كان يعنى بذلك ؟ » • واستغرق
هذا السؤال فكره استغراقاً كاملاً • « ثم ما كانت حاجتى الى ابلاغه اننى
ذاهب الى تشرماشنيا ؟ » • ووصلت العربية أخيراً الى فولوفيا ، فنزل
ايفان • أحاط به أصحاب العربات ، فناقشهم وسأولهم ، وانتهى الى
تحديد أجر ابعاله بخيول ممتازة الى تشرماشنيا التى تبعد مسافة اثنى
عشر فرسخاً فى طريق زراعى • أمر بأن تُقرن الخيل ، ثم دخل الى
المحطة ، فألقى نظرة على القاعة ، ثم اذا به يخرج فيقف على درجات
الباب ويقول :

— لن أذهب الى تشرماشنيا • قولوا لى يا شباب : هل يمكننى أن
أدرك قطار الساعة السابعة ؟

- ستدركه • هل تفرن الخيل ؟
- اقرنوها فوراً • هل منكم أحد يذهب الى المدينة غداً ؟
- طبعاً • مترى ذاهب اليها •
- هل لى منك بجميل تصنعه لى يا مترى ؟ اذهب الى أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وقل له اننى لم أذهب الى تشرماشيا • هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟
- لم لا ؟ اننى أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل •
- خذ هذه المكافأة ، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً •
- قال ايفان ذلك وهو يضحك فرحاً • فأجابه مترى وهو يضحك أيضاً :
- طبعاً • أنا أعرف أنه لن يعطينى شيئاً • شكراً يا سيدى • سأذهب اليه حتماً •
- فى الساعة السابعة من المساء ، استقر ايفان فى حافلة القطار الذى أقله سريعاً الى موسكو • « ألا فليتعذ عنى الماضى ! لقد قطعت صلتى الى الأبد والعالم الذى عشت فيه ، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره ! ألا فليخفف هذا الماضى من نفسى ! ألا فليقطع عن الوصول الى مسمعى أى نداء من الحياة التى أبارحها ! اننى أسافر لا ألوى على شىء ولا التف الى وراء ! هياً الى مستقبل جديد ، الى أمكنة مجهولة ! » بهذا كان ايفان يحدث نفسه • ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح ، أحس بمعض شديد يقبض صدره ، وامتلاً قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل • ظل طوال الليل يفكر ويتأمل ، وسط قرعة القطار الذى كان يجرى بسرعة كبيرة • وعند الفجر ، بينما كان القطار يقترب من موسكو ، خرج ايفان من

خدره فجأة ، ودمدم يقول :

— أنا انسان تيمس !

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه ، وظلّ خلال ساعتين فى حالة قريبة من الهناءة والغبطة ، يفرغ فى جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة . غير أن حادثاً أليماً قد حدث فى المنزل بعد ذلك ، فإذا هو يسدل الحالة النفسية التى كان عليها المعجوز تبديلاً كاملاً ، وإذا هو يغرقه فى اضطراب شديد . ان سمردياكوف الذى ذهب الى القبو قد سقط من على أول درجة ، وتدحرج الى أسفل الدرج . ومن حسن الحظ أن مارفا اجناثفنا كانت فى فناء المنزل عندئذ ، فعرفت هذه النازلة التى وقعت . انها لم تدرك ضجة السقوط ، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التى تعرفها منذ عهد بعيد ، أعنى الصرخة التى تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول النوبة . لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج الى آخر الدرجات لأنه أغمى عليه ، أم أن السقوط والارتجاج الذى نشأ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع . المهم على كل حال ان سمردياكوف وُجد فى قاع الكهف تهزه تشنجات قوية ويخرج من فمه زبد . وقد ظنّ فى أول الأمر أنه قد جرح حين سقط ، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت ، ولكن تبين أن « الله قد سلّمه » على حد تعبير مارفا اجناثفنا ، فلم يُصب بأى أذى . ومع ذلك كان ثقله من القبو الى الهواء الطلق شاقاً . وقد أمكن ثقله أخيراً بفضل الجيران الذى هرعوا يساعدون . وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد فى حمل المريض ، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم .

ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه . وكانت التشنجات تنقطع أحياناً

ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل . وأجمع الرأي على أن الأمور ستجرى فى هذه المرة كما جرت فى السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة . وتذكروا أن الدكتور هرتسنشتوبه قد وصف له حينذاك تلجأ يوضع على جبينه ، وكان ما يزال فى القبو بعض الثلج ، فقلت مارفا اجناتقنا أمر العناية بالمرضى ، حتى اذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشتوبه ، فلم يلبث الدكتور أن جاء ، فبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية ، كما أنه من أحق الناس بالاحترام ، وقد طعن فى السن كثيرا) ، أعلن أن التوبة خطيرة يمكن أن « تعرض الحياة للخطر » ، وأضاف الى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيرا بعد ، ولكنه سيرجع من الغد ، فيصف دواءً جديدا اذا اتضح أن الاجراءات السابقة لم تجد المريض نفعا . وأُرقد سمردياكوف فى ملحقات المنزل ، فى غرفة تتاخم غرفة جريجورى ومارفا اجناتقنا . وفى أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة غير منقطعة من المكدرات والمنقصات ، أولها وجبة الطعام التى أعدتها مارفا اجناتقنا والتى كان حساؤها ، اذا قيس بحساء سمردياكوف ، لا يفضل كثيرا « ماء الفسيل » ، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه ؛ وحين لام رب المنزل مارفا اجناتقنا على ذلك لوماً مرأ وان يكن مسوئاً ، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز ، كما أنها هى مارفا لم توظف فى منزل رب البيت طبخة ! وفى المساء حلّ فيدور بافلوفتش مكدر جديد : « أبلغ أن جريجورى ، وهو مريض منذ يومين ، قد لزم سريره وأن مرض اللماجو الذى يعانى منه قد جمده تماما . وأسرع فيدور بافلوفتش يحشى شايه ، وسجن نفسه فى المنزل وحيدا . انه فى حالة ترقب مهموم مغموم ، وانه لمضطرب اضطرابا شديدا . فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتى فى هذا المساء نفسه ، وهو يكاد يكون من ذلك على

يقين ، لأن سمردياكوف قد أكد له فى ساعة مبكرة من الصباح « أنها وعدت بالمجيء هذه المرة » كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره ، وهو يمشى بلا توقف خلال غرفه المقفرة ، مصيحاً بسمعه الى كل ركن من الأركان ؛ ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة ، لأن من الجائز أن يرقب دمتري فيدوروفتش مرور المرأة الشابة ، فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكد لفيدور بافلوفتش ، منذ يومين ، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تخرج) كان عليه أن يهرع الى الباب لا يضيّع لحظة واحدة ، ولا يجعلها تنتظر فى غير داع الى انتظار ، لأنها قد تخاف فى الظلام فتهرب لا سمح الله ! كان فيدور بافلوفتش قلقاً اذن ، ولكن نفسه لم يهددها فى يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل : ألم يكن فى وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتى أخيراً فى ذلك اليوم ؟!

الباب السادس
الراهب الروسى

الشيخ زوسيماء وضيوفه



ألبوشا غرفة الشيخ فلقاً قد هد قلبه الألم ،
ولكنه توقف على العتبة وقد استبدت به دهشة
قوية : فانه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر
الذي لعله غاب عن وعيه ، رأى الشيخ جالساً
فى مقعد • صحیح أن وجه الشيخ مرهق من التعب ، ولكن هذا الوجه
ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح • وقد تحلق حول الشيخ زوار كان
الشيخ يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً • والحق أنه لم ينهض الا
قبل وصول ألبوشا بربع ساعة • أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا فى الحجرة
منذ زمن طويل ، منتظرين صحوة الشيخ ، لأن الأب بائسى كان قد أكد
لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث آخر مرة الى أجرة قلبه،
كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به فى هذا الصباح • • • ان الأب بائسى
يؤمن بهذا الوعد ، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر ، وقد بلغ
من قوة إيمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس ، لما صدق
أن الشيخ مات ، ما دام الشيخ قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودعه ،
أو لتوقع أن يرثد الشيخ الى الحياة برأ بوعده • وقد صرّح له الشيخ
زوسيماء بوضوح كبير فى الصباح ، قبل أن ينام « انه لن يموت الا بعد أن

يسعد مرة أخرى بالتحدث الى أعرته ، وبعد أن يرى من جديد تلك الوجوه التى أحبها ، وبعد أن يفتح قلبه لهؤلاء جميعا آخر مرة • والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذى يغلب على الظن أنه آخر حديث ، انما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم اخلاصاً له • انهم أربعة : الراهبان الكاهنان جوزيف وبائيسى ، والأب ميشيل ، رئيس رهبان المنسك ، وهو راهب كاهن أيضاً ، ما يزال شاباً بعض الشباب ، متواضع الأصل ، ليس على جانب كبير من العلم ، ولكنه صلب النفس ، قوى الايمان بسيط ساذج ؛ ولئن كان قاسى المظهر ، فان فى قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياءً وخجلاً • أما الزائر الرابع فهو الأخ آتيم ، وهو راهب قصير ، طاعن فى السن شديد التواضع ، قد خرج من بيته فلاحين فقراء ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، رقيق دائماً ، صموت يندر أن يكلم أحداً • وهو خاضع مذعن أكثر من أى انسان آخر ، وكأن عظمة الوجود الرهيبه التى لا يستطيع فكره أن يرقى اليها قد روّعته الى الأبد • لقد كان الأب زوسيميا يحب هذا الراهب المرتعد الخائف حباً كبيراً ، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً ، رغم أنه ليس فى هذا العالم الا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع • ولقد عاش فى صحبته مع ذلك سنين كثيرة ، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة • حدث ذلك منذ زمان بعيد ، منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، أيام كان زوسيميا يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مظلم فقير فى مقاطعة كوستروما • فبعد أن دخل زوسيميا ذلك الدير بزمان كثير ، كلّف بأن يرافق الأخ آتيم فى جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير •

كان هؤلاء الزوار جالسين فى حجرة الشيخ الثانية ، أعنى الحجرة التى كان يتخذها مهجماً له ، والتى كانت كما ذكرنا ضيقة جداً ، تبلغ

من الضيق أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذى ظل واقفاً) ولم يكادوا يجدون فيها متسعاً لهم. لقد جاءوا بكراسيهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ • كان الفسق يهبط ، وكانت تضيء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات • فلما منح الشيخ أليوشا الذى لبث واقفاً على عتبة الباب من شدة اضطرابه ، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ إليه يده قائلاً له :

— طاب يومك يا بنى الطيب ، يا عزيزى أليوشا الوديع • أجتت اذن ؟ لقد كنت أعلم أنك ستجئ!

فاقترب أليوشا منه ، وانحنى له حتى الأرض ، وأجهش باكياً • كان شيء ما يمزق فى قلبه ، وكانت نفسه متقبضةً انقباضاً شديداً ، فهو يمتنى أن ينفجر ناشجاً •

قال الشيخ مبتسماً وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا :

— ما بك ؟ لما يحن حين البكاء على بعد • هأنت ذا ترانى أتحدث فى هدوء • ومن يدري ؟ فقد أعيش عشرين عاما أخرى كما تمنيت لى ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التى جاءت من فيشيجوريا وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها الزبابت • اسأل الله أن يحرس الأم والبنية ! (رسم الشيخ إشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات) • هل حملت قرشها يا بورفير الى حيث قلت لك أن تحمله ؟

كان الشيخ يشير الى مبلغ الستين كوبك التى تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها « لمن هو أفقر منها » • ان الصدقات التى من هذا النوع انما يتصدق بها أصحابها فى العادة على أثر نذر يذرونه أحرارا فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم • وقد أمر الشيخ فى ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفير هذا المبلغ الزهيد الى

امراة فقيرة من ساكنات المدينة ، هى أرملة لها ولدان قد احترق منزلها فى الآونة الأخيرة فأصبحت منذ ذلك الحين تستعطي لتعيش • أسرع بروفير يقول انه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً انه من « محسنة ام تشأ أن تذكر اسمها » •

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا :

- انهض يا صديقى العزيز لأراك قليلاً • هل ذهبت الى ذويك ، وهل رأيت أخاك ؟

دُهِش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الالاحاح . ولكن أى الأخوين يقصد ؟ هل يُسْتَتَج من ذلك أن الشيخ انما أرسله الى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ ؟

أجاب أليوشا قائلاً :

- رأيت أحد أخوى ؟

- أفصد أخاك الأكبر ، أخاك ذاك الرهيب الذى سجدت له أمس •

- ذاك لم أراه الا أمس ، ولم أستطع أن ألقاه اليوم •

- حاول ن تهتدى اليه بسرعة • عد الى المدينة من الغد لرؤيته •
 دع كل شئ ، ولكن رتب أمورك لادراكه • ربما كان لا يزال فى الوقت متسع لتجنب مصيبة • لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التى تتظنره •
 وصمت الشيخ فجأة ، وشرد فكره كأنه يحلم • لقد كانت أقواله غريبة • وهذا هو الأب جوزيف الذى شهد بالأمس تحية الشيخ لدمترى ببادل الأب بائسى نظرة • ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه ، فصاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد :

- أبى ومعلمى ! ان ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً فى النموض
... ما هى المحن التى تنتظره ؟

- لا تحاول أن تعرف ذلك • لقد ترامى لى بالأمس أنتى أدرك
شيئاً رهيباً ... لقد قرأت مصيره فى نظراته • رأيت فى لحظة معينة تعبيراً
خاصاً فى عينه ... تعبيراً أرعشنى بسبب المصير الذى يهيم هذا الانسان
له نفسه • سبق لى مرة أو مرتين فى الماضى أن لاحظت ذلك التعبير فى
نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل ، فتحقق ذاك المصير وا أسفاه ! ولقد
أرسلتك اليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمة "أخوية" أن تساعد بعض
المساعدة • ولكن مصيرنا جميعا هو بين يدي الرب • « ان لم تقع حبة الخطئة
فى الأرض وتمت • فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتي بشمر
كثير » * احفظ هذه الحقيقة • أما أنت يا أليوشا فكثيراً ما باركتك
فى فكرى بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يتسمم
ابتهامة عذبة وديعة) • اليك رأى فيك : سوف تترك الدير ، وسوف
تعيش فى العالم كراهب • سيكون لك أعداء كثيرون ، ولكنهم سيحبونك
هم أيضاً • ان الحياة تخبى لك آلاماً كثيرة ، ولكنك بهذه الآلام انما
ستسعد وستبارك الوجود • وستحمل الآخرين أيضاً على أن يباركوه ،
وذلك هو الشيء الأساسى • ذلك هو رأى فيك وحكمى عليك •

ثم التفت الشيخ الى زواره فقال يخاطبهم وهو يتسمم ابتهامة
ودوداً :

- يا آبائى ومعلمى ، اننى لم أقل الى الآن حتى لهذا الفتى لماذا
يستعذب قلبى وجهه • فسأسر اليكم الآن بهذا • كنت أرى فى قسماته
ذكرى الماضى ونذير المستقبل • ففى فجر حياتى ، حين كنت لا أزال فى
سن الطفولة ، كان لى أخ أكبر مات أمام عيني فى ريعان شبابه ولمّا يكمل

السنة السابعة عشرة من عمره • ولقد رسخ فى اعتقاده أثناء حياتى ، شيئاً بعد شيء ، أن هذا الأخ قد كان له فى تحديد مصيرى دور حاسم ، وأنه كان لى نذيراً وإشارة من الملائ الأعلى ، ويقينى أننى لولاه لما سرت فى طريق الرهينة ولا اخترت الدرب الذى قادنى الى السعادة • ان هذا التجلى الأول للمنايا الالهية قد حدث فى فجر أيامى ، وهأنذا أرى تكرره فى خاتمة المطاف من طريقى • انه لشيء بارز ، يا أبائى ومعلمى ، أن ألكسى الذى لا يشبه أخى ذاك كثيراً بوجهه - فانه ليس له منه الا بعض السمات الخارجية - قد بدا لى شيئاً به كل الشبه من الناحية الروحية • ويطالما حسبت ذلك الأخ المراهق نفسه الذى كان لى فى الماضى وقد آتب الى الآن أوبة سرية فى أواخر أيامى ذكرى من الماضى ونداء الى التأمل ، حتى لقد دهشت أنا نفسى فى بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذى كان يفرقنى فيه • هل تسمعن يا بروفير ؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدىء المكلف بخدمته) • كم من مرة لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأننى أحب ألكسى أكثر مما أحبك • فهأت ذا تعرف سبب ذلك الآن • ولكن اعلم أننى أحبك كثيراً أنت أيضاً ، وطالما أحزنتنى حزنك • يا ضيوفى الأعزاء ، اسمحوا لى أن أحدثكم عن أخى الفتى ذاك ، لأننى لم أعرف فى حياتى طيفاً أحب من طيفه الى قلبى ، ولا أشد تأثيراً فى نفسى ، ولا أصدق نبوءة فى كل شأن من شئونى • ان قلبى ممتلىء به فى هذه اللحظة ، لأننى أرى فيه حياتى مرة أخرى رؤية كاملة كأننى أعيشها من جديد •••

يجب أن أنبه القارىء هنا الى أن هذا الحديث الأخير الذى أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلقوا حوله فى آخر يوم من أيام حياته قد حفظ بعضه مكتوباً • ذلك أن ألكسى فيدوروفتش كارامازوف قد سجله بعد موت الشيخ بقليل • لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه

ألكسى هو نص ذلك الحديث تماما ، وأن ألكسى لم يصف الى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقة لمعلمه . ويجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ما سجله ألكسى يومهم بأن الشيخ قد ألقى خطابا متصلاً حتى يروى قصة حياته لزواره ، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت فى الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف فى ذلك المساء . فالحديث قد كان عاماً ، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيراً ، فقد تدخلوا فى الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارات عن حياتهم هم . ثم انه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف ، لأن أنفاسه كانت تتقطع دائماً ، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة ، ولقد اضطر مرارا أن يمضى الى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه فى أماكنهم لم يزعجوها . ولقد تخللت الحديث ، مرةً أو مرتين ، قراءة آيات فى الأنجيل قرأها الأب بائسى جهراً . ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت فى تلك الليلة نفسها ، لا سيما وأنه قد بدا عليه فى ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار ؛ وهذه القوى التى استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذى أجراه مع أصدقائه . كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه اذكاءً قوياً ، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً ، لأن روحه فاضت دفعةً واحدة على حين فجأة . وعن هذا سأتكلم فيما بعد على كل حال . أما الآن فحسبى أن أقول اتنى أثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث ، وأن أقصر على ما رواه الشيخ ، معتمداً على المخطوطة التى خلفها ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . فذلك أقرب الى الإيجاز وأبعد عن الاملال ، رغم أن أليوشا ، كما سبق أن قلت ذلك ، قد ضمن مادونه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ .

حياة الشيخ زوسيماء مستمدة من المسارّات التي جمعها ودونها الكسبي فيدورفتش كارامازوف

(١) اخو الشيخ زوسيماء



ومعلميَّ الأُحبة ! ولدت بمدينة ف ... في
مقاطعة نائية بشمال روسيا • كان أبي من طبقة
النبلاء ، ولكنه من صفار النبلاء ، ولم يكن يحتل
رتبة عالية في سلم رتب الدولة • وقد مات ولماً
أتجاوز السنة الثانية من عمري ، فليس في ذهني أية ذكرى عنه • وقد
ترك لأمي منزلاً من خشب ، ليس بالكبير ، وترك لها رأس مال متواضعاً ،
ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها في منجى من العوز • كنا ولدين •
أخي الأكبر ، مارسيل ، وأنا ، زينوف • كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام •
وكان جامع الطبع شديد النزق ، ولكنه كان طيب القلب ، لا يسخر من
الآخرين قط ، وكان كثير الصمت الى حد غريب ، ولا سيما مع ذويه ،
أى معي ومع أمي ومع الخدم • وكان في المدرسة مجداً مجتهداً يبرهن
على أنه ينعم بذكاء قوى • ومع ذلك كان لا يآلف رفاقه في المدرسة كثيراً ،
ولكنه لا يشاجرهم أيضاً • تلك هي على الأقل الذكرى التي حفظتها أمي
عنه • وقبل نهايته بستة أشهر ، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشرة من
عمره ، توقفت الصلة بينه وبين رجلٍ كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزالٍ ،

رجل يشبه أن يكون منفيًا سياسيًا ، لأنه أُجبر على أن يغادر موسكو بأمر سام ، وأن يحدد إقامته في مدينتنا بسبب آرائه الليبرالية . كان هذا الرجل عالمًا كبيراً وفيلسوفاً تقدره الأوساط الجامعية قدرًا كبيراً . وقد شعر بشعور الصداقة نحو أخي مارسيل ، لا أدري لماذا ، فكان يستقبله كثيراً في منزله . ففضى أخى عند هذا الرجل سهرات طويلة ، على مدى فصل الشتاء كله ، الى أن استدعى الرجل الى سان بطرسبرج بطلب منه ، ليعهد اليه بمنصب رسمي ، لأنه كان ذا صلات عالية . كان هذا في وقت الصيام الكبير ، وقد رفض أخى أن يصوم ، مستهزئاً بالعبادات متهمكاً عليها مستخفاً بها محقراً لها ، حتى لقد قال « هذه سخافات وأباطيل وترهات ، لأن الله لا وجود له » ، فما كان أشد رعباً جميعاً من هذا الكلام ، أنا وأمي والخدم ! لقد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب ، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري في ذلك الحين . وكان جميع خدمنا ، وهم أربعة فحسب ، أفئذاً اشتريناهم من رجل من مالكي الأتبان كنا على صلة به . وما زلت أتذكر اليوم الذي باعت أمي فيه إحدى خادماتنا ، وهي الطباخة العجوز العرجاء أوفيميا ، بسبعين روبلاً ورقاً ، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأتقان . وها هو ذا أخى يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير . لقد كان أخى ضعيف البنية كثير المرض ، مستعداً للإصابة بالسل . انه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم ، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه . ترى هل أصابه برد ؟ المهم أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أسرَّ الى أمي خفية أن مارسيل مصاب بسل . يتفاقم تفاقمًا سريعاً وأنه لن يعيش الى آخر الربيع . فلأخذت أمي تبكي وتضرعت الى مارسيل محاذرةً (حتى لا تروِّعَه خاصةً) أن يتناول القربان المقدس في عيد الفصح . ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ الى ملازمة الفراش . فأجابها أخى غاضباً

وحقّر الكنيسة وأهانها وشتّمها ثم أطرق يفكر شارد اللب . لقد أدرك خطورة حالته حين رأى الحاج أمى عليه أن يذهب الى الكنيسة لتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك . ثم انه كان يعرف منذ زمن طويل أنه مريض ، حتى لقد قال لنا منذ مايقرب من عام ، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمى : « انتى لن أعيش زمناً طويلاً » ، وقد لا أكون معكم بعد سنة » . وها قد تحقق ما كان يوجسه . انقضت أيام ودخلنا الأسبوع المقدس . فاذا بأخى يذهب الى الكنيسة منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمى : « انتى أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه ، وذلك حتى تطمئنى بالآء وتهدئى نفساً » . فبكّت أمى ، فرحاً فى أول الأمر ، وحزناً وألماً بعد ذلك . وحدثت نفسها قائلة : « لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذ التبدل فيه » . ولم يتج له أن يكثر من الذهاب الى الكنيسة ، لأنه اضطر الى ملازمة الفراش ، فصار يعترف ويتناول فى المنزل . لقد جاء الفصح متأخراً فى ذلك العام . الأيام صافية مضيئة ، والهواء عبق معطر . أذكر أن أخى كان يسعل فى جميع الليالى ، ولا يكاد ينام . حتى اذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة . وفى هذه الصورة انما أراه الآن : جالساً ، ودعباً ، رقيقاً ، مبتسماً ، مريضاً جداً ولكنه مرح جداً ، سعيد جداً فى الظاهر . لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيراً ، فبدا لى هذا التبدل خارقاً . قالت له الخادم العجوز يوما : « اسمح لى يا بنى العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة فى غرفتك » . ما كان لأخى أن يرضى بهذا من قبل ، وربما فنفخ على الشمعة فأطفأها . ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز : « اشعلى يا عزيزتى ، اشعلى ! ألا ما كان أشد شذوذى حين كنت أمتك من ذلك ! أنت تصلين أمام الأيقونة ، وأنا أيضا أصلى لله حين أنظر اليك ، لأن مرآك يبهج قلبى ، ونحن كلانا نصلى اذن لاله واحد » . بدت لنا تلك الأقوال غريبة

حينذاك • وكانت أمى لا تنفك تبكى خفية ، وتحجف دموعها قبل أن تدنو منه ، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة • فكان يقول لها فى بعض الأحيان : « لا تبكى يا أماه ، يا ملاكى الصغير ، فلسوف أعيش زمناً طويلاً ، ولسوف أنتهج معكم ، فجميلة هى الحياة ، وزاخرة بالسعادة والفرح ! » وكانت أمى تقول له عندئذ محتجة : « أين السعادة ، وأنت تصاب بالحمى فى كل ليلة ، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك ؟ » ، فيعود يقول لها : « لا تبكى يا أماه ، فالحياة جنة نحن فيها جميعاً ، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك ، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم » • كانت هذه الأقوال تدهشنا ، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً عجيباً • وكنا تتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً ، فترقرق فى أعيننا الدموع • وكان يزورنا بعض الأصحاب فإذا هو يقول لهم : « يا أعزائي ، يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم ؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلى ؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها ؟ » وكان يكرر للخدم دائماً قوله : « لماذا تخدموننى يا أصدقائي الأعزة الطيبين ؟ ما الذى يجعلنى أستحق أن تخدموننى ؟ إذا منّ علىّ الله فأبقائى حياً ، فلاأخدمنكم أنا ، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضاً فى هذه الحياة الدنيا • • • فكانت أمى تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هذا النحو ، فتقول له : « ان المرض هو الذى يوحى اليك بهذه الأفكار يابنى » ، فيجيبها قائلاً : « أماه ، يا فرحة حياتى ! أنا أعلم أن العالم لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك سادة وخدم ، ولكننى أتمنى أن أكون خادم خدمنى ، وأن أخدمهم كما يخدموننى ؛ وأحب أن تعلمى أيضاً ، ان كلاً منا مذنب فى حق الآخرين ومشغول عن جميع آلامهم • وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس ! » • لم تستطع أمى أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا

الكلام • وكانت تبكى وتضحك فى آن واحد • سألته : « هلاً قلت لى كيف تكون أكبر ذنباً من سائر الناس ! ان العالم ملىء باللصوص والقتلة ، أما أنت فان وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة اثم ! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام ؟ » • قال أخى : « أماء ! يا حَمَلَى الوديع ! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال) ، يا فرحتى الكبيرة ، يا حمامتى اللطيفة ! أؤكد لك أن كل انسان فى هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب ، فى حق جميع الناس ! لا أدرى كيف أشرح لك هذا الأمر ، ولكننى أحسه ، أحسه احساساً قوياً غنياً الى حدّ العذاب • كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع ، لا نفهم من الحياة شيئاً ؟ » • وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحناناً ، وطفحت نفسه فرحاً ومحبّة • وكان الطبيب العجوز آيسنشمدت ، يعود أحياناً • فسأله أخى ذات يوم ضاحكاً : « هيه يا دكتور ! أأعيش الى الغد ؟ » فأجابه الطبيب : « ستعيش لا الى الغد فحسب ، وانما ستعيش أياماً وأشهرأ بل وسنين • » ، فهتف عندئذ يقول : « ما خير أن يعيش المرء أشهراً وسنين ؟ ان يوماً واحداً لكافٍ من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم • يا أصدقائى الأعزاء ! نحن مجانين اذ نتشاجر وتباهى ويحقد بعضنا على بعض لاساءة نالته • ألا فلنخرج الى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً ! ألا فليتن كل منا بفضائل أخيه ! ألا فليتناق ونبارك الحياة ! » • قال الطبيب لأمى حين شيعته الى درج الباب : « لن يعيش ابنك طويلاً • لقد اختل من المرض عقله • » • وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالاشجار الكبيرة التى نبتت على فروعها البراعم ؛ وكانت أوائل عصفير الربيع التى وصلت منذ زمن قصير تترقز وتترد تحت نوافذه ، فكان يتأملها طويلاً ويعجب بها كثيراً ، حتى لقد أخذ فى ذات يوم يستغفرها هى أيضاً قائلاً لها : « أيتها المصافير التى خلقها الله ،

أيها الطيور الصغيرة ، اغفرى لى أنت أيضا ، لأننى أذنبت فى حقك ! » .
وبدا لنا هذا أمرا لا سبيل الى فهمه قط ، وكان هو يبكى عطفاً وحناناً .
وقال شارحا : « نعم ، لقد كانت عظمة الله مبسوطة أمامى : الطيور
والأنشجار والمرعى والسموات • كان كل شيء يتغنى بعظمة الله ويسبح
بحمده • الا أنا ، فقد كنت أعيش فى الخزى والعار ، مسيئاً الى شرف
الخليقة ، لأننى لم أكن أرى جمال الحياة وساءها • • • فكذبت أُمى
تقول له باكية : « انك تتهم نفسك بخطايا كثيرة » ، فيقول لها : « أمام
يا فرحة نفسى ، اننى من سعادة لا من حزن أبكى • وددت لو أكون
مذنباً فى حق العصافير الصغيرة ! لا أستطيع أن أشرح لك هذا ،
لا أعرف كيف أشرح لك حبى اياها • ألا فلاأكن مذبذباً فى حقكم
جميعا ، فتغفروا لى عندئذ جميعا • تلك هى الجنة • ألسن الآن فى
الجنة ؟ » •

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها • دخلت ذات يوم
الى غرفته وكان وحده • كان ذلك فى المساء ، والجو صاح مضى ،
والشمس الغاربة تفرق الغرفة بأشعتها المائلة • فلما رآنى أشار الىّ أن
اقترّب ، ثم وضع يديه على كتفى وتأملنى طويلاً متفرساً فى عينى ، وقد
بدا فى وجهه حب وحنان • وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة
ثم أسبل يديه وقال لى : « هياّ اللعب الآن وابتهج ! اننى أريد أن تحيا
عنى ! » • خرجت ومضيت ألعب ؟ ولكننى كثيرا ما فكرت أثناء حياتى ،
والدموع فى عينى ، فى هذا الامر الذى أصدره الىّ ، وهو أن أحل
محلّه فى هذا العالم • وفى مرات كثيرة بعد ذلك عبّر عن عواطف
رائعة سامية رفيعة ، لم تكن نفهمها كثيرا فى ذلك الحين • وانطلقا فى
الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح ، واعيا كل الوعى ، صاحيا كل الصحو؛
ورغم أنه أصبح لا يتكلم فى أواخر أيامه ، فقد ظل على ما كان عليه حتى

النهاية ، ينتظر الينا سعيدا فرحا مبسما ، ويبحث عنا وينادينا بعينه .
وقد تكلم الناس عن موته كثيرا فى مدينتنا . وأثر هذا الحادث فى نفسى
ولكن بدون افراط ، وان أكن قد ذرفت دموعا سخينة يوم الجنازة .
لقد كنت صغيرا جدا ، كنت طفلا ، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة
فى أعماق قلبى ، لتتصب أُمى متى آن الأوان ، نداءً من الملاء الأعلى .
هكذا جرت الأمور فعلاً .

ب - اثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيميا *

بقيت وحيدا مع أُمى . ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها انها
تحسن صنعاً ، بعد أن لم يبق لها الا ابن واحد ، وما هى محرومة من
الموارد ، أن ترسل هذا الابن الى سان بطرسبرج للدراسة ، على غرار
ما تفعل أسر نبيلة أخرى ؛ وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها ، اذا هى احتفظت
بابنها الى جانبها فى مدينة صغيرة ، تعرضه للحرمان من مستقبل لامع .
وأقنعوا أُمى أخيراً بأن تسجلنى فى « مدرسة المرشحين » بطرسبرج ،
لأكون فى المستقبل ضابطاً من ضباط الحرس الامبراطورى . وقد ترددت
أُمى كثيراً فى العزم على فراق ابنها الاخير ، ولكنها اتخذت قرارها أخيراً
وهى تبكى ، معتقدة أنها بذلك تؤمّن سعادتى . وقادتنى الى سان بطرسبرج
فألحقنى بمدرسة الاعداد العسكرية هذه ، ثم لم أرها منذ ذلك الحين ،
لأنها ماتت بعد ثلاث سنين ؛ وهى فى أثناء تلك الفترة لم تنقطع عن
البكاء حزناً على ابنها الفقيد ، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير
ابنها الباقي . وقد احتفظ خيالى بذكرىات مضيئة عن المنزل الذى عشت
فيه مع أُمى ، لأن أصفى مشاعر القلب الانسانى هى المشاعر التى يكون قد
أحسها فى سننى طفولته . الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق

مسيطين على حياة الأسرة • ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى في الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجنى من عناصر الوجود ما هو طيب نيسل • ولقد ارتبطت الكتب المقدسة بذكريات طفولتي ، لأنني كنت أهتم بها أثناء طفولتي في المنزل اهتماما كبيرا • كنت أملك كتابا فيه صور جميلة عنوانه : « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » * ، وفي هذا الكتاب انما تعلمت القراءة • وما يزال هذا الكتاب عندي حتى الآن • هو هناك ، على الرف ، وأنا أحافظ عليه محافظتي على أثر ثمين جدا من آثار اديبي • على انني أتذكر أن الانفعال الديني الأول الذي شعرت به * انما كان قبل تعلمي القراءة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري حينذاك • لقد قادتنى أمي الى الكنيسة للصلاة في «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدري الآن أين كان أخي حينذاك) ، وكان ذلك في يوم من أيام الاثنين • النهار صحو ، والشمس ساطعة ، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة ، كأن الأمر قد وقع أمس ، ما زلت أرى أدخنة البخور تتصاعد بطيئة نحو القبة ؛ وفي أعلى الكنيسة كانت أشعة شمس الاله تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا ، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة ، ثم تنصهر في الضياء الذهبي أخيراً • كنت أتأمل هذا المشهد معجياً ، وأحسست أن بذرة « كلمة الرب » تُغرس في نفسي • وتقدم مراهمي الى وسط المبد • كان يحمل كسباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله • وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل ؛ ثم فتحه وأخذ يقرأ • فهمت في ذلك اليوم ، لأول مرة في حياتي ، ما يُقرأ في الكنيسة : كان يعيش في أرض عوص رجل تقي صالح يملك ثروات طائلة ، ونوقاً لا حصر لعدددها ، وقطعان خراف وحمير • وكان أولاده سعداء فرحين ، وكان يحبهم كثيراً ، ويصلى من أجلهم للرب • هل

ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما فى سعادتهم ؟ ذلك أن ابليس مثل يوما أمام الرب وقال له انه طاف الارض كلها وما تحت الارض . فسأله الرب : « هل رأيت عبدى أيوب ؟ » . وتباهى الرب أمام ابليس بقداسته عبده العظيم أيوب . ولكن ابليس ضحك وأجاب : « مكنتى منه فترى أنه سيمصيك وسيلعن اسمك » . فمكّن الرب ابليس من عبده الأمين الذى كان يحبه الرب كثيراً ؛ فضرب لشيطان قطعانه ، وضرب أولاده ، ودمر ثرواته ، وأرسل اليه جميع المصائب دفعة واحدة ، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره . مزّق أيوب ثيابه ، وارتدى على الارض صائحاً : « لقد خرجت من بطن أمى عارياً ، وعارياً سأعود الى الارض . وهب الرب لى كل شيء ، والرب يسترد ما وهب . تبارك اسم الرب ، الآن وفى كل حين » . يا آبائى ومعلمى ، سامحونى اذا رأيتونى أسكب العبرات فى هذه اللحظة . ان طفولتى تنبثق الآن أمامى ، حتى ليخيل الى أننى أتنفس كما كنت أتنفس فى طفولتى بذلك الصدر الصغير ، صدر الطفل الذى لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره . ان ذلك الانفعال نفسه الذى أحسست به يومذاك يغزوني فى هذه اللحظة ، فاذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشاً مفتوناً فى ذلك اليوم البعيد بالكنيسة . لقد أحدثت تلك التوق تأثيراً قوياً فى خيالى ، وأذهلتنى قصة الشيطان الذى كلم الرب ، وشدهنى قرار الرب أن يمكّن الشيطان من عبده الأمين ، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه : « تبارك اسمك ، رغم أنك تعاقبنى » . ثم تصاعدت فى الكنيسة أغنية رقيقة جداً : « سمع الله لصلاتى » . وارتفعت أذخنة البخور ، وركع المصلون . ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة - وقد حدث لى هذا أسس أيضاً - الا وتسكب الدموع من عيني . ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص ! لقد اتفق لى أن سمعت نقداً

لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويلبونه ، أذس أعمامهم غرورهم وصلفهم ، فهم يسخرون مما لا يفهمون ؟ قالوا : « كيف يمكنُ الربُّ الشيطانَ من قدسه الأثير ، فيستهزئ الشيطان بالقدّيس ، ويخطف أولاده ، ويرسل اليه الأمراض ، ويفطى جسمه بالجروح ، حتى صار يزاح القبح عن قروحه بشقفة من فخار ؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً : « انظر ماذا يستطيع أن يتحمّله واحد من أوليائي الصالحين فى سيل مجتبى ! » ؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة إنما هى فى هذا السرِّ الذى يتأكد فيها ! ان المظاهر العرضية للحياة الأرضية تلامس فى هذه القصة الحقيقة الأبدية التى لا تدرّكها . فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض ، يتجلى فصل قوة أبدية تفوق هذا الواقع . ان الخالق فى هذه القصة يتصرف كما تصرف فى الايام الاولى من الخلق حين قال انه أبدع فيما صنع . انه ينظر الى أيوب فيبهجه أنه خلقه . وأيوب الذى يمجّد الرب لا يخدم الرب وحده بل يخدم الخليقة أيضاً ، من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ، فذلك هو ما يُسرّ له . رباه ما أروعه سفرأ ، وما أروعها تعاليم ! ما أعظم الكتب المقدسة ، وما أكبر تلك القوة المعجزة التى توقظها فى الانسان ! لكنّها صورة الكون والانسان نفسه . كل شيء قد قيل فيها وأعلن لقرون . ما أعظم الأسرار التى تكشف عنها وتحلها ! ان الرب يرد السعادة الى أيوب ، ويهب له ثروات جديدة ؟ وتنقضى أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضاً . رباه ! قد يتساءل متسائل : « فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول الى غير رجعة ؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد ، مهما يكونوا أحبةً فى قلبه ، اذا هو تذكّر أولئك الذين غابوا الى الأبد ؟ » . الحق أنه كن يستطيع أن يشعر بالسعادة ، لأن الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن ، ويطمانها

سرّ الطبيعة الانسانية الكبير ، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى افراح ساجية . ان العدم الذى يغلب فى سن الشباب يفسح المجال فى الشيخوخة لهدوء ساكن . اننى أبارك فى جميع الأيام طلوع الشمس ، ون قلبى ليتجهج بشروقها كما كان يتجهج به فى الماضى ، ولكننى أؤثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التى توقف فى نفسى ذكريات بعيدة عذبة ، وتحبى أطراف الماضى الحية من حياة طويلة سعيدة . ففوق هذه الذكريات تحلق الحقيقة الالهية التى تهدى وتصلح وتبرىء ! سوف أموت ، أنا أعرف ذلك وأفهمه ، ولكننى أحس فى كل يوم بأن الحياة ما تزال توهب لى ، وأن حياتى الأرضية تدفع نحو حياة جديدة ، أبدية ، مجهولة ، هى منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسى فرحاً ، ويهز قلبى هزاً قوياً . يا أصدقائى ومعلمى ! لقد سمعت من يقول ، سمعت ذلك مراراً وأسمعه الآن أكثر من أى وقت مضى ، ان الكهنة ، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرّاً الشكوى من أن راتبهم غير كاف ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيفة ، قائلين بل كاتين - وقد قرأت ذلك بعينى - أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الانجيل للشعب ، بسبب قلة رزقهم . « اذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا ، فليفعلوا ذلك ، لأننا لا نجنى من الرزق ما يكفيننا » . هكذا يقولون . يا عدالة السماء ! ألا اننى لأسأل الرب أن يربى راتبهم هذا الذى يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكننى أقول مخلصاً : من المسئول عن هذا الوضع ان لم تكن نحن المسئولين عنه الى حد ما ؟ اننى أسلم بأن القس فى الريف مثقل بأعباء العمل ، وليس فى وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب . ولكننى أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد الذى يصح فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعة من وقته فى الأسبوع . ثم انه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع . ألا فليجمع فى داره ، مرة فى

الاسبوع ، والأفضل أن يكون ذلك فى المساء ، ألا فليجمع الأطفال فى أول الأمر ، فإذا بأبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا • لا حاجة الى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع • ما على القس ألا أن يجمع الناس فى منزله الفقير نفسه • وليس له أن يخاف ، فأنهم لن يفسدوا مسكنه ! ما ساعة فى الأسبوع ؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة أو كلام متفهب ! فليقرأ قراءة بسيطة طبيعية ، مبتهجا بأن الناس يسمعون ويفهمونه ، مثلثا بحب النص المقدس • وفى وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين الى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب • ولكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة ، لأن الروح الارثوذكسية تحس الحقيقة احساسا سرىما • ان القصص التى تروى حياة ابراهيم وسارة ، واسحق وريكا ، ويعقوب الذى ذهب الى عند لابان ، وقال بعد أن اصطرع مع الرب فى الحلم : « هذا مكان رهيب » ، ان هذه القصص ستضى قدما الى القلب النقي ، قلب البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد • يجب أن تقص عليهم ، وعلى الأطفال خاصة ، قصة الفتى الجميل القتان يوسف ، النبى الكبير ، مفسر الأحلام ، كيف باعه اخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشا أكله ، وأظهروا أباهم على ثيابه تدليلا على صدق قولهم ؛ وكيف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر التماسا للخبز ، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيما من عظماء رجال فرعون ، ولكنهم لم يعرفوه ، فاضطهدهم ، واتهمهم وجس بنيامين الفتى رغم ما يكنه لهم من حب : « انتى أحبكم ، وانى لأعذبكم وأنا أحبكم » • ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذى باعه فيه اخوته لأناس من تجار العيد ، فى سهل مقفر ، قرب بئر ، بينما كان يضرع اليهم باكيا عافا ذراعيه أن لا يتركوه للعبودية فى أرض غريبة • فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحس بحبه لهم ينبعث فى

قلبه ، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة ، وتركهم أخيراً وانصرف ، لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل الشكاة التي تصدر عن قلبه هو نفسه . وارتقى على سريريه وأجهش باكياً ؛ ثم جفف وجهه وعاد اليهم هادئ النفس مشرق الحيا وقال لهم : « يا اخوتي ، أنا يوسف أخوكم » . وليقرأ القس للناس تمة القصة : كيف سرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت ، وكيف سافر هو أيضاً الى مصر ، هاجراً الارض التي وُلد فيها ، ومات على تراب غير تراب وطنه ، تاركاً في وصيته أكبر وعد سيتحقق للانسانية على مدى العصور ، كاشفاً عن السر الذي كتمه طول حياته في قلبه المتواضع الوجل ، ألا وهو الوعد الذي يبشر الانسانية بأنه سيولد في يوم من الأيام انسان هو أمل العالم ، وهو للانسانية مختلصها وفادياها ! يا آباي ومعلمي ! اغفروا لى أُننى أذكركم ، كتلميذ صغير ، بأشياء تعرفونها منذ زمان طويل ، ويمكنكم أن تعلمونها بأحسن مما أفعل فناً وعلماً ! لقد اندفعت مع الحماسة . واغفروا لى دموعي ، لأننى أحب هذا السفر . واذا استطاع الكاهن أن يبكي هو أيضاً أثناء القراءة ، فلسوف يرى مدى أثر ذلك في نفوس سامعيه قوة انفعال وعمق عاطفة . ألا ان بذرة لتكفى مهما تكن يسيرة . فاذا بُذرت في قلب البسطاء ، لم تنف بعد ذلك يوماً ، وانما هى تعيش في نفوسهم وتظل تثمر طوال حياتهم ، من أعماق ظلمات ضلالتهم وخطاياهم ، نبعاً من ضياء ومن حقيقة أبدية ، ذكرى خفية ونداء مستسراً . لا حاجة الى شروح طويلة واستطرادات متعالة يتيه في شعابها الفكر . ان أبناء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة . أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك ؟ قوموا اذن بهذه التجربة ، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة ، قصة أستير الرائعة وفاسقى المتكبرة ، أو اقرأوا لهم تلك المغامرة المعجزة ، مغامرة يونس في جوف الحوت . ولا تنسوا كذلك رموز الرب ، ولا سيما رموز

الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا (وذلك ماكنت أفعله دائما) ،
واقرأوا لهم فى كتاب الشهداء حياة ألكسى ولى الله ، وكذلك حياة كبرى
الشهيدات مريم القبطية . فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة
فى قلوبهم ! تكفى ساعة فى الأسبوع ، ساعة واحدة ، رغم قلة الراتب .
فاذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لتعبنا نفساً
كريمة تعترف بالجميل . لسوف يرد اليه الفلاح معروفه مضاعفاً مائة
مرة . لسوف يتذكر نشاط الكاهن وقرائمه المؤثرة ، فاذا هو يهب من
تلقاء نفسه الى مساعدته فى أعماله فى الحقل أو المنزل . ولسوف يحضه
احتراماً متزايداً ؛ وهذه المزايا ، مجتمعة ، تساوى زيادة فى الدخل ،
ذلك حل يبلغ من السهولة فى الواقع أن المرء يستحى أحياناً أن يقترحه ،
مخافة أن يضحك عليه . ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . ان من لا يؤمن
بالله لا يؤمن شعبه أيضاً . ولكن الذى لا يشك فى شعبه ، لن يلبث أن
تتجلى له قداسة روح الشعب ، ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك .
ان مثقفينا الملحدين ، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التى أبستهم ، لن
ينقذهم ولن يردهم الى طريق الرشاد الا شعبنا الذى ستأكد قوته الروحية
فى يوم من الأيام . ما قيمة أقوال المسيح اذا لم تسندها قوة القدوة ؟
ألا ان الشعب ليهلك ويفنى ما لم تتجده الكلمة الالهية ، لأن الشعب
ظالم . الى حقيقة دينية ، والى مثل أعلى أخلاقى رفيع . فى أثناء شبابه ،
منذ أكر من أربعين عاماً ، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنتيم تجمع
المعونات لديرنا الفقير . ففى ذات يوم ، توقفنا ليلاً عند شاطئ نهر كبير
من الأنهار الصالحة للملاحة ، بين الصيادين . فجلس الى جانبنا فى
مليح الوجه هو فلاح فى نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق
بعمله فى الغد ، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية . كان الفتى ينظر
أمامه حالماً بعينه الصافيتين الحلوتين . الليلة ساجية حارة ، هى ليلة

مشرفه مضيئة من ليالى شهر تموز • ومن النهر العريض تصاعد أبخرة تحمل الينا طراوة منعشة • وتبجس سمكة الى سطح الماء من حين الى حين ، فتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفاً • سكنت العصافير ، فكان الطيعة كلها تصلى لله صامتةً في هذه الهدأة التى ترين من حولنا على الأرض والسماء • ونحن وحدنا لم ننم ، أنا وهذا الفتى • تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره ، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل ، عن جميع هذه المخلوقات التى تعرف طريقها جميعاً فى هذا العالم ، دون أن يكون لها ذكاء ، فاذا هى بهذا العلم المعجز تشهد بظلمة صنع الله وتساهم فى كل لحظة ، بعملها المتواضع ، فى تحقيق الغايات العليا للمخلوق • فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهت حماساً وحمياً • وأسراً الى بأنه يحب النسابات وطيورها ، لأنه كان هو نفسه يربى الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها ، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها • قال لى : « لا شيء أروع من الغابة ، وكل شيء فى الطبيعة جميل على كل حال » فأجبت قائلاً : « هذا صحيح • كل شيء فى خلقه الله رائع ومؤثر ، لأن كل شيء فيها حق • انظر الى الحصان مثلاً ، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالانسان ذلك التعلق كله ، أو انظر الى البقرة الخاضعة المطرقة التى تطعمه وتعمل من أجله • ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة ، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرا ما يضربونها بغير شفقة ، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان فى نظراتها ! أليس هذا جميلاً ؟ انه لأمر مؤثر فى النفس أن تتذكر أن هذه الحيوانات هى بلا خطيئة ، لأن كل ما فى الكون برىء • كامل الا الانسان • لقد كان المسيح مع الحيوانات ، قبل أن يجيء ليخلصنا • فسألنى هذا الفتى : « هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضاً ؟ » فأجبت قائلاً : « وكيف لا يكون الأمر كذلك ، ما دامت الكلمة للجميع • ان كل

مخلوق ، ان كل من تنفس ، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار ، يشهد بعظمة الخالق ويسبِّح بحمده . ان كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ، ويناديه على غير شعور ، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية ، وهي أنه بغير خطيئة . انظر في الغابة الى الدب ، المخيف الضارى دون أن يكون مسئولاً عن ذلك ! ... ، قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقرب ذات يوم من قدس عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة . فأشفق الناسك على الوحش الجائع ، فهبَّ الى لقاءه بغير وجل ، ومدَّ اليه قطعة من خبز قاثلاً له : « كُلْ في سلام ، ولكن المسيح ملك » ، فابتعد الوحش الضارى طائفاً دون أن يلحق بالقدس أى أذى . تأثر الفتى تأثراً شديداً من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه . وصاح يقول : « ما أروع هذا ! ما أروع كل شيء اذن في خلق الله ! » . وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة ، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة . رأيت أنه فهمنى . ثم استلقى قريباً منى ونام نوما بريئاً هادئاً . بارك الرب في الشباب ! صليت من أجله قبل أن أنام أنا أيضاً . ربَّ ابنت السلام والأمن والضيء الى جميع مخلوقاتك !

ج - ذكريات سننى الشباب التى عاشها

الشيخ زوسىما فى العالم . المباراة

لبثت فى « مدرسة المرشحين » بسان بطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثمانى سنين . ان التربية التى تلقيتها فى تلك المدرسة قد كتبت فى نفسى كثيراً من مشاعر الطفولة ، ولكننى لم أنس تلك المشاعر حقاً . وفى مقابل ذلك أكسبتنى هذه التربية أفكاراً وعادات جديدة جعلت منى انساناً يكاد يكون متوحشاً ، انساناً قاسياً غيباً . ويتعلم اللغة الفرنسية تزينت بأداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة . أما الجنود الذين كانوا

يخدموننا فقد كنا جميعاً ، وأنا أيضاً ، نعدّهم بهائم ؛ ولعلنى كنت أسبق من غيرى فى ذلك ، لأننى كنت فى كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقى . ولما أصبحنا ضباطاً كنا مستعدين لأن نبذل دمنا فى سبيل شرف كنيستنا ، ولكننا كنا نجهل كل الجهد ما هو الشرف حقاً . ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه ، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفنا أكثافنا استخفافاً واحتقاراً . وكنا نكاد نعتز بما تنهك فيه من سكر ومجون ، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار ، ونكاد نعدّه مجداً من الأمجاد . ليس معنى هذا أننا كنا فى قرارة أنفسنا أشراراً . فلقد كان فى هؤلاء الشباب خير طبعى فطرى ، ولكنهم كنوا يسلكون سلوكاً سيئاً ، وكنت أنا فى ذلك شرّاً من سائر رفاقى . وفى تلك الفترة استلمت ثروتى ، فأخذت أعيش على ما يريد لى هواى وخيالى وعلى ما تشاء لى نزواتى وبدواتى ، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أى تحفظ أو قصد . لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتى . ولكن الشيء الغريب هو أننى كنت أقرأ فى كثير من الأحيان ، حتى لقد كنت أجده فى القراءة لذة ومتعة . ومع ذلك لم أفتح التوراة يوماً غير أننى لم أفارقها ، وانما كنت أحفظ بها قريبة منى فى تنقلاتى ، كأنما أنا أنوى أن أقرأها « فى يوم من الأيام وساعة من الساعات ، فى شهر من الأشهر وسنة من السنين فى المستقبل » . وبعد أربع سنين من الخدمة ، وجدت نفسى فى مدينة ك... التى كانت كنيستنا تسكر فيها . ان المجتمع فى هذه المدينة كبير العدد متنوع المأل . وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة . وقد أحسنوا استقبالاً لأننى مرح بطبعى . يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدوننى ثرياً ، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً . وهنا انما حدث لى حادث كان له أثر حاسم فى مصيرى . فقد تولت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير ، فهم ينعمون بالثراء ، ولهم

صلات عالية • وقد أحسن أهلها وفادتي • وأحسست أن الفتاة ليست غير مكرثة بوجودى ، فالتهب خيالى من ذلك التهاها شديدا • ولقد أدركت فيما بعد أننى لم أكن أحبها فعلاً ، وإنما كنت مفتنّاً بذكاؤها وسمو طبيعتها ورفعة خلقها ، وتلك أمور ما كان لها إلا أن تؤثر فى نفسى • وقد منعتنى أنانيتى من خطبتها ، اذ صعب علىّ أن أتأزل فى مثل تلك السن من ريعان الشباب عمّاً فى حياة العازب الحرة المتحللة ، من اغراءات • لذلك اقتصر على بعض التلميحات الخفية ، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى ما بعد • وفى أثناء ذلك تلقيتُ أمرا عسكريا بالسفر مدة شهرين الى مقاطعة أخرى • فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت فى غيابى • لقد تزوجت رجلاً غنياً من أصحاب الأملاك فى منطقة مجاورة ، وهو أكبر منى سنّاً ولكنه ما يزال شاباً ، كما أن له صلات فى العاصمة وفى المجتمع الراقى ، وذلك ما لم يكن لى مثله • ثم انه عدا هذا رجل لطيف محبب جدا مثقف جدا ، على حين أن ثقافتى أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً • وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلنى أتصور أننى فاقد بسببيه صوابى • وكان أنكى ما ألتنى اننى علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل • ولقد حدث أن قابلته فعلاً فى منزل أهلها مرارا كثيرة دون أن يخطر ببالى شيء ، من شدة ما أعمانى غرورى • وقد أحقننى هذا الأمر وأغاظنى أكثر من أى شيء عداه • تساءلت : كيف ؟ أيعلم ذلك جميع الناس الا أنا ؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد • لقد شعرت بالدم يصعد الى جبهتى حين تذكرت تصريحات الحب التى أوشكت أن أقولها لها مرارا • ان الفتاة لم توقفنى بل تركتنى أتكلم دون أن تبتنى بأنها مخطوبة • فاستتجت من ذلك أنها كانت تسخر منى وتضحك علىّ • وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها ، على خلاف ما توهمت ، كانت تقاطعنى فى كل مرة مازحةً ، وتغير موضوع

الحديث ، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً صحيحاً ، فكنت أحترق توقاً الى الانتقام .

وانى لأتذكر الآن ، بغير قليل من الدهشة ، أن ذلك الغضب وذلك التوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسى ، لأن خفة طبعى كانت لا تتيح لى أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة . فصرت أحرّض استيائى وحقنى تحريضاً مصطنعاً من أجل أن أصل أخيراً الى اندفاع أحق غير انسانى . ارتقت فرصة أتقم فيها لنفسى ، واستطعت فى ذات مساء ، بينما كنا فى مجتمع غفير ، أن أهين «غريبى» فى أمر لالعلاقة له فى الظاهر بشخصى . سخرت من رأيه فى موضوع حدث كان قد وقع وهزّ أفكار الناس كثيراً فى ذلك العهد* - كنا فى عام ١٨٢٦ - وكانت سخرياتي - فى رأى الحضور - محكمة حاذقة فكهة - ثم طلبت منه أن يصفى حسابه معى بمبارزتي ، وبلغت من الغظاظلة والغلظة أثناء ذلك انه لم يملك الا أن يقبل التحدى رغم كل ما بينى وبينه من مسافة ، فأنا أولاً أصغر منه سناً ، وأنا ثانياً ضابط صغير لا قيمة له فى حين أنه يحتل هو مركزاً اجتماعياً عالياً جداً . وقد علمت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدى . فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين ، أثناء خطوبته ، قد ساءته ملازمته لخطيئته ؛ وهو من جهة ثانية يخشى الآن ، اذا علمت زوجته بأنه تحمل اهاناتى دون أن يبارزنى ، أن تحقره على غير ارادة منها ، وأن يتزعزع من ذلك حبها له . ولم ألبث أن عثرت على شاهد لى بغير عناء ، وهو رفيق من رفاقى كان ملازماً فى كتيبتى نفسها . ولقد كانت المبارزات رائجة جداً بين الضباط فى ذلك الزمان ، رغم أنها مخطوطة محرّمة ، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة فى النفس الانسانية . كنا فى أواخر شهر حزيران (يونيو) ، وحُدِّدَ الغد موعداً للقاء ، فى الساعة السابعة من الصباح ، على أرض مهجورة

خارج المدينة • ووقع لى فى ذلك المساء حادث لا أستطيع الا أن أعده تدخلًا من القدر • فحين عدت الى مسكنى فى ساعة متأخرة من الليل مهتاجا احتياجا شديدا ، ثرت على الجندى الذى يخدمنى ، واسمه آتانازى ، ثورة شديدة ، وصفته بكل قوتى مرتين ، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه • ان آتانازى يخدمنى منذ زمن غير طويل ، ولقد سبق أن ضربته من قبل ، ولكننى لم أضربه بوحشية حيوانية كهذه المرة • صدّقونى يا أصدقائى الأعزاء اذا قلت لكم : اننى ما زلت الى اليوم ، بعد أكثر من أربعين عاما ، لا أستطيع أن أتذكر سلوكى حينذاك الا وأشعر بخزى وعار وألم عميق • وقد رقدت فمت زهاء ثلاث ساعات • فلما استيقظت كان الصبح قد تنفس • فأسرعت أرتدى ملابسى لأن النوم قد طار من عينى ، واقتربت من النافذة ففتحتها • ان النافذة تطل على الحديقة • وقد أخذت الشمس تطلع فى الأفق • والجو جميل طرى ، والمصافير تفرّد • سألت نفسى : « لماذا هذا الاحساس الغريب فى نفسى بالخزى والعار والاشمئزاز ؟ لأننى سأفصح دم انسان ؟ لا ... يبدو أن هذا ليس هو السبب • أأكون اذن خائفا من الموت أخشى أن أقتل ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب ، ليس هذا هو السبب أبدا ... » وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذى كنت أشعر به : لقد كنت أحس بعذاب فى ضميرى لأننى ضربت آتانازى فى الليلة البارحة • تراءى لى المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة : كان آتانازى واقفا أمامى ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، جاعلا يديه على درزة سرواله ، وأنا أهوى على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة • وكان هو يحدّق أمامه كأنه فى استعراض عسكري ، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمى وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة • انظروا الى أى حالة يمكن أن يردّ الكائن الانسانى ! كيف يستطيع انسان أن يرضى ضرب أخيه الانسان ؟ يا لها

من جريمة ! شعرت كأن ابرة تنفذ في جسمي . اننى ارى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً . كانت الشمس في الخارج تتألأ ، وكانت عصافير صغيرة تغرد ببراءة ، مسبحةً بحمد الرب ... وهأنذا أخفى وجهي يديّ على حين فجأة ، وأرتمى على سريري ناشعاً منتحباً . لقد عاودتني في تلك اللحظة ذكرى أخى مارسيل ، وخطرت بآلى الكلمات التي قالها للخدم قبل موته بقليل : « يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدموني ؟ ما الذي يجعلني حديراً بماطفتكم ؟ » . وقلت لنفسى : « ما الذي يجعلني أنا أيضاً جديراً بأن يخدمنى قرينى الانسان ؟ » . وحاصرت هذه الفكرة عقلى فجأة . فأخذت أتساءل : « لماذا يجب على انسان شبيه بى ، انسان خُلق مثلى على صورة الله ، أن يكون خادمى ؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك ؟ » . لقد طرحت على نفسى هذا السؤال لأول مرة في حياتى . « أماء ، يا حَمَلَى الوديع ، ان كل انسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس ... البشر لا يعرفون هذا ... ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنة منذ الآن » . تساءلت من خلال دموعى : « أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب ، وأن أكون أكبر الناس اثماً ؟ انى اذن لأسوأ الناس طراً ! » . وتراءت لى الحقيقة فجأة في ضياء باهر ! ما الذي كنت أريد أن أفعله ؟ أن أقتل انساناً طيباً ذكياً نبيل الخلق لم يمسننى بسوء ولم يلحق بى أذى ، وأن أحرّم زوجته من السعادة الى الأبد في الوقت نفسه ، فأسلمها للعذاب وأدمّر روحها ! وكنت أثناء استسلامى لهذه التأمّلات راقداً على سريري ، دافئاً وجهي في الوسائد ، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضى . وها هو ذا رقيقى الملازم يظهر في غرفتي فجأة حاملاً الىّ المسدسات . قال لى :

– أنهضت من نومك ؟ أحسنت ... ما يزال فى الوقت متسع •
هيا بنا !

اضطربت ، وزاغ لى ، لكننى تبعته ؟ وفيما كنا نوشك أن نركب
العربة التى كانت تنتظر أمام المنزل ، عدلت عن الركوب فجأة ، وقلت
لرفيقى شارحاً :

– انتظرنى لحظة ، أنا عائد الى البيت لأجىء بمحفظة نقودى التى
تركتها فيه •

وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها خادمى الجندى •
قلت له :

– آتانا زى ! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس • سامحنى !

ارتعش حين سمع كلامى كأنه قد خاف • وشعرت عندئذ أن ذلك
ليس كافياً ، وأن بادرته لا تتناسب ولأذى الذى ألحقته به ، فإذا أنا
أخضع فجأة لاندفاعه مباغتة فأرتمى على قدميه بملابسى الفخمة حتى
لامست جبهتى الأرض ، وأقول له صائحاً :

– سامحنى يا آتانا زى

بدا آتانا زى مصعوقاً ، وأخذ يقول :

– يا صاحب النبالة ... يا أبتاه ... يا مولائى ... كيف يمكنك
أن ... أنا لست جديراً بهذا ! ...

وأخذ يبكى هو نفسه ، كما بكيت أنا منذ قليل ، دافئاً وجهه فى
يديه • واستدار نحو النافذة ، مرتعشاً من قمة رأسه الى أخمص قدميه ،
غارقاً بدموعه • وهرعت ألحق برفيقى الملازم الذى كان ينتظرنى فى
العربة • صحت أقول للمحوظى :

- سرّ ...

وأضفت مخاطباً رفيقى :

- هل تريد أن ترى الغالب ؟ انه أمامك !

كنت أشعر بحماسة شديدة ، وظللت أضحك بغير انقطاع أثناء الطريق ، وأتكلم بلا توقف ، أخط في الكلام خبط عشواء ... لا أدرى ماذا قلت ! وكان رفيقى ينظر الىّ راضياً مرتاحاً . قال لى :

- أرى انك شجاع ! لسوف تشرف بزتنا العسكرية .

ووصلنا الى أرض المعركة ، حيث كنا 'نتنظر . وضعنا أنا وخصمى على بعد انتى عشرة قدماً . وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً . وقابلته جذلاً فرحاً ، وأنا أنظر الى عينيه فأشعر أن قلبى يفيض حباً له . لم تطرف عينى . كنت واثقاً مما سأفعله . أطلق النار . خدشت الرصاصة خدى خدشاً خفيفاً ، ولامست أذنى ملامسة .

صحت أقول :

- الحمد لله ! انك لم تقتل أخاك .

ثم تناولت مسدسى فرميته ورائى فى اتجاه الغابة .

قلت :

- هذا ما أفعله بالمسدس .

ثم التفت نحو خصمى وقلت له :

- سيدى ! اغفر لى اننى أسأت اليك بغير سبب لطيشى وخفىتى ، ثم أجبرتلك على أن تطلق علىّ النار . أنتى لا أساويك ولا أعدلك ،

فأنت خيرٌ مني عشر مرات ، وربما أكثر من ذلك • قل هذا عن لساني
للإنسان الذي تقدره أكثر من أي إنسان آخر في هذا العالم •

فما إن تطلعت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون •

قال خصمي وقد بدا عليه حتى شيء من الغضب :

— ما معنى هذا ؟ ما كان ينبغي أن تزعجني إذا لم تكن تتوى أن

تقاتل •

فأجبه قائلاً بمرح :

— لقد كنت حتى الأمس غيياً أحمق ، ولكنني صرت ذكياً عاقلاً

بعد ذلك •

فقال :

— أما أنك كنت بالأمس غيياً أحمق ، فهذا أمر أسلم به ؛ وأما

أنك أصبحت ذكياً عاقلاً ، فهذا ما لا يبدو صحيحاً إذا نحن نظرنا إلى

سلوكك •

قلت وأنا أصفق يديّ :

— مرحي ! انني أوافقك على ما تقول • لقد استحققت أن أسمع

هذا الكلام •

قال ملحاً :

— أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدي أم لا ؟

فأجبه :

— لن أفعل • ولك أن تطلق مرة ثانية إذا كنت تحرص على ذلك،

ولكنك تحسن صنعا إذا أنت لم تطلق •

اضطرب الشاهدان ، ولا سيما صاحبي •

- كيف تجرؤ على أن تلتطخ شرف كنيستنا بالعار ؟ أتطلب الصنح وأنت على أرض المعركة ؟ آه ... ليتنى تنأت بهذا ! ...

كففت فى هذه المرة عن الضحك ، وقلت لهم جميعا وأنا أنظر فى أعينهم :

- سادتى ! أعجيب الى هذا الحد حقا أن يوجد فى أيماننا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبتها ، وأن يعترف بها أمام الناس ؟

فصاح صاحبى يقول من جديد :

- لا ... ولكن هذا لا يكون على أرض القتال .

فاستأنفت كلامى قائلاً :

- أهدأ ما يدهشكم اذن ؟ لقد كان يجب على فى الواقع أن أعترز اليه منذ وصلت ، قبل أن يطلق على النار ، وذلك لأجبه ارتكاب خطيئة قاتلة . ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل على أن أفعل ذلك ان صح التعبير ، فأتنى ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أفهم حق فهمى الا بعد أن أطلق على النار من على بعد اثنتى عشرة قدماً ؛ والا لكان يمكن أن تعدونى جباناً غير جدير بأن يسمع كلامى اذا أنا اعتذرت اليه منذ وصولى قبل أن يطلق .

ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسى :

- أيها السادة ! تأملوا خلق الله من حولكم : السماء الصافية ، والهواء النقي ، والعشب الطرى ، والطيور المفردة ! ان الطبيعة تنبسط أمامكم رائحة بغير خطيئة . ونحن وحدنا ، مشعر الأغنياء الأدياء ، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة . يكفى أن نعتقد البتة على أن نعرف

هذه الحقيقة حتى يبدو لنا العالم فوراً بكل سناؤه وبهائه وجماله • ألا
فلتتألق ولنبك •••

كنت أوشك أن أبكى ، ولكننى أمسكت وقد انقطعت أنفاسى •
شعرت بأنفعال شديد لذيد ، وكان قلبى يفيض سعادةً لا عهد لى بمثلها
من قبل •

قال خصمى :

- كلامك فيه عقل وشرف ••• لا شك فى أنك انسان طريف
جدا •••

فأجبت ضاحكا :

- اسخر منى الآن ، ولكنك ستطرينى فى المستقبل •
قال :

- بل أنا مستعد لأن أثنى عليك منذ الآن • اسمح لى أن أمد اليك
يدى ، لأنك فيما يبدو لى انسان صادق جدا •
قلت :

- لا ••• لا تمدد لى يدك الآن ••• وانما تمدها لى فى المستقبل ،
بعد أن أصلح نفسى وأستحق تقديرك ••• يومئذ تصافحنى وتكون على
حق اذا صافحتنى •

وعدا الى المنزل • كان شاهدى حائفاً فهو لا ينفك يقرعنى فى
العربة • أما أنا فكنت أقبّله • وما أن علم رفاقى بما حدث حتى اجتمعوا
ليحكموا على • قال بعضهم :

- لقد لطح شرف بزتنا العسكرية بالعار ، فعليه أن يستقيل •

ودافع بعضهم الآخر عنى قائلاً :

- ولكنه صمد أمام اطلاق النار عليه دون أن يختلج .
فقال الآخرون :

- غير أنه جبن بعد ذلك ، وخاف استئناف تبادل الرصاص ، فاعتذر
على أرض المعركة .

فأجاب المدافعون عنى قائلين :

- لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتذر ، أما وأنه رمى
مسدسه فى الغاية محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك ،
وانما هو شيء آخر جديد طريف .

وكنت أصغى اليهم ، فتملؤنى أقوالهم فرحاً ، ثم قلت لهم آخر
الأمر :

- يا أصدقائى ورفاقى الأعزة ! لا يقلقنكم أمر استقالتي ، فقد
أرسلتها الى المكتب منذ هذا الصباح ، وسأدخل الدير متى قبلت
الاستقالة .

فما ان سمعوا هذه الكلمات حتى انفجروا يضحكون ضحكاً
صاخباً .

- كان ينبغي أن تقول هذا من قبل . الآن اتضح كل شيء . ليس
يحاكم راهب .

كان رفاقي يضحكون ولكن بغير خبث ؛ انهم يضحكون وهم
يشعرون نحوى شيء من العطف والحنان . ومنذ تلك اللحظة أصبحوا
جميعاً يظهرن لى المحبة والمودة ، حتى أعتاهم اتهاماً لى وأقساهم حكماً
على . واحتفلوا بى فى الكتيبة طوال الشهر الذى انقضى بين تقديمى

الاستقالة واحالتى على التقاعد • كانوا يقولون :

— هذا راهبنا •

وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال فيها محبة وعطف ، محاولا أن يصرفنى عما عزمت عليه ، بل ومشفقاً على رائيًا لحالى •

— لماذا تفسد حياتك هذا الافساد ؟

— لا بل انه شجاع • لقد جابه اطلاق النار عليه وكان فى وسعه أن يرد ، ولكن لا شك أنه رأى فى منامه حلمًا أثناء الليلة التى سبقت يوم التزال فقرر أن يدخل الدير •

وكان الامر كذلك فى المدينة أيضا • لقد كان الناس فى الماضى يحسنون استقبالى وكفى • أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بى جميعا • انهمرت على دعواتهم الى ولائم يقيمونها لى • صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قرارى ، ولكنهم يحبوننى • ويجب أن أذكر أن السلطات قد أغمضت أعينها عن حادث مبارزتنا ، رغم أن هذه المباراة أصبحت مدار حديث الناس جميعا ، وذلك لأن خصمى يمت الى جنرالنا بقربى قريبة • ثم انه ما من دم قد سفح ، وقد استقلت ... لذلك عدت المغامرة أشبه بمزاحة • وقد تجرأت فقررت أن أعبر عن آرائى بغير تحرج ، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقى التى لم تكن سخريات خيثة شريرة والحق يقال ، بل كانت سخريات بريئة طيبة ... وكانت تجربى تلك الأحاديث عادةً فى المساء ، بحضور السيدات ، لأن اهتمام النساء بى كان أكبر من اهتمام الرجال ، فكان يحلو لهن أن يصغين الى كلامى ، وكنّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا الىّ كما يصغين هنّ •

كنت أسأل بلهجة ساخرة :

- كيف تزعم أنني مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس ؟
أنا الذي أترف أخطائك مثلاً ؟

فكنت أجيهم بقولي :

- لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم ، لأن المجتمع قد
سار منذ زمان بعيد في طريق خطأ ، فرفع الى مصاف الحقائق ضلالات
مشنومة ، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام . هذا أنا مثلاً : لقد
أردت مرة في حياتي أن أتصرف تصرفاً صادقاً ، فإذا أنا أصبح في نظرهم
رجلاً ملتك العقل . ومهما تجبوني ، فانكم تظلون تسخرون مني .

قالت سيدة المنزل ضاحكة :

- كيف يمكن أن لا يُحِبَّ قتي مثلك ؟

كان الجمع غفيراً جداً في ذلك المساء ، ولمحت فجأة ، بين السيدات
الحاضرات ، تلك المرأة التي أردت بسببها أن أبارز ، والتي كنت أحلم
أن تكون خطيئتي قبل ذلك بقليل . لم أكن قد لاحظت وصولها .
وها هي ذى تنهض وتدنو مني وتمد اليّ يدها وتقول لي :

- اسمح لي أن أقول لك انني ، أنا ، لا يخطر ببالى لحظة أن
أسخر منك . بالعكس : انني لأحرص على أن أعرب لك عن شكري
متأثرة أصدق التأثير ، أن أعبرَ لك عن تقديري واحترامي للسلوك
الذي سلكته في ذلك الطرف .

وجاء اليّ زوجها أيضاً ، وتبعه سائر المدعوين . كادوا يقبلونني
جميعاً . اجتاح الفرح نفسي . ولاحظت خاصة ، بين الأشخاص الذين
أظهروا لي مودتهم وعاطفتهم ، سيداً متقدماً في السن بعض الشيء ، كنت
أعرف اسمه منذ زمن ، ولكنني لم أقدم اليه ، فلم أخاطبه قبل ذلك
المساء بكلمة واحدة .

د - الزائر العجيب

كان يشغل منصبا هاما فى مدينتنا منذ سنين كثيرة • انه شخص مرموق ، غنى ، يتمتع باحترام عام ، اشتهر ببره واحسانه ، فقد وهب للمجأ الفقراء ولأوى الأيتام مبالغ ضخمة • وكان عدا ذلك يساعد عددا كبيرا من الفقراء ، متخفيا متكتما ، حتى أن ذلك لم 'يعرف الا بعد موته • انه فى نحو الخمسين من عمره ، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون قاسيا • وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب ، وامراته ماتزال شابة ، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صفارا فى ذلك الحين •

فى غد ذلك المساء الذى جرى فيه الحديث ، كنت فى منزلى ، فاذا بالباب يُفتح فجأة ، واذ بى أرى هذا السيد يدخل علىّ •

يحسن أن أذكر هنا أنتى كنت قد غيّرت مسكنى • فانتى بعد احوالى على التقاعد قد استأجرت غرفة فى دار امرأة عجوز هى أرملة موظف من الموظفين ، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتى • والحق انتى تركت منزلى القديم فى يوم المباراة نفسه ، فما أن رجعت الى منزلى فى ذلك الصباح حتى صرفت آتاناذى وأرسلته الى الثكنة ، لأنتى أصبحت لا أجرو أن أنظر اليه بعد الذى حدث بيننا • انظروا الى مدى هيمنة الأفكار السائدة على انسان من أبناء المجتمع لم يتهاى للحياة الروحية الأخلاقية ! ان هذا الانسان يمكن أن يحمر خجلا حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام •

قال لى هذا السيد :

— لقد أتيت لى أن أسمعك عدة مرات فى منازل صديقة كثيرة ، فكنت أصنى الى كلامك باهتمام عظيم فى كل مرة • وانى لأحب أن

أخطئ بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل • فهل تمنى علىَّ بهذا الفضل ؟

أجبت قائلاً :

- ذلك يسرنى أعظم السرور ، وهو لى شرف كبير •
ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف • لقد أوحى الىَّ هذا الرجل خوفاً عميقاً • صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لى مستمعون كثيرون ، وأن هؤلاء المستمعين كانوا فى كثير من الأحيان يصفون الى كلامى باستطلاع واهتمام ، ولكن ما من أحد منهم قد واجهنى حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجسد كله وهذا النفاذ كله • أضف الى ذلك أن الرجل قد جاء الى بيتى بنفسه •
قال لى بعد أن جلس :

- لقد تبينت فىك قوة خلقية كبيرة ، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة فى ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع •
فأجبت :

- لعلك تقدرنى فوق قدرى فى هذه القضية •
فقال :

- لا ••• فان القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن •
وتابع يقول :

- لقد أثر سلوكك فى نفسى تأثيراً قوياً ، وهذا هو السبب الوحيد الذى دفعنى الى زيارتك • أحب لو أسألك أن تصف لى - ما لم تر ذلك فضولاً - منى فى غير محله - ما شعرت به لحظةً قررت أن تعتذر اليه على أرض القتال ، اذا كنت تذكر مشاعرك • أرجو أن لا تعزو سؤالى هذا الى طيش منى ، فهناك أسباب خفية تدفعنى الى القاء هذا السؤال عليك ، وسأشرح لك هذه الأسباب اذا شاء الله أن يقرب بيتنا •

كانت أثناء استرساله فى هذا الكلام أنظر اليه باتباه ، فشعرت فجأة باطمئنان اليه وثقة به ؛ حتى لقد أحسست أنا أيضا باستطلاع قوى ، لأننى قدرت أن فى حياته سرآ • قلت له :

- قبل أن أذكر لك ما شعرت به أثناء اعتذارى الى خصمى على أرض المعركة ، أحسب أن من المفيد أن أروى لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسلاّ لا يعرفه أحد الى الآن •

وأطلعت على ما وقع لى مع آتاناى ، ورويت له كيف أننى سجدت أمامه ، وقلت أختم كلامى :

- تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفى فى لحظة المبارزة كان سهلاً ، لأننى كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا فى منزلى ، فلما سرت فى هذا الطريق لم يكن علىّ الا أن أتابع المضى فيه ؛ وسلوكى بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفنى أى عناء فحسب ، بل كان الى ذلك مصحوباً باحساس بالسعادة والفرح •

أصنى الرجل الى كلامى باتباه ، وكان فى نظرنه الى مودة كبيرة وحسب عظيم • قال :

- هذا كله شائق جدا ، وسأعود اليك لأتحدث معك مرارا •

وأصبح يحىء الىّ كل مساء تقريبا • وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة ، لو أنه حدثنى عن نفسه أيضا • ولكنه لم يكده يقضى الىّ بشيء عن حياته ، وكان لا يزيد على أن يسألنى عن حياتى أنا • ومع ذلك فقد أحببته كثيرا ، وفتحت له قلبى كله ، قائلاً لنفسى اننى فى غير حاجة البتة الى معرفة سرّه ، وحسبى أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم • وأرضائى أن أرى رجلاً أكبر منى سناً ، رجلاً يبلغ هذا المبلغ من الجدة

ثم هو لا يحترق صجة شاب مثلى ، بل يجيء اليه فى منزله ... وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة ، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء .

قال لى فجأة ذات يوم :

- أما أن الحياة جنة ، فذلك ما أفكرّ فيه منذ زمان طويل .

وسرعان ما أضاف قوله :

- بل اننى لا أفكر الا فى هذا .

ونظر الى مبتسماً .

- حتى اننى أشد اقتناعاً بذلك منك ، لأسباب ستعرفها فيما بعد .

كذلك أضاف يقول بعد قليل .

وقدّرت وأنا أضغى اليه انه ربما كان يريد أن يفضى الى بعض

أسراره .

واستأنف كلامه قائلاً :

- ان كلاماً منا يحمل فى نفسه جنة مدفونة . ان هذه الجنة قائمة

فى نفسى وان تكن مختبئة . وحسبى أن أريد ، حتى أجعلها تبتجس

منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتى .

كان يتكلم بشيء من الحماسة ؛ وفى نظيرته المنصبة على رأيت

ما يشبه أن يكون سؤالاً مستسراً عجيباً . وتابع كلامه يقول :

- انه لصحيح كل الصحة أن كل انسان مرتكب كل الذنوب فى

حق كل الناس ، هذا عدا خطاياها الخاصة . تلك حقيقة كبرى عبّرت

عنها ، ولا يسعنى الا أن يدهشنى أنك استطعت أن تكتشفها كاملة ،

دفعه واحدة • ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعا لا حلمًا
فحسب ، فى اليوم الذى تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة •
فهتفت أقول بمرارة :

— متى يحدث هذا ؟ هل يجرى ذلك اليوم حقا ؟ أليس ذلك أملاً
لا أكثر ؟

— أأنت لا تؤمن بهذا اذن ؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك ؟
ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة • كن من ذلك على ثقة !
على أن هذا لن يتحقق اليوم ، لأن لكل فعل ميقاته فى الزمان بحكم قوانين
صارمة • لا بد أن تتغير الانسانية تغيراً نفسياً وأخلاقياً • لن يكون من
الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة ، وما لم يتجهوا
فى طريق جديد • لن يكون على الأرض أخوة ما لم يشعر البشر بأنهم
أخوة حقاً • لن يستطيع البشر فى يوم من الايام أن يقتسموا ثروتهم
بالعدل اذا هم لم يستوحوا الا العلم ومصالحهم • ان كل واحد سيوجد
نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب ؟ وان الجسد والحقد
سيسودان فيدفعا البشر الى أن يفنى بعضهم بعضاً • تسألنى متى يتحقق
ملكوت السموات على الأرض • فاعلم أن ملكوت السموات سيتحقق على
الأرض فى يوم من الايام ، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء « عهد
العزلة » •

— أية عزلة تعنى ؟

— العزلة التى يعيش فيها البشر ، وتحتل فى جميع الميادين ، ولا
سيما فى عصرنا هذا • ان عهد العزلة هذا لم ينته ، حتى انه لم يصل الى
ذروته • ان كل انسان فى هذا العصر يجهد فى سبيل أن يتذوق الحياة
كاملة ، مبتعداً عن أقرانه ، ساعياً الى السعادة الفردية • ولكن هيهات

أن تؤدي هذه الجهود الى تذوق الحياة كاملة ، فهي لا تقود الا الى فناء النفس فناء كاملا ، ولا تقود الا الى نوع من الانتحار الروحي بعزلة خائفة . لقد انحل المجتمع في عصرنا الى أفراد يعيش كل منهم في جحره كوحش ، ويهرب بعضهم من بعض ، ولا يفكرون الا في أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض . وهم يصلون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضا ، والى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضا . ان الانسان يكدس الخيرات فوق الخيرات في العزلة ، وتسره القوة التي يحسب أنه يملكها بذلك ، قائلا لنفسه ان أيامه قد أصبحت بذلك مؤمنة مضمونة ؛ انه لا يرى ، لحماقته ، أنه كلما أوغل في التكديس كان يفوص في عجز قاتل . ذلك أنه يعود أن لا يعتمد الا على نفسه ، ويفقد ايمانه بالتعاون ، وينسى في عزلته القوانين التي تحكم الانسانية حتما ، وينتهي من ذلك الى أن يرتعد في كل يوم خوفا على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء . لقد غاب عن البشر تماما في أيامنا هذه أن الأمن الحقيقي في الحياة لا يتحقق بالعزلة ، وانما يتحقق باتحاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية . ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهي حتما في يوم من الايام ، وسيفهم البشر فجأة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية ، وستهب على الانسانية يومئذ نفحة جديدة ، وستسأل الانسانية مدهوشة يومئذ : كيف أمكنها أن تعيش طوال هذه المدة في ظلمات الضلالة لا ترى النور ؟ وعندئذ يهوف تظهر علامة ابن الانسان في السموات ... وانما المهم أن نحافظ على علّمه الى أن يجيء ذلك الحين ، وأن نحاول ، ولو بالقدوة الفردية ، أن نخلص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون أن نخشى اتهامنا بالغباء . ما ينبغي أن ندع لهذا الأمل العظيم أن يموت ...

هكذا كانت تنقضي ليالينا في أحاديث مشبوبة متحمسة . وأصبحت

أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شيء ، وأصبحت لا ألبى دعوات الناس الا لماماً . ثم أن الحماسة لشخصى كانت قد بدأت تزول . لقد عفت « موضتى » . ولست أقول ذلك لانما ولا عاتبا ، لأن الناس ظلوا يحبوننى ويحسنون وفادتى . ولكن يجب أن نعترف بأن « الموضة » تلعب فى المجتمع دورا كبيرا . أما زائرى العجيب فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن اعجابا شديدا . كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم ، وكنت أحس أنه ينضج مشروعا سرياً أو يتهاى لعمل كبير . ولعله قدّر فى أننى لا أندخل فيما لا يعنينى فضولا ، فأننى لم أحاول ، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر ، أن أستدرجه الى حيث يسرُّ الى شئ من أمره . ولكننى لاحظت أخيرا أن سره يثقل على صدره ، وأنه يحترق شوقا الى أن يفتح لى قلبه ، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعورا واضحا كل الوضوح بعد شهر . قال لى يوما :

— هل تعلم أن الناس فى المدينة يثرثرون كثيرا عنا ، وأنهم يدهشون لزياراتى المتكررة لك ؟ لا ضير على كل حال ، فان كل شئ سيتضح قريبا .

وكان يتفق له فى بعض الأحيان أن يتأبه اضطراب شديد ، وكان فى مثل تلك اللحظات ينهض فى الغالب لينصرف . وكان فى مناسبات أخرى يطيل التحديق الى ، ويلقى على نظرات نافذة ، فأقول لنفسى عندئذ : « ها ... سيتكلم » ، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث ، ويتطرق الى موضوعات لا قيمة لها ، أو يقول أشياء معادة مكرورة . وكان يشكو من صداع فى كثير من الاحيان . وفى يوم من الايام ، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة ، رأيتة يصفرُّ على حين فجأة ، ورأيت وجهه يتقلص ، ورأيتة يتفرس فى تفرسا غريبا . قلت له قلقا :

— ماذا بك ؟ أنت مريض ؟

ذلك أنه كان قد شكّا من صداع منذ قليل .

فقال :

- أنا ... هل تعلم ؟ أنا ... أنا قاتل ! ...

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد اصطبغ
بزرقة ضاربة الى سواد . « ما هذه الابتسامة ؟ » . برق هذا السؤال في
ذهنى ونفذ الى قلبى ، قبل أن يتسع وقتى لأن أرد بشىء . ولكننى
شجبت أنا أيضا .

صحت أسأله :

- ماذا تعنى ؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يتبسم ابتسامة حزينة :

- هأنت ذا ترى كم كلفنى هذا الاعتراف الاول من عناء ! ولقد
تم الاعتراف الآن ، وستكون متابعتة أسهل وأيسر ... فهياً أتابع ...
لبثت زمناً طويلا لا أصدق ما كان يقوله لى ؟ ولم أستطع أن أصل
الى الصديق الا شيئا فشيئاً ، بعد أن رجعت الى ثلاث أمسيات متتاليات ،
فروى لى القصة بجميع تفاصيلها . ظننته فى أول الامر مجنوناً ، ثم
أدركت الحقيقة أخيراً بمرارة قوية ودهشة عميقة . لقد ارتكب هذا
الرجل فعلاً جريمة قتل رهينة منذ أربعة عشر عاماً : قتل امرأة شابة
غنية ، جميلة جداً ، كانت أرملة رجل من مالكي الاطيان ، وكان لها فى
مدينتنا قصر تقيم فيه من حين الى حين . لقد افتن هذا الرجل بها افتتاناً
شديداً ، وتوله بها تولهاً مشبوباً ، وصارحها ذات يوم بحبه ، وحاول أن
يقنمها بزواجه . ولكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط فى الجيش
على الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ فى الريف وكان عليها أن تلحق

به قريبا • لذلك رفضت عرض صاحبى ، ورجته أن لا يجرى اليها بعد ذلك اليوم أبدا • فلما صرفته بهذه الخشونة ، وأصبح لا يستطيع أن يزورها ، تسلل ذات ليلة الى منزلها الذى كان يعرف تربيته ، مارا بالحديقة والسطح ، متهورا أشد التهور ، معرضا نفسه لأن يُكتشف • ولكن الحظ واتاه ، كما يحدث هذا كثيرا فى الجرائم الجريئة ، فنفذ الى دارها من كوة فى السطح ، ثم هبط السلم المؤدى من طابق السقف الى شقة السيدة • كان يعلم أن الباب الذى يوجد فى أسفل هذا السلم يظل مفتوحا فى كثير من الأحيان بسبب اهمال الخدم • وعلى هذا انما كان يعوّل صاحبى ، فصدق حسابه • فلما صار فى الشقة اتجه فى الظلام الى غرفة نوم السيدة ، التى كان يشتعل فيها سراج • وشامت المصادفة أن تكون وصيقتا السيدة قد خرجتا فى ذلك المساء ، دون أن تستأذناها ، وذلك لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما تحتفل بعيد ميلاده ، وتسكن غير بعيد • أما الخدم والخدامات فقد كانوا ينامون فى الملحقات بالحديقة ، أو فى المطبخ بالطابق الأدنى • فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هواء واستعر ، فاذا بغيره حائقة ظامئة الى الانتقام تشب فى قلبه ، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران ، ويفمد فى قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل • لم يتسع وقت السيدة حتى لاطلاق صرخة • ورتب الرجل أموره بمكر شيطاني وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على ساكنى المنزل • لم يرض أن يستولى على محفظة القتل ، وانما فتح أدراج صندوقها مستعينا بمفاتيح وجدها تحت وسادتها ، فاختار من محتويات هذه الأدراج أشياء هى ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل • لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التى لها قيمة كبيرة ، وانما سرق الأموال النقدية ، وسرق الحلى الذهبية مسترشدا بحجمها ووزنها ، محترقاً التحف التى يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية كثيرا • وسرق كذلك

بعض الاشياء التذكارية التي سنتحدث عنها فيما بعد • حتى اذا اتم جريمته على هذا النحو ، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذى اتبعه فى الدخول • ولم يخطر ببال أحد على الاطلاق ، لا فى الغد حين اكتشفت الجريمة ، ولا فى أية لحظة من لحظات حياته ، أن يكون هو الجانى • وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتل على كل حال ، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام ، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يُسرّ اليهم بشئونه • كان الناس يعدونه أحد أصدقاء القتل لا أكثر ، حتى أنهم كانوا لا يعدونه من أصدقائها الحميمين ، لأنهم لم يروه فى منزلها خلال الأسابيع التى سبقت المأساة • وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بطرس ، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه • كان هذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة - التى لم تكن تخفى ما عقدت نيتها عليه - تريد أن تدخله فى قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية ، أولاً لأنه عازب ، وثانياً لأنه سىء السلوك • وقد سمعه الناس فى احدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو فى حالة سكر شديد وحنق قوى • وفى غداة الجريمة ، وُجد على الطريق ، غير بعيد عن الضيعة ، فاقد الوعى من شدة السكر ، فى جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم • وقد فسرّ هو ذلك بأن أنفسه رعب ، ولكنه لم يُصدّق • واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً ، وأقرّتا بأنهما تركتا باب الدار مفتوحاً عن سهو وغفلة • وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه ، فاعتقل الخادم البرىء ، وأودع السجن ، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع ، ثم مات فى المستشفى قبل أن يفيق من غيبوته • وأغلق التحقيق ، ولم يبق الا تسليم الأمر لله • • • وظل جميع الناس ، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع فى المدينة ، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى • وعندئذ انما بدأ العقاب •

وقد أسرّ الى الزائر العجيب ، بعد أن أصبح صديقى ، أنه لم يعرف عذاب الضمير فى الآونة الأولى . صحيح أنه تألم زمنا طويلاً ، ولكن ألمه كان حسرةً على أنه قتل المرأة التى يحبها وعلى أنه فقد الى الأبد كل أمل فى أن يسعد بقربها ، وكانت نار الحب ما تزال تكوى عروقه . أما أنه سفع دماً وقتل انساناً فذلك أمر لم يزعجه كثيراً ، ولم يكن يفكر هو فيه الا نادراً . كان اذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطبق أن يحتمل هذا التصور؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف الا كما تصرف . وقد هزّه اعتقال الخادم فى أول الأمر ، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن ردّا اليه هدوءه وطمأنينته ، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية ، وانما مات بسبب البرد الذى أصابه أثناء هروبه ، حين بات ليلةً بكاملها على الأرض الرطبة فاقدَ الوعي من السكر . أما المال والأشياء المسروقة فانه لم يأبه لها قط ، لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً . ثم ان قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً ، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذى أنشئ فى المدينة فى الآونة الأخيرة مبلغاً يساوى قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً . وقد فعل ذلك ليهدى ضميره فى موضوع السرقة ، ومن الغريب أنه استطاع أن يهدئه فضلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسرّ هو الى بذلك . واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً ففرق فى هذا النشاط ، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد اليه بمهمة صعبة متعبة مضنية شغلته خلال سنتين ؛ واذا كان رجلاً جَمَّ النشاط فانض القوة فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التى ارتكبها نسياناً يشبه أن يكون كاملاً . وكان اذا راودته ذكراها يبادر الى طرد هذه الذكرى . وقد انصرف أيضاً الى البر والاحسان فقدم

وأنشأ أعمالاً خيرية في مدينتنا ، وذاع صيته في العواصم ، فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية بموسكو وسان بطرسبرج . غير أن قلقلها أليماً قد استيقظ في نفسه بمرور الزمن ، وأخذت ذكرى الماضي تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد إلحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه في العمل . وتعرف في تلك الفترة إلى امرأة شابة جميلة ذكية ، أعجبه كثيراً فقرر أن يتزوجها ، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه . كان يقول لنفسه أنه إذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض في همة ونشاط ، بواجباته نحو امرأته وأولاده الذين سينجبهم منها ، فإنه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضي الذي يحاصره تخلصاً تاماً . ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق ، وإنما تحقق نقيضه . فإنه منذ الشهر الأول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه : « صحيح أن زوجتي تجبنى . ولكن كيف عساها تصرف إذا هي عرفت الحقيقة ؟ » . وحين أسرت إليه أول مرة أنها ستصبح أما اضطرب وقال لنفسه : « أأهب الحياة أنا الذي قتلت ؟ » . ثم لما كبر أولاده ، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى : « كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأنتى أستاذ يعلم الفضيلة ، في حين اننى ارتكبت جريمة قتل ؟ » . وكان أولاده على غاية من القلرب والجمال ، ولكنه كان إذا انتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه : « لست جديراً بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التى تتلألأ فيها براءة نفوسهم . » . وأخيراً انبجس أمام ضميره طيف المرأة التى قتلها ، انبجس وعيداً غامضاً كأنه نداء الدم السفوح يهيب إلى الانتقام ! وأصبحت توافيه فى الليل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة . ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جثته أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً ، واستطاع أن يقبله قاتلاً لنفسه أنه سيكفر بالآلام الخفية عن خطيئته . ولكن أمله هذا قد خاب . فإن القلق الداخلى ما انفك يزداد ويتفاقم . والناس فى المجتمع يحترمونه

تقديرًا لبره واحسانه ، مع تهيبهم فسوة طبعه وانغلاق نفسه • ولكنه كان يزداد شعورا بلارهاق كلما ازداد شعورا باحترام الناس له. وقد اعترف لى بأنه فطر فى الانتحار غير مرة • غير أن فرارا آخر قد أخذ ينضج فى نفسه ، فرارا بدا فى أول الأمر حلمًا طائشًا مجنونًا ولكنه ما زال يستولى على وجدانه ويترسخ فى ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره • كان يقول لنفسه : « يجب أن أسلم نفسى للقضاء ، يجب أن أعترف بجريمتى ، يجب أن أنهم نفسى أمام جميع الناس بأننى قاتل • • • وظل ثلاث سنين يحمل فى خياله هذ الحلم الذى يعاوده فى صور جديدة بغير انقطاع • وانهى الى الاقتناع بأنه سيشفى روحه وسيسترد أمنه الداخلى الى الأبد ، اذا هو اعترف بجريمته • ولكن ما ان تأصل هذ الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه ، فأصبح يقول لنفسه : « كيف أفعل مثل هذا ؟ » • وفى ذلك الحين انما وقعت المبارزة بينى وبين ذلك الرجل •

قال لى الزائر العجيب :

— حين نظرت اليك وجدت فى نفسى القوة على أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى •

فهتفت أسأله وأنا أضمرُ يديَّ احداهما الى الأخرى :

— هل يمكن حقًا أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولّد فى نفسك عزيمة كهذه العزيمة ؟

فأجابنى قائلا :

— ان هذا القرار قد نضج فى نفسى خلال ثلاث سنين ، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجته الى النور • اتنى ازاء المثل الذى ضربته أنت قد استحييت من ضعفى وحسدتك •

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية • قلت :

- لن يصدّقوك ، فبعد أربعة عشر عاماً ...

- عندى براهين ، براهين رهية ، لا يمكن دحضها ... سأقدم
هذه البراهين •

بكيت وعانقته •

وقال لى بعد ذلك كأنه يخاطب انسانا يتعلق به مصيره :

- أجبني مع ذلك عن سؤال ، سؤال واحد : ما الذى سيحدث فى
هذه الحالة لزوجتى وأولادى ؟ قد تموت زوجتى حزناً • أما أولادى
فانهم لن تسقط عنهم نبالهم ولن يحرموا من أموالهم ، ولكنهم سيظلون
الى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة • وأية ذكرى
سيحفظونها عني ؟

صمت فلم أقل شيئاً •

وأردف يقول :

- سيكون علىّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم الى الأبد !

لم أجب بشيء ، وكنت أتلو صلاةً بصوت خافت • ونهضت أخيراً
وقد امتلأت نفسى رعباً وفزعاً • سألتى وهو ينظر الىّ :

- هيه ؟

قلت :

- سلّم نفسك للقضاء ! كل شيء سينقضى وتبقى الحقيقة وحدها •
وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبل وسمو روحى
فى سبيل اتخاذ هذا القرار •

تركى فى ذلك المساء وقد بدا عليه واضحا أنه قرر أن يعترف بجريمته . ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك ، يجرى الى كل مساء تقريبا ، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه ، حتى اذا جاء الغد جبن فى آخر لحظة عن تحقيق عزمه . وكان تردده يقلقنى ويعذبنى . انه يبدو فى بعض الأحيان ثابت الجنان صلب العزيمة ، فما هو ذا يقول فى رقة وحنان :

— أنا أدرى أنتى سأعرف اللجنة متى اعترفت بجريمتى . لقد عشت أربعة عشر عاما فى الجحيم . أريد أن أتألم . سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة . الكذب لا يؤدى الا الى الظلمات ، وهو يسد الطريق نحو الضياء الى الأبد ! أنا الآن لا أجرو أن أحب حتى أولادى فكيف بالناس ! سيفهم أولادى ... آه يا رب ! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينونى !

— سيفهمون القرار الذى اتخذته ، وسيستحسنونه جميعا ، ان لم يكن فورا ففى المستقبل حتما . انك بهذا العمل تخدم الحقيقة ، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضى .

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد أزده ، ولكننى رأيته فى الغد عائدا الى وقد شحب وجهه وتشعث هيشته ، فقال لى بلهجة فيها سخرية :

— كلما دخلت عليك أحسست أنك تفرس فى كمن يقول لنفسه: « لم يقرر بعد ! » . صبرك ولا تسرع فى احتقارى : ان انفاذ هذا الأمر أصعب مما تظن . ومن يدرى ؟ فقد أعدل عنه أخيراً ! أحسب أنك لن تمضى تشى بى !

والحق أنتى لم أكن أنفرس فيه مستطلما ، فلقد كنت لا أكاد

أجرؤ أن أنظر اليه • كانت هذه المأساة الداخلية تُمرضنى ، وكنت أُمّ
أن أبكى فى كل حين ، حتى لأوشك أن أُحرم النوم •

قال يوما حين وصل الى :

- تركت امرأتى منذ هنيهة • هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه
الكلمة : امرأتى ؟ ... لقد صاح أولادى يقولون لى حين خرجت من
المنزل : « عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا فى كتاب الحكايات » • لا ...
انك لا تستطيع أن تفهم هذا • ان شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفا •

وسطعت عيناه واحتلجت شفتاه • وضرب المائدة فجأة بقبضة يده
ضربةً بلغت من القوة أن الأشياء التى كانت عليها أخذت تهتز • ان
هذه البادرة تبدو أمرا خارقا من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة
فى العادة •

هتف يقول :

- أهذا ضرورى فعلا ؟ أهو مفيدٌ حقا أن أثنى بنفسى ؟ ما الداعى
الى هذا الاعتراف ولم يُحكّم على أحدٍ بسبب جريمتى ، ولم يرسل
برىء الى السجن بدلا عنى ، وقد مات ذلك الخادم من مرض ؟ أما الدم
المسفوح فانتى أكفر عنه بالآمى وعذابى • ثم انهم لن يصدّقونى ،
وسيعمدون الأدلة التى يمكن أن أقدمها • ففيم أثنى بنفسى ؟ هلاّ قلت لى
فيم أثنى بنفسى ! انتى مستعد لأن أتألم طوال حياتى من تلك الجريمة
فى نفسى ، شريطة أن لا أجر زوجتى وأولادى معى الى الشقاء • هل من
العدل أن أجبرهم على مشاركتى فى العقاب ؟ ألا ترى أننا قد ضلنا طريق
الرشاد ؟ أين الحقيقة ؟ وهل هؤلاء الناس جميعا قادرون حقا على أن
يدرکوا الحقيقة ، وعلى أن يقدروها ويحترموها كما يجب أن تقدّر وأن
تُحترم ؟

قلت أخاطب نفسى : « رباه ! انه يهتم بتقدير الناس فى مثل هذه هذه اللحظة ! » واجتاحت نفسى عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لى أننى مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه • لقد انقلبت سحتته انقلاباً رهيباً • وما كان أشد انصعافى حين أدركت لا بعقل فى هذه المرة ، بل بروحى وقلبى ، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ !

هتف يقول :

— قرّرْ مصيرى •

فأجته هامساً :

— سلّم نفسك للقضاء !

كان صوتى واهناً ضعيفاً ، غير أن فيه حزمًا وصلابة • ثم تساولت الكتاب المقدس من على المائدة — فى ترجمته الروسية — ودلته على هذه الفقرة من انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٢ ، الآية ٢٤ : « الحقّ الحقّ أقول لكم : ان لم تقع حبة القمح فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها • ولكن ان ماتت فهى تأتى بشمر كبير » • وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات • قرأ الآية وقال :

— هذه هى الحقيقة •

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة ، وصمت لحظة ثم قال :

— ما أكثر ما يجد المرء فى هذه الكتب ! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام ! فمن ذا الذى كتب هذا كله ؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشرّاً ؟

قلت :

- نعم • ولكنهم كتبوه بوحى من الروح القدس •
عاد يقول مبتسما مرةً أخرى ، ولكن ابتسامته فى هذه المرة يكاد
يكون فيها كره :

- مهما تتكلم !

فتحت الانجيل على موضع آخر ، وأرثته الآية ٣١ من الاصحاح
١٠ ، « الرسالة الى العبرانيين » • فقرأ : « مخيف هو الوقوع فى يدي
الله الحي » •

فرمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد • قال :
- هذه آية رهبة • يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها
للمناسبة •

ونفض قائلًا :

- الوداع • أغلب الظن أنني لن أجيء اليك بعد اليوم • سلتقى
فى الجنة • لقد « وقعت اذن فى يدي الرب الحي » مدة أربعة عشر عاما •
يظهر أن على أن أسمي هذه الفترة من حياتي هكذا • غدا سأضرع الى
تينك اليمين أن تتركاني •••

وددت لو أقبله ، ولكنني لم أجرو • كانت قسما وجهه متقبضة
وكانت نظراته ثقيلة • خرج • تساءلت : « الى أين يمضي هذا الانسان
الآن يا رب ! » ، وارتيمت جاثيا على ركبتى أمام أيقونة العذراء • صليت
باكيا لأم الرب التى تخف الى الشفاعة والحماية • انقضى نصف ساعة دون
أن أكف عن الدعاء والبكاء • أوشك الليل أن ينتصف • هذا باب الفرقة
يفتح فجأة ، وهذا صاحبي يظهر من جديد • أذهلتني رؤيته •

سالته :

- من أين جئت ؟

- نسيت ... أظن أنني نسيت عندك شيئاً ... هو منديل فى
أغلب الظن • وهبنى لم أس شيئاً ، فإن هذا لا يمنعنا من أن نتحدث ...
جلس • بقيت واقفاً أمامه • قال لى :
- اجلس أنت أيضاً •

أطعته • لبنا على هذه الحال بضع دقائق لا تتكلم • كان يحدثنى
الى • وفجأة ، ضحك ضحكة صغيرة ... أتذكر ذلك ... ثم نهض ،
واقرب منى ، وعانقنى بحرارة ... وقال يخاطبني فى هذه المرة بصيغة
المفرد :

- تذكر أنني جئت اليك هذه الليلة • لا تنس ذلك • فهمت ؟
تلك أول مرة يخاطبني فيها بصيغة المفرد • ثم خرج • قلت لنفسى :
« انه فاعل غدا » •

لم يخطئ ظنى • كنت أجهل فى ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد
ميلاده • اننى لا أخرج منذ حينٍ الا لماماً ، فلم يذكر لى أحد ذلك •
كان يقيم فى كل سنة حفلة كبيرة فى منزله يدعو اليها كل أبناء المجتمع
الراقى من أهل المدينة • وكذلك فعل فى هذه السنة • حتى اذا انتهى
العشاء تقدم الى وسط الصالة ، ممسكاً بيده ورقة كتب عليها اعترافاته
موجهة الى رؤسائه • كان رؤساؤه حاضرين الحفلة • قرأ تصريحه
بصوت عالٍ ، ذاكرًا جميع تفاصيل الجريمة التى ارتكبها منذ أربعة عشر
عاماً • وختم قراءته قائلاً :

- أنا شيطان رنجيم • وقد قررت أن أبعد نفسى عن المجتمع • لقد
مستى النعمة الالهية • أريد أن أتألم •

ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التى احتفظ بها خلال تلك السنين ، والتى يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته : حلى المرأة القتل ، التى سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات ، والصليب والنيشان (الذى يضم صورة خطيب المرأة القتل) ودفترتا ورسالتين ؟ فأما الرسالة الأولى فهى من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آت قريباً ، وأما الثانية فهى جواب لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها فى الغد . ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين ؟ وماذا كان الدافع الذى دفعه بعد ذلك الى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التى تتهمه وتعرضه للخطر بدلا من أن يتلفها ؟ مهما يكن من أمر ، فاليكم ما حدث : ذُهل الحضور من اعترافاته ، واتباهم جزع ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا هذه الاعترافات . صحيح انهم أصغوا اليه بكثير من الانباه والاستطلاع ، ولكنهم انما أصغوا اليه اصغاءهم الى انسان مريض . وبعد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله . ولئن لم يكن فى وسع رؤسائه ورجاء السلطة أن لا يتابعوا الأمر ، فقد أرتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء . ذلك أن الرسالتين والأشياء التى قدمها ان كانت تبث على التفكير ، فلا يمكن أن يبنى عليها وحدها اتهام ، حتى ولو ثبت أنها للقتيل ، فمن الممكن أن تكون القتل قد عهدت اليه بها كصديق . وقد علمت فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا هذه الأشياء ، فلم يبق حول ذلك شك . ولكن القضية لم تحرك رغم هذا ، فقد علم بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض وأن حياته فى خطر . لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه . وقد تحدث الناس عن اضطرابات قلبية . ومهما يكن من أمر ، فإن الأطباء قد فحصوا حالته العقلية أيضاً ، وذلك بالحاح من امرأته ، فاتهموا الى أنه مصاب ببداية جنون . ولم أكشف عن اعترافاته لى طبعا ، رغم أن جميع الناس قد

حاصرونى بالأسئلة • وحين أردت أن أزوره مع ذلك أغلق دونى بابہ ، وكانت امرأته خاصةً هي التي حالت بيني وبينه • قانت لى : « أنت الذى أدخلت الاضطراب والاختلال الى عقله ! لقد كان دائماً قائم المزاج ؟ وأصبح اضطرابه النفسى وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام ، فبحثت أنت فأجهزت على عقله ! أنت الذى حشوت رأسه بهذه الأفكار ! انه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك !

ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها ••• هل تصدقون هذا ؟ لقد هاجمتنى المدينة كلها عندئذ وأعرفتى لوماً وتقريباً •

— هذه خطيبتك !

هذا ما كان يقوله لى الناس فى كل مكان •

وكت أصمت فلا أجب ، وكنت فى قرارة نفسى سعيداً • ذلك أننى أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذى أدان نفسه وأراد أن يلقي جزاءه • أما جنونه المزعوم ، فما كان لى أن أصدقه • وسُمح لى أخيراً بأن أراه ، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودعنى • فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه وحدها ، معدودات • كان واهناً ضعيفاً أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء • ولكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء ونبات الجنان • قال لى :

— انتصرت الحقيقة ! اننى انتظرك منذ مدة طويلة ، لماذا تأخرت

فى المجي ؟

أخفيت عنه أننى مُنعت من مقاربتة •

— لقد أشفق على الرب فنادانى اليه • أنا أعلم أننى ساموت ، ولكن روحى قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة أخيراً ، لأول مرة

بعد تلك السنين الطويلة كلها • لقد وجدت الجنة في نفسي منذ تكلمت مستوحياً ضميري • أصبحت لا أخشى أن أحب أولادى وأن ألافهم وألاعبهم • ان الناس ترفض أن-تصدقنى ؛ ما من أحد يريد أن يسلم بأننى قاتل ، لا زوجتى ولا قضاتى • وأولادى لن يصدقوا هذا ، هم أيضا • سوف أموت ، ولكن اسمى سيظل فى نظرهم طاهرا لم يندس ولم يُلطَّخ • أوه ؟ اننى أشعر بالله الآن ، وان قلبى لمبتهج كأننى فى الجنة • • • لقد قمت بواجبى • • •

لم يستطع أن يكمل كلامه ، فقد انتابه اختناق ، غير أنه شدَّ على يدي بحرارة ، ونظر الى صامتا ، وقد سطعت عيناه. بلمهيب • لم تتمكن من اطالة حديثنا ، لأن امرأته قد نفذ صبرها ، فهى تشق الباب بغير انقطاع • واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلا :

— هل تتذكر أننى جئت اليك فى ذلك المساء ، عند منتصف الليل؟ لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك • • • فهل تعلم ماذا كان هدفى حين جئت اليك فى تلك الساعة ؟ كان هدفى أن أقتلك !
ارتعشت •

— فبعد أن تركتك ، لبثت أطوف فى الشوارع على غير هدى زماناً طويلاً أصارع نفسى ، فاذا أنا أشعر فجأة بكره لك بلغ من القوة أننى أحسست أن قلبى يوشك أن ينفجر • قلت لنفسى : « بسببه وحده انما أنا مضطر الى الاعتراف الآن • لقد أصبح قاضى » ، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غدا لأنه يعلم كل شيء • • ليس معنى هذا أننى كنت أخشى أن تشي بى (ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى فى لحظة من اللحظات) ولكننى كنت أقول لنفسى اننى لن أستطيع أن أنظر اليك بعد ذلك اذا أنا لم أسلم نفسى للسلطات • وسيان أن تكون فى هذه المدينة وأن تكون فى أقصى الأرض • أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش فى مكان ما

عالماً بأمرى حاكماً على مدينا اياى . فأخذت أكرهك ، كما لو كنت علة شقائى ، كما لو كنت مسئولاً عما أنا فيه . ورجعت اليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجرا . وجلست ، ودعوتك أن تجلس أنت أيضا ، ولبت دقيقة طويلة أفكر وأنا أهدق اليك . بديهي أن حياتى كانت ستحطم على أى حال لو قتلتك ، وأنتى كنت سأتتهى نهاية شقية ، سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لم أعترف . ولكن ذلك لم يخطر ببالي فى تلك اللحظة ، لأننى لم أكن أهتم بالعواقب . كنت أكرهك ، وكانت تحرقنى رغبة قوية فى أن أثار منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب . أما ما عدا ذلك فكان لا يعينى . ثم انتصر الرب فى تلك الدقيقة على الشيطان فى قلبى . ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منك فى يوم من الأيام كما اقترب منك فى تلك الليلة .

مات الرجل بعد أسبوع . وشيعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة . وألقى الكاهن كلمات مؤثرة . وانتحب المتحجون حزناً عليه ، واشتكوا مرّاً الشكوى من المرض الذى أماته . وبعد الجنازة قاموا على . وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعوتنى الى منازلهم . غير أن عدداً من الأشخاص ، كانوا قلة فى أول الأمر ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك ، قد انتهوا الى الاقتناع بصدق اعترافاته ، فكانوا يجيئون الىّ فى كثير من الأحيان يزعموننى بأسئلتهم عنه ، وقد امتلأت نفوسهم فضولا شديداً وخبئاً خفياً . ان الانسان يحلو له يرى رجلاً صالحاً يسقط ويتلطح شرفه . أبيت أن أتكلم مع ذلك ، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة مبارحة تامة . وبعد خمسة أشهر من علىّ الرب فوجهنى فى طريق اليقين والنور ؟ بوركت اليد الخفية التى قادت خطاى نحو الهدف . أما صاحبى ذاك ميشيل ، خادم الرب ، الذى كان عاثر الحظ ، فقد ذكرته فى صلواتى كل يوم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكره فيها حتى هذه الساعة .

بعض النعالم اللى عبّر عنها الأب زوسىما فى أحاديثه

هـ - حديث عن الراهب الروسى
والدور الذى يمكن أن يقوم به •



الراهب يا اخوتى ومعلمى ؟ ان بعض الناس
فى الأوساط المتقفة ينطقون بهذه الكلمة فى
أيماننا هذه ساخرين ، وان بعضهم لآخر يعدها
مسبة واهانة • وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم
بمرور الزمن • صحيح أن بين الرهبان - يجب على أن أعترف بهذه
الحقيقة واأسفاه ! - كسالى وفجرة وفاسقين • فأولئك أناس أفاقون
أشقياء ارتموا فى الأديرة • والمتورون من أبناء المجتمع يدلثون علينا
بهذا ليعدوننا رجالاً وانين ، لا خير فيهم ولا نفع منهم ، وليعاملونا كما
يعامل طفليون ومسؤولون لا شرف لهم • ولكن ما أكثر التواضعين
الوادعين بيننا مع ذلك ! ما أكثر الذين لا يطمحون الا الى أن يصلوا للرب
صلاة حارة فى عزلتهم الهادئة ! ان الناس لا يلقون بالاً الى هؤلاء كما يلقون
بالاً الى أولئك ، حتى أنهم لا يأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة •
ألا ما أشد الدهشة التى يشعر بها أولئك التالسون المشتمون اذا هم

علموا أن روسيا المقدسة انما سينقذها مرةً أخرى فى يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظالمون الى العزلة والصلاة! ان هؤلاء الرهبان يستمدون صامتين « لليوم والساعة ، للشهر والسنة » التى سيحين حينها . هم الآن يسهرون على صورة المسيح ، محاولين بكثير من التقى والخشوع فى حياتهم المغمورة ، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء ، فهم يعيشون فى الحقيقة الالهية وفقاً لتعاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء . حتى اذا دقت الساعة ذكروا البشر برسالتهم الى الانسانية المترحة . ان هناك فكرة عظيمة هى قاعدة حياتهم . انها النجمة التى ستطلع يوماً من المشرق .

ذلكم هو رأى فى الرهبان . أأكون على ضلال ، أأكون حكيم قائماً على عجب وغرور ؟ انظروا الى العلمانيين ، هؤلاء الذين يعيشون فى المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين : ألم يدنسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الالهية ، هم الذين خلقوا على صورة الرب ؟ انهم يملكون العلم ، ولكن العلم لا يعرف الا ما تدركه لحواس . أما الكون الروحي ، أما العنصر الأسمى فى الطبيعة الانسانية ، فقد رفضوه وبنذوه ، واطرحوه وأدانوه ، شاعرين بنوع من فرح الانتصار ، بل وبنوع من الكره والبغض . ان العالم يعتز بالحرية ، ولا سيما فى أيامنا هذه ، ولكن ما الذى تؤدى اليه هذه الحرية ، وما الذى نراه يتأكد باسمها ؟ عبودية النفوس والانتحار الأخلاقي ... يقول الناس : « ان لك حاجات ، فليكن أن تسعى الى ارضائها ، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار . لا تخش رغباتك ، بل أكثر عددها . » . تلكم هى عقيدة هذه الأيام . هكذا يتصور الناس الحرية فى هذا العصر . فما الذى يؤدى اليه هذا الحق المزعوم فى اكار المرء رغباته ؟ انه يؤدى لدى الأغنياء الى العزلة والموت النفسى ، ويؤدى لدى الفقراء الى الحسد

والقتل • ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقاً ، ولكنهم لم يعلموا بعد وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل ارضاء حاجاتهم • يزعم بعضهم أن التطور الطبيعي يقود الانسانية نحو مزيد من الاتحاد ، فإزالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ، وانتشار الفكر في الهواء ينميان الاحساس بالآخوة والتضامن • واحسرتاه ! لا تدعوا لهذه الأوهام أن تخدعكم ! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع • أننا اذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على اكتناز حاجاته وارضائها بسرعة ، كنا نشوّه طبيعة الانسان ، ونثير فيه حاجات باطلة لا سبيل الى تحقيقها ، ونخلق له عادات حمقاء وأحلاماً مجنونة • ان الناس لا يعيشون اليوم الا في الحسد اشباعاً لشهواتهم أو ارضاء لغرورهم • ان اقامة الحفلات ، ولخروج في الزهات ، والتمتع بالمآدب ، واقتناء العربات الفاخرة ، والظهور بالظاهر الخلافة وامتلاك الخدم الأتقان ، ان ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها ، وحاجة لا يبالون في سبيلها أن يضحوا بحياتهم وشرفهم ، وأن يتخلوا عن حب الانسان أخاه الانسان ، حتى ليؤثرون أن يتحروا على أن يتنازلوا عنها • وهذا يصدق أيضاً على من لا يملكون ثراءً طائلاً • أما الفقراء فانهم يخنفون بالسكر ، الى حين ، ما يشعرون به من حسد ، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم • ولكن سيأتي يومٌ يسكرون فيه بدمٍ لا بخمر • فالى هذا انما يُدفعون • اننى لألقى عليكم هذا السؤال : هل هؤلاء الرجال أحرار ؟ لقد عرفت في الماضي متفقاً كان « يناضل في سبيل فكرة » • وقد أُسرَّ الى هذا الرجل في ذات يوم أنه حين حُرِم من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون « فكرته » في سبيل التدخين • وكان يزعم أنه يريد أن « يناضل في سبيل الانسانية » • هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضي بعيداً في بذل الجهد ؟ انه عاجز الا عن اندفعات

مؤقتة وعمل مباشر ، أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما . فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبودية ، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الانسانية وأن يوحّدوها قد سقطوا الى « العزلة » ، كما قال لى فى شبابه زائرى العجيب ومعلمى ذاك ؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الاخلاص للانسانية ، حس الوحدة الانسانية والأخوة الانسانية ، وبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير الا ابتسامات هى ابتسامات من أصبح لا يؤمن بالأوهام ... وأننى للانسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة ، وماذا يمكن أن يصير اليه الانسان الذى استعبده حاجاته ، اذا كنا قد علمناه أن يرضى الشهوات الكثيرة التى يخلقها هو نفسه ؟ ان انسانا هذا شأنه انما يعيش فى عزلة روحية . وهل تغنيه الجماعة فى هذه الحالة ؟ ذلك ما وصل اليه البشر: جمعوا ثروات فوق ثروات ، أما الفرح فقد تناقص فى قلوبهم .

ولا كذلك الطريق التى يسير فيها الراهب . كثيرا ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة ، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هى فى الواقع :سبيل الوحيدة الى بلوغ الحرية الحقيقية : اننى حين أضحي بحاجاتى الزائدة ، وحين أسيطر بالطاعة على ارادتى المزهوة الأنانية ، انما أرتفع بعون الله الى الحرية الروحية التى تهب لى الفرح النفسى . أيّهما أكثر تأهباً للتضال فى سبيل فكرة عظيمة ، ألعنى الذى يعيش فى عزلة الروحية أم الراهب الذى تحرر من استبداد العادات والحاجات المادية ؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم متكفون ، فهم يقولون لهم : « لقد اعترلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير ، ونسيتم تضامنكم مع البشر اخوتكم ، ونسيتم واجب خدمة الانسانية » . لسوف نرى من الذى سيخدم قضية الأخوة الانسانية خيرا من غيره . ألا انهم هم الذين يعيشون فى العزلة ، لا نحن ، ولكنهم لا يدركون ذلك . ومن

بينتنا انما خرج ، منذ أقدم العصور ، أولئك الرجال الذين ناضلوا في سبيل سعادة الشعب . فلماذا لا يكون الامر على هذا النحو اليوم ؟ لسوف يرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت ، لسوف يرون في يوم من الايام يهبون للقيام بعظام الأعمال . ان الشعب هو الذى سينقذ روسيا ، وان الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبنا اتحادا قويا في جميع الأزمان . اذا كان الشعب في العزلة فنحن في العزلة أيضا . ان ابن الشعب يؤمن بما تؤمن به نحن . أما متقنونا الملحدون ، فانهم لن يصلوا الى شيء في روسيا ، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينعمون بذكاء عبرى . تذكروا هذا : ان الشعب سيقوم أخيرا على الملحدين وسيغلبهم . سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية في الأرثوذكسية . اسهروا على الشعب ، وصونوا طهارة روحه . ربوه في صمت . تلکم هي رسالتنا أيها الرهبان ، لأن هذا الشعب يحمل في نفسه الله .

و - حديث عن السادة والغلم

هل يمكن أن يصبحوا اخوة في الروح ؟

انه لصحيح ، واأسفاه ، أن الشعب يعيش في الخطيئة هو أيضا . ان عوامل الانحلال والتفسخ تتابع عملها ، وان الشر ينتشر ساعة بعد ساعة ، لأن عدواه تأتي من الطبقات العليا ، فاذا بالصغار والفقراء يعمون في العزلة هم أيضا . اتنا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين . والتجار يزدادون ظلماً الى مظاهر المجد . انهم يريدون أن يُعَدُّوا متقنين ، مع أنهم لا يملكون أية ثقافة في الواقع . وهم يحسبون أنهم يصلون الى ذلك باظهار احتقارهم للمعادات القديمة ، ويلفون في هذا حد الشعور بالخجل والعار من ايمان آبائهم . انهم يختلفون الى مجتمع الأمراء ،

مع أنهم ليسوا الا فلاحين متدهورين • ان الادمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذى لا يستطيع التحرر منه • ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الاطفال فى الأسر الفقيرة ! ان الاسراف فى شرب الخمره هو سبب ذلك • لقد رأيت أطفالا يعملون فى المصانع وهم لما يكادوا يبلفون العاشرة من أعمارهم : انهم ضعاف هزيلون مقوّسوا الظهر قد فسدت أخلاقهم منذ الآن • القاعات الخائقة الموبوء هواؤها ، ضجة الآلات ، العمل الذى لا تتخلله راحة كافية ، الأحاديث البذيئة التى يسمعها الطفل فى هذه البيئة ، المشروبات الكحولية ، ذلك كله لا يخلق مناخا صالحا لنفس الطفل • ان الأطفال فى حاجة الى الشمس ، والألعاب ، والقنود الحسنة ، وحب أدنى من العاطفة والحنان ! يجب أن تنتهى هذه الحالة أيها الرهبان ، وأن يتخلص الاطفال من العذاب ! امضوا الى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة • ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شيء • ذلك أن ابن الشعب ان تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا لرهية ، فانه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا لا يرضى الرب ، وأنه يخطئ اذ يتقاد للشر • ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالخير • انه مؤمن بالله ، وهو يبكى ندماً على خطاياهم بدموع صادقة • وليس هذا أبناء المجتمع الراقى واأسفاه ! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده ، مستلهمين تعاليم العلم مستغنين عن المسيح بعد اليوم • حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا خطيئة ، بأنه لا جريمة • ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق : فاذا لم يكن هنالك اله ، لم يكن هنالك خطيئة ! فى أوروبا تنور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقتلهم بالقوة ؟ وقادتها تقودها فى كل مكان الى اراقه الدماء قاتلة لها ان غضبها حق وعدل • ألا ان « الغضب ملعون لأنه قاس » • ان روسيا سيخلصها الرب ، كما سبق أن خلّصها الرب مرارا فى

الماضى • وسياى الخلاص من الشعب ، سياى الخلاص مما يملكه الشعب من روح الازعان لمشية الله ، ومن ايمان بوجود الله • فى آبائى ومعلمى ، صونوا ايمان شعبنا ، لأن ما أبشركم به الآن ليس حلما من الأحلام • لطلما شذت أثناء حياتى كلها مما يتمتع به شعبنا الروسى العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير • لقد رأيت هذا بنفسى ، وكنت شاهداً عليه ، وفى وسعى أن أؤكد لكم ، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التى يعيش فيها • ان الفقراء والصفار لم يصبحوا عبيدا فى بلادنا ، بعد قرنين من الرق ، بل حافظوا على مسلك الحرية ، دون أية غطسة مع ذلك ؟ ولم تعصف بنفوسهم روح الحسد والانتقام • لسان حالهم يقول : « أنت غنى ، وأنت فى مرتبة عالية ، وأنت ذكى ، وأنت صاحب موهبة . اننى أعلم ذلك ، وأسأل الله أن يحميك ! اننى أحترمك ، ولكننى لا أنسى أننى أنا أيضا انسان • وإذا احترمتك دون أن أحسدك ، فأننى أؤكد أمامك كرامتى الانسانية » • لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام صراحة (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) ، فان هذا الموقف النفسى يتجلى فى سلوكهم • رأيت ذلك ، وكنت شاهداً عليه • صدقونى اذا قلت لكم : ان الروس تزخر نفوسهم بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكونون فقراء صفارا • ذلك أن الذين اغتصوا منهم قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن ، وهذا أمر نُسأل عنه نحن أنفسنا بعض الشيء بسبب اهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا . ولكن الرب سينقذ ذويه ، لأن روسيا عظيمة باذعانها لمشية الله • اننى أحلم بمستقبلنا ، فيسدو لى أحيانا أننى أراه : سياى يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا أخيرا بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير ؛ وسيبرهن الفقير يومذاك ، بعد أن يرى ندم الفنى ومذله ، على حسن الفهم هو أيضا ، فيترك له خيرات فرحا ، مستجيا بالحلب للتوبة النبيلة يتوبها ذاك الذى

أنهم عليه القدر • صدقونى أن هذا ما سيكون ، لأن هذا هو ما يقودنا إليه التطور • لن يكون هناك مساواة إلا فى الشعور بكرامة الإنسان الروحية ، وهذه حقيقة غير مفهومة إلا فى بلادنا • لسوف تسود الأخوة متى أصبح البشر أخوة بالقلب ، وبدون هذه الأخوة لا يمكن أن يكون هناك قسمة عادلة • ألا فلنحتفظ فى أنفسنا بصورة المسيح ، حتى تشرق على العالم فى يوم من الأيام درةً تشع ضياء • آمين ، آمين !

يا آباءى ومعلمى ، لقد اتفق لى فى الماضى أن عانيت تجربةً تهز النفس هزاً قوياً • حينما كنت أجوب روسيا ، التقيت فى مدينة ك... ، وهى مركز مقاطعة ، بخادمى الجندى آتانازى الذى لم أكن قد رأيته منذ ثمانى سنين ، أى منذ اليوم الذى صرفته فيه الى الثكنة • لقد لمحنى مصادقاً فى السوق فمررنى فهرع الىّ وقد استخفه الفرح :

— أهذا أنت يا مولاي ، أنت ، أنت ؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت ؟

وقادنى الى منزله • كان قد تحرر من الجندية وتزوج وأنجب طفلين ، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة • ان مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضي • فلما أجلسنى ، سخّن السماور واستدعى امرأته ، كأن زيارتى عيد له • وقدم الىّ ولديه قائلاً :

— باركهما يا أبانا •

فأجبت :

— أأنا من يباركهما ؟ ما أنا الا راهب متواضع • سأدعو الله لهما • أما أنت يا آتانازى بافلوفتش ، فانى ما كفت عن الدعاء لك كل يوم ، منذ ذلك الحادث الذى وقع بيننا ، لأن كل شيء قد بدأ يومذاك • شرحت له ما وسعنى أن أشرح • فكان ينظر الىّ مدهوشاً ،

لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم ، الضابط ، موجود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط . حتى لقد أخذ يبكي . سألته :
 - لماذا تبكي يا من لم أنسه قط ؟ ألا ان الأفضل أن تُسر وتفرح يا عزيزي لأن الطريق الذى اخترته لنفسى طريق جميل مضى .
 كان لا يتكلم وانما هو يتشهد تنهداً ويهز رأسه بمطف قوى وتأثر شديد . وسألنى :

- ماذا صنعت بشروتك ؟

فأجبت :

- وهبتها للدير الذى نعيش فيه حياة مشتركة .
 وودعتهم بعد أن شربنا الشاي ، فإذا هو يعطينى خمسين كوبكا للدير ؟ وإذا هو يدسُ فى يدى خمسين كوبكا أخرى ، خلصةً ، وهو يقول :

- هذه لك أنت . فما دمت راهبا تضرب فى الأرض فقد تنفك فى الطريق .

قبلت صدقته ، وحيته وحيث امرأته ، وانصرفت مبهيج القلب ، أحدث نفسى قائلاً : « لا شك أنه مثلى فى هذه اللحظة ، يتشهد تارة ويتسم تارة أخرى ، هازراً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد ، . ولم أره منذ ذلك الحين . لقد كنت سيده وكان خادمي ، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان قد أعدنا اقامة الاخوة الانسانية الكبرى بيننا . لطالما فكرت فى هذا الأمر بعد ذلك ، وانى لأسأل اليوم : « لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها فى يوم من الايام متى آن الأوان؟ » .
 اتنى أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقربت .
 وانى لأضيف ما يلى فى موضوع الخدم : كان يتفق لى فى السنين

الأولى من شبابى أن أغضب على الخدم : « سكبت الطباخة الحساء ساخناً مفرطاً فى السخونة ؛ الخادم لم ينظف ثيابى بالفرشاة » . ولكن ذكرى أخى العزيز قد بعثت فى نفسى نورا ، لأن افواله كانت تعاودنى دائما : « أنا جدير بأن يخدمنى الانسان ؟ هل يحق لى أن أعده أدنى منى لانه فقير جاهل ؟ » . وقد أدهشنى بعد ذلك أن معانى بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا الا متاخرة . ان الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم . فلا أقلّ من أن نجعل سلوكنا يُشعر خدمنا بأن خدمتهم ايانا لا تُنقص حريتهم . لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا ؟ انهم اذا لاحظوا أننا لا تكبر عليهم أى تكبر ، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا . لماذا لا نعدهم أقباء ولا نستقبلهم فى أسرنا مبتهجين بوجودهم بيتنا ؟ ان هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن ، ويمكن أن يكون قاعدةً للاتحاد العظيم الذى سيتحقق للانسانية فى المستقبل ، يومَ يشعر الانسان أنه ليس فى حاجة الى أن يكون له خدم ، ويوم يحاول أن لا يرد أقرانه البشر الى العبودية كما يفعل الآن ، وانما يتطلع بكل نفسه الى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل .

أظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل فى أن نرى البشر أخيراً يشهدون السعادة فى السمو النفسى وممارسة المحبة ، بدلا من السعى الى اللذات المتوحشة فى النهم والفجور وحب الظهور وفى ذلك الظلم الحاسد الى الارتفاع فوق الآخرين ؟ أما أنا فأتى أؤمن ايماناً راسخاً بأن هذا ليس أملاً باطلاً ، وأن الزمان الذى سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقرب . ان الناس يرففون أكفاهم ويسألونكم ساخرين : « متى يأتى هذا الزمان ، وهل ما نراه الآن فى العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات ؟ » . اننى أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح . ما أكرر الأفكار التى بدت فى الماضى مستحيلة التحقيق ، والتى عدت قبل عشر سنين أفكارا

حمقاء طائشة ، ثم اذا هي تنتصر فجأة على الارض وتنتشر في كل مكان ، لأن ساعة تحققها قد دقت وكانت خافية مستسرة ! ذلكم ما سيكون في بلادنا ، وسيشرق نور شعبنا على الانسانية ، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين : « ان الحجر الذي رماه البناءون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية في البناء » . أما الساخرون المستهزون فانتا نستطيع أن نلقى عليهم بدورنا هذا السؤال : « اذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام ، فهلاً قلم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح ؟ » . قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقمون الوحدة الانسانية ، ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام ، حتى يمكن أن يدهش المرء من بساطة هؤلاء . الحق أن في أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس في أفكارنا نحن . انهم يأملون أن يقيموا العدل في هذا العالم ، لكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهى بهم الأمر الى اشعال الحريق وسفك الدم في كل مكان ، لأن العنف يستدعى العنف ؛ ومن يشهر السيف يهلك بالسيف . ما لم تؤمن بوعد المسيح ، فإن البشر سيبد بعضهم بعضاً ، الى أن لا يبقى منهم على قيد الحياة الا اثنان . وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم ، فاذا بأحدهم يقتل الثانى آخر الأمر ثم يقتل نفسه . ذلكم ما سيحدث اذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالضعفاء والمسلمين الوديعين . حين كنت ما أزال أرتدى البزة العسكرية بعد المباراة ، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم ، فكان السامعون يُدهشون من كلامي ويسألون :

— هل علينا أن ندعوا خدمننا الى الجلوس على أريكة ، وأن نقدم اليهم الشاي .

وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولى (ننى أتذكر هذا) :

— لم لا ، ولو من حين الى حين ؟

فسخر الحضور منى • الا أن سؤالهم يدل على خفة عقولهم •
ان اجابتي لم تكن واضحة جداً ••• أنا أسلمت بهذا ••• ولكن يخيل
الى اليوم أن قد كان فيها شيء من حقيقة •

ز - حديث عن المحبة والصلاة ، ومعرفة الحياة الآخرة

لا تنس أن تصلى أيها الشاب • فإذا كانت صلاتك صادقة صاحبها
فى كل مرة شعور جديد ، وولد هذا الشعور الجديد فكرة جديدة
كنت تجهلها الى ذلك الحين ، فكرة ستشد أزرع وتقوى عزيمتك بعد
ذلك • وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس • تذكر أيضاً أن تُردّد
كلّ مساء وكلما استطعت الى ذلك سبيلاً : « هب رحمتك يا رب لكل
الذين يمثلون أمامك الآن » • ذلك أن ألوفاً من البشر يباحون الأرض
فى كل ساعة ، فى كل دقيقة ، وتمضى أرواحهم تمثل أمام الخالق •
ما أكثر الذين قضوا منهم نجبتهم فى العزلة ، بعيدين عن نظر أى صديق ،
تمثلنى القلب مرارة وحزناً ، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم ، حتى
أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد • لن يعلم أحد غداً
أنهم عاشوا • فإذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الأقصى من
الأرض تدعو لروح من الأرواح ، رغم انك لم تعرف هذه الروح ، ولا
هى تعرف من أنت • لسوف تأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين
تمثل جزعة أمام الاله العلى القدير • سوف تعلم أن أحداً يصلى لله من
أجلها هى أيضاً ، سوف تعلم أن على الأرض انساناً واحداً على الأقل
يتشفع لها ويحبها • وسينظر الرب عندئذ اليكما بمزيد من التسامح ،
لأنك قد أشفتك على ذلك الميت ، وسيكون الرب أكثر رحمة به ، لأن

حبه أوسع من حبك ، واحسانه أعظم من احسانك • وسيعفو الله عنه
بسيك •

يا اخوتي ، لا تحتقروا البشر لخطاياهم ، أحببهم رغم خطاياهم ،
فبذلك تعرفون المحبة العظمى التى هى على صورة محبة الرب • أحبوا
خلق الله جملةً ، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة ، وكل ورقة
شجرة ، وكل شعاع ضوء ! أحبوا الحيوانات ، أحبوا النباتات ، أحبوا
كل موجود • انكم حين تحبون الخليقة تنفذون الى السر الالهى الذى
تضمه ، والمعرفة التى تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك ، ثم ما تنفك
تكبر فى كل يوم ، فاذا حبكم يعم الكون بأسره ، ويصبح شاملاً • أحبوا
البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع فى قلبها فرحاً بريئاً •
لا تعكروا هنامها ، لا تعذبوها ، لا تبسوها ، لا تخالفوا ارادة الخالق •
أيها الانسان ، لا تحملنك كبرياؤك على التعالى على الحيوانات ، فهى بلا
خطيئة ، أما أنت فانك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثراً
نجساً حيث تمر • ذلك شأننا جميعاً واأسفاه ! ذلك شأننا جميعاً ، بغير
استثناء تقريباً - أحبوا الأطفال خاصة ، لأنهم بلا خطيئة ، لأنهم أشبه
بالملائكة ؟ انهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا ، كقدوة مضيئة الى
جانبتنا • ويل للذين يسيئون الى الأطفال ! لقد علمنى الأب آتيم أن
أحبهم : كان هذا الراهب المتواضع ، يشتري بالكوبكات التى توهب لنا
أثناء طوافنا ، يشتري حلوى يوزعها على الأطفال • كان لا يستطيع أن
يراهم دون أن تهتر نفسه اهتزازاً عميقاً • كذلك كان هذا الانسان •

ان شكاً يراودنا فى بعض الأحيان ، ولا سيما حين نرى الخطيئة
فتسائل عندئذ : « أنرد بالقوة أم بالحُب المتواضع ؟ » • عليك دائماً بالرفق
واللين • فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد ، استطعت أن تستولى على

الأرض بأسرها • ان الحب المتواضع قوة هائلة ، أقوى من سائر القوى ، ليس لها مثل فى العالم • راقب سلوكك فى كل ساعة وفى كل دقيقة من اليوم ، حتى تشع الطهارة منك • قد تمر قرب طفل وقد عصفا بك الغضب ، فتلفت من لسانك كلمة سيئة : لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ، ولكن الطفل راك ، والصورة النجسة الخيثة التى تركتها له ستبقى فى قرارة قلبه البرئ • أنت لم يخطر ببالك شيء ، ولكنك قد بذرت بذور الشر فى هذا الكائن الصغير ، ولا شك أن البذرة السيئة ستطلع يوماً فتجلب له الشقاء • كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ، ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال فى نفسك • الحب يا اخوتى معلم كبير ، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه • انه لا يكتسب بسهولة ؛ وانما يحصل عليه الانسان بشمن باهظ ، بجهد متصل طويل • ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب موقتاً ومصادفةً ، بل أن تحب حباً مستمراً مطّرداً • ان أى انسان ، حتى المجرم ، يمكن أن يشعر بحب طارئ • لقد كان أخى يستغفر المصافير ، وقد يبدو هذا سخيفاً من أول نظرة ، ومع ذلك كان أخى على حق ، لأن الحياة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتمازج فيه جميع الأمواج • ان ضربة تقع على مكان من الأمكنة ترجع آثارها فى أقصى الطرف الآخر من الأرض • هل استغفار المصافير أحق الى هذا الحد ؟ لو كنتَ خيراً مما أنت الآن ، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة فى قربك • ان الطفل وكل كائن حى آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك اذا توافرت فى قلبك ولو قطعة واحدة أخرى من الطيبة • أعود فأقول : ان الكون أشبه بأوقيانوس جميع أجزائه متواصلة • فمتى أدركتَ هذه الحقيقة استغفرتَ المصافير أنت أيضاً • اذا أدركتَ هذه الحقيقة تملكك حب واسع يملأ قلبك سعادة ووجداً فاذا أنت تسألها ، تسأل المصافير ، أن

تغفر لك خطاياك • فتمهد بالتنمية والاذكاء هذه الحماسة الروحية وهذا الوجد ، دون أن تخشى أن تعد مجنوناً فى نظر الناس •

يا أصدقائى اسألوا الرب أن يهب لكم الفرح • كونوا فرحين كالأطفال ، كالصافير الصغيرة فى السماء • لا تدعوا للاضطراب أن يستولى عليكم ، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتها عن جهودكم ؛ لا تخشوا من ضلالتهم أن تجعل عملكم عقيماً أو أن لا تسمح له بالظهور • لا تقولوا قط « ان الشر فى هذا العالم قوى ، وان الظلم منتصر ، وان الأشرار مسيطرون ، على حين أننا نحن معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان ، وان القوة الشريرة ستدمرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح » • لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائى أن يستولى عليكم • وليس هنالك الا سبيل واحدة تنفع المرء فى حماية نفسه منه ، ألا وهى أن يمد نفسه مسئولاً عن جميع خطايا البشر • وتلك هى الحقيقة يا أصدقائى • فمتى اعترفتم بأنكم مسئولون عن كل شئ تجاه جميع الناس ، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقاً ، وأن ذنبكم ليس وهماً صورته لكم الخيال • أما اذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو فى الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم ، انتهيتم الى السقوط فى هوة التكبر الشيطاني ، وأخذتم تدمدمون متمردين على ارادة الله • سأقول لكم رأى فى التكبر الشيطاني : انه لسير علينا أن ننفذ الى دلالة الحقيقة أثناء حياتنا الأرضية ، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا الى الوقوع فى الخطأ ، فاذا نحن تكبر تكبر الشيطان ظانين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالاعجاب • ان المعنى الحقيقى لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال • فلا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوئاً • على ان « القاضى الأعلى » سيحاسبكم عما كان فى وسعكم أن تعرفوه ، لا عملاً يفوق عقولكم • ستدركون هذا فى حينه ،

وستكفون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التى ستعرفونها • لقد كتب علينا أن نضرب فى الأرض ، وما لم تكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا ، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك النوع الانسانى قبل الطوفان • هناك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا فى هذا العالم ، ولكننا فى مقابل ذلك قد أوتينا معرفة الحياة الآخرة والصلوات التى تربطنا بعالم أعلى وأفضل ؛ والجنود العميقة لمواطننا وأفكارنا انما تمتد فى انفسنا لا فى الأرض على كل حال • لذلك يعلم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن ادراكها فى هذه الحياة الدنيا • لقد أخذ الرب بذوراً من عالم الغيب فشرها على الأرض ليزرع حديقته ، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت ، ولكن الموجودات التى نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية الا بوعى الصلة التى تربطها بالعالم الآخر السرى • حتى اذا ضعف هذا الوعى أو زال ، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها ، فلا تكثر بعد ذلك بالحياة ، أو هى تكره الحياة • ذلكم هو رأى على الأقل •

ح - هل يجوز للمرء أن يحكم على أقرانه ؟

الايمان الذى لا يتزعزع

تذكر خاصة أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان • ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضياً على مجرم قبل أن يدرك أنه ، وهو القاضى ، لا يقل اجراماً عن الجانى المائل أمامه ، وأنه ربما كان هو المسئول الأول عن الخطأ الذى ارتكبه هذا الرجل • حتى اذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم • قد يبدو هذا رأى باطلاً ، ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • فلو قد استطعت أن أكون عادلاً على الدوام ، لكن من الجائز

أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته • فإذا أمكنك أن تلقى على عاتقك جناية الجاني المائل أمامك ، وأن تجعل حكمك في قلبك ، فافعل ذلك بغير تردد وأقبل أن تتألم نيابة عنه • أما الجاني فدعه ينصرف دون أن توجه اليه لوماً • استلهم هذه القاعدة في السلوك ما وسعت ذلك ، ولو نصبت القانون قاضيا له ، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه ادانة أفسى من ادانتك اياه • وإذا ظهر لك أنه لم يحس رفقك به ، وإذا ردَّ على حبك بالسخرية ، فلا تدع لموقفه هذا أن يفضبك : فانما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد ، وأنها ستحين في المستقبل • وهبها لن تحين أبداً فلا تهتم كثيرا بذلك ، لأن شخصا آخر سيعترف يوما بذنبه وسيتألم منه ، وسيدركه ، وسيدين نفسه بنفسه ، فإذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء • صدق ما أقوله لك ، صدقه تصديقا جازما قاطعا ، لأن هذا هو الأساس الحق الذي يقوم عليه الأمل ويقوم عليه ايمان القديسين •

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تقتر • فإذا تذكرت ، بعد أن رقدت في سريرك لتنام ، أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات ، فانهض فوراً لتدارك هذا النسيان • وإذا رأيت نفسك محاطاً بأناس أشرار لا يحسون ، ويرفضون أن يسمعوا لك ، فارتم على أقدامهم واستغفرهم ، لأنك أنت الذي تحمل ذنب عنادهم في الحقيقة • وإذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى ، فاخدمهم صامتا متواضعا دون أن تئأس قط • وإذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة ، فاسجد على الأرض حين تصبح وحيدا واغمرها بقبلااتك • اسق الأرض بدموعك ، فتحمل هذه الدموع ثمارا ، ولو لم يرك أو يسمعك في عزلتك أحد • حافظ على ايمانك حتى النهاية ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذي يحافظ عليه • اذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم ، فتأبر أنت على المضي في طريق التضحية واستمر في تمجيد الله يا آخر مؤمن ، فقد يلقاك مؤمن

آخر ، فتصبحا اثنين ، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب : سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفسكما عاطفة ، وسوف تسبحان بحمد الله فإذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما الا اثنين •

إذا اتفق أن أئمت فأخذ الندم على ارتكابك الأخطاء يعذبك ويرهقك ارهاقا شديدا ، فليبهجك أن تذكر أن هناك انسانا صالحا لم يرتكب اثماً ، وقل لنفسك مغتبطاً سعيداً : لئن وقعت أنا في الشر ، ان ثمة انسانا غيرى قد ظل طاهرا لم يتلوث •

وإذا ملأك خبث البشر استياء وألما عنيفاً رغم ذلك ، حتى صرت تمنى معاقبة المجرمين انتقاما ، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة ، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسئول عن جرائم هؤلاء الناس • اقبل هذه الآلام وتحملها • فذلك يهدى قلبك ويطمئن نفسك • سوف تدرك أنك آثم فعلا ، لأنك كنت تستطيع أن تهدى هؤلاء الناس بالقدوة ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يعيش بلا خطيئة ، ثم لم تفعل ... فلو أنك اتبعت طريق النور هذا فى حياتك ، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك ، ولأمكن الانسان الذى تنهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفا طاهرا • قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذى يأتيهم من نورك ، فلا يتزعزعن ايمانك حينذاك ، ولا يراودنك شك فى أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر • اعلم أن البشر سيُنقذون غدا ان لم يمكن انقاذهم اليوم • وإذا لم يمكن انقاذهم أثناء حياتهم ، فسيُنقذ أبنائهم من بعدهم ، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مبارحتك هذا العالم • قد يزول الرجل الصالح ، ولكن نوره باق لا يزول • ثم ان الناس لا يقبلون الخلاص الا بعد موت ذلك الذى أراد أن يخلصهم • ان البشر لا يعترفون بأنبيائهم

بل يقتلونهم ، ولكن البشر في مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدمون أولئك الذين استشهدوا بأيديهم . ففي المستقبل وفي الإنسانية بمجموعها انما يجب عليك أن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهود . لا تنتظر ثواباً على الخير الذى تعمل ، لأن نصيبك فى هذا العالم كبير حتى بدون هذا الثواب : لسوف تعرف نفسك الفرح الحق الذى لا يوهب الا للصالحين . لا تخش العظماء ولا الأقوياء . كن عاقلاً حكيماً كريماً على نفسك فى كل ظرف . التزم القصد والاعتدال . اعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها على تشوقنا الى العمل ، وتقيد بهذه الآجال . لُذْ بالصلاة فى العزلة . تعلم كيف تحب الارتقاء على الأرض وتقبلها . قبّل الأرض بغير كلال . وأحبّها بكل نفسك . انشر حبك على كل ما يوجد . اندفع فى الحب واسع الى حماسة القلب . اسق الأرض بدموع فرحك ، وأحبّ هذه الدموع . لا يخجلنك وجدك . قدّر هذا الوجد ، لأن الله مصدره ، فهو هبة كبرى لا توهب فى هذه الحياة الدنيا الا للمصطفين .

ط - حديث عن الجحيم والنار الابدية

تأمل صوفى

يا آبائى ومعلمى ، لقد تساءلت : « ما الجحيم » ، فأجبت : « هو عذاب الانسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب » . وفى المكان والزمان اللانهائين ، تناح للكائن الروحى الذى يظهر على الأرض ، لحظةٌ وحيدة يمكنه فيها أن يقول : « أنا موجود وأنا أحب » . مرةً واحدةً ، مرةً واحدةً توهب لهذا الكائن الحى القدرة على أن يختار طريق الحب الفعال الحى ، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان

وآجال • وهذا الكائن الذى أُغِدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التى لا توصف ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم يتمتع بها ، بل استخف بها وأثر أن تخلو نفسه من الحب • ان هذا الكائن يرى ابراهيم بمسد أن يبارح الارض ، ويتحدث مع رب العائلة ، كما ورد فى رمز لازار والفتى الشرير • انه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب ؛ واذا كان يعذبه شيء فانما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات مُحبة احتقر هو حبها • ذلك أنه الآن يرى ويدرك ، فيقول لنفسه : « أنا الآن أعلم ، ورغم اننى اليوم ظالمى الى الحب فلن يكون لى قيمة ولن تكون فيه تضحية ، لأن حياتى الأرضية قد انتهت ، ولن يأتى ابراهيم فيهدى بقطرة من ماء الحياة (أى باعطائى حياة أرضية جديدة فعالة شبيهة بالسابقة) ظمئى الى الحب الروحى الذى يحرق الآن نفسى بعد أن ازدريته على الارض : لن تكون بعد اليوم حياة ، لن يكون بعد اليوم وقت ! اننى أتمنى الآن أن أضحي بوجودى فى سبيل غيرى ، ولكن فات الأوان ، لأن الحياة التى كان يمكن أن أضحي بها قد انقضت الى غير رجعة ، فالهوة تفصل بينى وبينها الى الأبد » • كثيراً ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادى • اننى لا أريد أن أبحث هذا السرّ الذى يملأ نفسى رعباً وهولاً ، ولكننى أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية اذن لابتهج بها المعذبون ، لأن الألم الجسمى يتيح لهم عندئذ أن ينسوا ، ولو لحظة قصيرة ، العذاب الروحى الرهيب • ثم ان تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل ، لأنه عذاب داخلى لا خارجى ، فلا يمكن أن يناله تأثير الآخرين • وهنا استطعنا أن نجرّدهم من هذا العذاب ، فان شقاؤهم سيزداد من ذلك فيما يخيل الى • هب العادلين فى السماء غفروا لهم حين رأوا آلامهم ، وهبهم نادوهم اليهم بحب لا نهاية له ؛ انهم سيضاعفون بذلك آلامهم ، لأنهم سيوقفون فيهم

مزيدا من الظلم الحار الى الحب المتبادل والرفان والنبل ، فى وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الأبد . على أننى أتصور، خاشع النفس ذليلا ، أن شعورهم بهذا المعجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف، واليكم كيف يكون ذلك : انهم حين يقبلون حب الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله ، سيجدون فى التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفى الوضع الذى سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون فى ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذى ازدروه على الأرض، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعلٍ يذكّر بفعل النفس المحبة.. يؤسفى ، يا أبائى ومعلمى ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسى بمزيد من الوضوح . ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم ، ويل للمتحررين ! أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاء ! يقال انه اثم أن ندعو الله لمن قتل نفسه بارادته ، وواضح أن الكنيسة تطرد من حضنها ذلك الذى قتل نفسه بارادته . ولكننى أشعر مع ذلك ، فى سريرة نفسى ، أنه يجوز الدعاء للمتحررين ، لأن المسيح لن يسوءه افراط فى الحب . لقد دعوت طوال حياتى للمتحررين ، أعترف لكم بهذا الآن يا أبائى ومعلمى ، وما زلت أدعو لهم كل يوم .

لا شك أن فى الجحيم أيضا معذبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع . ان بينهم أناساً رهييبين قد اتحدوا بالشيطان وانضموا الى عصابته . انهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه . أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا . فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم اذ لعنوا الله والحياة . انهم يقاتون بكرههم المتكبر الصلف اقيات الجائعين فى الصحراء بدمائهم يمتصونها . ان غليلهم لن يشفى يوما ، وهم يرفضون المغفرة الى الأبد ، لاعين الرب الذى يناديهم . انهم لا يستطيعون الا أن

يشعروا بحق مسعور حين يتأملون الاله الحى ، ويتمنون أن لا يوجد ،
ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها • هؤلاء سيظلون يحترقون
الى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم فى غير طائل • ولكن لن
يوهب لهم أن يموتوا •••

هنا تنتهى مخطوطة ألكسى فيدوروفتش كارامازوف • وأعود فأقول:
هذا عمل غير مكتمل ، هذه أجزاء متفرقة • فالإشارات التى تتصل بحياة
الشيخ زوسىما مثلاً لا تتناول الا الفترة الأولى من شباب الشيخ • وإن
شذرات من تعاليمه ومن الآراء التى أطلقها فى عهود مختلفة وتأثير
مناسبات شتى ، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارئ ذلك واضحا •
والأقوال التى نطق بها الشيخ فى الساعات الأخيرة من حياته لم تُنقل
نقلًا كاملاً وإنما عُرِضت عرضاً موجزاً فيما يظهر ، بحيث تؤدى روح
ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيداً من الإبراز بمعمونة
أقوال أخرى استمدها الكسى فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة • وقد
وافت الشيخ منيته على نحو لم يكن فى الحسبان حقاً • فرغم أن جميع
الأشخاص الذين اجتمعوا حوله فى ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته تربية،
فإن أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المبالغ • وكما سبق
أن قلت فإن أصدقائه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله الى
الكلام طوال تلك الليلة أن صحته ستتحسن تحسناً ملحوظاً وإن يكن
عابراً مؤقتاً • ولا شيء كان يسمح لأحد ، الى ما قبل موته بخمس دقائق
(كما رُوى هذا بدهشة فيما بعد) ، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة • ولكن
بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد فى صدره ، واصفر وجهه ، وشد

يده شداً قوياً على قلبه • نهض جميع الحضور وهرعوا اليه • وظل هو رغم الألم ينظر الى أصدقائه مبتسماً • وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيه ، فجثا على ركبتيه ، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض ، وبسط ذراعيه بنوعٍ من الوجد الجذل • وقبّل الأرض بعدئذ ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه في تعاليمه ، مصلياً في اندفاعه عظمى من فرح هادئ • مطمئن • انتشر نبأ وفاته فوراً في الصومعة والدير • وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه على ما توجه الطقوس القديمة ، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة في الكنيسة • وقد عُرف موت الشيخ في المدينة قبل أن يطلع الفجر ، كما أكد الناس ذلك فيما بعد • ومهما يكن من أمر ، فقد تحدث الملائ عن موته في كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح ، وازدحم في الدير جمعٌ غفير من المواطنين • سنعود الى الكلام عن هذا في الباب التالي ، وحسبنا أن نشير هنا ، مستيقين تمة هذه القصة ، أن حادثاً غير متظر قد وقع قبل نهاية النهار ، فأحدث في نفوس سكان الدير وفي نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الافلاق ومن العنف أن ذكرناه ما تزال حتى يومنا هذا ، بعد انقضاء ذلك العدد الكبير كله من السنين ، ما تزال حيةً في أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة •••

الجزء
الثالث

الباب السابع اليوشا

راحة الجثة



جثمان الأب زوسيم للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة ، كما تعلمون ، بأن لا يُنسل رفات الرهبان والنساك . يقول كتاب الطقوس في هذا الصدد : « اذا نادى الرب راهبا اليه ، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلّكه بماء فاتر ، بعد أن يرسم إشارة الصليب باسفنجة على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه ، وهذا كل شيء . . . » وقد تولى الأب بائيسى القيام بهذه المهمة بنفسه وفقاً للطقوس . فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهينة ، وكفنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها في صورة صليب ، كما تأمر الطقوس بذلك . ووضع على رأسه بعدئذ طاقية مزينة بصليب ذى ثمانية أفرع ، تاركاً الطاقية تسفر عن الوجه ، مغطياً الوجه ببرقع أسود ؛ ووضع صورة المخلص بين يدي المتوفى . حتى اذا انتهى تكفين الجثمان على هذا النحو سَجَّى عند الصباح في تابوت سبق اعداده منذ زمن طويل . وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار في حجرة الشيخ (الحجرة الكبيرة التي اعتاد الشيخ أن يستقبل فيها الرهبان والزوار العلمانيين) . واذ أن المتوفى في رتبة « هيروشيموناكوس » ، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفاته الانجيل لا المزامير . فشرع الأب

جوزيف فى القراة بعد قداس الجنازة فوراً • أما الأب بائيسى الذى حل محلّه ، باصرار منه ، أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية ، فقد كان فى تلك الآونة مهموماً جداً (مثلما كان كبير النساك) من ذلك الاضطراب الشديد ، الخارق ، « غير اللائق » ، المشوب بنوع من انتظارٍ محموم ، الذى استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التى هرعّت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير • كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً ، فاضطر الأب بائيسى وكبير النساك الى بذل جميع جهودهما فى سبيل أن يهدئا النفوس المهتاجة ما أمكنت التهذئة • وما ان طلع النهار تماماً حتى أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى ، مرضى من الأطفال خاصة ، كأن جميع الناس كانوا ينتظرون هذه اللحظة آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء التى لا بد فى اعتقادهم من أن تصدر عن جثمان الشيخ • فى تلك اللحظة انما تجلى مدى تعود الناس على اعتبار الشيخ ، حتى أثناء حياته ، قديساً صادقاً عظيماً • ولم يكن جميع المؤمنين الوافدين من المدينة ينتمون الى الأوساط الشعبية • وبدا للأب بائيسى أن هذا التوقع العظيم الذى يتوقعه المؤمنون والذى يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكانه مطلب من المطالب ، بدا للأب بائيسى أن هذا التوقع فيه شيء من مجافاة الأدب والحشمة ؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذا التوقع منذ زمن طويل ، فإن القوة التى يتجلى بها هذا التوقع الآن قد تجاوزت جميع تنبؤات الأب بائيسى • فكان يتجه الى الرهبان المتحمسين فيقول لهم « ان انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يفهم صدورها عن علمانيين ولكنها لا تليق برهبان » • وكان هؤلاء لا يسمعون له كثيراً ، وذلك أمر لاحظته الأب بائيسى قلقاً • ومع هذا كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعرف بها اذا أردنا الصدق) ،

رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه التي يرى فيها خفة وطيشاً ، كان هو نفسه يحس في قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذي يشعر به المضطربون المهتاجون ، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك . على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيراً ، لأن وجودهم قد أيقظ في نفسه شكوكاً غامضة لم تنشأ والحق يقال الا من احساسات مبهمه . من ذلك أنه شعر بنفور داخلي شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد في حجرة الشيخ ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك الذي طالت اقامته في الدير . لقد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين في نظر الأب بائسي ، رغم أن هناك أشخاصاً آخرين كانوا مشبوهين مثلهم أيضاً . وكان راهب أوبدورسك يتميز بكرة ذهابه واياه . فهو يرى في كل مكان مستطعلاً سائلاً أو مصغياً أو مدممداً على نحو سرى . وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً يوشك أن يستحيل في بعض اللحظات الى احتياج وحنق ، لأن الحادث الذي يتوقع الناس في كثير من الاندفاع والحماة والحمية أن يحدث قد تأخر حدوثه . أما راكيتين فقد علم فيما بعد أنه ان جاء الى الصومعة في ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح ، فلأن السيدة هوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك صراحة . ان هذه المرأة التي تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع ، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم ، وبلغت من شدة الفضول أنها لمعرفتها بأن مجيئها الى الصومعة لن يكون مقبولا قد أسرعت توفد راكيتين موصية اياه بأن يلاحظ كل شيء وأن ينشأ حالاً ، في رسالة يبعث بها اليها كل نصف ساعة ، بكل ما قد يحدث . كانت السيدة هوخلاكوفا تعد راكيتين شابا شديد التقى قوى الايمان ، فالى هذا الحد

كان راكبتين بارعا في الخطوة برضى الناس حاذقا في اتخاذ المظاهر التي تطابق رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحة له .

بدأ النهار صاحيا مضيا مشمسا . والحجاج الذين وصلوا الى الدير يزدحمون حول القبور ، ولكن بعضهم قد تفرقوا في جوار الدير . وحين طاف الأب بائيسى في الصومعة ، تذكر أليوشا فجأة ، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويلة ، منذ الليل على كل حال . فما ان خطر بباله هذا حتى لمح في ركن ناء قرب السياج جالسا على الحجر من قبر راهب مات منذ سنين وعرف أثناء حياته بشدة تعبه وقسوة كفاراته . كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه برأسه نحو السياج ، وكأنه يختبئ وراء شاهدة القبر . فلما اقترب الأب بائيسى رأى أليوشا قد وضع وجهه في يديه وأخذ يبكي بكاء مرأ وان يكن صامتا ، وأن جسمه كان يهزه الالتحاب . لبث الأب بائيسى واقفا قرب بضعة لحظات . وقال له أخيرا بصوت متأثر :

- هدى روعك يا بنى . ما بك ؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكى . أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التي وُهب له أن يعرفها ؟ أنسيت أين هو في هذه اللحظة ؟ هلا فكرت في هذا !

رفع أليوشا عينيه فرأى الأب بائيسى وجهه محققا بالدموع كوجه طفل ؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه في يديه من جديد . قال الأب بائيسى مطرقا مفكرا :

- قد تكون على حق مع ذلك ! ابك في سلام يا بنى لأن المسيح هو الذى يرسل اليك هذه الدموع .

ثم أضاف يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

- ستساهم انتحاباتك المؤثرة في تهدئة روعك ، وستبعت الفرح في قلبك النيل .

ثم ابتعد ممتليء النفس عطفاً على أليوشا وجأ له • والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر الى الفتى •

كان الوقت ينقضى ، وكانت صلوات الجبازة وقداماتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر • ولمح الأب بائسى الأب جوزيف قرب التابوت ، فحل محله فى قراءة الانجيل • ولكن ما ان دقت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وقع الحادث الذى أشرت اليه فى ختام الباب السابق • وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس ، وجاء مخالفاً مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه ، وبلغ من ذلك أن ذكره وذكرى جميع التفاصيل التافهة التى رافقته قد ظلت حية الى أيامنا هذه فى أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت • وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بى : انه ليشق على نفسى أن أتكلم عن هذا الحادث المقلق الذى لا بد أن يهز النفوس رغم أنه فى حقيقة الامر طبعى ويمكن فهمه جدا ؛ وكان فى وسعى أن أسكت عنه حتماً لولا أنه قد أحدث تأثيراً قوياً جداً - فى اتجاه محدد تحديداً واضحاً - فى نفس وقلب البطل الرئيسى (وان يكن البطل المقبل) الذى تدور عليه أحداث هذه القصة ، أعنى أليوشا • لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطراباً رهيباً ، وإلى هذا العهد انما يرجع انعطاف حياته النفسية ، لأن عقله الذى أوشك أن يهزه الحادث ، قد خرج من الأزمة منتصراً ، ثابتاً منذ ذلك الحين الى الأبد ، متجهاً نحو هدف معين محدد •

وهأنذا أصل الى الوقائع : حين أُرقد جثمان الشيخ فى تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر ، ووضع التابوت فى الغرفة الأولى من بيت الشيخ - وهى حجرة الاستقبال - فإن أحد الأشخاص الحاضرين سأل ألا يُستحسن فتح النوافذ • ان هذا السؤال الذى ألقاه صاحبه كسؤال

عابر وهو يشعر بما يشبه الخجل ، قد ظل بغير جواب ولم يكذب ينتبه اليه أحد . والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق في أبعد تقدير أكثر من أن يرفعوا أكتافهم مشفقين (أو أن يتسموا محتقرين) ازاء ما يتصف به الذهن الذى أمكن أن تخطر له من قلة الايمان وشدة الطيش وفرط الغباوة . أليس ما يُنتظر من قداسة الشيخ هو نقيض هذا تماما ؟ ولكن الذى حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداءً من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها فى أول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم ، خشية أن ينقلوا الى الآخرين شعورا لا يكادون يصدقونه ؛ غير أن الظاهرة التى أدركت ادراكا غامضا فى البداية قد تأكدت فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها ، فاذا الخبر ينتشر فى الصومعة على الفور ، واذا هو يشيع بين المتدققين من أنواع الحجاج ، واذا هو يصل الى الدير فى الوقت نفسه تقريبا فيغرق الرهبان فى دهشة شديدة وحزن مبرح . وانتقل النبأ من الدير الى المدينة فأحدث اضطرابا فى الناس ، المؤمنين منهم والملحدين على السواء . لقد انتصر الملحدون . وأما المؤمنون فعنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضا ، لأن الانسان « يحلوا له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطمح شرفه بالعار » كما قال المتوفى فى أحد أحاديثه . وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفةً فى أول الأمر ، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة ؛ فما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح ، وما فشت تشتد بعد ذلك . عبثاً تحاولون أن تجدوا فى حويلات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذى استولى على الرهبان منذ أن عُرِف الحادث ، والذى ما كان يمكن تصوره فى أى ظرف آخر من

الظروف . وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار ، والفوضى التي أطاشت العقول ، وما نشأ عن ذلك لدى رهبان الدير من موقف غير لائق . كثيرا ما حدث في الماضي أن رهباناً عُرِفوا باستقامة الحياة وطهارتها ، أن رجالاً يعظمهم جميع الناس ويخافون الله ، قد ماتوا أتقياء أتقياء ، ثم لوحظت مع ذلك حول جثمانهم المسكين بعض الافرازات ، كما يحدث هذا لجميع الموتى في هذه الحياة الدنيا ، ولكن الأمر لم يصدم عندئذ أحداً بل ولا أدهش أحداً . صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضاً بذكرى رهبان متوفين منذ زمان طويل ، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أية علامة من علامات التفسخ ؛ وقد أحدث ذلك في نفوس الرهبان أثراً عظيماً ، فكانوا يتحدثون عنه معجبين ، وكانوا يحرسون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التي تشهد بالقداسة ؛ وكانوا يقدِّرون أن مزيداً من المجد سيتحقق في المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين في الساعة التي يشاء فيها الله ذلك . فهكذا كان شأن القديس يعقوب مثلاً ، الذي عاش مائة وخمسة سنين والذي بقيت ذكراه حية في ديرنا . لقد كان يعقوب ناسكاً كبيراً ، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التي كان يلزم بها نفسه ؛ وقد مات منذ زمن بعيد ، في السنين الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص ، فسكان الدير يقودون الحجاج الى زيارته قبل سائر القبور ، مشيرين بكلام يحمل معاني السر والاعجاب الى الآمال الكبيرة المقودة على شوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر انما لمح الأب بائيسى ، في الصباح ، أليوشا) . وعدا ذلك الراهب الذي توفي منذ سنين كثيرة ، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيراً ، وخلف في الدير ذكرى كهذه الذكرى . انه الشيخ العظيم

فارسونوف الذى خلفه الأب زوسىما ، والذى كان يمدّه جميع الحجاج الذين يزورون الدير • يوروديفوى • • ان الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر اليه فى تابوته كان لا يشعر الا بأنه نائم نوماً ، وأنه دُفِن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل وأن نوراً كان يشع من وجهه • حتى أن بعض الناس ذهبوا الى حد القول فى الحاح واصرار ان رفاته كان ينشر روائح عطرة • ومع ذلك ، رغم هذه الذكريات الموحية ، فان من السير على المرء أن يدرك السبب الذى دفع الرهبان فى ذلك اليوم الى أن يقفوا موقفاً يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة ازاء تابوت الشيخ زوسىما • أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة ، ولكنها تعمل جميعاً فى اتجاه واحد • ويحسن أن نذكر ، من بين هذه الأسباب ، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذى كان يعد بدعة مشوشة ، وهى عداوة قد ترسخت عميقة فى نفوس عدد كبير من الرهبان • وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب ، هو الحسد الذى كانت تنيره قداسة الشيخ التى بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها • فلئن أيقظ الشيخ تعلقاً عميقاً به ، ولئن عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته ، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الاخلاص ، فلقد خلق من حوله ، رغم ذلك وربما بسبب ذلك ، حسداً كبيرين أصبحوا أعداء ألداء شيئاً بعد شئ • فبعضهم يخفى هذه العداوة وبعضهم يعلنها • ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا فى صفوف رهبان الدير فحسب ، بل بين غير رجال الدين أيضاً • انه لم يسيء يوماً الى أحد ، ولكن الناس كانوا يتساءلون : « لماذا يُعدُّ قديساً عظيماً ؟ » • وكان هذا السؤال كافياً بتردده المستمر الى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفىء جذوته • ذلكم فى رأى هو السبب الذى جعل كثيراً من الرهبان يتجهجون ابتهاجا

شديدا حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة ، لأنه لم ينقض على موته يوم . أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له ، الذين ظلوا يقدسونه الى ذلك الحين ، فقد أحسوا بحادثة التفسخ هذه نوعاً من اساءة نالتهم هم أنفسهم ، واهانة لحقت بهم شخصياً . اليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة : منذ اللحظة التي ظهرت فيها أولى علامات التفسخ ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر ، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون حجرة المتوفى ، الهدف الذى دخلوا من أجله . كانوا يدخلون فيمكنون بضغ لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب ؟ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن وأسى ، وبعضهم لا يكلفون أنفسهم حتى غناء اخفاء الفرع الخيىث الذى يسطع فى نظراتهم الكارهة . ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم ، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ ، وذلك أمر يثير الدهشة فى الواقع ، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شيء . ولكن يظهر أن الرب كان قد قرر فى هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار الى حين . ولم يلبث أن تدفق الى الحجرة رجال علمانيون ينتمى أكثرهم الى الأوساط المثقفة ، فاما أن الفضول هو الذى يدفعهم الى ذلك ، واما أن أصدقاءهم قد أرسلوهم يستطلعون الخبر اليقين . أما أبناء الشعب فقد كانوا أميل الى التأنى والابتعاد ، رغم أن عددا كبيرا منهم قد تجمهر على أبواب المنسك . ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازديادا ضخما بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح . وهناك أشخاص ما كان لهم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ ، ولكنهم هرعوا الى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف الا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم ، وكان بينهم رجال من كبار موظفى الدولة . يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطاعين

الفضولين لما يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحين ، فما زال الأب بائسى يستطيع أن يتلو آيات الانجيل جهراً بلهجة ثابتة وهيئة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً ، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئاً خارقاً يحدث . ولكن ها هي ذى ملاحظات قد أخذت تصل الى مسامعه . ان أصحابها يدونها خجلة وجلة أول الأمر ، فهم يهمسون بها همساً ، غير أنها ما تنفك تلح وتتجراً فاذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح : « يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائماً حكم البشر » . ان الذى جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علمانى متقدم فى السن موظف فى البلدية يعد على جانب كبير من التقى والورع . على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم الى بعض همساً فى الأذان منذ وهلة طويلة . ان هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلاً من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التى تعبر عن تبدد الأوهام ، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يفصحون عن هذه الفكرة وقد بدت فى وجوههم امارات النصر والظفر التى كانت تزداد قوة ووضوحاً من دقيقة الى دقيقة . وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكان الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن . « كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ » كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون فى أول الأمر هيئة الحزن فكان رهبان آخرون يسارعون الى الجواب قائلين : « لقد كان جسمه نحيلاً هزيلاً معروفاً ، كله عظام ، فمن أين يمكن أن تأتى هذه الرائحة ؟ » - « معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عدم رضاه » . وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغير نقاش ، لأنه اذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائماً بعد وفاة خاطيء فانها لا تحدث فى العادة الا بعد أربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولا تظهر بمثل هذه السرعة .

أما وأن تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعة فلا بد أن نرى في ذلك عملاً من أعمال الله وإشارة آتية من السماء . ذلك برهان كان يبدو مفتحاً . ولقد حاول الراهب الكاهن جوزيف ، أمين مكتبة الدير الذي كان صنى الشيخ وأثيره وكان رجلاً دمثاً لطيفاً رقيق الحاشية ، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جواباً على تلك الأقوال المسيئة . قال فيما قال : « إن هذه الآراء لا يؤخذ بها في كل مكان وإن ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وإنما هو مجرد ظن . ففي مراكز الأورثوذكسية الصافية النقية مثل مونت آتوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائية على مجد القديس وإنما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تتوى الأجساد زمناً طويلاً في الأرض وبعد أن تكون قد تفسخت في التراب تفسخاً تاماً فإذا صارت العظام بمضى الزمن إلى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلاً قاطعاً على أن الرب قد مجد المتوفى أما إذا أصبحت العظام سوداء استدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف ، ذلكم هو الأساس الذي يُبنى عليه الرأي في مونت آتوس وهو مكان مقدس جداً حافظت فيه الأورثوذكسية في كل الأزمان على صفاتها ونقاها » . بذلك ختم الأب جوزيف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أى صدى ولم تزد على أن أثارت في أكثر تقدير ملاحظات ساخرة فقال بعض الرهبان : « تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها » . وأضاف آخرون : « سوف تبقى أوفياء للتقاليد أمناً عليها والبدع كثيرة في زماننا هذه أفنبني لنا أن نقلدها جميعاً » . وقالت طائفة ثالثة في استهزاء : لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان مونت آتوس وقد نسي هؤلاء كل شيء إبان الحكم التركي وفسدت الأورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل . يضاف إلى ذلك أنهم

لا يملكون حتى نواقيس ، • انصرف الأب جوزيف حزينا • ثم انه لم يعبر عن رأيه بكثير من الحزم والقطع بل عبر عنه مترددا كأنه ليس مقتنعا به كل الاقتناع هو نفسه • وما كان أشد اضطرابه اذ ثبت له أن ربيع عداوة قد هبت على الرهبان وأن روح التمرد على نظام المشايخ قد عاد الى الظهور • وصمت جميع الاصوات الرزينة المعتدلة شيئا بعد شيء على أثر هزيمة الأب جوزيف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا زوسيا وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بحماسة شديدة ، ذعروا على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجروئون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى • أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهيا وها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً : « عند موت الأب فارسونوف لم تلاحظ علامتٌ تسفح بل كانت جثته تشر روائح عطرة • على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخاً وانما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلاً صالحاً » • وانطلقت الألسن من عقاليها فهي لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه وهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون : « كانت تعاليمه خطأ • كان يزعم أن الحياة فرح عظيم لا مصدر حزن وينبوع دموع » • وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء : « كان رجلاً عصرياً • كان لا يؤمن بنار جهنم » وهؤلاء حساد يقولون : « لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً • كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاي مربب الكرز • كان يتلذذ بذلك • كثيراً ما كانت سيدات ترسل اليه حلوى ومربياً • أيلق بناسك أن يشرب شايًا ؟ وهؤلاء أسوأ الرهبان قصداً يقولون حاتقين : « كان متكبراً • كان يظن نفسه قديساً • كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجبا له على الآخرين » • وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة

شرسة : كان يمتحن حرمة سر الاعتراف، • ان أكثر هؤلاء الأعداء الألداء
نظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدّهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً
بكفارات الصيام والصمت • كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا الى الأذعان
والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقّادهم أعتتها وذلك يثير القلق كثيراً
لأن لأراءهم تأثيراً قوياً في الرهبان الشبان الذين ظلت أفكارهم في هذا
المجال رجراجة • كان راهب أوبدورسك ، الراهب الصغير الوافد من
سان سيلستر ، يصيح بسمعه الى هذه الأقوال كلها متنبهاً انتباهاً شديداً
متنهداً تنهداً عميقاً ، هازأً رأسه ، قائلاً لنفسه : « يبدو أن الأب تيرابونت
كان على حق أمس » • وهذا هو الأب تيرابونت يظهر هو نفسه على حين
فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار •

سبق أن قلت انه كان لا يترك الا نادراً حجراته الخشبية الواقعة
قرب خلية النحل وانه كان يغيب عن الكنيسة فترات طويلة • ولكن
سكان الدير كانوا يفضون البصر عن اخلاله هذا بالنظام ، بحجة أنه
انسان ساذج برىء والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقياً
ان صح التعبير الى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فانه ليكاد يبدو غير
لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة
ذلك الطول كله ويقضى أياماً كاملة وليالى طويلة في الصلاة والتهجد
(لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه) ، أن يطالب بالخضوع للطوقوس
العامة والشعائر المتبعة اذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أحد أن
يزعجه لقال الرهبان : « انه أقدم منا جميعاً وهو يفرض على نفسه
كفارات أقوى كثيراً مما نلزم به أنفسنا من فرائض فاذا لم يأت الى
الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه الى ذلك • ان له فرائض الخاصة
التي يوجبها على نفسه • لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تجاشيا
لاحتجاجات الرهبان ودمدماتهم وكان معروفاً لدى الناس أن الأب

تيرابونت يكره الشيخ زوسيمّا • ولم تلبث الشائعة التى تقول : « ان حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائما وانه قد سبق الطبيعة فى تفسخ جثمان الشيخ » ، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت الى حجرته النائية المنعزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذى زاره البارحة وخرج من عنده مدعورا كان من أوائل الذين نقلوا اليه النبأ • وقد ذكرت أيضا أن لأب بائيسى الذى ظل يتابع قراءة الانجيل أمام التابوت ثابتَ الجنان بغير اضطراب والذى كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ما كان يجرى خارج الغرفة ، قد حزر مع ذلك فى قرارة نفسه الشيء الأساسى مما كان يجرى خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حتى معرفتها • لم يدع الأب بائيسى لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بمواقب هذه الحركة بما أوتى من بصيرة نافذة وفكر سديد غير أن ضجة خارقة آتية من الممر قد شدت انتباهه على حين فجأة ، وهى ضجة لا يخفى فى هذه المرة أنها تنافى اللياقة • انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب تيرابونت فى العتبة • ان عددا كبيرا من الرهبان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسرون وراء الأب تيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا فى أسفل درجات المدخل فهم يُرون من الغرفة • لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب تيرابونت وما سيفعله • ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب تيرابونت لم يجيء عبثاً وانهم ليشعرون بشيء من الارتياح رغم جرأتهم وجسارتهم • توقف الأب تيرابونت فى العتبة ورفع ذراعيه فرثيت عندئذ العينان الحادتان المستطلعتان عينا راهب أوبدورسك الصغير الذى لم يستطع مقاومة الاغراء وجازف وحده فاجتاز درجات المدخل وراء الاب تيرابونت ليرى ما سيحدث من كتب ولا كذلك الآخرون فقد تراجعوا قليلا وهم يشعرون بخوف مفاجئ • حين انفتح الباب مفرقعا • صرخ الأب تيرابونت بقوة وهو رافع ذراعاه قائلاً :

– اخرجوا من هنا يا شياطين •

وأُسرع يرسم اشارات الصليب كبيرةً وهو يتجه الى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار • ورسم اشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب تيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً في أى مكان يذهب اليه ولا يرضى أن يقول كلمة أو أن يجلس فى قاعة قبل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم اشارة الصليب :

– ابتعد أيها الشيطان ! أخرج من هنا ! غوروا أيها الأبالسة لأننى أطرِدكم •

هكذا كان يزأر الشيخ تيرابونت •

وكان يرتدى ثوباً خشناً يزره حبل وكان صدره الأشيب الشعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أما قدماء فكانتا حافتيه تماماً وإذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التى كان يحملها على جسمه • توقف الأب بائيسى عن القراءة وتقدم نحو الأب تيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيراً وهو يلقي عليه نظرة قاسية :

– ماذا جئت تصنع هنا أيها الأب المحترم ؟ لماذا تشوش النظام ؟ فيم بث الفوضى فى الرعية المسكينة ؟

صرخ الأب تيرابونت يقول منقلب السحنة :

– لماذا جئت ؟ تريد أن تعرف لماذا جئت ؟ فماذا تظن اذن ؟ لقد جئت لأطرِد ضيوفكم ، لأطرِد الشياطين النجسة ! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة فى غيابى • سأطردهم جميعا بالسياط •

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون انفعال :

- تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه ! من ذا الذى يستطيع أن يقول عن نفسه انه قديس ؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم ؟ قال الأب تيرابونت مرعداً :

- أنا لست بقديس قط ! أنا رجل دنس ! ولكننى أنا لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتى كاله • ان الناس فى أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس ويحقدونه • ان صاحبكم المتوفى ، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الرهبان المحتشدين عند المدخل مشيراً باصبعه الى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مستهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت فى زوايا الجدران ؟ أما قديسك فانه يتفسخ الآن وتلك فى نظرنا اشارة من السماء •

والحق أن فى حياة الأب زوسيم حادثة من هذا النوع فإن راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان فى منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره فى اللحظة أيضاً ففاتح الشيخ بذلك فصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام • فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواءً ونصحه فى الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الاكثار من التعبد • وقد شُده من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازين رموسهم استياءً واستنكاراً • وكان الأب تيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد « خارقاً » فى حالة من هذا النوع •

قال الشيخ بائسى بلهجة صارمة :

- ابتعد أيها الأب ! ان الحکم لله لا للبشر وان « الاشارة الآتية الينا من السماء » يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها • ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية !

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً •

واستأنف الراهب المدفع يقول وكأنه فقد كل سيطرة له على

نفسه :

— كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته • ذلك هو معنى الإشارة السماوية ، هذا واضح وضوح النهار ومن الائم أن نحاول إنكاره • كان يتمتع بالحلوى التي كانت تمتلئ بها جيوب السيدات اللواتي يزرنه • كان يملأ بطنه بالشاي ويحشوه بالمصائد • أما روحه فقد كانت تفيض كبرياءً وزهواً • ذلك هو السبب في أن الرب قد أرسل اليه هذا العار •

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضا :

— أقوالك طائشة يا أب ! اننى لأعجب بقسوة صياحك وشدة تقاك ولكنك ترسل الكلام جزافاً بغير روية كشاب علماني يعوزه النصيح والتأمل والتدبر •

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل :

— اخرج من هنا •

قال الأب تيرابونت مرتبكاً بمض الارتباك ولكن دون أن يهدأ

غضبه :

— سامضى ! طيب ... أنتم رجال علماء • أنتم بكبرياء عقلكم المسعورة ترتفعون فوق بساطتي • لقد جئت الى الديرأياً • والقليل الذى كنت أعرفه فى الماضى نسيته منذ ذلك الحين • لقد شامت رحمة الرب نفسه أن تصوتنى أنا الضعيف من دنس عقلكم ...

ظل الأب بائيسى هادئاً ينتظر التهمة بصلابة وثبات •

صمت الأب تيرابونت لحظة ثم اذا بوجهه يظلم على حين فجأة وذا به يحمل يده اليمنى الى خده ويقول بصوت ضعيف وهو ينظر الى تابوت الشيخ :

— غداً ينشدون له النشيد العظيم « ربنا هب لنا من لدنك عوناً واحمنا » أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة * .

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع وتستثير الشفقة * ثم صرخ يقول كمن جن جنونه :

— ضيَعْتكم الكبرياء والثقة ! ما هذا المكان الا عدم !
واستدار على عقيبه فجأة وهو يحرك ذراعيه وهول يهبط درجات السلم الصغير * ظهر التردد على الجمهور الذى كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فوراً وتوقف آخرون اذ رأوا أن باب العرفة قد ظل مفتوحاً وأن الأب بائيسى الذى شيع الأب تيرابونت الى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتا ولكن العجز المسدفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما فى جعبته فما هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه فى الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصده :
— انتصر ربى ! تغلب المسيح عند غياب الشمس *
كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الكوكب *
ثم جعل وجهه الى الأرض وأخذ يبكى بكاء طفلس مهتز الجسم محرّكاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض * هرع الجميع اليه وسُمع صراخ وسمع بكاء عطف فكان حياء قد انتقلت الى الجمهور * وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفظ ولا اعتدال :

- هذا هو القديس الحق • هذا هو الصالح الحق •

وأضاف آخرون يقولون بغضب شديد :

- اليه انما يجب أن تسند المشيخة •

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور :

- لن يقبل أن يصبح شيخا •• سيرفض هو نفسه • لن يرضى أن ينضم الى هذه البدعة اللعينة • ما هو بمن سيقلد هذا الجنون •

لا يدرى أحد بماذا كان يمكن أن ينتهى هذا كله لو أن الناقد لم تدوَّ أصواته فى تلك اللحظة منادية الرهبان الى القداس • رسم الجميع اشارة الصليب ونهض الأب تيرابونت ورسم اشارة الصليب كبيرة عريضة ليحمى نفسه من الشر الخفى واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة لا اتساق فيها • تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين الى العبادة • وعهد الأب بائيسى الى الأب جوزيف باتمام القراءة وابتعد هو أيضاً • ان الصرخات المحمومة التى أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيراً ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش من هذا ووقف يتساءل : « ما مصدر هذا العناء الذى يرهقنى » • فما كان أشدَّ استغرابه حين أدرك فوراً أن سبب ذلك انما هو حادث يبدو فى الظاهر تافهاً لا قيمة له : فبين صفوف الجمهور الذى كان يضطرب منذ هنية عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا الذى كان يبدو مضطرباً اضطراباً شديداً منفعلاً انفعالا قويا (انه يتذكر هذا الآن) ف شعر من ذلك بما يشبه ألماً يطن قلبه • تسامد الأب بائيسى مدهوراً دهشة قوية : « هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان فى نفسى ؟ » • وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه • كان يفذ الخطى ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة •

التقت نظراتهما فسرعان ما أثناح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الراهب المعجوز من النظر الى هيئة الفتى وحدها ما كان يجرى فى نفسه من تبدل •

هتف الأب بائيسى يسأله :

- أترارك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضا ؟

ثم أضاف يقول بمرارة :

- أترارك انضممت الى صف الذين يشكون ؟

توقف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أثناح عينيه وأطرق الى الأرض من جديد • لقد وقف موارباً ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه • وكان الأب بائيسى يرقبه باتباه •

قال الأب بائيسى :

- الى أين أنت ذاهب ؟ هذه ساعة القداس •

ولكن أليوشا ظل لا يجب • وتابع الأب بائيسى أسئلته :

- أملكك ترك الدير ؟ أبدون أن تبثنا ! أبدون أن تتلقى المباركة ؟

فاذا بأليوشا يطلق على حين فجأة ضحكة صغيرة مصنوعة ،

ويشخص بصره الى الراهب الذى كان يسأله • ان هناك شيئاً غريباً بل غريباً جداً فى النظرة التى ألقاها فى تلك اللحظة على الرجل الذى عهد به اليه أثناء موته مرشدُه الروحى المتوفى ، معلم قلبه وفكره ، شيخه المحبوب • ها هو ذا يحرك يده فجأة ، دون أن يجب ، بإشارة تتم عن أنه أصبح لا يهمه أن يرعاه أحد • ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى سريعة •

دمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة :

- ستعود •

دقيقة كهذه الدقيقة



فى أن الأب بائسى لم يخطئ. حين قدر أن « ابنه العزيز » سيعود ؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً) والحق يقال ، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة (الحالة النفسية التى كان عليها أليوشا . ولكن يجب على أن أعترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التى عاشها بطلى الذى أحبه كثيراً والذى ما يزال فى ريعان الشباب ، لكان ذلك صعباً على كل الصعوبة . اننى أستطيع طبعاً أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذى ألقاه عليه الأب بائسى « أترأك أصبحت فى صف من يشكون؟ » ، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً : « لا ، انه لم يكن يشك ! » . وأكثر من ذلك أن اضطرابه كان يعبر عن نقىض هذا تماماً : لئن شعر بقلق فذلك لأن إيمانه كان كبيراً . لقد قلق أليوشا قلقاً شديداً ، وبلغ قلقه من الايلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعد ذلك اليوم المشؤم أزخر أيام حياته بالألم والحزن . ولو شئت : هل يمكن حقاً أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشيء الا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء ؟ ، لأجبت بنير تردد : « نعم ، ذلك بعينه هو سبب حزنه » . ولكننى أرجو القارىء مع ذلك أن لا يتسرع

كثيرا فيستهزىء بصفاء قلب بطلى . لست أميل من جهتي الى أن ألتمس له سماحة القارئ ، أو أن أتحل لايمانه الساذج عذرا من شبابه أو نقص دراسته أو قلة ما حصل من تقدم فى العلوم فى المدرسة ، بل أقف الموقف المضاد بغير تردد فأقول : اننى أشعر نحو بساطته باحترام كبير . صحيح أن شبابا غيره ، شبابا أكثر تعقلا وأشد حذرا فى اندفاعات روحهم ، شبابا يحبون حبا حارا ولا شك ، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد ، شبابا يحسنون التحكم بحركات قلبهم فى ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف فى التعقل اذا قيس بأعمارهم (وهو تبعاً لذلك ضئيل القيمة) ، واضح أن شبابا كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذى وقع فيه بطلى . ولكن لأن ينساق المرء أحيانا مع اندفاع قد يكون طائشا ولكنه مستلهم من حب كبير ، فذلك فى رأى أنبل وأكرم من أن يكون عاجزا عن الشعور بمثل هذه العواطف . وهذا يصدق خاصة على الشباب ، لأن الشاب الذى يفرط فى التروى لا يوحى بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة . ذلك رأى أنا على الأقل . رب أناس رصينين يعترضون قائلين : « فالى أين نصير اذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء ؟ ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة » . وانى لأجيب هؤلاء قائلًا : « لقد كان أليوشا يؤمن بحماسة وحماسة ، كان يؤمن ايماناً مقدسا لا يتزعزع ، ولكن ليس يخطر بباله أن ألتمس له بسبب ذلك أعذارا . . . »

ومع ذلك . . . مهما أؤكد (وربما كنت فى هذا التأكيد مفرطاً فى التسرع) اننى لن أحاول أن أسوِّغ سلوك بطلى أو أن ألتمس له الأعذار ، فأتى أرائى مضطرا ، رغم كل شيء ، الى أن أقدم بعض الايضاحات تسهيلاً لفهم قصتى . اليكم ما أريد أن أقوله : ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب . ان أليوشا لم ينتظر ، نافذ

الصبر ، ظهورَ ظاهرة فوق الطبيعة ، عن خفة وطيش . انه لم يكن فى حاجة الى ذلك لثبوت صدق اعتقاده نبوتا مظفرا (لا هذا على كل حال) ، ولا لبتاح لفكرة قائمة فى ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأى يعارضها . أبدا ! ان ما كان يعنيه فى هذا الأمر قبل كل شىء آخر ، بل ودون كل شىء آخر ، انما هو مصير انسان ، مصير هذا الانسان وحده ، أعنى شخص الشيخ الذى كان أليوشا يحبه ، شخص الرجل الصالح الذى كان أليوشا يعجب به ويحمله . ان ما فى قلبه الفنى من قدرة على الحب ، وان ما كان يشعر به نحو « جميع الأشياء وجميع الناس » من مودة وعاطفة وحنان ، قد تركز فى تلك الفترة ، أعنى أثناء تلك السنة ، على انسان واحد هو شيخه الحبيب الذى مات الآن ولكنه كان قد أصبح - ربما بشىء من الافراط - القطب الوحيد الذى يجتذب أعماق عواطفه . صحيح أن هذا الشيخ ظل يجسّد فى نظره أرفع مثل أعلى انساني ، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشواق نفسه كان لابد أن تتجه الى الشيخ وحده حتى لتتسبب فى بعض الأحيان « جميع الأشياء وجميع الناس » (سوف يتذكر فيما بعد أنه فى ذلك اليوم الحزين قد نسي نسيانا تاما أخاه دمترى الذى كان يرغب أمس فى رؤيته ، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذى اتخذه أمس والذى يحرص عليه أشد الحرص ، وهو أن يرد المائتى روبل الى والد ايليوشا ، قد غاب عن ذهنه تماما) . ولكننى أعود فأقول مرة أخرى : ليست المعجزات هى ما كان أليوشا فى حاجة اليه ، وانما كان أليوشا فى حاجة الى « عدالة عليا » ، وهذه العدالة العليا قد أوديت فى نظره ايذاءً شديدا . فهذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا ايلاما قاسيا . لقد كان هذا طعنة موجعة رهية . ليس بالأمر المهم أن تكون هذه « العدالة » قد ترجمت فى ذهنه ، بتأثير البيئة الطبيعى ، توقعا لمعجزة لا بد أن تتحقق قرب

جثمان لقائد الروحى الذى كان يبكيه • ألم تكن هذه المعجزة هى ما يأمله جميع الناس فى الدير ، وفى طليعتهم أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلى عليه ، كالأب بائيسى مثلاً ؟ لذلك لم يتردد أليوشا فى أن يعبر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون ، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات • وقد نضج هذا التوقع فى نفسه خلال سنة كاملة عاشها فى الدير حتى أصبحت طبيعية كمادة • ولكن ظمأ كان الى عدالة لا الى معجزات ! وهذا هو الانسان الذى كان فى عاطفة أليوشا فوق جميع البشر فى العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط فى الخزى بدلاً من أن ينال المجد الذى يستحقه ! لماذا ؟ من هو القاضي الذى اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم ؟ من الذى يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقاً ؟ تلكم هى الأسئلة التى داهمت نفسه البريئة التى تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب • كان لا يطيق ، دون أن يشعر بالملذلة ودون أن يعصف به الغضب ، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيرا • كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أية معجزة وأن لا يقع أى شيء خارق للطبيعة ، تلبية لما يتوقعه جميع الناس • ولكن لماذا يجلل الشيخ بالخرى والعار ، لماذا هذا التفسخ الذى يحدث قبل الأوان ، و • يسبق الطبيعة ، كما كان يقول الرهبان الأشرار ؟ هل كان ضروريا أن تُهيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا فى هذا التفسخ « إشارة » يسارعون الآن الى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب تيرابونت ؟ ومن ذا الذى خوّلهم انحق فى أن يعمدوا الى استدالات من هذا النوع ؟ أين العناية الالهية فى هذا كله وأين يد الله ؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل فى اللحظة التى كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون (فى رأى أليوشا)

حتى لكأنه استسلم هو نفسه أمام قوى الطبيعة المسادية العمياء التي لا ترحم ؟

ذلكم ما كان ينزف منه قلب أليوشا • كان فى تلك الساعة ، كما سبق أن قلت ، لا يفكر الا فى ذلك الانسان الذى هو أحب انسان الى قلبه فى العالم ، وهذا الانسان هو من جُلِّل بالخزى والعار الآن ، وغُصَّت قيمته وأُنزل الى الدرك الأسفل • انتى أسلم بأن هذا الفتى قد برهن ، حين كان يدمدم هذه الدمدة ، على أنه طائش العقل مخطئ • والرأى ، ولكننى أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهمونى بخفة العقل أيضا اذا شتم) : انتى ليسعدنى أن أليوشا قد أعوزه القصد والاعتدال فى تلك الساعة من حياته ، لأن العقل يستيقظ دائماً فى وقت مبكر لدى الانسان الذى لم يُحرم من الذكاء ، فاذا لم يتغلب عليه الحب فى مثل هذه اللحظة فى قلب فتىٍ مراهق ، فمتى عساه يتصر فى هذا العالم ؟ على أتتى لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابراً فى تلك الدقيقة القلقة الأليمة من حياته • ولعل كلمة « عاطفة » ليست هى الكلمة المناسبة • هو « شيء » كان يندبه ، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحديث الذى قام أمس بينه وبين ايفان والذى يعاود فكره فى هذه اللحظة الحرجة بالحاح محاصر • لست أعنى قط أن عناصر ايمانه الأساسية ، الفطرية ان صح التعبير ، قد أصابها أى تزعزع • لا • • • انه يحب الهه الآن كما كان يحبه من قبل ، وانه ما يزال يؤمن بالله وان كان يدمدم متذمراً فى بعض اللحظات • ولكن ذلك الاحساس المطلق السيئ الذى شعر به بعد ذلك الحديث رأساً قد استيقظ الآن فى نفسه من جديد ، وأخذ يحاول الخروج الى سطح شعوره بقوة ما تنفك تزايد •

هبط المساء أثناء ذلك ، وخيم الظلام • وهذا راكيتين الذى كان

يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من الصومعة الى الدير يلمح أليوشا على حين فجأة ، مستلقيا تحت شجرة ، جاعلاً وجهه الى الأرض ، ساكناً لايتحرك فكأنه نائم . اقترب راكيتين منه وناداه :

— أهذا أنت يا ألكسى ؟ أيمكن حقاً أن ...

كذلك قال راكيتين مدهوشاً ، ولكنه أمسك فجأة عن الكلام قبل أن يتم جملة .

كان يريد أن يقول : « أيمكن حقاً أن تصير من ذلك الى هذه الحال ؟ » .

لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين ، ولكن راكيتين أدرك من حركة سيرة تحركها جسم أليوشا ، أن أليوشا قد سمعه . استأنف راكيتين يقول وقد أخذت الدهشة التى يعبر عنها وجهه تستحيل شيئاً فشيئاً الى ابتسامة ساخرة :

— ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟ اسمع يا أليوشا ! اننى أبحث عنك منذ ساعتين فى كل مكان . لقد اختفيت من هناك بفتة . فماذا تصنع هنا ؟ أهى سخافة جديدة ؟ أنظر الى على الأقل ...

رفع أليوشا رأسه ، وجلس مسنداً ظهره الى الشجرة . لم يكن يركى ، ولكن الألم كان يُقرأ فى قسماط وجهه ، وكان فى عينه خنق . على أنه لم يكن ينظر الى راكيتين وانما هو يحدّق الى شيء فى جانب . قال راكيتين :

— هل تعلم أن وجهك قد تغير تماماً ؟ لم يبق فيه أثر من تلك الودعة التى كنت توصف بها ؟ أتراك غاضباً من أحد ؟ هل أساء اليك أحد ؟

قال أليوشا دون أن ينظر إليه أيضا ، قال وهو يحرك يده بإشارة
تعبّر عن التملعل والتبرم :

- انصرف !

قال راكيتين :

- أوه ! أوه ! أهكذا أصبحنا الآن اذن ؟ نغضب ونصرخ كسائر
الناس ! عجيب ! من ذا الذى يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا
الملاك ؟ طيب يا أليوشا ... فى وسعك أن تتمز بأئك أدهشتى ...
أقول لك هذا صادقا كل الصدق • لقد أصبحت منذ زمن طويل
لا أدهش من شئ هنا • على أتنى كنت أظنك انسانا متقفا ...

أخيرا رفع أليوشا اليه عينه ، غير أن فى هيئته الآن ذهولا فكانه لم
يفهم جيدا ما قاله صاحبه • وعاد راكيتين يهتف قائلا وقد استبدت به
دهشة شديدة من جديد :

- أكلُّ هذا لأن صاحبك المعجوز قد مات ؟ أكنت تظن حقاً اذن
أنه كان سيققق معجزات ؟

فصرخ أليوشا يقول بصوت حائق :

- كنت أظن ، وما زلت أظن ، وأريد أن أظن ، وسأظل أظن !
... أبكيفيك هذا الآن ؟

- ولكننى لا أريد شيئا يا عزيزى ! عجيب ! ان صيّا فى الثالثة
عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور فى أيامنا هذه • لك ما تشاء على
كل حال ... هأنت ذا اذن غاضب من الله ، ناثر عليه ثورة معلنة !
كموظف مستاء من أنه نُسى عند ترفيع ، أو حرم من وسام فى احتفال !
هذا أتم ! ...

تفرس أليوشا فى راكيتين طويلًا ، وهو مغمض عينيه نصف اغماض ، وومض فى عينيه برق ... غير أن هذا ليس الآن حقاً وغمضا من راكيتين . ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :

- لست نائرا على الهى ، ولكنى « أرفض قبول الخليفة » . ذلك كل شئ .

فكر راكيتين لحظة فى هذا الجواب ثم سأله :

- ترفض ؟ ماذا تعنى ؟ ما هذا الكلام المضحك أيضا !

لم يجب أليوشا . قال راكيتين :

- كفانا كلاما فى ترهات . لنفكر فى الأمور الهامة : هل أكلت اليوم ؟

- لا أتذكر ... يبدو أننى أكلت ...

- تدل هيتك على أنك فى حاجة الى استرداد قواك . ان منظر-رك يثير الشفقة عليك . قيل لى انك لم تنم طول الليل . يظهر أنكم قد عقدتم اجتماعا كبيرا . ثم حدث ذلك الهرج كله ، وقامت تلك الاحتمالات والطقوس كلها ... ان فى جيبي بعض المقائق ، حملته احتياطا حين جئت الى هنا . ولكن أظن أنك لا تأكل المقائق ، أليس كذلك ؟

- هات المقائق .

- هيه هيه ... هذا أمر جديد ... هذه ثورة أصولية ، ثورة بمتاريس ! هيم ... ما هذا بقليل أيها الأخ ، هل تعلم ؟ طيب ... تعال معى الى بيتى ... أنا أيضا فى حاجة الى قليل من الخمرة ... انتى مرهق ... أنت لا تشرب خمرة ، أليس كذلك ؟ اللهم إلا أن ..

- سأشرب خمرة •

قال راكيتين وهو ينظر الى صاحبه مدهوشا :

- هه ؟ ••• هذا كثير ••• المقاتق سلمنا بها ••• ولكن أخمرة أيضا ؟ هذه أمور عظيمة حقا • يجب أن لا تفوت الفرصة • هيا بنا !

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة ، وتبع راكيتين •

- لو علم أخوك ايفان بهذا لدهش هو • بالمناسبة : لقد سافر ايفان فيدوروفتش الى موسكو هذا الصباح ، هل كنت تعرف ذلك ؟

قال أليوشا بغير اكترات :

- أعرفه •

وانبثقت صورة دمترى فجأة فى خياله ، ولكنها لم تلبث فيه الا لحظة قصيرة • لقد أحس احساسا غامضا بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أى ابطاء ، هو الزام أخلاقى ، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به ، ولكن هذه الذكرى لم تُخرجه من خدره ؛ لقد اجتازت فكره دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته • ومع ذلك فان هذه الواقعة التفصيلية ستعاود ذاكرته كثيرا فيما بعد •

- لقد نعتنى أخوك المذهب اللطيف ايفان ذات مرة بقوله « تافه لبرالى لا موهبة له » • أما أنت فقد أسسمعتنى فى يوم من الأيام أتنى أفقر الى « الاستقامة » • طيب ! سنرى قريبا ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامسا كأنه يخاطب نفسه) •

ثم أردف يقول بصوت عالٍ :

- لتتجاش المرور بالدير ولتتجه رأسا الى المدينة مجتازين الممر

الضيق ... هم ! وسأب لحظة الى منزل السيدة هوخلاكوفا أثناء الطريق . تصور أنتى قصصت عليها تفصيلا كل ما جرى هنا ، فاذا هى تجيئني منذ قليل فى بطاقة كتبت عليها بالقلم الرصاص (هذه السيدة تمسق كتابه البطاقات) : « انها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبعجل كالشيخ زوسىما ... أن يصدر عنه ... مثل هذا السلوك ! ... » . هذا ما كتبه بالحرف : « السلوك » ! هى أيضا حاقدة عليه شخصيا بسبب ما وقع . هذا أنتم !

قال راكيتين ذلك ثم صاح فجأة يقول وقد توقف عن السير ، وامسك أليوشا من كتفه ، وحدق اليه بعينين متفرستين :

— هل تعلم يا أليوشا ؟

لقد استبدت براكيتين فى تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت فى ذهنه ؟ وكان واضحا رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هى فى نظر راكيتين خارقة غير متوقعة .

وعزم أمره أخيرا فقال بصوت متردد غير مطمئن :

— أليوشا ، عزيزى ! هل تعلم أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولا ؟

— نذهب الى حيث تشاء . يستوى عندى كل شئ .

فقال راكيتين وهو يرتجف لهفه وخشية :

— لنذهب الى جروشكا ! هل توافق ؟

فأجاب أليوشا هادئا بغير تردد :

— لنذهب الى جروشكا اذا أردت !

كاد راكيتين أن يثب الى وراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة
السريعة مستتربة • وصاح يقول مذهولاً :

- هكذا ؟ عظيم ! ...

ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه ، فأمسك أليوشا من ذراعه ،
وأسرع يجره نحو المر الضيق ، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره •
وسارا صامتين ، لأن راكيتين يتحانني الآن أن يفتح فمه مخافة أن يمكّر
ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول • غير أنه لم يستطع أن
يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلاً :

- ما أعظم ما ستشعر به جروشكا من سرور برؤيتك ! أوه !
لسوف تكون سعيدة !

ولكنه سرعان ما صمت •

على أن راكيتين لم يحاول أن يجذب أليوشا الى منزل جروشكا
ليسر جروشكا • ان راكيتين رجل جاد ، فهو لا يحاول أمراً من الأمور
دون أن يرى فيه نفعاً له • ولقد كان في تلك اللحظة يخضع لباغئين
اثنين • فأما الباعث الأول فهو أنه يجب أن ينتقم : انه يريد أن يشهد
« تدنس الرجل الصالح » ، انه يريد أن يرى « سقوط » أليوشا من
« القداسة الى الاثم » ، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن • وأما
الباعث الثاني فهو هدف مادي سيحقق له ربحاً كبيراً ، وسأنتهي على ذكره
فيما بعد •

قال راكيتين في سره وهو يشعر بفرح خفي خبيث : « اذن لقد
جاءت دقيقة كهذه الدقيقة في حياته • ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة ،
لأنها تعدنا بمنافع كثيرة وفوائد جمّة » •

البصلة



جروشكا في قلب المدينة قرب «ميدان الكنيسة»
 في منزل المرأة موروسوفا ، وهي أرملة تاجر
 أجرت جروشكا جناحا مبنيا من خشب في فناء
 منزلها ؛ والمنزل من حجر ، وهو واسع له طابق
 فوق الطابق الأرضي ، لكنه متسخ ليس في مظهره كثير من رواء وصاحبه
 المعجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعتين في السن هما أيضا ؛
 وهي تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء ،
 والناس في المدينة يعلمون جميعا أنها لم تقبل سكني جروشكا في منزلها
 (منذ أربع سنين) الا ارضاءً لقريبها التاجر سامسوتوف الذي يميل الى
 الشابة ويرعاها ويحميها . والناس في المدينة يؤكدون أن المعجوز النحور
 على الشابة ، انما أراد في أول الأمر حين أسكن أثيرته في منزل موروسوفا
 أن يجعلها تحت اشراف المعجوز اليقظة التي كلفها بأن تراقب سلوكها .
 ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس في حاجة الى أن يراقب ،
 وقد أصبحت المعجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشكا ، ولا تراها الا نادرا
 ولا تزعجها بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصي والتفتيش .
 ولقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذي جاء فيه التاجر المعجوز الى
 هذا المنزل بالعصية الخجول التي لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما ،
 والتي لقيها في مركز الاقليم وكانت عندئذ تحيلة الجسم ضعيفة البنية

كثيرة الوجوم حزينة النفس • ان مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم • وكان الناس فى مدينتنا لا يعرفون الا أشياء قليلة عن ماضى الفتاة ، وكان ما يرددونه من معلومات عنها تموزه الدقة ويعوزة الوضوح ، ولم تزد هذه المعلومات بعد ذلك كثيراً ، حتى فى العهد الذى أصبح فيه أمر « الحسناء الرائعة » ، أجرافين ألكسندروفنا ، يهم عدداً كبيراً من الاشخاص عندنا • كان يُقال ان ضابطاً مجهولاً قد أغراها وأغواها فى السنة السابعة عشرة من عمرها ، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها ، فترك الصبية الشقية للعار والبؤس • وكان يُزعم أيضاً أن جروشكا ، رغم أن التاجر العجوز يعيلها ، انما تنتمى الى أسرة محترمة من رجال الدين ، وانها بنت قسيس كان محالاً على الاستيداع ، أو كانت تقال أشياء من هذا القليل • المهم ان النعمة الحساسة المذلّة المسكينة قد استحالَت فى غضون أربع سنين الى حسناء روسية بضّة الجسم ، زاهية الألوان ، جمّة النشاط ، جريئة جسور ، لا تخلو من وقاحة ، حاذقة فى شئون الأعمال ، شرهة الى المال ، بخيلة حذرة فى آن واحد • وكان يقال أيضاً انها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيراً ، بوسائل ليست شريفة أمينة دائماً • على أن هناك أمراً يجمع الناس عليه : هو أن جروشكا امرأة يستحيل نيلها ، فما من رجل واحد باستثناء حاميتها العجوز ، استطاع أن يتباهى بأنه حظى منها بشئ خلال تلك السنين الأربع • والأمر محقق لا ريب فيه ، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سعوا الى الخطوة بنعمها ، ولا سيما فى السنين الأخيرتين ، فلم يظفر أحد منهم بطايل ، وبادت جميع محاولاتهم بالاففاق ، حتى أن بعضهم قد اضطر الى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصف به السيدة من عزيمة صلبة وروح ساخرة • وقد عُرِفَ أيضاً أنها أصبحت تهتم بالأعمال ، ولا سيما منذ

سنة ، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة ، حتى أن كثيرا من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية» . ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا ، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشتري بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك الى تحصيل قيمتها كاملة ، أى تتقاضى مبالغ تساوى عشرة أضعاف ما دفعت . وكان العجوز سامسونوف الذى تورمت ساقاه وأصبحت عاجزين عن الحركة منذ عام ، رجلاً أرمل يضطهد أبناءه ويسومهم سوء العذاب ، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات ؟ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم ، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التى كان لا يمن عليها فى أول الأمر الا بما « يسد الرمق » أو بما يوجبه « الصيام الكبير » على حد تعبير الساخرين المستهزين ، الى أن استطاعت جروشكا أن تتحرر ، ولا سيما بفضل ما أوحته اليه من ثقة عظيمة بوفائها له . ان هذا العجوز ، وهو رجل من كبار رجال الاعمال (ولقد توفى منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهم ملامحه البخل والقسوة الشديدة . فرغم ما كان لجروشكا من تأثير كبير عليه - حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها - فانه لم يترك لها مالا كثيرا ؟ ولو قد هددته جروشكا بالقطيعة لما ترحزح عن موقفه فى هذا المجال . على أنه قد أعطاها أثناء حياته مبلغا غير كبير من المال ، فلما علم الناس فى المدينة بذلك دهشوا جميعا . قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل « أنت امرأة ذكية ، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره . ولكن اعلمى اننى ، عدا ما أنفقته عليك لا عالتك التى سأستمر فى تأمينها ، لن أعطيك شيئا أثناء حياتى ، ولن أوصى لك بشيء فى وصيتى بعد مماتى » . وقد تمسك الرجل بقوله : مات تاركا كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته ، هم وزوجاتهم ، معاملة الخدم . أما جروشكا فقد أبى حتى

أن يأتى على ذكرها فى وصيته • هذه التفاصيل كلها قد عُرِفَت فيما بعد • ولكن الرجل قد ساعد جروشكا فى مقابل ذلك بنصائحه فى استئجار رأس مالها الشخصى الصغير • ، ودلَّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة • فلما تولَّه فيدور بافلوفتش يحب جروشكا التى عرفها بمناسبة صفقة طارئة • ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن فى حسبانته هو نفسه الى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً • فان العجوز سامسونوف الذى كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته • لم يزد على أن ضحك من ذلك • ان من الأمور البارزة أن جروشكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما ؛ ويبدو أن العجوز كان هو الانسان الوحيد الذى تعامله جروشكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة • ولكن حين توله دمترى فيدوروفتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشكا • انقطع حاميتها العجوز عن الضحك ؛ بل لقد اعتقد أن من واجبه أن ينبه المرأة الشابة ناصحاً محذراً • فقال لها بلهجة جادة قاسية : « اذا كان عليك أن تختارى بين الاثنين • الأب وابنه • فاختارى الأب • ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسباً منذ البداية • أما الكابتن • فدعيه • لأنه لا يناسبك • • بهذا خاطب العجوز المحب للمذات الحياة صاحبه جروشكا بينما كان يحس بوشك نهايته • ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر • ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن • رغم أن أشخاصاً كثيرين كانوا فى ذلك الوقت على علم بالمنافسة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بخطوة المرأة الشابة • أما خادمتا جروشكا فقد شهدتا فى الدعوى (بعد الكارثة التى ستحدث عنها فيما بعد) أن آجرافين ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمترى فيدوروفتش الا خوفاً • لأنه كان قد « هدَّدَ بقتلها » • ان لجروشكا خادمتين : احدهما

طباخة هرمة جدا كانت فى الماضى تخدم أسرتها وهى الآن مريضة وتكاد تكون صماء ، والثانية فتاة لطيفة فى العشرين من عمرها كانت بمسابة وصيفة لها ، وهى حفيدة الطباخة المعجوز . وكانت جروشكا تعيش حياة فقيرة فى مسكن داخله بسيط متواضع جدا . انها تشغل فى الجناح ثلاث غرفٍ أثنائها من خشب الأكاجو ، استأجرته جروشكا من مالكة المنزل أيضا ، وهو من طراز أثناء عام ١٨٢٠ .

حين وصل راكيتين وأليوشا الى مسكن جروشكا كان الظلام قد خيم ، ولكن الغرف لم تُشعل فيها الأضواء بعد . كانت جروشكا مضطجعة فى الصالون على أريكة طويلة ثقيلة لها مسند من خشب الأكاجو ، قد غُطيت بجلد صلب ، ونال منها الزمن فاهترأت وتفتت فى عدة مواضع . ان المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين أخذتهما من سريرها ؛ مستلقية على ظهرها ، ساكنة ، جاعلة ذراعيها تحت شعرها ، مرتدية ثوبا من حرير أسود - كأنها تنتظر زيارة أحد - ملففة شعرها بقبعة رائعة من تخريم ، ملقبة على كفيها وشاحاً من تخريم أيضاً قد ثبته بدبوس حلية كبيرة من ذهب . واضح أنها كانت تنتظر أحداً ، لأن وضعها كان يدل على نفاذ الصبر نفاداً محموماً . وكان وجهها يبدو شاحباً ، وكانت عيناها تسطمان ، وكانت شفتاها تحترقان ، بينما كان طرف قدميها يلطم ذراع الأريكة لطمأ موقعاً ينم عن تملل الانتظار . فما ان دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد . لقد سمعها ، وهما فى المشى ، تب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها زعر واهلح :
- من هنا ؟

وها هى ذى الخادمة الشابة التى فتحت لهما الباب تهرع الى سيدتها على الفور لتقول لها :

- ليس هو • هما شخصان آخران •

دمدم راكيتين يقول وهو يمسك ألبوشا من ذراعيه ليقوده الى الصالون :

- ماذا دهاها ؟

كانت جروشكا واقفة قرب الأريكة وهى ما تزال مدعورة بعض الشيء • من ضفيرة كثيفة من شعرها الكستاوى قد خرجت من تحت قبعتها وتهدلت على كتفها اليمنى ، ولكن جروشكا لم تنتبه اليها أول الأمر ولم ترفعها الا بعد أن تفرست فى القادمين وعرفتهما •

قالت جروشكا :

- هه ! أهذا أنت يا راكيتا ؟ لقد روَّعتنى ! ومن هذا الذى جئتى به ؟ يا لها من مفاجأة !

كذلك صاحت جروشكا حين رأت ألبوشا •

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة ، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من المعرفة الحميمة ما يجيز له أن يصدر الأوامر نيابة عنها :

- هلا أمرت باشعال الشموع •

- طبعا طبعا ... الشموع ... الشموع ! فينيا * ، ائمه بشمعة !... لقد اخترت اللحظة المناسبة لتجيتى به !

كذلك هتفت تقول جروشكا مرة أخرى وهى تومىء برأسها الى ألبوشا •

ثم التفتت نحو المرأة ، فتناولت الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها ،

وأسرعت تثبتها على رأسها • كان يبدو عليها أنها غير راضية • قل راكيتين مستاءة :

- لعلنى جئت فى غير الألوان المناسب ؟
فقلت جروشنكا وهى تبسم لأليوشا :

- كلا ... ولكنك روّعتنى يا راكيتا ، هذا كل شىء • لا تخف منى يا عزيزى الطيب أليوشا • لىك تعرف مدى سعادتى برؤيتك ، أنا التى لم أكن أتوقع مجيئك • أما أنت يا راكيتا فقد روّعتنى منذ هنيهة ، لأننى ظننت أن ميتيا هو الذى كان يريد أن يقتحم بابى • لقد خدعته فى هذا المساء ، وأجبرته على أن يحلف لى بأنه يصدقنى ، بينما كنت أكذب عليه • ذلك أننى زعمت له أننى سأقضى السهرة كلها عند عجوزى كوزمتمش أساعده فى اجراء حساباته الى ساعة متأخرة من الليل • انه يعلم أننى أذهب الى كوزما كوزمتمش مرة كل أسبوع لتنظيم دفاتره ، تنقلق علينا باب الغرفة ، فيأخذ هو باجراء عمليات الجمع مستعينا بمداد ، وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه على من أرقام ، لأننى الانسان الوحيد الذى يوليه ثقته • ان ميتيا يعتقد بأننى الآن عند العجوزة ، على حين أننى مضطجعة هنا فى انتظار رسالة • اننى لأسألك لماذا سمحت لكم فينيا بالدخول • فينيا ! فينيا ! أسرعى الى الباب الكبير ، وألقى نظرة على الخارج لتأكدى من أن الكابتن لا يحوم حول المنزل • جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس على • اننى أخاف منه خوفا قاتلا !

- ليس هناك أحد يا أجرافين ألكسندروفنا ، فلقد درت حول المنزل منذ لحظة ، وأنا أنظر من شق الباب من حين الى حين ، لأننى أرتعد من الخوف أنا أيضا •

- هل خشب النوافذ مغلق يا فينيا ؟ يجب اسدال الستائر هكذا

(قالت هذا وأسدت الستائر الكثيفة بنفسها الى النصف) حتى لا يلاحظ نوراً فى السوافذ . اننى خائفة من أخيك خوفاً رهيباً فى هذا اليوم يا أليوشا .

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عالٍ رغم قلقها وخوفها ، وكان يلاحظ فيها شىء من حماسة .

سألها راكيتين :

— لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف فى هذا المساء ؟ ما عهدتك وجلةً معه ، فانما أنت تسيّرينه بعصا فى العادة .

— قلت لك اننى أنتظر رسالة ، رسالة ثمينة ، فما ينبغي أن يجرى ميتيا الآن . ثم انه لم يصدقنى حين زعمت له اننى ذاهبة الى كوزما كوزميتش ، لقد أحسست بذلك . لا بد أنه أختبأ فى مكان ما وراء حديقة فيدور بافلوفتش ليرصدنى . هذا أفضل . فهو فى هذه الحالة لن يجرى الى هنا . أما كوزما كوزميتش فقد ذهب الى فعلاً ، وقد رافقتى ميتيا حتى باب منزله ، وزعمت له اننى سأبقى هناك الى نصف الليل ، ورجوته ملحةً أن يجرى ليصحبنى فى العودة الى بيتى . عندئذ تركنى ، فمكثت عند العجوز عشر دقائق ، ثم رجعت الى البيت راکضة . أوف ! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه فى الطريق !

— لأى مناسبة تزينت هذه الزينة كلها ! انها لقبة رائعة هذه القبة التى أرى ...

— غريب أمرك يا راكيتا ! قلت لك اننى أنتظر رسالة ، فمتى وصلت الرسالة أسرع أخرج لا يؤخرنى أن أتحدث معكم . لقد تزينت استعداداً للحظة المناسبة .

- الى أين تذهبن ؟

- تحب أن تعلم ذلك ؟ الاكثار من العلم ضرر يا عزيزى !

- ياه ! أنت فرحة جدا • ما رأيك على هذه الحال فى يوم من الأيام • لقد تجملت وتزينت كأنها ذاهبة الى حفلة رقص !
كذلك قال راكيتين وهو يفحص بنظره جروشكا •
قالت له :

- ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص ؟

- وأنت ؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف ؟

- أنا ؟ شهدت حفلة رقص مرة واحدة فى حياتى • حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، حين زوج كوزما كوزمنش ابنه • كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة • على أتى لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندى ضيف نادر هذه التدرة ، ضيف هو أمير حقا ! يا أليوشا ، يا ملاكى الصغير ، اتنى لا أصدق عينى ! كيف أمكن أن يجرى الى بيتى ؟ الحق اتنى لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك فى منزلى ! لم أصدق فى يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئى ، أعترف لك بذلك ! انك لم تختر اللحظة المناسبة ، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك ! اجلس على هذه الأريكة •• يا عزيزى ، يا شمس مضيئة ! اتنى مذهولة ••• ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئى به أمس ، أو أمس الأول ••• لا بأس على كل حال ••• أنا سعيدة رغم كل شئ ! ••• بل ربما كان مجيئه اليوم ، فى مثل هذه اللحظة ، خيرا من المجيء بالأمس •••

جلست جروشكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة ، وأخذت تنظر اليه فى نشوة ووجد • كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته ، ولم تكذب حين أكدت له ذلك • كانت عيناها تسطمان ، وكانت تضحك ،

ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكماسة . لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى في وجهها مثل هذا التعبير عن لطيفة . . . انه لم يرها حتى الآن الا نادراً ، وكان رأيها فيها رأياً فظيلاً . كانت ثورتها المتوحشة على كاترين ايفانوفنا بالأمس قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشة أن يرى فيها انساناً مختلفاً كل الاختلاف . انه رغم الحزن الشديد الذى يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق الى المرأة الشابة والفرس فيها . كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسناً ملحوظاً : ليس فى صوتها الآن تلك النبزات الرخوة التى أصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة . هى الآن تشع طيبة وتنطلق على سجيتهما طبيعية بلا تعمل ، رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطراباً شديداً .

قالت مدممة :

– رباه ! يا لها من مغامرات كثيرة فى يوم واحد ! اننى أتساءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هذه السعادة كلها ؟ أؤكد لك اننى أجهل أنا نفسى سبب هذه السعادة .

قال راكيتين متدخلًا وهو يتسم ابتسامة صغيرة :

– أأنت تجهلينه الى هذا الحد من الجهل ؟ لا شك فى أنك لم تلحى طوال هذه المدة فى طلب الايتان به ، دون باعث يدفعك الى ذلك . لقد نفرت أذنى من طول ما سألتنى أن آتى به اليك ، فلا بد أن يكون لك فى ذلك هدف .

– كان لى هدف حقاً ، ولكن لم يبق لى هدف الآن . فات الأوان . ماذا أقدم اليكما من طعام أو شراب ؟ لقد أصبحت طيبة يا راكيتا ، هل تعلم ذلك ؟ هلاً جلسيت يا راكيتا ؟ لماذا تظل واقفا ؟ ها . . . أأنت جلسيت

اذن ؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه ! ها هو ذا قد اتخذ له مكانا فى قبالتنا يا أليوشا ، مستاءً من أننى لم أدعه الى الجلوس قبل أن أدعوك أنت . انه سريع التأذى ، هل تعرف هذا ؟ انه رهيب فى سرعة تأذيه ! (هذا ما أضافته ضاحكة) . لا تزعل يا راكيتا ! أنا اليوم طيبة جدا ! ولكن أنت يا صغيرى أليوشا ، لماذا تبدو حزينا هذا الحزن كله ؟ ألعننى أخيفك ؟

قالت له ذلك ونظرت فى عينيه وهى تبسم ابتسامة لاهية .
قال راكيتين :

- هو حزين لأنه أغفل فى الترقيات .

- أية ترقيات ؟

- انتشرت من شيخه رائحة تفسخ .

- انتشرت ؟ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ لا شك أنك تريد أن

تغمز وتلمز ... أنا أعرفك ! اسكت أيها الأبله .

ثم قالت لأليوشا :

- هل تسمح لى يا أليوشا بأن أقعد على ركبتك .. هكذا ؟

قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهى تضحك وتلامسه

ملامسة رقيقة كقطعة صغيرة .

ثم أحاطت عنقه بذراعيها اليمنى فى عطف وحنان . وأردفت

تقول :

- سأعرف كيف أدخل البهجة الى قلبك يا فتى الصغير التقى .

حقاً ... هل تسمح لى بأن أبقى على ركبتك ؟ ألا تنضب ؟ اذا شئت

قمت .

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحرك • لقد سمع قولها : « اذا شئتَ قمتُ » ، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول • ومع ذلك لم يحس بما يمكن أن يتخيله رجل مثل راكيتين الذى كان يتأمله بطراً • ان الألم العميق الذى يملأ قلبه قد جمّد أحاسيسه ، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضحة لأدرك أنه كان فى تلك اللحظة محصناً تحصيناً قوياً من جميع الفتن وجميع الاغراءات الممكنة • ومع ذلك ، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذى كان يرهقه ، فقد أذهشه شعور جديد غريب نبت فى نفسه : وهو أن هذه المرأة ، هذه المرأة «الرهية» لاتخفيه الآن كما كانت تخفيه من قبل ، ولا تبعث فى نفسه ذلك الذعر الذى كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة فى المناسبات النادرة التى كان يمكن أن تخطر بباله المرأة ! بل ان ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماما : ان هذه المرأة الشابة التى كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء ، والتى تحيطه بذراعيها جالسةً على ركبتيه ، توقف فى نفسه شعورا مختلفا عن ذلك الشعور كل الاختلاف ، شعورا فريدا غير متوقع ، شعورا هو استطلاع قوى يحسن الى حالته الروحية حقا . انه ، خاصةً ، لا يشعر بأى خوف ، لا يشعر بأى أثر من آثار جزعه الماضى ، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه •

هتف راكيتين يقول :

— كفاك كلاماً فى ترهات • خير من هذا أن تسقينا شيئا من الشبانيا • لقد وعدتني بذلك ، هل تتذكرين ؟

— صحيح • وعدتك بذلك • لقد قطعت له على نفسى عهداً يا أليوشا لأمتعته شبانيا يوم يجيئني بك ، هل تفهم ؟ هلموا بنا ، سأشرب أنا نفسى شبانيا • فينيا ، فينيا ، هاتينا بتلك الزجاجة التى تركها ميتيا ،

اسرعى ! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة ! ما هذا من أجلك يا راكيتا ،
فما أنت الا خيارة فاسدة ، بل من أجله هو ، من أجل أميرى ! سأشرب
معكما ، رغم أن فكرى فى مكان آخر . أريد أن أقصف !

عاد راكيتين يسألها مستطلعا ملحاً ، وهو يبذل جهدا كبيرا فى
سييل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التى تصبها عليه :

— ماذا حدث لك اليوم ؟ ما هذه الرسالة التى تنتظرنها ؟ هل الأمر

سر ؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة :

— ليس الأمر سرا ، ثم انك على علم به .

وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلا عن ألبوشا مع بقائها
قاعدة على ركبتيه محيطة بذراعها عنقه ، وقالت :

— سيصل ضابطى يا راكيتين ، ضابطى الجميل !

— أعرف أنه سيصل ، ولكننى كنت أظن أنه ما يزال بعيدا .

— هو الآن فى موكرويه ، وسيبعث الى من هناك رسولا . ذكر

لى ذلك فى رسالة تلقيتها أمس . فانا أنتظر الآن هذا الرسول .

— غريب ! لماذا فى موكرويه ؟

— شرح هذا يطول . يكفيك الآن ما علمت .

— وذلك الشجاع ميتا ؟ هل يعلم بالامر ؟

— لا يعلمه طبعاً . وهو لا يشتبه فى شيء . لو علم لقتلنى . ولكننى

أصبحت لا أخاف منه . اتنى لا أعبا بخنجره . اسكت يا راكيتا .

لا تحدثنى بعد الآن عن دمترى فيدوروفتش • لقد أساء الى كثير •
 لا أحب أن أفكر فى هذه الأشياء بعد اليوم • أوتر أن أهتم بأليوشا •
 أنتى أنظر اليه ، فيتهج بذلك قلبى ••• هلاً ضحكت قليلاً يا ملاكى •
 كن أكثر فرحاً ، شاركنى سعادتى ، اهزأ بحماقتى ••• آ ••• ها هو ذا
 يتسم أخيراً ••• لقد ابتسم لى ! ما أجمل هذه الوداعة فى نظرتة • هل
 تعلم يا أليوشا ؟ لقد كنت أخشى أن تزعل منى بسبب تلك القصة التى
 حدثت فى ذلك اليوم عند الآسة • لقد تصرفت نحوها تصرف وحش
 خبيث ! هذا صحيح • ولكننى مسرورة رغم كل شئ بما حدث • كان
 هذا شيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية • (أضافت ذلك ضاحكة ثم وجهت
 على حين فجأة وطاف بابتسامتها شئ من القسوة) • روى لى ميتيا كيف
 صرخت تقول بعد انصرافى : « هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى
 من الناس » • لقد أرادت أن تعرفنى أملاً فى أن تسيطر على • كانت
 تظن أنها ستغرينى وستفتننى بفنجان من الشوكولاته ••• لا ••• لا •••
 لقد أحسنتُ صنعاُ اذ تصرفت كما تصرفت • كل ما أخشاه هو أن تكون
 أنت قد زعلت منى •••

بهذا ختمت كلامها وهى تضحك ضحكة خفيفة •

قال راكيتين مدهوشا دهشة عميقة :

- يبدو أنها تخشى رأيك حقاً يا أليوشا ! انها تخاف منك ، من
 دجاجة مثلك !

- هو فى نظرك دجاجة لأنك ••• لا ضمير لك ! هذا كل شئ •
 أما أنا فألجبه بكل نفسى ، هل فهمت ؟ هل تصدقنى يا أليوشا اذا قلت لك
 اننى أحبك صادقة مخلصة ؟

- يا لخالمة العذار ! هذا تصريح بحب يا أليوشا ، تصريح بحب لك أنت !

- لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه ؟

- وصاحبك الضابط ؟ والرسول الآتى من موكرويه ؟

- هذان أمران مختلفان •

- ذلك ما تقوله النساء دائما فى مثل هذه الحالة •

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة :

- لا تحقنى يا راكيتا • هذان أمران مختلفان • أنا أحب أليوشا حبا آخر • صحيح أننى قد رسمت خطأ شريرة بشأنك يا أليوشا ، لأننى منحلة عنيفة قاسية • ولكننى كنت فى لحظات أخرى أعددك بمثابة ضمير لى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى قائلا : « لا بد أنه يحققرنى بسبب سلوكى • ، وقد قلت لنفسى هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الأنسة • لقد لاحظت لك منذ زمن طويل يا أليوشا • ان ميتيا يعلم هذا • لقد ذكرته له • وهو يفهمنى • هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لى أحيانا حين أنظر اليك أن أشعر بالخجل فجأة ، بالخجل من نفسى ... كيف استطعت أن تدخل الى قلبى على هذا النحو ؟ لقد نفذت الى قلبى • أما منذ متى ، فلا أدرى فى الواقع ...

دخلت فينا فى تلك اللحظة ، ووضعت على المائدة صنية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كؤوس مملأى •

هتف راكيتين يقول :

- وصلت الشمبانيا ! أنت مهتاجة كثيرا فى هذا المساء يا أجرينين ألكسندروفنا ، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك • ومتى أفرغت

هذه الكأس فسوف ترقصين ، ترالالا ! ... ولكننى ألاحظ أن الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول • ان الزجاجة فاترة ، والسدادة منزوعة ، والخدام قد ملأت الكئوس فى المطبخ • لا بأس ... سنشربها على كل حال •

واقترب راكيتين من المائدة ، فتناول كأساً ، وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة ثم ملأها من جديد ، وقال وهو يمر على شفثيه بلسانه :

- لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم • جاء دورك يا أليوشا • ألا فلنرَ مقدرتك ! أى نخب نشرب ؟ ربما نخب أبواب الجنة ؟ تناولى هذه الكأس يا جروشوا واشربى معنا نخب أبواب الجنة !

- أبواب الجنة ؟ ماذا تعنى ؟
وتناولت جروشونكا كأساً ؛ وكذلك فعسل أليوشا فجرج جرجة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسما ابتسامة عذبة :

- أوتر أن لا أشرب •

فصاح راكيتين قائلاً :

- فماذا كان تباهيك اذن ؟

وقالت جروشونكا :

- لن أشرب أنا اذن • ثم اتنى ليست بى رغبة فى الشراب •
تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك اذا شئت يا راكيتا • واذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضا •

قال راكيتين ساخراً :

- يا للمواطىء الرفيقة ! انها بهذا تجنوا على ركبتيها • ان له هو عذراً على الاقل ، فهو حزين النفس ، أما أنت فأى عذر يمكن أن تتحلى ؟
لقد تمرد هو على الله وأراد أن يأكل مقائق •

- ماذا وقع له ؟

- مات شيخه هذه الليلة الأب زوسينا ذلك القديس .

- ماذا ؟ الشيخ زوسينا مات ؟ لم أكن أعرف ذلك .

قالت جروشكا هذا صائحة ، ورسمت على نفسها اشارة الصليب
يتقى وورع . وأردفت تقول منفعلة على حين فجأة كاللذعورة :

- آه يا رب ! وأجلس على ركبتيه فى مثل هذا اليوم ؟

ثم أسرعته تنهض ، ومضت تجلس على الأريكة . حدق اليها
أليوشا بنظرة طويلة دهشة ، وانبسبت أسارير وجهه قليلا ، وقال
يخاطب راكيتين بصوت قوى حازم :

- لا يضايقنى بموضوع ثورتى المزعومة على الله يا راكيتين . اننى
لا أحب أن أغضب منك ، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبلى
النفس أنت أيضا . لقد فقدت كنزاً لم تملكه أنت فى يوم من الايام ،
لذلك لن تستطيع أن تفهمنى . خير لك أن تقتدى بها : هل رأيت كم
دارتنى ورعتنى ؟ لقد جئت الى هنا لأقابل انسانة شريرة ، لألقى روحاً
خبيثة ، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسى ، لأننى كنت فى تلك اللحظة جباناً
شريراً . ثم اذا أنا ألقى أختاً صادقة ، جوهره ثمينه ، نفساً صافية محبة
.... دارت مشاعرى ، وأحاطتنى بالرعاية . عنك أتكلم يا أجرافين
ألكسندروفنا . لقد وهبت لى الجراءة على أن أحيا .

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنفا .

قال راكيتين وهو يضحك ساخراً :

- لكنّها أخذتلك ! ألا فاعلم اذن أنها كانت تتوى أن تملك !

قالت جروشكا مندفة :

- كفى يا راكيتين • واسكتا كلاكما الآن • لا تقل شيئا يا ألبوشا ،
لأن أقوالك تشعرني بالخزي والعار • أنا في الحق خيثة لا طيبة كما
تظن • أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب • جائز أنتى نويت
فى السابق تلك النية الجبانة وهى أن أبلعه لقمة واحدة ، ولكنك مع
ذلك تكذب ، لأن هذا قد مضى الآن ••• لا أريد أن أسمع صوتك
يا راكيتا !

كانت جروشكا تتكلم مضطربة اضطرابا شديدا •

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر اليهما مدهوشا :

- لقد فقدتا كلاهما العقل • لكنهما مجنونان ! أترانى وقعت فى
مستشفى للمجانين ؟ أصبحا عاطفيين ، وما هى اللحظة حتى يطفئا
باكين •

قاطعته جروشكا تقول :

- سوف أبكى ، نعم سوف أبكى • لقد دعانى أخته ، لن أنسى هذا
ما حيت ! اعلم يا راكيتا أنتى مهما أكن شريرة ، فقد وهبت بصلة * •
- أية بصلة ؟ حقا لقد فقدتا العقل •

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية ، ويحس بالاهانة ،
رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الاسانين
على نحو من شأنه أن يثبت فى نفسيهما الاضطراب • ولكن راكيتين ،
السريع جدا الى ادراك كل ما يمسه ، يجسد غناء فى فهم عواطف
الآخرين واحساساتهم أولا لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه ، وثانيا لأنه
على جانب عظيم من الأناية •

التفت جروشكا نحو أليوشا وهى تضحك ضحكة عصبية
وقالت له :

- ها قد رأيت يا أليوشا أنتى تباهيت أمام راكيتا بأننى قدمت بصلة.
ولكننى سأتكلم معك صادقة مخلصة بغير تفاخر • الأمر أمر أسطورة :
هى قصة جميلة قصتها علىّ فى طفولتى ماترين التى تعمل عندى اليوم
طباخة • اليك القصة : كان هناك فى الماضى امرأة عجوز شريرة جداً ؛
فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أية فضيلة يمكن أن تشفع لها
فى يوم الحساب ، فقد أسكنها الشياطين وألقته فى بحيرة من نار •
وعندئذ أخذ حارسها الملاك يفكر • تساءل : « ما الذى يستطيع أن أفعله
لإنقاذها ؟ ألا يمكننى أن أكتشف فضيلةً أذكرها عنها للرب ! » ، فإذا
هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة فى حياتها ، فقال للرب : « لقد
انتزعت من حديقته بصلة فى ذات يوم ووهبتها لشحاذ • » فقال الرب
للملاك الحارس : « خذ هذه البصلة ، ومدّها الى هذه المرأة فى بحيرة
النار ، ومرها أن تتشبث بها ، ثم شدها لتخرجها من اللهب • فإذا استطعت
أن تخرجها ذهبت الى الجنة ، أما اذا تقطعت البصلة فسبقى المرأة حيث
هى • » أسرع الملاك الى المرأة ومد اليها البصلة وقال لها : « تمسكى بهذه
البصلة فأخرجك من النار » • وأخذ يشد بكل ما أوتى من قوة ، وكاد
يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان
بسيلاً انقاذها ، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها • ولكن
العجوز كانت شريرة جداً ، فركلتهم بقدميها وهى تصرخ : « انما يراد
انقاذى أنا لا انقاذكم أنتم • هذه البصلة بصلتى أنا لا بصلتكم أنتم • »
فما ان نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة ، فسقطت المرأة
العجوز فى البحيرة من جديد • وما تزال تحترق فى النار حتى الآن •
أما الملاك فقد انصرف باكياً • أنتى أحفظ هذه الاسطورة على ظهر القلب؛

احتفظت بها لأننى شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة • لقد تباهيت أمام رايكيتا بأننى وهبت بصلة • أما لك أنت فأقول متواضعة اننى ان كنت قد وهبت بصلة مرة فى حياتى فذلك كل ما فعلته ، وليس تتعدى طبيعتى هذه الحدود • فلا تمدحنى اذن يا أليوشا ، ولا تظن أننى طيبة • أنا شريرة ، شريرة جدا ، واننى لأمتلىء بشعور الخزي والعار حين أسمعك تكيل لى المديح • وهأنذا أعترف لك بكل شيء يا أليوشا : لقد بلغت من فرط الرغبة فى أن أراك عندي أننى كنت لا أعرف ما عساي فاعلة لأحض رايكيتين على أن يجيئنى بك • ووعدته أخيرا بأن أعطيه خمسة وعشرين روبلا اذا هو اصطحبك الى منزلى • لحظة يا رايكيتا !

أسرعت جروشنكا تقرب من المنضدة ، ففتحت درجاً ، وتساوالت محفظة نقودها ، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً •

هتف رايكيتين يقول مرتبكا ارتباكاً شديداً :

— ما هذا السخف ؟ كان ذلك هزلاً لا جدأ •

— خذ المال يا رايكيتا ! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه ! لقد ألححت

علىّ لأعطيك هذا المبلغ •

ورمت اليه الورقة •

قال رايكيتين بصوت أجش وهو يحاول أن يسيطر على اضطرابه

وارتباكاه وخجله :

— لأكوننّ حماراً اذا أنا رفضت • انما وجد الأغنياء فى هذا العالم

لمصلحة الأذكياء •

قالت جروشنكا :

— والآن أسعدنى بسكوتك يا رايكيتا • ان ما سأقوله الآن لا يصلح

لأذنيك • اجلس هناك ، فى الركن ، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً •
أنت لا تحبنا فما عليك إلا أن تلتزم الصمت •

قال راكيتين بلهجة معادية دون أن يحاول اخفاء غضبه :

- وفيم أحبكما ؟

ودسَّ الورقة النقدية فى جيبه ، ولكنه شعر بحرج شديد أمام
أليوشا • كان يقدّر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد ، على غير علم من
أليوشا ، فإذا بالعار الذى يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً • كان قد
رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين أن لا يستفز جروشنكا ، ولكنه
بدأ يفضب الآن • قال :

- لا يحب المرء بغير باعث على الحب ، فما الذى يجعلكما تستحقان

حبى ؟

- أحبّ بغير سبب ، مثل أليوشا !

- من قال لك ان أليوشا يحبك ؟ ماذا صنع من أجلك ؟ قليلاً من

الفهم على الأقل ! ...

كانت جروشنكا فى وسط الغرفة ، وكانت تتكلم متحمسة بصوت

تداخله فى بعض اللحظات نبرات هسترية •

- اسكت يا راكيتا ! انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً • ثم اتنى

لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بينى وبينك وأن تخاطبني بصيغة المفرد •

اتنى أمتك أن تفعل هذا فى المستقبل • من أجاز لك أن ترفع الكلفة

الى هذه الدرجة ؟ ابق فى ركنك واسكت ، لأننى أعدك بمثابة خادم لى •

والآن يا أليوشا ، سأقول لك الحقيقة كاملة ، لتعلم اتنى انسانة شريرة •

سيئة ! لك انما أعترف هذا الاعتراف ، لا لراكيتا ! لقد أردت ضياعك •

يا أليوشا ، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها ! ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة ، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أنني حرضت راكميا بالمال على أن يجيئني بك . ما هو السبب الذى دفعنى الى أن أريد ضياعك ؟ انك لم تلاحظ شيئا ، ولم يخطر ببالك شيء ، وكنت تشجع بوجهك عنى . كنت اذا لقيتني تغض طرفك . أما أنا فقد نظرت اليك أكثر من مائة مرة ، وسألت جميع أصدقائي عنك . انطبعت ملامح وجهك فى قلبى . كنت أقول لنفسى : « انه يحقرنى . انه يأبى حتى أن يرفع عينيه الى » . وشعرت من ذلك بغيط بلغ من فرط القوة أنني دُهِشت أنا نفسى . قلت : « لماذا الخوف من هذا الصبي الغر ؟ لآكلنه لقمة واحدة ، ولأضحكن بعد ذلك كثيرا » . ان نوعا من الحقن المسعور قد اضطرم فى نفسى غضبا منك وحقدا عليك . هل تصدق هذا ؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ على شيئا فى هذه المدينة . لن يجبرو أحد أن يشته فى أجرافين ألكسندروفنا فيسىء فيها الظن اذا هي استقبلت رجلا فى بيتها . ليس فى حياتي الا ذلك العجوز الذى ارتبطت به وبعته نفسى . لقد جمع الشيطان بيننا . غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذى حظى بى . ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشد عن هذه القاعدة من أجلك . كنت أنهيا لأن أبلعك ، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك . فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التى دعوتنى أحتك . وهذا صاحبي الذى غشنى وأغوانى يبلغنى أنه قادم ، وأنا أنتظر رسالة منه . هل تعلم ماذا كان هذا الرجل فى حياتي ؟ لقد جاء بى كوزما الى هنا منذ خمس سنين . كنت أعيش فى أول الأمر هاربة من الناس أخشى أن يرانى أحد وأن يسمعنى أحد . كنت هزيلة الجسم غيبة العقل ، وكنت لا أكف عن البكاء فى ليل ولا نهار . كنت أبقي مؤرقة مسهدة ليلالى برمتها أحدث نفسى قائلة : « أين هو فى هذه الساعة ،

الرجل الذى أغوانى ؟ لا شك أنه يضحك علىَّ ويسخر منى مع امرأة أخرى . آه ... ليتنى أستطيع أن ألقاه يوما ! ليدفنَّ عندئذ نمن ما جنت يده ! » • وكنت أبكى على وسادتى فى الظلمات وأحلم بالتأثر والانتقام • كنت أستثير ألى عامدةً لأملأ نفسى كرهاً وحقدًا • كنت أخرج فى الليل قائلة : « لسوف يرى ! لسوف يرى ! ليندمنَّ على ما فعل ! » • ثم أدركت فجأة عجزى • وأصبحت اذا تصورت أنه يسخر منى ويضحك علىَّ ، أو اذا تصورت أنه قد نسينى نسيانا تاما - وهذا أنكى - أسقط عن سريرى على الارض وأطلت أندرج متجبةً مرتجفة بكل جسمى حتى مطلع الفجر • فاذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشد ضراوة من كلب ، نهضت وأنا مستعدة لأن أؤذى أول انسان يقع عليه بصرى • وانقضت السنون ، وأخذت أجمع المال ، وأصبحت بلا رحمة ، وسمنت • ماذا تظن ؟ هل تظن أننى غسدت بذلك أهدأ بالاً ، وأكثر تعقلاً ؟ لا ... ما من أحد يرى ما أعانى ، ما من أحد فى الكون بأسره يتصور ما أفاسى : ما يزال يحدث لى حتى اليوم ، كما كان يحدث لى منذ خمس سنين ، حين كنت صبية يافعة ، أن أشد على أستاذى فى سريرى ليلاً ، وأن أستمِر فى البكاء الى الصباح ، مرددة قولى : « ليدفنَّ نمن ما جنت يده ! » • هل تسمنى ؟ فاحكم علىَّ الآن : لقد وصلتى منه منذ شهر رسالة أولى يبلغنى فيها أنه ترمِل ، وانه يريد أن يرانى ، وانه يأمل أن يصل قريباً • صُعقت فى الوهلة الأولى وحطمتنى الانفعال • ثم قلت لنفسى فجأة : « سيعود ، ولن يكون عليه الا أن يصفر حتى أهرول اليه ككلب ، مجلَّلة بالخزى ، مطبونة القلب ، طالبة الصفح والغفران ! » • وتساءلت عندئذ : « أأكون جبانة وضيعة الى هذه الدرجة ؟ أأرضى أن أذل نفسى هذا الأذلال ؟ » • وقد استبد بى من الغضب على نفسى طوال هذا الشهر ، خشية أن أسقط فى مثل ذلك

الجن ومثل تلك الحطة ، ما جعلنى أصبح أخبت نفساً وأميل الى الشر .
 مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضية . هل أدركت يا أليوشا
 مدى ما تتصف به نفسى من سوء وشر وعنفا ؟ اتنى أذكر لك الحقيقة
 كلها . لقد اتخذت دمترى سلوى لنفسى حتى لا أركض الى لقاء الآخر .
 اسكت يا راكيتا ! ما أنت من يحكم على ! وما أنت من أكلم ! كنت قبل
 وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أنهيأ لمواجهة قدرى ، ولن تعرف
 قط ما كان يجرى فى قلبى . قل للأسة يا أليوشا أن لا تأخذ على
 الشهد الذى وقع أمس الأول ... ما من أحد فى العالم يستطيع أن
 يفهم الحالة النفسية التى أعانيها منذ شهر ، ما من أحد يستطيع أن يتصور
 هذه الحالة النفسية ... ذلك أن من الممكن أن أحمل خنجرى فى هذا
 المساء لأذهب الى الموعد ... اتنى لم أعزم أمرى بعد ...

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذى « يُرثى له » ، لم
 تستطيع أن تتمالك نفسها ، فإذا هى تنقطع عن الكلام ، وتنطى وجهها
 يديها ، وتتهالك على الأريكة ، وتأخذ تنحب على الوسادة كطفل صغير .

نهض أليوشا واقترب من راكيتين ، وقال له :

— لا تزعل يا ميشا ! لقد أهانتك ولكن ما ينبغي لك أن تنضب منها .
 على المرء أن يعامل الطبيعة الانسانية بالتسامح والرحمة ، وأن يشارك
 الناس عذابهم وآلامهم ...

قال أليوشا هذا الكلام باندفاع من قلبه لا سبيل الى مقاومتها . كان
 يشعر بحاجة الى اطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق ؟ ولئن خاطب بهذا
 الكلام راكيتين ، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيدا لو لم يكن راكيتين
 هناك . ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة ، فتوقف أليوشا عن
 الكلام . قال راكيتين وهو يتبسم ابتسامة كراهة حاقة :

- شيخك هو الذى حشا رأسك بهذه الأفكار ، فتريد أن تقدمها الى بدورك الآن يا أليوشا ، يا راهباً صغيراً !

- لا تستهزئ يا راكيتين ، دع السخریات ، ولا تقل سوءاً فى الشيخ الراحل ! انه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الارض .
كذلك قال أليوشا والدموع فى صوته • ثم تابع كلامه يقول :

- لا أقول لك هذا الكلام قاضياً بل متهماً هو شر المتهمين طراً .
ما أنا أمام هذه المرأة ؟ لقد جئت الى بيتها عاقداً نيتي على الضياع ، قائلاً لنفسي فى جبن وصغار وحطة « لا ضير ... لا ضير ... » ، فإذا هى هى التى تأملت خلال خمس سنين ، تغفر كل شيء ، وتنسى كل شيء ، وتبكي بعد أقل من خمس دقائق ، لا لشيء الا لأن رجلاً مجهولاً قال لها كلمة مودة صادقة ! ان الرجل الذى أساء اليها كل تلك الاساءة ، وألحق بها كل ذلك الأذى ، قد عاد وأوماً اليها ، فإذا هى تغفر له على الفور ، فرحةً سعيدةً مستعجلةً لقاءه • أما الخنجر ففك أنها لن تحمله ! لا ... لا ... أنا لا أساويها ، أنا لا أعد لها • لا أدري يا ميسا هل أنت طيب نبيل كطيهاا ونبليها ، أما أنا فلست كذلك بحال من الاحوال • هذا درس تلقنته اليوم ... ان هذه المرأة أعظم منا بالحلب ... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن ؟ انك لم تكن تعرفه حتماً • والا لأدركت كل شيء منذ زمن طويل ... وتلك الأخرى التى آذتها هى أسس الأول ، يجب عليها أن تغفر لها هى أيضاً ! سوف تغفر لها متى علمت ، وستعلم ... ان هذه النفس لما تسترد هدوءها وطمأنينتها بعد ، فينبغي أن تدارى وأن تراعى ... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال ...

صمت أليوشا منقطع للأنفاس • وكان راكيتين ينظر اليه مدهوشاً

رغم حقه • ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب المبتدىء البسيط !

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة :

- يا للمحامى البارع ! أترك وقتى فى جيبها ؟ يا أجرافين ألكسندروفنا ، ان صاحبنا الصائم قد توله بجبك ، وهام غراما بك • هنيئاً لك بالنصر !

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة ، وألقت على أليوشا نظرة حنوناً أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة •
- لا تكثر له يا أليوشا ، يا ملاكى • أنت ترى ما هو ، فلا داعى الى مناقشته •

كذلك قالت جروشنكا ، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له :

- كنت أنوى يا ميشيل أوسيوفتس أن أعتذر اليك عن الكلمات الجارحة التى قلتها لك ، ولكننى أعدل عن ذلك الآن •

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفى وجهها فرح :

- أليوشا ، اجلس هنا ، بجانبى ، هكذا ، قريباً منى • قل لى يا أليوشا (تناولت يده ونظرت فى عينيه مبتسمة) ، قل لى : أما زلت أحبه ؟ أما زلت أحب الآخر ؟ أقصد الرجل الذى أغوانى ••• لقد كنت قبل مجيئك ألقى على نفسى هذا السؤال فى الظلام ، محاولة أن أقرأ فى أعماق قلبى : أما زلت أحبه ؟ أضى طريقى يا أليوشا • هذه ساعة اتخاذ القرار • انتى أكل أمرى اليك • هل يجب على أن أغفر له ؟

قال أليوشا مبتسماً :

- ولكنك غفرت له وانهى الأمر !

فدمدتم جروشكنا تقول واجمة مفكرة :

- صحيح • لقد غفرت له • ما أجبن قلبى !

ثم هتفت تقول :

- اننى أشرب نخب هذا الجبان الكبير ، قلبى !

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا ، وأفرغته فى جوفها دفعة واحدة ، ثم ألقته طائراً على الأرض • تحطم الكرسنال ، ورنت شظاياها • ومرة أخرى ظهر فى طرفي قمها شيء من قسوة • قالت بصوت أجش مثقل .
بتهديدات غامضة ، قالت وهى تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها :

- لعلنى لم أغفر له بعد • ان قلبى يتهاى للمغفرة ، وسأحاول أن أقاومه • آه يا أليوشا ! ما كان أعظم تلذذى بالدموع التى سكبتها طوال خمس سنين • ان عذابى هو ما أحب • اننى أحب ألى ، ولا أحبه هو !

قال راكيتين متهمكاً :

- لست أتمنى أن أكون اياه !

- لن تكون اياه أبداً يا راكيتا ، أبداً ... اعلم هذا • أنت ستنتظف لى حذاءى • ذلك ما تصلح له أنت فى أكثر تقدير • النساء اللواتى هن من نوعى لم يخلقن لك ، ولا له أيضاً على كل حال ...
- ولا له أيضاً ؟ فلمن تزينت اذن ؟

- لا تأخذ علىّ تزينى يا راكيتا ! أنت لا تعرفنى ! سأنزع ثوبى وزيتى اذا عنّ لى هذا ، سأرميهما فوراً ، هل تفهمنى ؟ (كذلك صرخت .
بصوت حاد) • أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذى من أجله تزينت •

من يدري ؟ ربما ذهبت اليه فقلت له : « انظر ! انظر ماذا أصبحت ! » .
 لقد تركنى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ناحلةً مصدورةً بكاءة .
 سأجلس قربه ، أغريه وأغويه ، وأضرم نار الهوى فى قلبه ، أقول له :
 « هيه ! ألسنت اليوم جميلة ؟ أأنت تعجب بى الآن ؟ اكف اذن بالاعجاب ،
 لأن المسافة بعيدة بين الكأس والشفقين ! » . ربما كان هذا هو السبب
 فى أننى تزيت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهى
 تضحك ضحكة خبيثة) . أنا عنيفة يا أليوشا ، أنا شريرة . سوف أنزع
 ثوبى ، وأشوه نفسى ، وأحرق وجهى وأخدده بطعنات موسى لأدمر جمالى
 ثم أمضى أتسول . ليس يتوقف الا علىّ أنا أن أبقي هنا فى هذا المساء ،
 فلا أذهب لا الى هذا ولا الى ذاك . واذا شئت رددت منذ القد الى كوزما
 كوزميتش جميع الهدايا التى أهداها الىّ ، والمال الذى أعطانيه ، ثم أمضى
 أعمل طوالى حياتى لأجنى رزقى عاملةً بسيطة . هل تظن أننى لن أفعل
 شيئاً من هذا يا راكيتا ؟ هل تظن أننى لا أجرؤ على ذلك ؟ بل سأفعله ،
 سأفعله ! لا تُهجنى والا فعلته فوراً ! ... أما الآخر ، فسأطرده ، سأمد
 له لساني استهزاءً ، سأنسل من بين أصابعه !

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب ، يوشك أن يكون هسترياً ،
 ثم لم تتمالك نفسها فاذا هى تدفن وجهها فى يديها من جديد ، وتتهالك
 على الوسادة ناشجة منتجة . فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال :

— أن أوان الانصراف . لقد تأخرنا ، وسوف تغلق أبواب الدير .
 فاتفقت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة :

— أتمضى الآن يا أليوشا ؟ أتعبث بى اذن هذا اللعب ؟ لقد بشت
 الاضطراب فى نفسى ، وعريت أعصابى ، ثم تركنى لأبقى وحيدة ،
 وحيدة كما كنت من قبل ، فى هذه الظلمات !

قال راكيتين بصوت ساخر :

- لن يقضى الليلة عندك على كل حال ! اللهم الا أن يكون راغباً
فى ذلك حريصاً عليه ! وفى هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدى •

فصرخت جروشنكا تقول فى غضب :

- اسكت أنت أيها النفس الخبيثة ! انك لم تعرف فى يوم من
الأيام كيف تكلمنى كما كلمنى هو اليوم •

فقال راكيتين يسألها حانقاً :

- فما هى الأشياء الخارقة التى قالها لك ؟

- نسيت ، لا أعرف ، لا أتذكر كلماته ، ولكن كلماته مضت الى
قلبي رأساً ، وهزت نفسى هزاً قوياً ••• لقد أخذته بى شفقة ورحمة ،
فكان أول انسان يرئى لى ، كان الانسان الوحيد الذى رئى لى ! لماذا
لم تأت من قبل يا ملاكى ؟ (كذلك سألت أليوشا وهى تجئ على ركبتيها
أمامه فيما يشبه الوجد) • لقد انتظرتك طوال حياتى • كنت أعلم ، كنت
أحس أنتى سألتقى فى يوم من ايام بانسان مثلك يعرف كيف يغفر لى •
كنت واثقة من أن أحداً سيحببى آخر الامر أنا أيضاً ، لغرض آخر غير
••• عارى •

سألها أليوشا وهو يتسم ابتسامة فيها خنان ورقة ، ويميل عليها
ويتناول يدها :

- ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ أنا انما قدمت اليك بصلة ،
ببصلة حقيرة ، هذا كل شىء ، هذا كل شىء •••
وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكى •
وفى تلك اللحظة سمعت ضجة فى الممر • ان أحداً قد دخل الى

البيت • نهضت جروشكا مذعورة ذعراً شديداً • وأسرت فينيا الى
الغرفة تهتف فرحةً لاهة :

- آنستى ، عزيزتى ، آنستى الطيبة، وصل الرسول ! لقد أرسلت
من موكرويه عربية تستقلينها ، ومضى الخوذى تيموتى يبدل الخيل •
هناك رسالة لك يا آنستى ، رسالة ، رسالة ... هذه هي !

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها فى الهواء وهى تتكلم •
انتزعت جروشكا الرسالة منها وأدتها من الشمعة • هى بطاقة قصيرة •
جدا لا تضم الا بضعة أسطر قرأتها جروشكا بلمحة عين • ثم صاحت •
تقول وقد شحب وجهها شحوبا شديدا وتقبض وجهها باهتسامة أليمة :

- لقد صفر لى • لقد صفر لى • ازحف أيها الكلب الصغير !

وظلت مترددة خلال هنيهة قصيرة ، ثم ازدحم الدم فى وجنتيها •
فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان ، وهتفت تقول :

- سأذهب ! انتهت تلك السنون الخمس من حياتى • وداعاً وداعاً !
وداعاً لك أنت أيضا يا أليوشا • لقد تقرر مصيرى • اذهبوا ، انصرفوا
الآن جميعا ، ولتغيوا عن عيني الى الأبد ! ... ان جروشكا تبدأ حياة
جديدة • لا تحمل لى حقداً ، أنت أيضا يا راكيتا • من يدري ؟ قد أكون
ذاهبة الى الموت ! آه ... أحس بأننى سكرى على حين فجأة ...

ثم لم تحفل بهما وركضت الى غرفة نومها •

جمعهم راكيتين يقول :

- لقد طردتنا ... فلتنصرف ... ضقت ذرها بهذا الصراخ تطلقه
امراة هسترية • فلمض قبل أن يستأنف الصراخ ...
انقاد أليوشا انقياداً آلياً • كانت العربية فى فناء المنزل • خيول

تحلُّ، وأناس منهمكون على ضوء مصباح • وأمام الباب أفراسٌ جديدة • وما ان هبط أليوشا وراكيّين درجات المدخل حتى فتحت نافذة غرفة النوم ، فإذا جروشكا تصيح قائلة بصوت رنان :

- عزيزى أليوشا ، أبلغ أخاك دمترى تحيتى ، وقل له أن لا يحقد على هذه الوعدة ، أنا • كرر على مسامحه هذه الكلمات عن لسانى : « وهبت جروشكا نفسها لرجل بائس ، لا لك أنت النيل ، ؟ قل له أيضا انتى أحبيته ساعة ، ساعة واحدة ، فليذكر تلك الساعة مدى الحياة ، ان جروشكا هى التى تأمره بذلك •

ختمت جروشكا كلامها شبهً باكية وأسرعت تغلق النافذة •
غمغم راكيّين وهو يضحك ساخراً :

- هِمَّ ••• هِمَّ ••• تغمد سكينا فى قلبه ، فى قلب أخيك ميتا ثم هى تريد أن يتذكرها مدى الحياة • يا للسادية !

لم يجب أليوشا • وكان يبدو عليه أنه لم يسمع • انه يسير الى جانب رفيقه بخطى حثيثة • ولقد كان فى الواقع ذاهلاً يمشى كآلة • شعر راكيّين بألم شديد كأن أحدا قد غرز اصبعه فى جرح له لم يلتئم • ليست هذه هى الخاتمة التى كان يأملها للقاء بين أليوشا وجروشكا • لقد جرى كل شئ على غير ما كان يتنبأ ؟ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق • قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه :

- صاحبها الضابط بولندى • على أنه ليس الآن بضابط • لقد عمل زمناً فى ادارة الجمارك على الحدود الصينية • هو طريحٌ حقير ما فى ذلك ريب • يُقال انه طرد من وظيفته • وأغلب الظن أنه علم أن جروشكا قد جمعت بعض المال ، فها هو ذا يعود ••• هذه هى المعجزة كلها !

ما يزال أليوشا صامتا • ولم يطلق راكيتين صبرا ، فقال وهو
يضحك ضحكا ساخرا خيئا :

- هيه ! هل هديتها الى الحق ، هذه الخاطئة ؟ هل رددت المرأة
الضالة الى سبيل الرشاد ؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها •
هه ؟ هذه هي المعجزة التى انتظرها الناس طويلا منذ هذا الصباح •••
لقد تحققت !

قال أليوشا متألما :

- اسكت يا راكيتين !

- أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين انما تحترقنى الآن ؟
أترانى بعت صديقا ؟ ما أنت يسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا ييهودا
الأسخريوطى !

- أوكد لك اننى لم أكن أفكر فى هذا الامر • أنت الذى تذكرنى
به الآن •

كذلك قال أليوشا ، ففضب راكيتين فى هذه المرة غضبا كاملا ،
وأعول يقول :

- شيطان يأخذكم جميعا ! انى لأنساء ما كانت حاجتى الى
الارتباط بك ! لا أريد أن أعرفك بعد الآن • امض فى سبيلك وحدك !

ومال فجأة فصار فى شارع آخر وترك أليوشا وحيدا فى الليل •

خرج أليوشا من المدينة واتجه الى الدير خلال الحقول •

عرس فتانا



وصل أليوشا الى الصومعة كان الوقت متأخراً
 جددا بالنسبة الى الأنظمة المتبعة في الدير •
 وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر
 خفي • كانت الساعة التاسعة قد دقت ، وكان
 كل شيء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله • تسلسل
 أليوشا وجلاً الى الغرفة التي سُجّي فيها تابوت الشيخ • كان الأب
 بائيسى وحيدا في الغرفة ما يزال يقرأ الانجيل • وكان الراهب المبتدئ
 بروفير الذي أتعبه الحديث الطويل في الليلة البارحة وأتعبته انفعالات
 النهار ، ينام في الغرفة المجاورة على الارض نوما عميقا يتيح له شبا به
 ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا • اتجه أليوشا
 الى الركن الذي يقع على يمين الباب ، وجثا على ركبتيه ، وأخذ يصلي •
 كانت نفسه طافحة ، غير أن المشاعر المختلفة التي عاناها أثناء النهار تختلط
 الآن في نفسه اختلاطا مبهما دون أن تكون لأحدها غلبة ، وانما هي
 تتعاقب ويتردد بعضها بعضا في حركة مطردة هائلة • وشعر أليوشا
 بانفعال رقيق عذب يجتاح نفسه ، فكان العجيب في الامر أنه لم يستغرب
 ذلك الانفعال • انه يرى أمامه التابوت الذي يضم جثمان الراحل

المحجوب ، يراه من جديد ، ولكن الألم الثقيل الذى كان يجثم على صدره طوال الصباح قد حلت محله الآن عاطفة هادئة وادعة . انه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل ، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه . كانت احدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل الى الغرفة هواء طرى منعش . قال أليوشا يحدث نفسه : « لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة . » . غير أن فكرة رائحة النفسى التى أثارت فى نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك التمرد كله ، والتى كانت تبدو له رهينة فظيعة مهينة للمقدّر مخلة بالكرامة ، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشئ من الحرج . أخذ أليوشا يصلى صامتا . ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلى صلاة آليه . ان تنفأ متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض فى خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تطفىء ليحل محلها غيرها . وقد أخذ فى بعض اللحظات يصلى بحراة وحماسة . شاعرا بحاجة قوية عنيفة الى أن يشكر وأن يحب ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف الى شئ آخر ، فاذا هو يفرق فى أحلام غامضة مبهمه تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذى قطع الصلاة . أصاخ بسمعه فى لحظة من اللحظات الى قراءة الأب بائسى ، ثم أدركه التعب ، فاذا هو يتحدر شيئا فشيئا الى وسن هادى رقيق .

« وفي اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت ام يسوع

هناك . . . » *

« عرس ؟ ما العرس ؟ واثارت فى فكره زوبعة من الخواطر . هى أيضا سعيدة . . . ذهبت الى احتفال . . . لم تحمل الخنجر . . . ما كان ذلك منها الا قولاً طائشاً . . . يجب أن تغفر الأقوال الطائشة ، لأنها تهدى النفس . . . وبدونها يصح ألم الانسان أشد من أن يطاق . . .

غاب راكيتين فى شارع صغير ... لسوف يغيب فى شوارع صغيرة ما ظل
لا يفكر الا فى الاهدائات التى تناله هو ... أما الطريق فهى عريضة
لاعبة مشرقة مضيئة ... مستقيمة طاهرة ... نقية نقاء البلور ...
والشمس هى التى تسطع فى نهايتها ... ماذا يقرأ الآن ؟ »

« ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع له : ليس لهم خمر ... »

« ها ... نعم ، لم أتابع القراءة ، مع أننى كنت لا أحب أن تفوتنى
هذه الفقرة ، اننى أحبها كثيرا : عرس قانا ، المعجزة الأولى ... كانت.
تلك معجزة ، معجزة الهية ... لم يجرى يسوع للحزن ، بل للفرح
... أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى ... الذى يحب البشر ،
يجب فرحهم أيضا . » ... ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغير
انقطاع ... ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية ... لا يستطيع الانسان
أن يحيا بغير فرح ، كذلك يقول ميثا ... نعم يا ميثا ... كل ما هو
عظيم وجميل يشيع منه الفجران الشامل ... انه هو الذى كان يقول هذا
أيضا ... »

« ... قال يسوع :

« قال لها يسوع : مالى ولك يا امرأة ! لم تات ساعتي بعد . »

قالت امه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ! »

« افعلوا ... كان ذلك لفرح أناس فقراء ، فقراء مغمورين ، فقراء
جدا ، جدا ... لا شك أنهم كانوا فى فقر مدقع ما دام الخمر قد
أعوزهم حتى لمرس ... يؤكد المؤرخون أن الأهالى الذين كانوا
يعيشون فى ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفى المناطق المجاورة

لها كانوا أفقر الناس فى هذا العالم ... هذه امرأة عليا كانت فى العرس ، هى أم يسوع ، تسمر فى قلبها بأنه لم ينزل الى الارض الا لهدف واحد هو أن يقوم بتضحيتة الهائلة ، وأن نفسه قادرة على أن تشارك فى الفرح البسيط الساذج الذى يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر ، الذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذى لا تألق فيه . قال لها يسوع وهو يتسم ابتسامة رقيقة : « لم تأت ساعتى بعد » (لا شك أنه ابتسم فى تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعدوبتها) ... أجاه اذن الى الارض ليزيد الخمر فى أعراس الفقراء ؟ ومع ذلك لم يتردد ، ولبى رجاها ... »

« قال لهم يسوع املاوا الأجران ماء ، فملأوها الى فوق . ثم قال لهم استقوا الآن وقلموا الى رئيس السقاة فقدموا ، فلما ذاق رئيس السقاة الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هى بينما الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ، دعا العريس وقال له : كل انسان يضع الخمر الجيدة أولا فمتى سكروا وضغ الرديئة ، أما أنت فقد ابقيت الخمر الجيدة الى الآن . »

« ولكن ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة ؟ ... آ ... حقاً ... هو الزواج ... هذا عرس ... طبعاً ... هؤلاء هم المدعوون ... وهذان هما العريسان ، والجمهور الفرح ... ولكن أين هو اذن ذلك الساقى الحكيم جداً ؟ وهذا ، من هذا ؟ من هذا ؟ الغرفة تتسع مزيدا من الاتساع ... من ذا الذى ينهض على المائدة الكبرى هناك ؟ كيف هو ؟ أ يكون هو أيضا هنا ؟ ... كنت أحسب أنه فى تابوته ... بلى ! انه هو بعينه ... نهض ... رآنى ... ها هو ذا يقبل على ... رباة ! »

واقرب فعلاً من ألبوشا ، الشيخ الناحل المخدّد وجهه بفضون

صغيرة • كان فرحاً ، وكان يضحك ضحكا رقيقا حلواً • لقد اختفى الثابوت • والشيخ يرتدى الملابس التي كان يرتديها أمس أثناء ذلك الحديث الاخير مع أصدقائه • ان وجهه يشرق مودة ومجبة ، وان عينيه تلمعان • • كيف أمكن أن يكون هنا ، في هذه الحفلة ؟ أدعى اذن الى عرس قانا ؟ • كذلك تساءل أليوشا • فسمع صوتا لطيفا يقول له من فوقه ، صوتا ألف أليوشا أن يسمعه :

- نعم يا بني ، لقد دُعيت أنا أيضا ، دُعيت ونوديت • لماذا تختبئ في ذلك الركن ؟ لا يكاد يراك أحد • تعال ، وكن منا •••

هو صوته ، صوت الشيخ زوسيم • لا شك أنه الشيخ ، مادام يناديه • ومدَّ الشيخ يده الى أليوشا الراكع ، فنهض أليوشا • وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلا :

- ألا فلنبتهج ! لنشرب الخمر الجديد ••• انه خمر فرح جديد ، فرح عظيم جدا ••• هل ترى جميع هؤلاء المدعوين ؟ هذا هو الخطيب ، وهذه هي الخطيبة ، وهذا هو الساقى الحكيم جدا ، ينوق الخمر المدهشة • لماذا تنظر الى هكذا ؟ لقد وهبت بصلة فقبُلت في هذه الحفلة • كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا الا بصلة ، بصلة صغيرة جدا ••• كيف الأحوال عندنا ؟ أنت أيضا ، يا بني الطيب الوداع ، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائئة مسكينة • ابدأ مهمتك ، واجه عملك ، يا صغيرى اللطيف ! هل تراه هو ؟ هل ترى يسوع ، شمسنا ؟

مدم أليوشا يقول :

- أنا خائف ••• لا أجرؤ أن أنظر اليه •

- لا تخف منه • هو مخيف بعظمته التي ترفعه فوقنا ، هو مخيف

بالملو الذى هبط منه الينا ، ولكن لطفه لا نهاية له • لقد جعل نفسه شبيهاً بنا ، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا فرحتنا ، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف • وهو ينتظر مدعويين آخرين ، وما ينفك يدعو منهم المزيد الى الأبد • انظر • ها هم يجيئون بالخمير الجديد ، ها هم يحملون الأواني •••

كان قلب أليوشا يحترق احترافاً وقد امتلأ بفرح شديد يصاقب الألم ، وانبعست من عينيه دموع حماسة ••• ومدَّ ذراعيه ، وأطلق صرخة ، واستيقظ من نومه •••

التابوت ما يزال فى مكانه ، والنافذة ما تزال مفتوحة ؛ وصوت الأب بائسى ما يزال يُسمع وقورا هادئاً وهو يقرأ الانجيل ببطء • ولكن أليوشا لم يصغ اليه • كان قد نام على ركبتيه • والغريب أنه الآن واقف على قدميه • وها هو ذا يتقدم فجأة ، كأن قوة خفية تدفعه دفعا ، فإذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة ، حتى لقد لامس كف الأب بائسى دون أن يلحظ ذلك • رفع الأب بائسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة ، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته ، اذ أدرك أن الفتى كان فى حالة غريبة • وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة : تأمل التابوت ، تأمل المتوفى الساكن الذى غُطى وجهه ببرقع، ووُضعت بين يديه أيقونة ، ولُفَّعَ رأسه بقبعة يزيناها صليب ذو ثمانية أفرع • لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات ، وما يزال هذا الصوت يترجع فى أذنيه • ان أليوشا يصنى ويتنظر ••• أترأه يسمعه من جديد ؟ وفجأة ، استدار أليوشا وخرج من الغرفة •

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعا • كانت نفسه التى تطفح حماسة ، فى حاجة الى فضاء وحرية • هذه قبة السماء تملؤه ممتدة

فى جميع الجهات الى غير نهاية ، مزدحمةً بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً
 هائلاً . ان المجرة ، التى لا تكاد تُرى بعد ، تمتد من السميت الى الأفق .
 وان ليلة طرية هادئة صامتة ساجية ، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها .
 والأبراج البيضاء والقبة المذهبة من الكنائس تبرز على قاع لازوردى .
 وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة فى أحواضها التى تحف بالمنزل .
 ان سكونية الأرض تتحد بسكونية السماء ، وان سر الحياة والنجوم يرفرف
 على العالم ... تأمل أليوشا هذا المنظر ، فاذا هو يتهالك على الأرض
 فجأة كمن خارت قواه .

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الأرض ، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة
 الى أن يغمرها بالقبل . كان يقبلها باكياً ، فيرويها بدموعه ، خالفاً بكثير
 من الحماسة ليجنّبها على الدوام ، ليجنبها أبد الدهر ... « اسق الأرض
 دموع الفرح ، وأحب دموعك » ، كذلك قال له صوت فى أعماق نفسه .
 لماذا هذه العبرات ؟ كان أليوشا يبكى من الحماسة ، حتى لقد كان يبكى
 لهذه النجوم التى تنظر اليه من قرارة اللانهاية ، ولم « يكن يشعر بخجل
 من هذا الوجد الذى ملأ نفسه » . ان الصلات الخفية التى تشده الى
 هذه العوالم البعيدة ، كانت تهتز عندئذ فى قلبه ، وكان يطير فرحاً من
 شعوره بنشوء « هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى » فى نفسه . كان
 يشتهى أن يغفر كل شيء لجميع الناس ، وأن يستغفر أيضاً لا لنفسه
 وحدها بل لجميع الناس ، وعن كل شيء . ومرة أخرى قال صوت فى
 أعماق نفسه : « ان آخرين سيسألون لى اللطف » . وشعر فى الوقت
 نفسه بأحاساس واضح جدا ، إحساس يشبه أن يكون جسماً ، أن
 تفحة قوية خالدة كانت تهبط من قبة السماء ، وتحتاج كيانه كله شيئاً
 بعد ، شيء ، كفكرة تبزغ فى روحه لتحكمها الى الأبد . كان أليوشا قد
 سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً ، ولكنه حين نهض الآن أحس بأنه

مناضل جسور على مدى ما بقى له من أيام فى هذه الحياة • واختلط
وعيه لهذا التبدل المفاجئ الذى وقع له ، اختلط بحماسه ، فاذا هو فى
حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة فى يوم من الايام • وقد ظل
يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق « أن أحداً قد زار نفسه فى تلك اللحظة » •
وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذى
« أرسله الى العالم » •

الباب الثامن ميتيا

١ كوزما سامسونوف



دمترى فيدوروفتش الذى « أمرت » جروشكا ،
وهى تطير نحو حياة جديدة ، بأن يبلّغ
سلاماً أخيراً ، مع المطالبة بأن يحفظ الى الأبد
ذكرى ساعة قصيرة من حبٍ وهبته له ، كان
يجتاز هو أيضاً ، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة ، كان يجتاز
فترة عصية من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب • انه يعيش منذ
يومين فى حالة نفسية لا سبيل الى وصفها ، حتى ليكاد يصاب باحتقان فى
الدماغ على حد التعبير الذى استعمله هو فيما بعد • لم يستطع ألبوشا أن
يهتدى اليه وأن يعثر عليه حين بحث عنه فى الصباح ؛ ولا هو جاء بعد
ذلك بقليل الى الموعد الذى كان قد ضربه لأخيه إيفان فى الكاباريه •
وقد صمت أصحاب الدار التى كان يقيم فيها ، نزولاً على ارادته وتنفيذاً
لأوامره • وظل هو خلال يومين يضرب فى الارض على غير هدى وبغير
راحة « مصارعاً قدره ساعياً الى خلاصه » ، كما صرّح بذلك فيما بعد •
حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل ، رغم أنه كان
يرى أن الابتعاد فى مثل هذه اللحظة وترك جروشكا بلا رقابة أمرٌ

رهيب • سوف تذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل ، وحسبى الآن أن أسرد أهم وقائع هذين اليومين الرهيبيين ، هذين اليومين الأخيرين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القاسى المفاجئ •

صحح أن جروشكا قد أحبه خلال ساعة من الزمان حباً صادقاً ولكنها فى مقابل ذلك قد عذبه مرارا بقسوة لا رحمة فيها • وأنكى ما فى الامر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحاً • ولم يكن له أى أمل فى أن يكشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة • ولو قد حاول ذلك لعانده فى جميع الاحوال ولتركه غاضبة حائرة • كان هو يشعر بذلك شعوراً كاملاً • وكان يدرك أنها تتجاوز هى نفسها فى تلك الساعة أزمة عصية وأنها تتخبط فى حيرة شديدة ، فهى توشك أن تعزم أمرها دائماً ثم تتردد كل مرة فى آخر لحظة ؛ وكان يقدر - وليس يخلو تقديره هذا من حق - أنها كانت فى بعض الأحيان تكرمه وتكره غرامه بها • لعله لم يكن مخطئاً فى هذا ، ولكن السبب الحقيقى للقلق الذى تعانیه جروشكا كان يفوته • وكانت المسألة التى تعذبه انما تترد فى الواقع الى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما : « اما هو ميتاً ، واما فيدور بافلوفتش . » • وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية: كان ميتاً مقتنماً اقتناعاً مطلقاً بأن فيدور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج جروشكا (ولعله عرض عليها ذلك) ، وكان لا يتخيل فى لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل الى تحقيق أغراضه دون أن يصحى بشيء الا ثلاثة آلاف روبل • هكذا كان يفكر دمتري على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشكا • لذلك كان من الممكن أن يقدر أن ما تعانیه المرأة الشابة من قلق وتردد انما يرجع الى أنها لا تدرى من تختار منهما ، جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى عليها • أما:

أن يعود فى القريب ذلك « الضابط » ، ذلك الرجل المشؤم الذى احتل هذا المكان كله فى حياة جروشكا والذى كانت جروشكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من نفاذ الصبر وشدة الخوف ، فان دمترى لم يخطر بباله هذا الامر مرة واحدة خلال تلك الأيام ، مهما يد ذلك غريبا . صحيح أن جروشكا أصبحت منذ زمن طويل لا تكلمه فى هذا الامر ، ولكن دمترى كان يعلم أن صاحب جروشكا قد كتب اليها ، لأنها أطلعتة على الرسالة التى تلقتها منه منذ شهر ، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة . لقد أطلعت جروشكا على الرسالة بدافع القسوة ، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أى اهتمام فى أول الامر ، ولا اكثرت لها . انه لمن العسير أن تشرح السبب الذى جعل دمترى لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيراً . لعل ذلك يرجع ، ببساطة ، الى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاء أعظم من ذلك الشقاء ، فى تلك الفترة على الأقل . أضف الى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين ، وأنه كان لا يصدق خاصة أن يعود قريباً . هذا الى أن رسالة « الضابط » لم تتضمن اشارة الى مجيئه الا بكلمات غامضة : لقد كانت الرسالة لا تحتوى الا أموراً عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية . يجب أن نذكر أن جروشكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التى يشير فيها كاتب الرسالة الى عودته القريبة بشئ من الوضوح . وكان دمترى يتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن المرأة الشابة ، حين أطلعت على الرسالة ، قد أظهرت على غير ارادة منها احتقارها للرجل الذى كتب اليها الرسالة من أقاصى سيبيريا . ولم تفض جروشكا الى دمترى بعد ذلك بأى شئ عن الاتصالات التى تمت بينها وبين ذلك الرجل ، الى أن نسي دمترى

وجوده شيئاً بعد شيء . فكان لا يشغله الا اعتقاده بان الصراع الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر ، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أى حال من الأحوال قبل سائر المسائل . وكان ينتظر على أحر من الجمر قلماً ، أن تتخذ جروشكا قرارها من دقيقة الى دقيقة ، وكان يقدر انها ستخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي أو الالهام ، فتقول له ذات يوم : « خذنى ، أنا لك الى الأبد » ، وينتهى كل شيء ، فيقبض عندئذ عليها ، ويمضى بها الى آخر العالم . نعم ... ليأخذنها عندئذ فوراً الى أبعد مكان ممكن ، ليأخذنها الى أقصى روسيا ان لم يأخذها الى أقصى الأرض ؟ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولين لا يعرفهما أحد ، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك . وسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة ! كذلك كان دمترى لاينى يحلم متحمساً بالحياة الجديدة ، الحياة « الفاضلة » (الفاضلة خاصة) . لقد كان فى ظمأ شديد الى هذا التجديد ، الى هذا الانبعاث ، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحماة الحقيرة التى تردى اليها وغاص فيها بارادته ؟ وكان ، ككثير من الرجال فى مثل هذه الحالة ، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة : فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش فى هذا الوسط بعد الآن . كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها ، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة . ذلك كان أمله ، والى هذه الغاية انما كانت تنجه أحلامه نافذة الصبر .

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق الا اذا اتخذت جروشكا القرار الأول ، القرار السعيد التى تختاره فيه من دون أبيه . وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشكا ، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق ، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة : « اغرب عنى الآن ، فلقد اتفقت مع فيدور بافلوفتش اتفاقاً نهائياً وقررت أن أتزوج ،

فلا حاجة بى اليك بعد اليوم * ، * ففى هذه الحالة * * * فى هذه الحالة * * * لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذ ، ولقد ظل لا يعرف ذلك الى آخر دقيقة * * * علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئة له * انه لم يعقد نيته على شئ * ، ولم يفكر فى ارتكاب جريمة * كان لا يزيد على أن يراقب ويترصد ويترصد ويتجسس ، ويتعذب بنفسه انقطاع ، ولكنه لا يتصور الا الحل الأول ، ولا يتبأ الا بالخاتمة السعيدة ، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى * على أن هناك صعوبة أخرى كانت تتجسس عندئذ وتجعله قلقاً مهموماً مهموماً ؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة فى طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد ، عقبة خارجية طبعاً ، ولكنها عقبة رهية يستحيل تذليلها على كل حال .

هب جروشنكا قالت له : « أنا لك ، خذنى » ، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها ؟ أين يجد المال اللازم للسفر ؟ ان الأموال التى هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش قد نفدت نفاذاً تاماً . صحيح أن جروشنكا تملك مالاً ، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ فى نفسه ، كبرياء عنيفة لا تشنى ولا تلين . لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل ، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله ، ويرفض أن يعيش عائلة عليها . كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً ، وكان اذا تصور ذلك يبلغ من شدة الألم حداً الاشتزاز من نفسه . لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية ولا أن أحللها ، وحسبى أن أقرر ان هذه كانت عاطفته ، وان هذا كان شعوره . جائز جداً أن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه ، على غير شعور منه ، ما قاساه ضميره من عذاب خفى منذ أن استولى على المبلغ الذى ائتمنته عليه كاترين ايغانوفنا . لقد كان دمتري يقول لنفسه فى بعض الأحيان ، كما اعترف بهذا فيما بعد : « أنا وغد حقير فى نظر

الأولى ، وسأصبح وغداً حقيراً فى نظر الثانية • اذا علمت جروشنكا بالأمر ، فلن ترضى بنذل مثلى • • ولكن أين عساه يجد المال اللازم بحالة هذه ؟ أين عساه يجد المال الذى يحتاج اليه هذا الاحتياج الفاجع كله ، والذى بدونه سيتعرض كل شئ للخطر ، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أى هدف ؟ • أكل هذا بسبب مسألة مالية حقيرة ؟ آه ... يا للشقاء ! • •

سأستبق الآن القصة فأشير الى أن مترى ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ ، وربما كان لا يجهل فى أى مكان يوجد هذا المبلغ • ولكن أدخل الآن فى سرد التفاصيل التى ستعرض فى حينها • غير أننى سأبين ، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافياً (ولكن لا ضير !) ، ماذا كانت الصعوبة الكبرى فى نظره : لقد كان يرى أن عليه ، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ فى مكان ما ، حتى يكون « من حقه » أن يستولى على هذا المبلغ ، كان يرى أن عليه أولاً أن يردّ الثلاثة آلاف روبل التى يدين بها لكاترين ايفانوفنا • « والا لم أكن الا سارقاً صغيراً ، الا لصاً حقيراً ، وسيستحيل علىّ عندئذ أن أبدأ حياة جديدة » • كذلك كان يقول ميتيا لنفسه ، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب اذا لزم الأمر ، من أجل أن يستطيع ردّ المبلغ الى كاترين ايفانوفنا • وقد اختمر هذا القرار فى نفسه فى الأيام الأخيرة ، أثناء الساعات التى أعقبت لقاءه نايوشا فى الطريق ، بعد أن علم من أخيه بأمر الاهانة التى ألحقتها جروشنكا بكاترين ايفانوفنا ، فهتف يقول : « قل هذا عن لسانى لكاترين ايفانوفنا اذا كان ذلك يمكن أن يهدى روعها • • ولقد شعر أثناء تلك الليلة ، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد ، « بأنه يحسن صنعاً اذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه فى سبيل أن يرد الى كاتيا مالها » • قال يخاطب عندئذ نفسه : « ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً فى نظر ضحيتى وفى

نظر جميع الناس ، ألا فلاُرسَل الى سجون الأشغال الشاقة بسيريا ،
 فى سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عنى اننى لم أخنها فحسب ، وانما
 سرقها أيضا و سطوت على مالها لأهرب مع جروشكا وأبدأ بذلك حياة
 جديدة . لا أطيق أن تقول عنى كاتيا هذا الكلام ! . . ذلك ما كان
 يحدث به ميتا نفسه وهو يركز أسنانه ، وكان من حقه فعلاً أن يخشى
 أن يصاب باحتقان فى دماغه . ولكنه كان ، حتى تلك اللحظة على الأقل ،
 ما يزال يكافح . . .

والأمر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهدف الذى
 يسعى اليه لا يمكن تحقيقه وانه لم يبق له الا أن يأس ، فمن أين يمكنه
 الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو يتخبط منذ الآن فى
 فقر مدقع وبؤس أسود . ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية ، واثقاً من
 أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا ، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه
 من السماء عند الحاجة . فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين
 لم يعرفوا فى حياتهم الا تبديد ما ورثوا ، مثل دمترى ، والذين يجهلون
 كل شيء عن طريقة جنى الرزق وتحصيل المال . ان مشاريع خيالية
 عجيبة تغل وتغور فى ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين ، وقد اختلطت
 فى عقله أبسط المعانى واضطربت أيسر الأفكار ، فبدأ مساعيه بمشروع
 هو أسخف ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع . ومن الجائز على
 كل حال أن تكون أشد الأفكار شفوذاً وأكثرها اغراباً وأعقمها ايضاً
 فى عالم الأوهام هى التى تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من
 نوعه فى ظروف كظروفه ، وتبدو لهم سهلة التحقيق . لقد قرر دمترى
 أن يذهب الى التاجر سامسونوف ، حامى جروشكا ، ليعرض عليه
 « صفقة » ، ويحصل منه فوراً على الثلاثة آلاف روبل سلفة على الربيع .
 كان دمترى لا يخافه شك فى قيمة مشروعه من الناحية التجارية ،

وانما كان يتساءل كيف عسى يستقبله المعجوز • وكان دمترى يعرف المعجوز وجهاً ، ولكنه لم يكلمه يوماً حتى ذلك الحين • وكان مقتنماً منذ زمن طويل ، على كل حال ، سواء أكان اقتناعه هذا خطأ أم صواباً ، بأن هذا المعجوز الفاسق الذى وضع إحدى قدميه فى القبر منذ الآن ، لن يعارض فى أن تبنى جروشكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل « يستحق الثقة » • كان يقول لنفسه : « أغلب الظن أن المعجوز لن يرى أى خير فى هذا ، بل لعله يتمناه ويساعد فى تحقيقه اذا عرضت الفرصة • » • وكان يعتقد أيضاً ، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشكا ، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة فى المستقبل • ربما كان بعض قرائى يرون أن حساباً كهذا الحساب من جانب دمترى ، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدي حاميه ان صح التعبير ، يدلان على أن دمترى فيدوروفتش يفقر الى رقة الشعور وأناقة السلوك افتقاراً شديداً ، وأنه امرؤ تخلو نفسه من وساوس الضمير خلواً عجيباً • ولكننى أجب على هذا بقولى ان ميتيا كان يرى أن ماضى جروشكا قد دُفن الى الأبد • لقد كان شقاؤه وسقوطه يوقظان فى نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها • لقد دفعته حرارة الهوى الى الاعتقاد بأن جروشكا ستبعث بعثاً جديداً وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه ، وأنه سيُبعث هو نفسه بعثاً جديداً ، فيكون فى وسعهما كليهما أن يبدعا حياة مبرأة من كل اثم ، حياةً كلُّها فضيلة : لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطائه ، ويعيشان حياةً جديدة كل الجدة • أما كوزما سامسونوف فكان دمترى يرى أنه قد لعب فى حياة جروشكا ابان صباها دوراً مشؤماً و لاشك ، وأنه لم يحبها على كل حال ، ولكن دمترى كان يرى أيضاً أن كوزما – وهذا هو الأمر الأساسى – قد « انقضى » هو أيضاً ، فلا يُحسب بعد الآن •

أضف الى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيراً في اللحظة الراهنة أن يرى في هذا المعجوز رجلاً ، فلقد كان معلوماً في المدينة أن كوزما ليس اليوم الا خرقه بالية ، وكان الناس لا يجهلون أنه لم يبق له بجروشنكا الا علاقات أبوية ان صح التعبير ، وذلك منذ زمن غير قصير ، منذ ما يقرب من عام . صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة ، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه . وكذلك كان يظن لبساطته أن المعجوز كوزما الذى يشعر بأنه يوشك أن ييارح هذا العالم كان يحسن بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؛ وأن جروشنكا ليس لها في هذا العالم في هذه اللحظة صديق أشد اخلاصاً وأكثر تنزهاً من هذا المعجوز الذى أصبح الآن لا يُخشى منه أذى .

ففى غداة الحديث الذى جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق ، ذهب ميتيا الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ، ذهب الى منزل سامسونوف فى الساعة العاشرة من الصباح ، وأعلن عن نفسه . المنزل مبنى حزين المظهر ، عظيم الاتساع ، له طابق فوق الطابق الأرضى ، وله ملحقات كثيرة وجناح فى الفناء . ان الطابق الأرضى يسكنه ابنا التاجر المتزوجان ، وأخته . لطاعة فى السن ، وابنته التى لم تتزوج . أما الجناح الذى فى الفناء فيسكنه اثنان من مستخدمييه فى تجارته ، أحدهما ذو عائلة كبيرة . ان أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم ، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده ، الذى كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته . ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتنى به وترعاه ، وكان عليها ، فى ساعة محددة ، وكلما ناداها ، أن تذهب اليه وأن تصعد السلم رغم مرض الربو الذى تشكو منه منذ زمن طويل . ان الطابق الأعلى الذى يسكنه المعجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة ، مؤتة على الطراز الذى كان يحبه التجار فى الماضى ، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد

متشابهة ثقيلة من خشب الأكاجو ، وعلقت في سقوفها ثريات من الكريستال مجللة بأغطية ، ووضعت في زواياها مرايا قاتمة . ان هذه الحجرات خالية من السكان الآن ، لأن العجوز المريض أصبح لا يفادر غرفة نومه الصغيرة التي تقع في آخر البيت والتي تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمنديل ، و « صبي » ينام على دكة في الدهليز . وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تيجان له أن يمشي ، فهو يكتفى بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادم العجوز من حين الى حين ليسير بضع خطوات في الغرفة . وهو قاسى الطبع متجهم المزاج لا يتكلم الا قليلاً حتى مع هذه الخادم .

فلما أبلغ زيارة « الكاتين » ، رفض أن يستقبله في أول الأمر ؛ ولكن ميتيا ألح أن يراه ، فسأل العجوز الصبي هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى الى فضيحة . فقال الغلام :

— لا ... ما هو بسكران ، ولكنه لا يريد أن ينصرف .

فرفض العجوز مرة أخرى أن يفتح بابه . ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه ولم يذهب صبره ، لأنه كان قد تنبأ بالأمر ، وتزود سلفاً بقلم وورقة . فها هو ذا يكتب على الورقة « أن القضية قضية مستعجلة تصل بأجرافين ألكسندروفنا من كتب » ، ويرسل الورقة الى لتاجر العجوز . فكّر سامسونوف بضع لحظات ، ثم أمر الصبي بادخال الزائر الى الصالون ، وأسرع يرسل الخادم العجوز في الوقت نفسه الى ابنه الأصغر آمراً اياه أن يصعد اليه فوراً ، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة . انه رجل طويل القامة عريض الجسم قوى قوة هرقلية ، حليق اللحية يرتدى الزى الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدى قفطاناً وكانت له لحية) . ان جميع أفراد الأسرة يرتدون

خوفاً أمام الأب • ولقد استدعى العجوز ابنه القوي هذا لا خوفاً من الكابتن ، فانه لا تموزه الشجاعة ، ولكن ليكون هنالك شاهد • ذا لزم أن يكون هناك شاهد • وهما هو ذا يتسند على ابنه وعلى الصبي فيظهر أخيراً في عتبة الصالون كتلة مائجة • وربما كان ينبغي أن نسلّم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول •

ان الصالون الذي كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحلة ، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويهبط النفس للحزن ، وهي مزودة بثلاث ثريات كبيرة مجللة بأغطية ، وسماط من اللوحات تصطف في القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلد المرمر • كان ميتيا جالساً على كرسي قرب الباب ينتظر أن يتقرر مصيره وهو في حالة عصية شديدة • فلما ظهر العجوز في الباب المقابل له على مسافة عشرين متراً ، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هي خطى جندي • لقد كان حسن الهندام ، يرتدى ردنجوتاً معقود الأزرار ، ويحمل بيديه قبة مدوّرة ، ويلبس قفازين سوداوين ، تماماً كما كان قبل ثلاثة أيام في الدير عند الشيخ أثناء لقائه بفيودور بافلوفتش وأخويه • انتظروه العجوز واقفاً ، رصين المظهر وقور الهيئة ، وشعر ميتيا حين اقترّب منه أنه كان يفرس فيه ويفحصه بانتباه • وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزميتش من تورم شديد منذ زمن • ان شفة كوزما السفلى ، وهي شفة سميكّة ، تدلى الآن تدلياً • انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتاً رصيناً ، وأشار له الى مقعد أمام كنية جلس عليها هو بهالك بطيء مستندا الى ابنه مطلقاً من صدره بعض الأثين • فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التي يبذلها العجوز ، بمذاب الضمير من أنه ، وهو الشاب التافه ، قد أجاز لنفسه أن يزجج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة •

قال المجوز أخيرا بعد أن استقر على الكنية :

- ماذا تريد يا سيدى ؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطيء قاس ، مجزئاً مقاطع كلماته ، ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة .

ارتعش ميتا ، وأراد أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس فورا ، وبدأ شروحه متكلما بسرعة كبيرة وعصية شديدة ، مكثرا من الحركات والاشارات ، لأنه كان فى حالة احتياج عظيم . فمن رآه أحس أنه أمام رجل اندفع الى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقى نفسه فى الماء اذا أخفق . ولا شك أن المجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة ، ولكن وجهه ظل بارداً هادئاً رصيناً مغلقاً كأنه وجه تمثال .

- لا شك أن كوزما كوزميتش المحترم جدا قد سمع عن منازعاتى مع أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف الذى سلبنى ميراثى من أمى المرحومة ... ان المدينة كلها تلفظ فى هذا الأمر منذ زمن طويل ، لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهى أن يهتموا بما لا يعينهم .. ولا شك أنك علمت من جروشنكا - معذرة - أردت أن أقول أجرافين ألكسندروفنا التى أحترمها وأبجلها الى غير حد ...

بهذه الكلمات بدأ ميتا حديثه ، ثم لم يلبث أن اضطرب . على أننى لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة ، وحسبى أن ألخص مضمونها الأساسى . اليكم ما ذكره دمترى : لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محامياً من البندر (كان ميتا يعتمد أن يستعمل فى شروحه تعابير رائجة فى البيئة التى ينتمى اليها سامسونوف) . قال :

- ذهبت الى بافل بافلوفتش كورنيلودوف الشهير الذى لملك

تعرفه يا كوزما كوزميتش ... هو انسان عريض الجبهة ... له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة ... انه يعرفك أيضا ... وقد أنشئ عليه ثناءً عظيماً ...

هنا اضطرب ميتيا من جديد وأرتج عليه . ولكنه كان يثوب الى نفسه في كل مرة ، منتقلاً الى فكرة جديدة بدون تدرج . عاد يقول ان كورنييلودوف هذا ، بعد أن أصفى الى شروح ميتيا ، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة ، وانما هو مرّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً ، رأى ، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا ، وهي القرية التي كان يجب أن تثول اليه مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي الا سبعة عشر ألف على العجوز النذل ، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب ... » لأن جميع الطرق ليست مسدودة ، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي تؤدي الى الهدف ، ؛ أى أن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل الى عشرة آلاف روبل من قبيل التعويض ، لأن تشرماشنيا تساوى في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل ، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً .

- ثلاثون ألف روبل ، ثلاثون ألف روبل يا كوزما كوزميتش ، مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي الا سبعة عشر ألف روبل ، تصور ! ولكنني أثرت أن لا أرفع دعوى ، لأنني لا أفهم في شئون المخاصمات شيئاً ... فلما وصلت الى هذه المدينة رأيتني ألاحق وأطارّد (هنا اضطرب ميتيا أيضاً وأسرع يقفز الى موضوع آخر) ... هل تقبل ، في هذه الشروط ، يا كوزما كوزميتش المحترم ، أن أتنازل لك عن جميع حقوقى عند هذا الشيطان الرجيم ، على أن تدفع لى فى مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب ؟ ... انك لا تجازف بشئ على

الاطلاق ، أؤكد لك ذلك صادقاً ، وأحلف لك عليه بشرفى ...
 بالعكس : لسوف تُردُّ اليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة ... وانما
 المهم أن تم هذه الصفقة كلها ، اليوم ، . اننى مستعد لأن أوقع عقداً
 مسجلاً لدى الكاتب بالعدل ، أو شيئاً من هذا القيل ... أى اننى
 مستعد لكل شيء ... أعطيك الأوراق التى ستحتاج اليها ، وأتنازل لك
 عن جميع الحقوق التى تريدها ... نبرم العقد فوراً ، فى هذا الصباح
 ان أمكن ، اذا كنت تستطيع ذلك ... ثم تعطينى الثلاثة آلاف روبل ...
 أنت الذى تمد أغنى رجل فى هذه المدينة ... وبذلك تقذنى وتهب
 لى فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيل جداً فى الواقع ... فانتى
 أضمر عواطف رقيقة لانسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية
 الأب ابنته ؟ وما كان لى أن أجيء اليك لولا علمى بأنك قد أصبحت لها
 بمثابة الأب حقاً . واذا شئت الدقة فى التعبير وجب أن نقول ان رجلاً
 ثلاثة يتصادمون هنا ، لأن القدر قوة هائلة رهبة يا كوزما كوزميتش .
 فلنكن واقعيين يا كوزما كوزميتش ، ولكن واقعيين ! واذا انك أصبحت منذ
 زمن طويل لا تُحسب فى عداد المتصادمين ، فلم يبق هنا لك الا خصمان
 يتنازعان . اننى أعبر عما بنفسى تميراً أخرق ، أنا أعرف ذلك ، ولكننى
 لست بأديب . المهم أنه لم يبق هنالك الا أنا من جهة ، وذلك الشيطان
 الرجيم من جهة أخرى . فاختر الآن : أختارنى أنا أم تختار ذلك
 الشيطان ؟ كل شيء متوقف عليك منذ الآن . انك تملك فى يديك
 مصائر ثلاثة أشخاص ، وعليك أنت أن ترمى النرد فتفصل فى الأمر ...
 اعذرني اذا رأيتنى أرتبك ولا أحسن التعبير : ولكنك ستفهمنى ولا شك .
 اننى أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمنى ، فان لم تفهمنى
 فلن يبق لى الا أن ألقى نفسى فى الماء ، هذا هو الأمر ...
 قطع ميتاً حديثه الغريب المدهش فجأة بعد أن نطق بجملته

السخيفة تلك : « هذا هو الأمر » ، ونهض عن مكانه بوثة واحدة ينتظر الردَّ على عرضه المضحك . لقد أحس على حين بفته وهو يختم تلك الجملة ، أن كل شيء قد ضاع الى غير رجعة ، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى . قال يحدث نفسه مضطرباً مرتبكاً متحيراً « غريب ! كنت حين وصولي أحسُّ أن الفكرة رائة ، فإذا هي لا تسفر في النهاية الا عن غباء ، وكان المجوز أثناء تدفق ميتيا في الكلام ، يحافظ على هدوء وضعه ، ويلاحظ محدثه وقد لاح في عينيه تعبير بارد برودة الثلج . فلما أنهى ميتيا كلامه ، جعله المجوز ينتظر الجواب دقيقة ، ثم قال له بلهجة حازمة موثثة :

— متأسف يا سيدى ! اننى لا أتعاطى أعمالاً من هذا النوع .
أحس ميتيا بساقيه تشنجان ! وتتم يقول وهو يتسم ابتسامة يرى لها :

— ولكن يا كوزما كوزميتش ، ما عسى أصير اليه في مثل هذه الحالة ؟ لقد هلكتُ اذن ، ألا تصدق ذلك ؟
— آسف ...

لبث ميتيا جامداً ساكن النظر ، ولكنه لاحظ عندئذ شيئاً من الانفراج في عضلات وجه سامسونوف ، فارتش وعادوه الأمل فجأة .
قال المجوز :

— أنا يا سيدى لم أعود تعاطى أعمال كهذه ، فانتى أكره الدعاوى وأمقت المحامين ... ومع ذلك فى وسعنى أن أدلك ، اذا شئت ، على شخص يمكنك أن تتجه اليه وتكل عليه ...
قدمم ميتيا يقول :

— من هو ؟ آه ... يا رب ! انك تردُّ الى الحياة يا كوزما كوزميتش !

- ليس هذا الرجل من هنا ، وليس يقيم الآن فى هذه المدينة أيضا .
انه فلاح يتعاطى تجارة الخشب . اسمه لياجافى . وهو يتفاوض منذ
سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الأشجار التى آن قطعها فى قرينك
تلك نفسها تشرمانشيا ، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما لعلك تعلم ذلك .
وقد جاء الى المنطقة من جديد ، وهو يسكن الآن عند القس ايلنسكى فى
قرية ايلنسكى التى تبعد اثنى عشر فرسخا عن محطة فولوفا . وقد كتب
الى فى موضوع الأشجار هذه مستصحاً . وأحسب من جهة أخرى أن
فيدور بافلوفتش يعتزم الذهاب اليه . فاذا أنذرت فيدور بافلوفتش
وعرضت على لياجافى ما عرضته على الآن ، فمن الجائز أن ...

فقاطعه ميتيا قائلا بحماسة :

- ولكن هذه فكرة عبقرية ! ذلك هو الرجل الذى أنا فى حاجة
اليه ؟ هذه الصفقة صفقته ! انه يساوم على السعر ، ويطلب منه مبلغ
باهظ نمنا لأشجار يقطعها ، فاذا هو يجد بين يديه أوراقا تجعله مالكا
للمنطقة بأسرها ! هاهاها ! ...

انفجر ميتيا بضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن فى
حسبان العجوز ، فلم يملك العجوز الا أن يرتعش قليلا .
واستأنف ميتيا كلامه قائلا وهو يغلى ويفور أملا :
- كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزميتش ؟
فقال سامسونوف وهو يحنى رأسه :
- لا داعى الى الشكر .

- أوه ! انك لا تعلم ... لقد أنقذتني من اليأس ... قلبي هو الذي هداني اليك ... والآن ، الى ذلك القس !

- لا داعي الى الشكر .

- انتنى ذاهب الى هناك ! سأركض الى هناك ركضاً ! لقد أسرفت في الاستفادة من لطفك وذوقك وكياستك ، بينما أنت مريض موجع ... أوه ! لن أنسى جميلك ما حييت . ان روسياً هو الذي يمدك بذلك ، رو ... سيأ ...

- طيب .

أراد ميتا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شاكراً ممتناً ، ولكنه لاحظ وميضاً خفيفاً في عيني العجوز في تلك اللحظة ، فأمسك فوراً ، وأرخى يده ، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه ، وقال لنفسه : « لا بد أن يكون متعباً ... » ، وهتف يقول بصوت مدور :

- هذا من أجلها يا كوزما كوزميتش ، هذا في سييلها !

ثم جثاً العجوز بانحناء ، واستدار ، واتجه نحو الباب بخطى واسعة دون أن يلتفت بعد ذلك . كان ينبض حماسة . قال لنفسه : « ظننت أن كل شيء قد ضاع . ولكن ملاكي الحارس أنقذني . فحين يدلني رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أبطل نفسه ، وما أعظم مهابته !) ، فمعنى ذلك أنني ربحت القضية ... ما ينبغي أن أضيع دقيقة واحدة . سأذهب الى هناك حالاً . ثم أعود قبل الليل ... نعم قبل الليل . آه ... أصبح الأمر في جيبي ! ذلك أن العجوز لا يمكن أن يكون قد سخر مني على كل حال ! » . بذلك كان ميتا يحدث نفسه وهو يتجه الى بيته . ولم يكن يمكنه في الواقع أن يتصور الا أحد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن المسألة مسألة حل مضمون يوصى به رجل

له خبرة سامسونوف الذى كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافى هذا - يا له من اسم غريب ! - واما أن المعجوز قد سخر منه وضحك عليه ! والحق أن هذا الافتراض الثانى كان هو الصحيح . لقد ظل المعجوز سامسونوف زمناً طويلاً بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبّر مكيده لهذا « الكابتن » . ان سامسونوف انسان سىء الطوية قاسى القلب ساخر النفس ، كثيراً ما يخالط الكره فى نفسه مرض . ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحما عظيمة واعتقاد ساذج بأنه ، هو سامسونوف ، يمكن أن تتطلى عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن رأس محموم و « سلة مقوية » من هذا النوع ؟ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنيكا التى جاء هذا « الولد الطائش الفاجر » يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك ؟ لا أدرى أى الدافعين فعل فى نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعرا باثاء ساقيه هاتفا فى غناء أنه هلك ! المهم أن سامسونوف انما ألقى عليه فى تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه .

وما ان انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزميتش الى ابنه ، وقد شحب لونه من شدة الغضب ، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرث أن يظهر فى منزله مرة أخرى فى المستقبل وأن لا يسمح له بدخول الغناء ، والا ...

ولم يكمل كوزما كوزميتش تهديده ، ولكن ابنه ارتعد خوفاً ، رغم أنه سبق أن رآه غاضباً مرات كثيرة . وظل المعجوز بعد ذلك ساعة كاملة فريسةً حقن شديد يرتش منه جسمه كله . حتى اذا جاء المساء أحسَّ بألم ووهن ، فنادى الممرض الذى يجerce أوديته .

٢ لياجافي



كذلك كان يردد ميتا على نفسه • ولكنه لم يكن قد بقي معه مال لاستجار خيول • ان في جيبه بضعة قروش ، فذلك كل ما بقي له من سني التراء التي عاشها ! لكنه تذكر أن عنده في البيت ساعة قديمة من فضة ، متعطلة منذ زمن طويل • فحملها الى تاجر ساعات يهودي ، له دكان قرب السوق ، فاشتراها منه هذا التاجر بستة روبلات • هتف ميتا يقول لنفسه متحمسا : « لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله ! » (أصبحت حماسة ميتا لا تقتر !) ، وعاد الى مسكنه بالمبلغ مسرعا ، وأكملة باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التي يقيم فيها • ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين ، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم في عسر ، وذلك لأنهم يحبونه كثيرا • وأبلغهم ميتا ، وهو على ما هو عليه من فرح طافح ، أن مصيره سيتقرر ، وشرح لهم ، بضع كلمات سريعة جداً ، « الخططة » التي عرضها على سامسونوف والقرار الذي اتخذه سامسونوف ، والآمال التي أشرقت في نفسه ، الخ • وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسرارها ، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يمدونه واحدا منهم ، فهو « سيد » لا يتكبر ولا يتعالى • فلما أن جمع ميتا تسعة روبلات على هذا النحو ، أمر بخيول

للسفر الى فولوفيا • ولكن هذا أَلَفَ واقعة ثابتة ستُذكر فيما بعد :
 « في عشية الحادثة ، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً ، حتى لقد اضطر ،
 من أجل الحصول على شيء من المال ، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة
 روبلات من أصحاب الدار ، وذلك كله تشهد به شهود • • •
 اننى أذكر هنا هذا الظرف الذى لن تظهر خطورة شأنه الا فيما

بعد •

كان ميتيا ، أثناء انطلاق الخيول به الى فولوفيا بسرعة ، مشرق
 الآمال متهلل النفس • كان يتنبأ فرحاً بأن « جميع هذه الشئون »
 ستسوى أخيراً • ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفاً فى بعض اللحظات
 حين يتساءل ما عسى تصير اليه جروشنكا أثناء غيابه • مهيا قررت فى
 ذلك المساء نفسه أن تذهب الى فيدور بافلوفتش ؟ انه بسبب هذا
 الافتراض انما قرر أن لا ينشأ بأمر سفره ، كما أنه أمر أصحاب داره أن
 لا يكشفوا لأحد عن المكان الذى سافر اليه اذا هم سئلوا عن ذلك • « يجب
 أن أعود قبل هبوط الليل ، مهما كلف الأمر ، مهما كلف الأمر » •
 كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به الى فولوفيا مسرعة
 وتهزه هزاً قوياً • وكان يحدث نفسه أثناء تعجله المحموم هذا قائلاً :
 « أما لياجافى هذا ، فسوف أعود به معى ، لابرام العقد » • ولكن حلمه
 لن يتحقق على ما رسم له من « خطط » وا أسفاه !

فهو أولاً قد وصل متأخراً ، لأنه سلك ، ابتداء من فولوفيا ،
 طريقاً من الطرق التى تصل بين القرى الصغيرة ، فلم يقطع اثني عشر
 فرسخاً بل ثمانية عشر • ثم ان القس ايلنسكى لم يكن فى بيته لأنه كان
 قد ذهب الى ضيعة مجاورة • فلما عثر عليه ميتيا أخيراً فى تلك الضيعة
 التى تابع طريقه اليها بخيوله المكدودة المنهكة ، كان الليل قد أوشك
 أن يهبط • وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن ، وهو رجل لطيف خجول

المظهر ، أن لياجافى قد نزل عنده فعلاً فى أول الأمر ، ولكنه يقيم الآن فى سوخوى بوزبولوك ، وأنه سيبيت هذه الليلة فى عزبة حارس الحراج لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك . فتوسل اليه ميتيا أن يصحبه فوراً الى لياجافى وأن « ينقذه » بذلك ، فتردد القس فى أول الأمر ، لكنه وافق أخيراً على أن يرافقه حتى سوخوى بوزبولوك ، وكان واضحاً أن الفضول هو الذى دفعه الى هذه الموافقة . ومن سوء الحظ أنه نصيح بقطع الطريق سيراً على الأقدام ، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو « أكثر قليلاً » . وكان طبعياً أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح ، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته فى السير ، فكان الكاهن العائر الحظ مضطراً الى أن يماثيه راكضاً أو شبه راكض . ان هذا الكاهن رجل ما يزال غض الالهاف ، وهو فى أحاديثه شديد التروى والتعقل والحذر . وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه ، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح فى أمر لياجافى ، بالحاح عصبى ، وظل يتكلم على هذا النحو طول الطريق . فكان القس يصغى الى كلامه بانتباه ، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة ، يقتصر على أن يكرر فى الجواب على أسئلة ميتيا الملحة : « لا أعلم ، مع لأسف . أننى لى أن أعلم ! » . ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه فى موضوع الميراث ، زعر القس ، لأنه كان مرتبطاً بفيودور بأفلوقتش من بعض النواحي فيما يبدو ؛ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب اطلاقه اسم لياجافى على هذا الفلاح جور سكين ، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم انه اسمه فعلاً ، لأنه يستاء شديداً من مناداته بهذا الاسم ، وانه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين « والا فلن تفلح معه فى شيء ، بل ولن يسمع لك » . بهذه العبارة ختم القس كلامه ، فدهش ميتيا قليلاً ، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذى ذكره له سامسونوف نفسه . فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغير الحديث .

ولعله كان يحسن صنعا لو أفصح لميتيا عن الشك الذى راوده والشبهة التى خطرت بباله : لئن أرسله ساسونوف الى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياجافى ، فمن الجائز جدا أن يكون قد فعل ذلك سخرأ به وضحكا عليه ؛ ولا بد أن يكون فى الأمر شئ . « يريج » على كل حال . ولكن ميتيا لم يكن فى وقته متسع للتلبث على « مثل هذه السفاسف » . فهو يفد السير ويمشى بخطى مديدة ، ولم يدرك أن المسافة التى قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل ، لم يدرك ذلك الا حين وصل الى سوخوى بوزبولوك . ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه . ودخل الرجلان العزبة التى كان حارس الحراج ، وهو رجل يعرفه القس ، يشغل نصفها ، بينما كان نصفها الثانى الذى يفضل لأول عناية وصيانة . ولذى يفصله عن النصف الأول دهليز ، موضوعاً تحت تصرف جورسكين ؟ ومضى الرجلان الى جورسكين رأساً بعد أن أشعلا شمعة . كانت الغرفة مدققة تدفئة شديدة ، وعلى مائدة من خشب السنديان يرى سماور منطفىء وصينية وفناجين وزجاجة « روم » فارغة وابريق ما يزال فيه بقايا خمسر ، وكسرات خبز . أما لياجافى فكان مستلقيا على دكة ، قد لف سترته واتخذها وسادة ، وكان يشخر شخيراً قتيلاً . نظر اليه ميتيا متحيراً ، ثم قال فى قلق :

— يجب ايقاظه طبعاً ! ان القضية التى جئت من أجلها ملحة ، وأنا فى عجلة من أمرى ، لأن على أن أرجع فى هذا اليوم نفسه . صمت القس والحارس ولم يقلوا رأيهما . واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول ايقاظه ، فكان يهزه هزاً قوياً ، ولكنه لم يظفر بشئ . ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران ، فقال :

— هو سكران ، فماذا عسأ أصنع ؟ ما عسأ أصير ؟ يا رب !
واذ بلغ الذروة من نفاذ الصبر ، شد الشاخر من ذراعيه ، ثم شده

من ساقه ، ثم انهض رأسه ، ثم أجلسه على الدكة ، فلم يستطع أن يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة الا بضع دمدقات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها .

قال القس أخيراً :

- خير لك أن تنتظر ، فما هو في حالة تمكنه من المناقشة .

وقال الحارس :

- لقد ظل يشرب طول النهار .

فصاح ميتا يقول :

- آه ! يا رب ! لو علمتما مدى حاجتي اليه ، وفي أى ظرف

أنا ! ...

قال القس :

- لا حيلة في الأمر ، لا بد من الانتظار الى صباح غد .

- الى غد ؟ انك لا تفكر في الأمر ! هذا مستحيل !

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه . وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً ؛ أما الحارس فكان شديد التعاس فسكت كذلك كالحج عابس الهيئة .

قال ميتا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب :

- الحياة تهوى للانسان في بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكية من

هذا النوع !

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه • واتهز القس لحظة هدنة وهدوء فأوضح كيف أن ايقاظ النائم لن ينفع فى شيء ، لأنه لن يكون قادرا على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد • وختم القس كلامه قائلا :

– وما دام الأمر الذى جئت من أجله هاماً ، فالأفضل أن ترجئه الى الصباح •

فوافق ميتا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبراً عن العجز • قال :
– طيب يا أبى • سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية ، فمتى استيقظ كلمته •

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس :

– وسأدفع لك ثمن الشمعة ، وسأدفع لك أيضا أجر قضاء الليلة هنا • سوف تتذكر دمتري كارامازوف •

ثم عاد يخاطب القس فسأله :

– ولكن أين تمام أنت يا أبى ؟

فأجابه القس بقوله :

– الأمر بسيط • أعود الى بيتى •

وأضاف يقول مومناً الى الحارس :

– سيعيرنى فرسه • والآن نعمت مساءً • أرجو لك التوفيق كله •

وذلك ما كان • عاد القس الى بيته على الفرس ، سعيدا بخلاصه من ميتا • وكان فى أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق ، متسائلاً

ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية : لمحبة منذ الغد ، قائلاً لنفسه : « انه اذا علم بالأمر لسوء الحظ ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراتي . » • أما الحارس فقد حكَّ رأسه وعاد الى غرفته دون أن ينطق بكلمة .

جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المواتية كما قال ، وقد هبط عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف • وأراد أن يفكر وهو على ما هو عليه من ارهاق شديد وكرب لا حدود له ، ولكن أفكاره كانت تتهرّب . ان الشمعة تذوب ببطء • وهذا جدجد يغني في مكان ما • والهواء قد أصبح خافقاً في الغرفة المدفأة تدفئة زائدة • وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه ، والممر الذي يقع خلف الحديقة ، وتراءى له باب يُفتح خلصةً في المنزل ، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب فاذا هو يشب عن الدكة واقفاً ! ...

دمدم يقول وهو يصرف بأسنانه :

— يا للمأساة !

ثم دنا من النائم بخطوات آلية ، وأخذ يتفرس في وجهه • انه فلاح نحيل ما يزال شاباً ، شديد استطالة الوجه ، مصفور الشعر ، لذقنه لحية طويلة رقيقة ، يرتدى قميصاً هندياً وصديرة سوداء تتدلى من جيبيها سلسلة ساعة من فضة • تأمل ميتيا وجهه ، ف شعر بكرة شديد لهذا الرجل ، وأحقيقته صفائره خاصةً ، لا يدرى لمماذا ! وبدا له أنه أمر لا يطلق ، أمر مذل مهين أن يكون عليه ، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هام ضحي في سبيله بكل شيء ، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزق القلب هماً ، بينما هذا الكسلان « الذي يتوقف عليه مصيرى في هذه الساعة يغف في النوم كأن شيئاً لم يكن ، وكأنه على كوكب آخر • »

صاح ميتا يقول: فجأة :

- آه... يا لسخرية القدر !

وطاش ضوابة فهجم على الفلاح ، لسكران مرة أخرى يريد أن يوقفه . انه الآن حاقد عليه فما هو ذا يهزه بكل ما أوتي من قوة ، وما هو ذا يضدده ، بل ما هو ذا يضربه . ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل الى ايقاظه ، عاد الى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله :

- يا للسخف ! يا للقاء !

ثم اذا هو يضيف الى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا :

- يا للذل أيضاً ! يا للعار !

وأخذ يشعر بصداع رهيب فى رأسه . وتساءل لحظة : « أأعد ؟ أأرجع ؟ » ولكنه أجاب يقول : « بل سأنتظر الى الصباح . سأبقى خصباً ، خصباً ! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت الى هنا ... ثم ما عساي أفعل لأرحل بغير خيل ؟ أوه ! ما أسخف هذا كله ! ... » . وكان صداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك . وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ الناس الذى كان يستولى عليه شيئاً بعد شيء ، ونام آخر الأمر جالساً . لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين ، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع فى الرأس ، ألم لا يطلق ، حتى ليوشك ميتا من فرط شدته أن يصرخ . كان صدغاه يطنان طنياً ، وكان يحس بوجع فى القذال . فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه ، وانخفضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به ، ثم أدرك على حين فجأة أن الغرفة المدفأة تدفئة زائدة تمتلئ برائحة قوية هي رائحة فحم محترق ، وأنه كاد يموت اختناقاً . وكان السكران ما يزال ينسط فى نومه على الدكة .

وكانت الشمعة التي انصهرت انصهاراً تاماً بهم أن تنطفئ . • صرخ ميّتا وأسرع الى غرفة الحارس مترنح الخطى . • فسرعان ما استيقظ الحارس ، ولكن لم يد عليه أنه انفل كئيراً حين علم بما حدث ، وانما مضى يتخذ الاجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكتراث ، فدهش ميّتا من ذلك حتى كاد ينفجر غضباً . • وصاح يقول مضطرباً اضطراباً شديداً :

- لقد مات ، مات ...

فتُح الباب ، وفتحت نافذة ، ودخل الهواء الى الغرفة ، ونظفت مدخنة المدفأة المسدودة . • ومضى ميّتا فجاء بقادوس ماء فأغسل فيه رأسه ، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضعها على جبين لياجافى . • فكان الحارس ينظر اليه أثناء ذلك هادئاً هادئاً يوشك أن يشتمل على احتقار ؟ وقال بلمهجة متجهمة بعد أن اكتمى بفتح نافذة :

- هذا كافٍ .

ثم رجع الى غرفته ينام ، تاركاً ميّتا سراجاً مشتعلاً . • ظل ميّتا يتحرك قرابة نصف ساعة الى جانب السكران الذى يوشك أن يكون مختنقاً ، وظل يجدد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة ، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح . • ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة ، فسرعان ما أغمض عينيه ، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك ، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلًا .

فلما استيقظ كان الوقت ضحى . • لقد دقت الساعة التاسعة ، والشمس تسطع من خلال نافذتي الغرفة الصغيرتين ؟ والفلاح المصفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة ، وجلس الى المائدة التى كان عليها سماور جديد وابريق خمر جديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن (كان الابريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة) ، فنهض ميّتا بوثبة واحدة ، وأدرك

منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جديد ، وأن سكره سيكون فى هذه المرة عميقاً لا براء منه ولا علاج له • ظل ميتيا يحدث إلى الفلاح دقيقةً محملى العنين • أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر ، الى هدوء مهين ، بل الى ثقة مستخفة محترقة، فيما بدا لميتيا • قال له ميتيا :

- معذرة •• أعتقد •• لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك •••
أنا الليوتان دمترى كارامازوف ، ابن العجوز كارامازوف الذى تفاوضه فى أمر ثمن أشجار الغابة •••

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادى وثقة كاملة مقطعا كلامه :

- أنت تكذب ! هذا غير صحيح !
- كيف ؟ أنا أكذب ؟ انك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك !
فقال الفلاح رخو الفم :

- أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش !

- كيف هذا ؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة التى ستقطع •
هلاً استيقظت أخيراً ؟ هل ثبت الى رشذك ! ان الأب بولس ايلنسكى هو الذى جاء بى الى هنا • تذكر ••• ولقد كتبت أنت الى سامسونوف، فأرسلنى سامسونوف اليك •

كذلك قال ميتيا لاهتاً مختقاً • فعاد لياجافى يقول له :

- أنت ••• تك ••• نذب •

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة فى ظهره •

- أرجوك ! ليس الأمر مزاحاً • لعلك سكران قليلاً • حاول أن تتكلم جاداً ••• افهمنى •• أو •• أو •• أصبحت لا أفهم !

- أنت صَبَّاح ! هذه هي مهنتك !

- أرجوك ، أتوسل اليك ! أنا كارامازوف ، دمترى كارامازوف ،
وقد جئت أعرض عليك صفقة ... صفقة رابحة ... رابحة جداً لك
... صفقة تتعلق بهذه الأشجار نفسها التي ستقطع ...

أخذ الفلاح يلعب لحيته بوقار ورسالة . ثم قال :

- هذا كذب ! لا شك أنك قد تواطأت على جريمة وتريد أن
تدحرجنى . أنت نذل ، نعم نذل .

قال ميتا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمدأ ويأساً :

- أؤكد لك أنك مخطئ !

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف اغماض ماكراً ، وهو ما يزال
يلعب لحيته . ثم قال :

- تاناتا ... انى لأؤثر أن تقول لى ما هو القانون الذى يجوز
للناس أن يقترفوا النذالات . هل تسمعنى يا نذل ؟ أنت نذل ، هل
تفهم ؟

تقهقر ميتا وقد أظلمت نفسه اظلاماً شديداً . وعندئذ برقت فى
ذهنه فكرة مفاجئة ، « كأن أحداً ضربه على جبينه » ، كما روى هو
ذلك فيما بعد . لقد اتضح كل شئ فى فكره الآن . « كان ذلك الهاماً
مباغتاً ، فأدركت كل شئ » . تسامل ميتا ، مذهولاً ، كيف أمكن أن
يساق ، هو الرجل الذكى رغم كل شئ ، كيف أمكن أن يساق الى
وضع سخيف هذا السخف ، وكيف أمكن أن يندفع فى مغامرة كهذه
المغامرة ، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة ، وأن يشغل نفسه
بلياجافى هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة ... « انه سكران ، سكران

سكرأ فظيماً ، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله ... فعلام
أنتظر مزيداً من الانتظار ؟ وماذا اذا كان سامسونوف قد سخر منى
وضحك على بارسالى الى هنا ؟ وماذا اذا هى ... أثناء هذه المدة ...
قد ... آه ... يا رب ! ماذا صنعت بنفسى ؟!

كان الفلاح ينظر اليه هادئاً ضاحكاً . فلو قد كان ميتاً فى ظرف
غير هذا الطرف اذن لانتفض على هذا الأبله حائقاً فصرعه ، ولكنه كان
يشعر فى تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل . فها هو ذا يتجه نحو الدكة
بخطى بطيئة ، فيرتدى معطفه ، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة
واحدة . ولم يجد حارس الحراج فى الغرفة الأخرى ، فتناول من جيبه
خمسین كوبكاً فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجرأ للميت وتعويضاً
عن الازعاج . وخرج من العزبة ، فوجد نفسه فى قلب الغابة دون أن
يكون هناك شيء . يمكن أن يستهديه فى معرفة طريقه ؟ فساد على غير
هدى ، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التى جاء منها ، فلم يعرف أيتجه يميناً
أم يتجه يسرة حين يخرج من منزل الحارس . انه لم يلاحظ الطريق
فى الليلة البارحة من شدة تمجله . وهو الآن لا يشعر بأية رغبة فى
الانتقام ، حتى ولا من سامسونوف . انه يسير فى ممر الغابة الضيق ،
خاوى الرأس زائع النظرة ، كأنه يبحث عن « فكرة ضائعة » ، ولا يهمه
أن يعرف الى أين كان ذاهباً ! ان فى وسع طفل صغير أن يقلبه على
الأرض فى تلك اللحظة بسهولة ، من فرط ما كان يعانى من ارهاق جسمى
ونفسى معاً . ومع ذلك خرج أخيراً من الغابة ، فوجد نفسه فجأة أمام
حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر . قال فى نفسه وهو مايزال
يسير قدماً دون أن يلوى على شيء : « كأن اليأس والموت قد مرأ بهذا
المكان ! » .

وانقذه فلاحون . ان عربة تنقل تاجراً عجوزاً كانت تسير على

طول الطريق الذى يصل بين قرى صغيرة • فلما بلغت العربى سأل حوزيها عن الدرب ، فاتفق أن كان الحوذى ذاهبا الى فولوفيا أيضا • وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذى ، فركب ميتيا الى جانب المسافر المعجوز • وبعد ثلاث ساعات وصلت العربى الى محطة فولوفيا ، فلاحظ ميتيا على حين فجأة ، بعد أن أمر بخيل تقله الى المدينة ، أنه يكاد يموت جوعاً ؛ فينما كانت الخيل تقرن ، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمه التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز ، ثم انقض على سحبق وجده جاهزاً ، وشرب ثلاث أقذاح صغيرة من الفودكا • حتى اذا استرد بذلك قواه ، شعر بتجدد شجاعته ، واستعاد صحو ذهنه •

الخيل تجرى ، وميتيا يحض الحوذى على مزيد من السرعة ، ويهيم فى الوقت نفسه « خطة » جديدة ، خطة « لا تخطئ » فى هذه المرة ، من أجل الحصول على « هذا المبلغ اللعين » قبل نهاية ذلك اليوم. هتف يقول مشمئزاً شتمئزاً عميقاً : « كيف يمكن أن يهوى مصير انسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة ؟ • لأجدها فى هذا اليوم نفسه ! » • وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيداً ، لولا أن التفكير فى جروشنكا كان يحاصره • « ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث لها ؟ • كان هذا السؤال يطلعه فى كل لحظة كشفرة مسنونة • ووصلت العربى أخيراً ، فأسرع ميتيا الى جروشنكا رأساً •

مناجم الذهب



هذه الزيارة انما تحدثت جروشنكا الى راكيتين
 مذعورة • كان قد سرّها ، وهي تنتظر الرسالة
 اتى يعرف القارىء أمرها ، أن ميتا لم يظهر
 منذ يومين ، وكانت تقول لنفسها انه قد لايجي .
 قبل رحيلها باذن الله • ولكنه ظهر على حين فجأة • والقارىء يعرف
 التهمة ، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها الى كوزما كوزمتش حالا ،
 «لأجراء بعض الحسابات» ، وكيف رجته أن يرافقها ، وكيف استقطعته
 على نفسه وعداً ، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز ، بأن يجيىء فى
 منتصف الليل لاصطحابها الى منزلها • وقد سعد ميتا بهذه التسوية ،
 قال لنفسه : « ما دامت ستقضى السهرة عند كوزما كوزمتش ، فلن تذهب
 الى فيدور بافلوفتش » ، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلا : « اللهم
 الا أن تكون كاذبة • » ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة • انه ينتمى الى تلك
 الفئة من الغيورين الذين يتخللون أقطع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة
 المحبوبة ، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور « خياتها » لهم أثناء غيابهم •
 ولكن ميتا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً يائساً
 معذب النفس من يقينه بأنها خاتنه ، لا يلبث أن يسترد شجاعته حين يرى

وجهاها الضاحك الرقيق المرح ، فإذا هو يطرد من فكره كل شيء ، ويشعر بالخجل من غيرته ، ويلوم نفسه على قلة الثقة •

بعد أن قام ميتيا بمرافقة جروشسكا الى منزل سامسونوف أسرع يعود الى بيته • ان هناك مسائل كثيرة بقى عليه أن يحلها قبل حلول الغد ! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره • غير أنه لم يلبث أن قال لنفسه : « ينبغي لى أن أسأل سمردياكوف ، بأقصى سرعة ممكنة ، هل حدث شيء فى الليلة البسارحة ، هل ذهبت جروشسكا الى فيدور بافلوفتش أمس ؟ » • هكذا اشتعلت الفيرة فى قلبه المذب من جديد ، قبل أن يتسع وقته للعودة الى بيته •

الفيرة ! « ليس عطيل غيوراً ، انه واثق » ، كذلك قال بوشكين • ان هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا القومى • ان ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشئ عن انه « فقد ايمانه بمثله الأعلى » • ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المرابطة فى مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصده ويرقب : انه أكثر ثقة من أن يفعل ذلك • بالعكس : كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له ، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصور الخيانة • ولا كذلك الغيور الحق • لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوى اليه الغيور من درك الدناة والحطة دون أن يشعر بأى خجل من ذلك • وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حقاً • لا ••• رب رجل نبيل القلب تقىّ الحب مخلص العاطفة ، يرتضى مع ذلك أن يختبئ تحت السرر ، وأن يرش أناساً قذرين ، وأن يستخدم أحط أنواع التجسس ! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة – أقول يذعن للخيانة ولا أقول يففرها – رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كففس طفل صغير • ولا كذلك الغيور الحق ! ما من شيء الا ويمكن أن يذعن له

الفيور وما من شيء الا ويمكن أن يفره عند الحاجة . ان الفيورين أسرع الناس الى الغفران ، والنساء يعرفن هذا ! هم قادرون مثلاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البداية طبعاً) ، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم ، شريطة أن يستطيعوا أن يقولوا لأنفسهم ان « هذه آخر مرة » وان الغريم سيغيب وانه سيرحل الى بلد في آخر العالم ، أو انهم سيمضون هم أنفسهم بحييتهم الى منطقة نائية لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوماً . ثم لا تدوم المصالحة أكثر من ساعة طبعاً ، ذلك أنهم ، ولو اختفى الخصم ، ما يلبثون أن يكتشفوا خصماً جديداً منذ الغد ، فإذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه « الخيانة » الجديدة . رب متسائل يتساءل : ما هي في نظرهم قيمة حب يقتضى هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل المرأة التي يتصورون خيانتها تستحق منهم هذا الحب كله . ألا ان هذا السؤال بعينه هو مالا يلقى الفيورون الحقيقيون على أنفسهم ، مع أن منهم أناساً لهم نفوس سامية رفيعة . وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضاً : ان ذوى العواطف النبيلة من هؤلاء الفيورين يستطيعون ، وهم مختبئون في ركن من الأركان للتجسس والمباغثة ، يستطيعون أن يفهموا تماماً ، « لنبل قلوبهم » ، أنهم ينحدرون الى الخزي والعار ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير ، ما ظلوا مختبئين في أوكارهم على الأقل .

ما ان رأى ميتيا صاحبه جروشكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى أصبح واقفا كريما سمحا خلال بضع لحظات ، بل لقد مضى في هذا الى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورتها وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيراً مما كان يظن هو نفسه ، وأن الشهوانية والتعلق الجسدى اللذين حدث عنهما أخاه

أليوشا ، ليسا جوهر ذلك الحب • ولكن ما ان غابت جروشنيكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها ، دون أن يشعر أثناء ذلك بأى ندم أو عذاب ضمير •

استبدت به الغيرة اذن من جديد • وكان عليه أن يستعجل على كل حال • كان عليه قبل كل شئ أن يجد قليلا من المال لسد حاجاته المباشرة : ان الروبلات التسعة التى جمعها فى الليلة البارحة كانت قد نفذت فى تلك الرحلة ؟ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئا حين لا يكون فى جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس • ولقد فكّر ميتا ، أثناء وضعه خطته الجديدة فى العربة ، فكّر فى الوسيلة التى تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا إبطاء • انه يملك مسدسين رائعين من المسدسات التى تستعمل فى المبارزات ، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن ، لأنه يحرص عليهما حرصا شديدا • وكان قد تعرف منذ زمن ، فى كاباريه «العاصمة الكبرى» ، بموظف شاب عازب غنى كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديدا ، فهو يشتري مسدسات وبندقيات وخناجر يعلقها فى جدران غرفته ، ويدعو ضيوفه الى مشاهدتها والاعجاب بها ، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص ، وطريقة التصويب به ، الخ • ذهب ميتا الى هذا الموظف الشاب دون تفكير كبير ، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرض قدره عشرة روبلات ، فسرّ الموظف سرورا عظيما ، وحاول اقناع ميتا بأن يبيعه هذين السلاحين ، ولكن ميتا رفض التخلّى عنهما ، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلا انه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال • وافترق الرجلان صديقين • وأسرع ميتا الى جناحه الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بنية أن يلقي سمردياكوف • وبهذا أثبت ميتا واقعة جديدة هى أنه « قبل حدوث الحادث الذى

ستحدث عنه طويلاً فيما بعد ، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن في جيبه كوبك واحد ، فقرر أن يرهن في سيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص ، ثم اذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات ٠٠٠ ، ولكنني أسبق بهذا تمة القصة ، فلأعد الى حيث وصلت منها .

علم ميتيا في منزل ماريا كوندرايتينا (جارة فيدور بافلوفتش) نبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطرابا شديدا وقلق قلقا عظيما . أوصى الى قصة سقوطه في القبو ، ونوبة الصرع ، ووصول الطبيب ، ومبادرة فيدور بافلوفتش . وأبلغ أيضا نبأ سفر ايفان فيدوروفتش الى موسكو في مطلع الصباح ، فبدأ عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية . قال يحدث نفسه : « لا بد أن ايفسان قد مرَّ بفولوفيا قبلي » . غير أن مرض سمردياكوف قد أحدث في نفسه قلقاً كبيراً ومخاوف خطيرة . فأخذ يسأل المرأتين قائلاً : « فما العمل الآن ؟ من عساي أكلّف بمراقبة المنزل واطلاعى على ما يجرى ؟ ألم تلاحظا شيئاً في مساء أمس ؟ » . وأدركت المرأتان فوراً ما الذى يحاول أن يعرفه فطمأناه ما وسعهما أن تطمئنه . قالتا له مؤكدتين : « لم يجيء أحد . وقد أمضى ايفان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها ، وجرى كل شيء على ما يجب » . وجم ميتيا مفكراً . لا بد من حراسة في هذه الليلة أيضا . الأمر واضح . ولكن أين يرباط ؟ أيرابط هنا في الحديقة ، أم يرباط أمام منزل سامسونوف ؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهما ، وفقاً لما توجهه الظروف ، ولكن المهم قبل كل شيء ، قبل كل شيء ، هو أن ٠٠٠

وقد آن فعلاً أوآن تنفيذ « الخطة » الجديدة ، الجديدة في هذه المرة ، التي رسمها في العربة . ان هذا المشروع لا يمكن تأجيله . فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمان . قال يحدث نفسه :

« بعد ساعة واحدة أكون قد سوّيت كل شيء ، ثم أذهب الى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده ، ثم أعود الى هنا فوراً لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة ، وبعد ذلك أذهب الى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها الى بيتها » . على هذا النحو حل ميتا الصموبة .

وأُسرع الى بيته فاغتسل ونظف ثيابه بالفرشاة ، وارتدى ملابسه وذهب الى السيدة هوخلاكوفا . فهناك كانت « خطته » ، واحزنانه ! كان ميتا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة . حتى لقد راوده على حين فجأة يقين عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ . رب متاسائل يتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت الى هذه المرأة التي تنتمى الى بيته على الأقل ، ولماذا أتر أن يتجه الى سامسونوف الذى يجهل ميتا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأى لغة يخاطبه ! يحسن أن نذكر هنا أن ميتا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد الى منزل هذه السيدة التي كان لا يعرفها كثيراً على كل حال . وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه ، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية فى الواقع ، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترين ايفانوفنا . لقد كانت تمنى أن تقطع كاترين صلتها به لتتزوج ايفان فيدوروفتش «الشاب المتقف ، اللطيف ، المحب ، الذى يملك روح الفروسية ويتمتع بأداب راقية » ، على حين أن آداب ميتا كريمة مقبلة . ثم ان ميتا قد سخر منها مرارا كثيرة وقال عنها « انها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هى قليلة الثقافة » . ولكن فكرة قد ومضت فى ذهنه وميض البرق فى الصباح ، فقال لنفسه : « ما دامت تكره أن أتزوج كاترين ايفانوفنا وما دام هذا الزواج يثير حقها الى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة هوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا) ، فلا يمكن أن ترفض اقراضى هذه الثلاثة آلاف روبل التى ستتيح لى ان

أقسم علاقتي بكاتيا ، وأن أرحل من هنا الى الأبد . » وكان ميتيا يقول لنفسه أيضا : « ان نساء المجتمع هاته ، وهن صاحبات نزوات دللتهن الأقدار ، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية فى سبيل هوى غريب من أهوائهن العجيبة ! » . ان « الخطة » التى وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة هو خلا كوفلا لا تختلف عن خطة البارحة : سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه فى قرية تشرماشيا ، ولكنه لا ينوى فى هذه المرة أن ييسط الأمر على أنه صفقة تجارية ، ولا يهدف الى اغراء هذه السيدة ، كما حاول اغراء سامسونوف ، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل ؛ وإنما يكون التنازل عن الحقوق ، فى هذه الخطة الجديدة ، بمثابة ضمان سخرة المقرض الذى سيُتفق عليه . وكان كلما ازداد تفكيراً فى هذا المشروع ازداد حماسة له ، وذلك ما يحدث له دائما حين يتخذ قرارا جديدا . انه يتحمس فى البداية لكل مشروع من مشاريعه . ومع ذلك شعر ، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل هو خلا كوف ، بقشعريرة فى ظهره ، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد : لقد أدرك فى تلك اللحظة ، يقين رياضى ، أنه يقامر بأخر ورقة يملكها ، فاذا لم تفلح هذه المحاولة ، فلا أمل بعد ذلك ، اللهم الا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل ، وبدون ذلك فلا مخرج لى . . . » . كذلك قال ميتيا لنفسه . وكانت الساعة هى الساعة والصف حين شدَّ الجرس .

بدا كل شيء يجرى على ما يجب ويشتهى فى أول الأمر : فما ان أتلفت السيدة هو خلا كوفلا وصوله حتى أمرت بادخاله . فدُهِش ميتيا من سرعة استقباله ، وقال لنفسه : « لكأنها كانت تنتظرنى » . وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت اليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره . . .

— كنت أنتظرك ، كنت أنتظرك ! لا شيء كان يسمح لى بأن أتبأ

بزيارتك ، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة • ومع هذا كنت أنتظرك •
فاجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمترى فيدوروفتش ، لأننى
كنت واثقة ، منذ هذا الصباح ، بأنك ستزورنى •

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة :

- حقاً ان هذا يثير الدهشة ، يثير أكبر الدهشة ... ولكننى جئت
من أجل قضية خطيرة ، خطيرة خطيرة رهية ... بالنسبة الى ...
طبعاً ... يا سيدتى ... بالنسبة الى وحدى ... لذلك أسارع ف ...

- أعرف أن السبب الذى دفعك الى المجئ سبب خطير يا دمترى
فيدوروفتش • وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات أنتبؤها ، لأننى أكره
ذلك الايمان الرجعى بما هو فوق الطبيعة (لملك على علم بمغامرة
الشيخ زوسىما) ... وانما الأمر حساب رياضى : كان لا بد أن تجيء
الى حتما بعد كل ما جرى مع كاترين ايفانوفنا ، لم يكن فى وسعك أن
لا تجيء • هذه رياضيات ...

- أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتى • لكن واقعين ... اسمح لى
أن أبسط لك بايجاز ...

- الواقعية ... قتلها يا دمترى فيدوروفتش ! أنا من أنصار
الواقعية بعد اليوم ! آه ... لقد شُفيت من مرض الايمان بالمعجزات ،
صدقنى ! أنت لا تجهل طبعاً أن الشيخ زوسىما قد مات !

قال ميتيا بشئ من الدهشة :

- لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك •

وطافت بخياله صورة أليوشا • قالت السيدة هوخلاكوفا :

- مات هذه الليلة ... تصور أن ...

قاطعها ميتيا قائلاً :

- سيدتى ، أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً : هو أنتى فى وضع عصيب وأن كل شىء سينهار اذا أنت لم تساعدنى ، وسأكون أنا أول من ينهار. اغفرى لى خشونة لفتى ، ولكنتى فى قلق محموم ؛ ان بى حمى حقاً . . .
- أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، أعرف أن بك حمى . أنا مطلعة

على كل شىء ، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هى اليوم. كل ما قد تقوله لى الآن ، أنا أعرفه سلفاً . انتى أفكر فى مصيرك منذ زمن طويل يا دمترى فيدوروفتش . كنت ألاحظ حياتك ، وأدرسها . . .
هه ! أنا طيبة نفوس ، خيرةٌ جداً . . . صدقتى يا دمترى فيدوروفتش !
عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهداً من أجل أن يبدو لطيفاً محبياً :

- سيدتى ، لا شك عندى فى أنك طيبة خيرة . ولكنتى أنا أيضاً مريض خبير . انتى مقتنع اقتناعاً قوياً بأنك ستساعدينى فى انقضاء هلاك كبير ، ما دمت قد اهتممت بمصيرى ذلك الاهتمام كله . فاسمحنى لى لهذا أن أبسط لك أخيراً الخطأ التى تجرأت أن أجىء لأبسطها لك . . .
وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها انتى أمل منك . . . لقد جئت ياسيدتى من أجل أن . . .

- لا تشرح . . . هذا أمر ثانوى ! لن تكون أول شخص أساعده يا دمترى فيدوروفتش ! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمى بلمسوفاف. كان زوجها الذى تدمرت حالته المالية قد انهار انهياراً على حد التعبير الصادق الذى استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطى تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهاراً عظيماً . هل تفهم فى شؤون تربية الخيول يا دمترى فيدوروفتش ؟

صاح ميتيا يقول نافذ الصبر ناثراً الأعصاب ، حتى لقد همَّ أن ينهض :

- لا يا سيدتى ، أبدا ... لا أفهم فى هذا المجال شيئا ! أتوسل اليك يا سيدتى أن تصفى الىَّ لحظة • دعينى أتكلم دقيقتين فحسب ، لأعرض لك مشروعى • ثم ، اننى لا أملك الا وقتا قصيرا جدا ، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتا يقول بصوت هستى ، اذ حزر أنها ستقاطعها ، وأمل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته) • لقد جئت اليك لأننى قد بلغت ذروة الكرب واليأس ، وأردت أن أرجوك أن تسلفينى ثلاثة آلاف روبل ، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتى ، بشروط موتوقة تماما • وهأنذا أشرح لك الموضوع ...

قالت السيدة هوخلاكوبا وهى تحرك ذراعيها كأنما تطرده الشروح التى همَّ بها ميتا :

- تشرح فيما بعد ، فيما بعد ... ستقول لى هذا كله فيما بعد • ثم اننى أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لى ، سبق أن قلت لك هذا • أنت فى حاجة الى مال ، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل ، ولكننى سأعطيك أكثر من ذلك ، أكثر كثيرا ، لأننى أريد أن أقضك يا دمتري فيدوروفتش • ولكننى أطلبك فى مقابل ذلك بأن تطيعنى •

وثب ميتا من مقعده من جديد ، قائلاً بانفعال شديد :

- آه ! سيدتى ! هل يمكن أن تكونى طيبة الى هذا الحد ؟ آه ! لقد أقضتتى ! يا رب ! لقد انتزعت انسانا من ميتة عنيفة يا سيدتى ، من ميتة انتحارٍ بطلقة مسدس ... لسوف أظل شاكراً لك الى الأبد ...

عادت السيدة هوخلاكوبا تقول ، وهى تنظر بابتسامة مشرقة الى وجه ميتا المتحمس :

- لأعطيتك أكثر كثيرا من ثلاثة آلاف روبل ؟

- أكثر كثيرا ؟ لست فى حاجة الى كل هذا • ليس بى حاجة الا

الى هذه الثلاثة آلاف الشقية ! وأريد من جهتي أن أعطيك ضماناً لهذا القرض ، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له . ان المشروع الذى أحب أن أبسطه لك هو ...

فقاطعت السيدة هوخلاكوفا التى كان وجهها يشرق بفرحة الاحسان المتواضعة :

- كفى ! أنا لا أنكت عهداً . لقد وعدتك بأن أنقذك ، وسأفعل . سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوف . ما رأيك فى مناجم الذهب يا دمترى فيدوروفتش ؟

- مناجم الذهب يا سيدتى ؟ لم أفكر فى هذا الأمر يوماً حتى الآن ...

- أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك ! لقد وزنت جميع جوانب المسألة . اننى ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض . ظلمت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً ، فكنت أقول لنفسى فى كل مرة : « هذا رجل شيط فعّال يمكن أن ينجح فى مناجم الذهب » ، حتى لقد أنعمت النظر فى مشيتك ، فاستتجت أنك ستكتشف مناجم كبيرة .

لم يملك ميتا الا أن يسأل السيدة هوخلاكوفا مبتسماً :

- استتجت ذلك من مشيتى يا سيدتى ؟

فأجابت السيدة هوخلاكوفا :

- نعم ، من مشيتك أيضاً . هل تستطيع أن تنكر يا دمترى فيدوروفتش أن فى الامكان معرفة طبع الشخص من مشيته ؟ ان العلوم الطبيعية تعلمنا هذا . آه ... ما أكثر ما أصبحت واقعية الآن ! فمنذ ذلك اليوم ، منذ تلك القصة التى حدثت فى الدير والتى هزتنا هزاً قوياً ،

أصبحت لا أؤمن الا بالواقعية ، بالوا . . . قية ، وأصبحت أريد أن أُنْفِ حياتي على نشاط عملي . لقد شفيت من الغيبة الى الأبد . « كفى ! » ، كما قال نورجنيف * .

- ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها كريمة سخية !

قالت السيدة خلاكوفاً بقوة وحرارة :

- ستحصل عليها ، تستطيع أن تعدها في جييك منذ الآن . لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاثة ملايين ، وخلال فترة وجيزة يا دمترى فيدوروفتش ! اليك المشروع الذي أترحه عليك : تكتشف مناجم ذهب فترى ثراء عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين ؟ ثم تعود الينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل ، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس ، تقفنا من خدرنا وكسلنا ، وتقودنا نحو الخير . هل يجب أن تترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود ؟ ستبنى عمارات ، وستخلق صناعات ، وستساعد الفقراء ، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات انا نعيش في عصر السلك الحديدية يا دمترى فيدوروفتش . وستعلم وزارة الخزانة ، التي تختبئ في مصاعب ضخمة ، ستعلم بوجودك فتناذك وتعتمد عليك . ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمنى من النوم ! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً

قاطعها ميتاً قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً :

- سيدتى ! سيدتى ! من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك ، وهى نصيحة سديدة جداً في الواقع سأتابع هذه النصيحة حتما فيما بعد سأذهب الى مناجم الذهب هذه وسأعود مرة أخرى لتتحدث في أمرها أما الآن فلنتكلم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت ف آه ! ان هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب !

ليتى أستطيع الحصول عليه فى هذا اليوم ... ذلك أنتى ، كما ترين ،
لا أملك وقتاً أضيقه ... لا يوماً ، ولا ساعة ...

قاطعت السيدة هوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة :

- كفى ، كفى ! أجبنى : أتذهب الى مناجم الذهب أم لا ؟ هل
عزمت أمرك ؟ أريد جواباً واضحاً دقيقاً !

- سأذهب يا سيدتى فيما بعد • سأذهب الى حيث تريدن ياسيدتى !
أما الآن ...

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول :

- انتظر !

وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذى الأدراج الكثيرة ، فأخذت تفتحها
درجاً درجاً بسرعة ، باحثة فيها عن شيء ما •

قال ميتيا محدثاً نفسه وقد كاد ينشق قلبه : « الثلاثة آلاف ! وبدون
ضمانة ، بدون رهن ، بدون وصل ، ما أنبلها امرأة ! ولكن ليتها كانت
أقل ثروة ... » •

وهتفت السيدة هوخلاكوفا تقول عائدة اليه :

- هاك ... هاك ما كنت أبحث عنه •

هو أيقونة صغيرة جداً من فضة ، ذات جبل ، كالأيقونات التى
تحمل أحياناً تحت القميص مع الصليب •

وشرحت السيدة هوخلاكوفا قائلة برصانة :

- هذه الأيقونة من كيف • لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة
بارب ، الشهيدة العظيمة • فاسمح لى أن أعلّقها لك بنفسى ، لتباركك
فى حياتك الجديدة ، ومشاريكت المقبلة •

قالت له ذلك ، ووضعت الأيقونة حول عنقه ، وجهدت أن تعدلها .
أخنى ميتيا رأسه متحيراً ، وأخذ يساعدها ، وأفلح أخيراً فى أن يدس
الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره .

عندئذ قالت السيدة هوخلاكوفا بلهجة فيها أبهة :

— والآن هلمَّ الى مناجم الذهب .

وعادت تجلس .

قال ميتيا :

— سيدتى ! أنا متأثر جداً ... لا أدرى كيف أشكر لك هذه
العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة ... ولكن ليتك تعلمين مدى
استعجالى ! ... ان ذلك المبلغ الذى انتظره من كرمك وأنا ممتلىء
القلب بالأمل يا سيدتى ... آه ... ما أطيبك ، ما أعظم عطفك على !
(بهذا هتف ميتيا فى سورة صادقة) ... اسمحى لى أن أعترف لك ..
بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال ... اننى أحب امرأة فى هذه
المدينة ... لقد خنت كاتيا .. أقصد كاترين ايفانوفنا . وا أسفاه ! كان
سلوكى معها خالياً من الخلق والشرف ... تولعت هنا بامرأة أخرى
... امرأة لعلك تحتقرينها ، فأنت على علم بالأمر ، أعرف ذلك ...
ولكن يستحيل على أن أتركها ، يستحيل ! لذلك كانت هذه الثلاثة
آلاف روبل ...

قاطعت السيدة هوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة :

— دعك من هذا . دع النساء خاصة ! مناجم لذهب ، ذلك هو
هدفك بعد اليوم ، ولا شأن للنساء هناك ! فيما بعد ، حين ترجع غنياً
مجللاً بالمجد ، تختار حليلاً من بنات أرقى مجتمع : فتاة عصرية ،

متقفة ، متحررة من الآراء الشائعة • وفي ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التي يتحدث الناس عنها كثيراً في هذه الأيام ، ستكون قد حُلَّتْ ، وستظهر في روسيا امرأة جديدة •••

قال ميخا وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى في هيئة المتوسل :
- ولكن ليس هذا ، ليس هذا ما •••

- بل هو هذا ، هو هذا يا دمترى فيدوروفتش ! هو هذا ولا شيء سواه ! هنالك السعادة التي تشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك • انتي مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة • ان تحرر المرأة ، وحتى وصولها الى الحياة السياسية ، هو مثلي الأعلى • ان لي ابنةً يا دمترى فيدوروفتش ، والناس لا يعرفونني كثيراً في هذا المجال • لقد كتبت في هذا الى شتيرين* • ان هذا الكاتب قد كشف لي أموراً كثيرة ، كثيرة جداً ، أموراً لا تخطر على البال ، عن رسالة المرأة ، فوجهت اليه في العام الماضي كتاباً لم أذكر فيه اسمي ، كتاباً من سطرين : « أياك بحرارة ، يا عزيزي المفكر الكبير ، باسم المرأة العصرية • استمر ! » وذيلت الكتاب بهذا التوقيع : « أم • خطر ببالي أن أوقع : « أم عصرية » ، ولكنني اكتفيت ، بعد تردد ، بكلمة الأم ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يادمترى فيدوروفتش ؛ هذا عدا أن كلمة « عصرية » كان يمكن أن تذكره بمجلته « المعاصر » ، وأن توقف في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن ••• ولكن ماذا بك ؟ ماذا جرى لك ؟

كان ميخا قد وثب عن مقعده • وها هو ذا يضم يديه احدهما الى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة :

- سيدتي ! لسوف تبكينني اذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكلمت فوعدتني به •••

- ابك يا دمترى فيدوروفتش ، لا تخش أن تبكى ! ان هذه
العواطف تشرّفتك ... ما يزال طريقك طويلاً ! ستحسن الدموع
الك . سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً . ستجيشى من أعماق
سيريا خصباً لأشارتك فرحتك ...

أعول ميتاً فى هذه المرة يقول :

- اسمح لى أخيراً أن أقول كلمة . أرجوك مرةً أخيرة أن
تجيبنى : هل يمكننى أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم ؟ والا ففى أى يوم
تأمرين أن أجيء لأخذه ؟

- عن أى مبلغ تتكلم يا دمترى فيدوروفتش ؟

- عن الثلاثة آلاف روبل التى تكترمت فوعدتنى بها ... منذ
قليل ...

- ماذا ؟ ثلاثة آلاف روبل ؟ آه ... لا ... أنا لا أملك هذا
المبلغ .

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا بدهشة هائلة .

صق ميتاً . وقال :

- كيف هذا ؟ لقد وعدتني منذ برهة ... منذ هنيهة قصيرة ...
حتى لقد قلت اننى أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجوداً فى جيبى .
- آه .. لا ... لا شك أنك أسأت فهمى يا دمترى فيدوروفتش .
لا ، لا ، انك لم تفهمنى . لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب .
صحيح أننى وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ، تذكرت هذا
الآن ، ولكننى كنت لا أفكر عندئذ الا فى مناجم الذهب .

صاح ميتيا يقول بقاء :

- والمبلغ ؟ والثلاثة آلاف روبل ؟

- اذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال ، فيجب أن أذكر لك اننى لا أملك مالا . اننى الآن خالية الوفاض تماما يا دمترى فيدوروفتش . حتى اننى فى شجار مع وكيلى ، وقد اضطرت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام . لا ، لا ، لا أستطيع أن أسلفك شيئا . واعلم عدا ذلك يا دمترى فيدوروفتش اننى لو كنت أملك مالا لما أسلفتك أيضا ، أولا لأننى لا أقرض أحدا قط ، فالدين خصام دائما ؟ واذا أقرضت غيرك ، فلا أقرضك أنت ، لأننى أريد لك الخير ، وأريد أن أنقذك ، وما أنت فى حاجة الا الى شيء واحد : المناجم ، المناجم ، المناجم !

زأر ميتيا يقول :

- شيطان يأخذ المناجم !

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتى من قوة .

- آى آى آى ...

كذلك أنت السيدة هوخلاكوفا مرتاعة وهى تهرب الى آخر

الصالون .

بصق ميتيا من فـرط حنقه . وبخـطى سريعة ، اجتاز الغرفة ، وخرج من المنزل ، وأوغل فى الشارع المظلم . انه يسير الآن كمجنون ، ويلطم صدره بقبضة يده ، على ذلك الموضع نفسه الذى لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه فى الشارع ساعة الفسق . لماذا يلطم صدره هذا اللطم ، على هذا الموضع نفسه ، وماذا كان معنى هذه الحركة ؟

ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد ، حتى ولا لأليوشا . هذا سره فى تلك الساعة ، ولكنه كان يعلم أنه ، لأسباب يكتبها ، انما يسير الى هاوية العار ، الى انهيار حياته ، الى الانتحار . ذلك ما سيحدث حتماً اذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولينزع عن صدره ، « عن هذا الموضع بعينه من صدره » ، الخزى الذى يخنقه ، الحمل الذى يبهظه ، والذى يرهق ضميره أشد الارهاق . ان هذا كله سيتفصح مزيدا من الاتضاح فيما بعد . والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوى الجسم ، فانه ما ان ابتدع بضع خطوات عن منزل السيدة هوخلاكوفا ، حتى انفجر يبكى على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير . وها هو ذا يسمح دموعه بقبضتى يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب . وعلى هذه الحال انما وصل الى الميدان ، حيث أحس بفتنة أنه قد صدم شيئاً ما ، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها .

- يا رب ! كاد يقتلنى ! هلاًّ نظرت أين تسير أيها الوغد !

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز فى الظلام ؟

- كيف ؟ أهذا أنت ؟

لقد عرف ميتيا فى هذه المرأة العجوز ، خادمة كوزما كوزميتش

الطاعة فى السن التى لاحظها فى منزله الليلة البارحة .

سأله العجوز بصوت أصبح لطيفاً على حين فجأة :

- ومن أنت يا بنى ؟

- أنت فى خدمة كوزما كوزميتش ، أليس كذلك ؟

- هذا صحيح يا بنى ، وأنا ذاهبة الآن الى بروخورتش ...

لا أستطيع أن أميزك فى هذا الظلام ...

قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً :

- قولى لى يا أماء : هل أجرافين الكسندروفنا عندكم الآن • لقد
أوصلتها الى منزلكم منذ قليل •

- لقد جاءت يا بنى فمكنت لحظة ثم انصرفت •

فصرخ ميتيا :

- انصرفت ؟ كيف هذا ؟ الى أين ذهبت ؟

- لم تمكث عندنا الا دقيقة ، قصت خلالها على كوزما كوزميتش
قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت •

زأر ميتيا يقول :

- أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة •

فصات المرأة تقول مدعورة :

- آى ••• آى •••

ولكن ميتيا كان قد غاب •

أسرع ميتيا يركض بخطى كبيرة نحو منزل آل موروسوف • كانت
جروشنيكا قد سافرت منذ ربع ساعة الى موكرويه ، وكانت فينيا فى
المطبخ مع جدتها ماترين الطباخة ، حين ظهر « الكابتن » فجأة فى المنزل •
فلما رآته أطلقت صرخات ارتياح وجرع •

أعول ميتيا يسألها :

- ها ••• تصرخين ؟ أين هى ؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا ، التى شحب لونها شحوبا شديدا
من الذعر ، لأن تنطق بكلمة واحدة ، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها :

- فينيا ، قولى لى ، أناشدك يسوع المسيح ، الى أين ذهبت ؟
 - لا أدرى يا سيدى ، لست على علم بشئ . أيها العزيز دمترى
 فيدوروفتش . ولو قتلتى لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا . ثم
 انك قد خرجت معها منذ قليل .

كذلك أكدت فينيا متدفقة فى كلامها .

قال ميتيا :

- ولكنها عادت .

- لا ، لا ، يا عزيزى دمترى ، فيدوروفتش ، لم تعد ، أحلف لك
 بالله انها لم تعد !

صرخ ميتيا يقول :

- تكذبن ! وانى لأحزر من ذعرك وحده الى أن ذهبت ؟
 وأسرع يركض فى الشارع من جديد . فما كان أسعد فينيا بأنها
 تخلصت منه بمثل هذه السهولة ! فلقد أدركت حق الادراك أنه كان
 سيسومها سوء العذاب خلال ربع ساعة ، لولا استعجاله الشديد . على
 أنه قد فاجأ فينيا وماترين المعجوز ، حين انصرافه ، بحركة لم تكن فى
 الحسبان : كان هناك على المائدة هاون ومدق من نحاس ، ولكن المدق ليس
 كبيراً . فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضا ليخرج ، مد يده
 الأخرى فتناول المدق اختطافا ودسّه فى جيب سترته .

هتفت فينيا تقول وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

- رباه ! سقتل أحدا .

٤ في الظلام



اين كان يركض ؟ ذلك سؤال 'يحزر جوابه:
« أين عساها تكون ان لم تكن عند فيدور
بافلوفتش ؟ لا شك أنها ذهبت اليه رأساً بعد أن
غادرت منزل سامسونوف • الحيلة واضحة ،
والكذب مفضوح ! » • كانت هذه الأفكار تغلي في رأس ميتا •

تحاشى ميتا أن يمر بحديقة ماريا كوندرايفنا • قال لنفسه :
« يجب أن لا تراني ماريا بحال من الأحوال !... يجب أن لا أنبهها...
والا وشت بي فوراً ، وأبلغت أنتى هنا ... لسوف تخونني حتماً •
لا شك في أنها متواطئة معهم • وكذلك سمردياكوف • لقد اشترؤا
جميعاً ! » • لذلك سلك طريقاً آخر : دار دورة طويلة ، فمرّ بالشارع
الصغير الذي يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش ، واجتاز شارع
دمتريفسكا ، وعبر الجسر الضيق الصغير ، فوصل بذلك الى مكان خال
غير مأهول يقع وراء الفناء • ان هذا المكان يحلّده سياج بستان مجاور
من جهة ، ويحده من الجهة الأخرى السور العالي الذي يحيط بمنزل
فيدور بافلوفتش • واختار ميتا لتخطي ذلك السور الموضع الذي يروى
أن اليزابت سمردياشتايا قد تخطت السور منه في الماضي • قال ميتا لنفسه :

« لذا استطاعت تلك أن تتخطاه - لا يدري الا الله لماذا - فكيف لا أفلح أنا فى تخطيه ؟ » . واستطاع فعلاً من أول وثبة ، أن يتشبث بذروة السور بيده ، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعه قوية ، فاذا هو يصيح فى أعلى السور ، فيركب عليه ركوبه على حصان . ان حمامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان ، ومنه ' ترى نوافذ الدار المضاءة . قال ميتا يحدث نفسه : « طبعاً !... ان فى غرفة نوم العجوز نوراً . معنى هذا أنها عنده ! » . ووثب بعد ذلك الى الحديقة . ورغم علمه بأن جريجورى مريض ، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضاً ، وأن أحداً من المنزل لا يمكن اذن أن يسمعه فى هذه اللحظة ، فقد لعا متجعجا على نفسه بدافع الغريزة ، وجمد لا يتحرك ، وأصاخ بسمعه . ان صمنا كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله . لا نائمة ، ولا نائمة ... هدوء مطلق ، كأنما عن قصد وعمد ...

« الصمت وحده يهمهم » . خطر هذا البيت من الشعر بال ميتا . وقال يحدث نفسه : « أمل أن لا أكون قد سُمعت لحظةً ففزت ! ولكن يظهر أننى لم ' أسمع » . وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك ، تسلل بخطى وثيدة خلال الحديقة ، سائراً على العشب حتى يخلق كل ضجة . كان يتحاشى الأشجار والأدغال ، ويتقدم بطيئاً ، ولا يضع قدمه الا محاذراً ، ويصيح بسمعه الى أيسر صوت . فلم يصل الى النافذة المضاءة الا بعد خمس دقائق . وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباط كيفة تمتد أغصانها الى علو كافٍ . وكان الباب الذى يفضى من الحديقة الى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً ، فاتته ميتا الى ذلك ابتهاجاً خاصاً وسجله فى ذهنه عند مروره . ووصل أخيراً الى الشجيرات فأختبأ وراءها حاسباً أنفاسه . قال لنفسه : « يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات ، فلملهم قد سمعوا صوت وقع خطواتى ، فأخذوا

يصيخون بأسماعهم للتأكد ... أرجو أن لا أسعل أو أعطس

وانتظر دقيقتين ، خافق القلب خفقاناً شديداً ، حتى لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه . ثم قال لنفسه : « لا ... لا أستطيع ان أبقى هنا . ان دقات قلبي لن تهدأ ، فلا يمكنني أن أنتظر مزيداً من الانتظار » .

كان ميتيا محتباً في ظل مجموعة الأشجار التي ينير الضوء لأتني من النافذة جانبها الخلفي . ورأى نفسه يدمدم قائلاً : « دون أن يعرف لماذا : » ما أشد الاحمرار في أنمار أشجار الرباط هذه ! » ثم أخذ يدنو من النافذة بخطى كخطى الذئب ، حتى اذا بلغها انتصب واقفاً على رؤوس الأصابع . بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها . انها غرفة صغيرة ، تنقسم قسمين بحاجزين أحمرين ، كان فيدور بافلوفتش يسميهما « الصينيين » . قال ميتيا لنفسه : « الحاجزان الصينيان .. لا شك أن جروشنكا تختبئ وراءهما » . وأخذ ميتيا ينعم النظر في أبيه . كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل ، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهى بعقد ؛ وتحت ياقة الثوب يرى قميص أبيض نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب ؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذي سبق أن رآه أليوشا . قال ميتيا لنفسه : « لقد تجمل وتزين » . وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب . وها هو ذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيحاً بسمعه كأنما لينصت ؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من المائدة فصب نصف قدح من الكونياك وأفرغه في جوفه ، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رثتيه . وفكر بضع لحظات ، ثم اتجه نحو المرأة بخطى ذاهلة ، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذي يخفى جبينه ، وأخذ ينعم النظر في السدبات والبقع الزرق التي لم تختف بعد . قال ميتيا لنفسه : « أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد » . وفي تلك اللحظة

ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرأة ، والتفت فجأة نحو النافذة ، وأخذ ينظر الى الخارج . فما كان من ميتيا الا أن ارتدى فى الظلام بوشة واحدة .

وقال ميتيا لنفسه : « من الجائز أيضاً أن تكون محتبسة وراء الحاجزين ، وربما كانت نائمة . . . » فما ان تراءى له هذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ فى قلبه . وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة . « لا شك انه يترقبها هي اذ ينظر من النافذة الى الخارج . فليست اذن عنده ! والا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً ! واضح أن نفاذ الصبر يحرقه حرقاً » . وعاد ميتيا يقترب ، وأخذ يرصد أباه . كان العجوز قد جلس الى المائدة ، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس . ووضع كوعيه أخيراً على المائدة ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى . فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم !

وقال بصوت خافت جداً : « وحيد ! انه وحيد ! فلو كانت معه ، لكان وجهه وجهاً آخر » . ومن عجائب قلب الانسان ما شعر به ميتيا حينذاك : لقد أحس فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليست هناك ، نوع من خيبة الأمل عجيب لا يفهم ! فقال يشرح لنفسه : « لا . . . ان ما أحسه من احتياج لا يرجع الى انى لا أراها ، وانما يرجع الى أننى لا أملك أية وسيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنها ليست معه . » وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره فى تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء ، فلا تفوته شاردة ولا واردة ، حتى يدرك أدق تفاصيل الموقف . ولكن القلق كان يحتاج نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، لأنه ليس من أمره على يقين ، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع .

تسأل : « أهى هنا أم لا ؟ » • واشتعل خنقه • وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة ، فيمد ذراعه ، وينقر على الزجاج نقرات الاشارة المتفق عليها مع سمردياكوف وهى : نقرتان متباعدتان ، ثلاث نقرات متقاربة ، دلالة على أن « جروشسكا قد وصلت » • فانتفض العجوز ، ورفع رأسه ، ووثب من مكانه ، واندفع نحو النافذة • فارتى ميتا فى الظلام •

دمدم فيدور بأفلوفتش يسأل بصوت مرتجف :

- أهذا أنت يا جروشسكا ؟ أنت ؟ أين أنت يا ملاكى ؟ أين أنت يا جيبى ؟ أين أنت ؟

وكان يحتقن من فرط الانفعال •

قال ميتا لنفسه : « انه وحيد » •

واستأنف العجوز يسأل :

- أين أنت اذن ؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً الى جميع الجهات • وها هو ذا يضيف قوله :

- تعالى ! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة • تعالى فأريك المفاجأة •

قال ميتا فى سره : « هى الظرف الذى يضم الثلاثة آلاف روبل •

- ولكن أين أنت اذن ؟ لعلك قرب الباب ؟ سأفتح لك الباب •

وكاد يسقط من النافذة من شدة ميله عليها ليرى المرأة الشابة فى الظلام من جهة الباب الذى يفضى الى الحديقة على اليمين • ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى اذن لأسرع الى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب

جروشنيكا • كان ميتيا يرقبه من قرارة مخبئه بغير حركة • كان يراه من جانب • فكان وجهه الكريه المقيت ، وكانت جوزة عنقه ، وكان أنفه الأفي ، وكانت شفتاه اللتان تبسمان بانتظار شيق ، كان ذلك كله يبرز في ضوء ساطع يسقط عليه موارباً من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة • فإذا بكره غيف فطيع يغلى في قلب ميتيا فجأة ، فيقول في نفسه : « هذا هو ، هذا هو غريمي ، هذا هو خصمي ، هذا هو جلاؤدى ، هذا هو عدو حياتي ! » • انها سورة الحنق المبالغت المسعور الحاقد الظالم الى الانتقام ، الذى تحدث عنه الى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما فى الجناح قبل أربعة أيام جواباً على سؤال أليوشا له : « كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك ؟ » • لقد أجابه يومئذ قائلاً : « لا أدري ، أصبحت لا أدري • قد لا أقتل ، ولكن من الممكن أن أقتل • أخشى أن يصبح فى نظرى كريهاً على حين فجأة بوجهه المقيت فى تلك اللحظة • اننى أكره جوزة عنقه ، وأنفه ، وعينه ، وضحكته الصغيرة المستهتره • انه يثير فىّ تقززاً جسيماً • ذلك هو ما أخشاه خاصة • قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسى ، »

وكان التقزز الجسمى الذى يحس به ميتيا لا حدود له • فإذا هو ، دون أن يدرك ماذا يفعل ، يخرج من جيبيه مِدَقَّ الهساون على حين فجأة ...

سوف يقول فيما بعد ان الله كان ساهراً عليه فى تلك الدقيقة • ففى تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجورى فاسيلفتش فى سريره الذى كان قد اضطلع عليه مريضاً • كان جريجورى قد لجأ فى المساء الى استعمال الدواء الذى ذكره سمردياكوف فى حديثه مع ايفان فيدوروفتش ، أى ذلك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الخمر ومنلى أعشاب قوى

ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط ، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سريعاً بصوت خافت . ثم رقد وذات مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً ، ولكنها لم تلبث أن نامت الى جانب زوجها نوماً عميقاً على لفور ، لأنها لم تألف شرب الكحول ، ولم تتعوده . أما جريجورى فقد استيقظ من نومه فى وسط الليل على غير توقع ، وفكّر لحظة ، ثم اذا هو يجلس على سريريه رغم أنه أحس بألم شديد فى المنطقة الحلقوية . فلما فكر من جديد ، نهض وأسرع يرتدى ثيابه . من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقى البيت بغير حارس يحرسه « فى فترة خطيرة الى هذا الحد » . وكان سمردياكوف الذى صرعه التوبة ، راقداً بلا حراك فى الغرفة الصغيرة المجاورة . ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا ، فقال جريجورى لنفسه وهو يلقى نظرة عليها : « انها لم تتحمل الدواء » ثم خرج الى درجات الباب وهو يثن . كان لا يستهدف الا أن يلقى نظرة على الخارج ، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشى ، بسبب الألم الشديد الذى كان يشعر به فى الكليتين والساق اليمنى . ولكنه تذكر فى تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة الحديدى فى المساء . ان جريجورى رجل دقيق المواعيد منظم السلوك ، لا ينحرف أبداً عن القواعد التى فرضها على نفسه الى الأبد ولا عن العادات التى أخذ نفسه بها خلال سنين . وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلويماً من الألم ، ويتجه الى الحديقة . وكان باب الحديقة الحديدى مفتوحاً حقاً . أترأه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يتوقع ؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار ، رأى النافذة فى غرفة نوم مولاه مفتوحة ، ولم ير أحداً عليها ؛ فتساءل : « كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا فى فصل الصيف ؟ » ، ولح فى تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك فى الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه . كان هناك رجل يهرب فى الظلام . صاح جريجورى يقول : « رباه ! » ، ثم نسي فجأة

أله ، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار ، فسلكت أقصر طريق ، لأنه يعرف الحقيقة أكثر مما يعرفها الرجل الذى يطارده . لقد اتجه الهارب نحو الحمامات ، فدار حولها ، ثم اندفع صوب الحائط . وكان جريجورى يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره ، فوصل الى السور فى اللحظة التى كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور ؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره ، ويمسك احدى ساقى الرجل بكلتا يديه .

لم يخطئه حدسه ؛ عرف الرجل : انه ذلك الشيطان الرجيم
« قاتل أبيه » .

زأر المعجوز يقول :

— يا قاتل أبيه !

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك : فيها هو ذا يهوى على الأرض مجذلاً .

قفز ميتا الى الحقيقة من جديد ومال على الخادم الذى جند له . وكان ميتا يمسك المدق النحاسى بيده ، فرماه على العشب ذاهلاً . سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى ، لا بين الحشائش ، بل فى المرء أى فى أبرز موضع يرى . ولبت ميتا بضغ لحظات يتأمل جسم الخادم المعجوز الدامى رأسه ، ومدَّ يده يجس الرأس . لقد تذكر ميتا فيما بعد ، تذكراً واضحاً ، أنه شعر فى تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم ، الى « التأكد تأكداً كاملاً » : هل كُسرَت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد انغمى عليه بسبب الضربة التى أصابت صدغه . ولكن الدم الحار كان يتدفق فيفرق أصابع ميتا المرتجفة . وتذكر ميتا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به

حين ذهب الى السيدة هوخلاكوفا ، فوضعه على وجه جريجورى ، محاولاً
بغناء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه . فسرعان ما ابتل المنديل
بالدم خلال بضعة نوان . فأسرع ميثيا يتساءل فجأة وقد ناب الى رشده :
« ما بقائى هنا ؟ » ثم أضاف يقول يائساً : « وكيف يمكننى أن أعرف
الآن هل كُسرَت الجمجمة أم لا ؟ وما جدوى هذا على كل حال ؟ ما وقع
فقد وقع ... ولقد كان المعجوز متهوراً فقال ما يستحق ! » . بهذا ختم
ميثيا كلامه بصوت عالٍ ، ثم اندفع نحو السور ، فتسلقه ، وقفز الى
الشارع الضيق ، وانصرف راكضاً . وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى
منديله المبلل بالدم ، فدهسه فى جيب سترته دون أن يهتدى سرعة
ركضه . كان يعدو عدواً شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه ؛ ولسوف
يتذكر عدة مارة صادفوه فى الشوارع أنهم رأوا فى تلك الليلة رجلاً
يهرب فى الظلام طائش العقل .

اتجه ميثيا من جديد الى منزل آل مورويسوف . كانت فينا قد
أسرعت ، بعد انصرافه ، الى بيت البواب نازير ايفانوفتش فتوسلت اليه
« باسم يسوع المسيح أن لا يدع «الكابتن» أن يدخل المنزل مرة أخرى ،
لا فى هذا المساء ولا فى الغد » ، فوعدها نازير ايفانوفتش بأن يلجئ
رجاءها ، ولكنه اذ اضطر أن يذهب الى مالكة المنزل فى الطابق الأعلى ،
عهد بمراقبة الفناء الى ابن أخيه ، وهو فتى فى العشرين من عمره كان
قد وصل من الريف مؤخراً ، ونسى أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه
به بشأن الكابتن ، فلما وصل دتمرى طرق الباب ، ففتح له الشاب الفلاح
فرفه ، لأن ميثيا كان قد أعطاه « بقاشيش » كبيرة مرات كثيرة ، وتركه
يدخل ، حتى لقد أسرع ببلغه ، وهو يتسهم ابتساماً تودد ، أن « أجرافين
الكسندروفنا ليست فى بيتها » . فسأله ميثيا بحرارة :

— فاين هي يا بروخور ؟

فقال له الشاب :

- سافرت الى موكرويه منذ أكثر من ساعتين ، وتولى تيموتى قيادة الخيل •

صاح ميتا يسأله :

- ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

- لا أدري يا سيدى ! ضابط استدعاها وأرسل اليها عربةً تقلها •

كان ميتا قد انقطع عن الاصفاء اليه • فلقد أسرع يدخل البيت كالمجنون باحثاً عن فينيا •

فرار مفاجئ



فينا في المطبخ مع جدتها ، وكانت المراتان
تستعدان للنوم • وقد اعتمدتا على يقظة نازير
ايغانوفتش ، فأهملتا مرة أخرى أفعال الباب
بالمفتاح • اقتحم ميتا الغرفة ، وارتدى على فينيا ،
فقبض على عنقها ، وزأر يسألها خارجاً عن طوره :

- قولى لى حالا ، مع من هى فى موكرويه الآن ؟

فأطلقت المراتان صرخة حادة • وجمجمت فينيا تقول بسرعة وقد
استحوذ عليها هلع رهيب :

- سأقول كل شيء يا دمتري فيدوروفتش العزيز ، سأتكلم ، لن
أخفى شيئاً • لقد ذهبت جروشنكا الى لقاء ضابطها فى موكرويه •

صرخ ميتا يسألها :

- أى ضابط ؟

فأسرعت تجيبه :

- الضابط الذى عرفته فى الماضى ، منذ خمس سنين ... الضابط
الذى تركها وسافر •

أعنت ميتيا عنق فينيا • ولبت أمامها لحظة لا ينطق بكلمة ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبرت نظراته عن أنه أدرك الحقيقة الآن على حين فجأة ، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركها • لقد ظلت جالسة على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا ، ولبت ترتعش جامدة على ذلك الوضع نفسه مادة ذراعها كأنما لتحمي نفسها • وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقاها من الجزع تحدقان الى ميتيا الذي كانت يدها حمراوين من الدم ، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح يديه العرق الذي كان يتصبب من وجهه ، فكانت بقع الدم ترى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى • وشعرت فينيا أنها توشك أن تصاب بنوبة عصبية • وكانت المجوز الطباخة التي وثبت عن مكانها تنظر الى المشهد مذعورة النظرات ، نصف مجنونة من شدة الهلع • وبعد دقيقة من صمت تهالك ميتيا على كرسي قرب فينيا •

كان ميتيا لا يفكر • انه الآن أقرب الى أن يكون خائفا مذهولاً • كان كل شيء قد اتضح : انه ذلك الضابط • وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب الى جروشنيكا منذ شهر ، وقد عرف ذلك من جروشنيكا نفسها • فخلال شهر اذن ، خلال شهر كامل ، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره ، الى أن وصل الخصم الجديد ، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكرث له أو قلق منه • كيف أمكنه أن لا يفكر في هذا الضابط يوماً ، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن رأى رسالته ؟ كان هذا السؤال يعذب ميتيا كأمر عجيب غريب ، وبمعت في نفسه خوفاً ورعباً •

وهاهنا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة ولطف وكياسة ،

كطفل طيب خجول ، دون أن يتذكر كيف داهمها وقسا عليها منذ لحظات . أخذ يلقي عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل في مثل حالته فكانت فينا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة ، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين ، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه شيئاً وأن لا تخفى عنه شيئاً . ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة في أن تكشف له عن جميع التفاصيل ، لا بقصد ايلامه ، بل عن رغبة صادقة منها في أن تكون نافعة له . قصت عليه أحداث النهار تفصيلاً ، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا ، وحكت له كيف أنها كلّفت بالترقب والترصد ، وروت له سفر جروشنيكا ، وردّت على مسامعه التحيات التي حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها إليه ، بنية « أن يتذكر على مدى حياته الساعة التي أحبه فيها » . فلما وصلت فينا الى هذه النقطة من حديثها ابتسم دمترى ، واحمر خداه الشاحبان بضع ثوان . وتجرات فينا عندئذ فسألته دون خوف في هذه المرة :

— لماذا أرى يدك ملوطين بالدم يا دمترى فيدوروفتش ؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً :

— آآآ نعم ... صحيح .

وألقي على يديه نظرة ذاهلة .

ولكنه سرعان ما نسي السؤال الذي ألقي عليه ، وغرق في الصمت . لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا . ان الرعب الذي اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن ، وبدأ على ميتيا أن قرأراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلّ محل ذلك الرعب . وها هوذا ينهض فجأة ويتسمّح حالماً النظرة ذاهل اللب شارد الفكر .

سأله فينيا وهى تشير الى يديه :

- ماذا وقع لك يا سيدى ؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة ، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها اليه فى لحظة الشقاء هذه التى يمر بها •
نظر ميتيا مرة أخرى الى يديه • ثم أجابها وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

- هو دمٌ يا فينيا ••• دم انسانى ••• الله وحده يعرف لماذا سُفِّح هذا الدم ••• ولكن اعلمى يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر اليها فى تلك اللحظة نظرة من يلقى عليها «فزورة») سور رهيب ••• وغداً ، عند الفجر ، حين تبدأ الشمس مسيرتها ، سيقفز ميتيا ذلك السور ••• انك لا تفهمين يا ميتيا أى سور أعنى ••• لا ضير ••• ستعرفين ذلك غداً ، وستفهمين عندئذ كل شئ ••• أما الآن ، فوداعاً ! لن أكون عقبه فى طريق سعادتها ، سأعرف كيف أمحي ••• عشى واسعدى يا فرحتى ، يا ضيائي ••• لقد أحيتنى ساعة ، ولسوف تذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك ••• تعلمين أنها كانت تناديني ميتنكا !

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أزعجها أكثر مما أزعجها وصوله حين اقتحم العرفة وهجم عليها •

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمترى فيدوروفتش يمثل أمام بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف الشاب الذى استودعه المسدين رهناً • كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وكان بطرس ايلتش قد احتسب الشاى ، وارتدى ردنجوته ليمضى يلعب البلياردو قليلاً فى كاباريه

« العاصمة الكبرى » ... وصل اليه ميتيا في اللحظة التي كان يهيم فيها أن يخرج . فما ان رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ مدهوشاً .
- ماذا وقع لك ؟

- لا شيء ! جئتُ أردُّ اليك مالك واسترد المسدسين . لقد قدمت لى خدمة كبيرة . أنا مستعجل جداً يا بطرس ايلتش ، فلا نضيعن الوقت . كانت دهشة بطرس ايلتش ما تنفك تزداد : ذلك أنه رأى فى يدي ميتيا كدسة أوراق نقدية ، وأغرب ما فى الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد : كان قابضاً عليها بيده اليمنى التي يقدمها الى أمام كأنما ليعرضها . وقد صرَّح الخادم الشاب الذى يعمل فى منزل الموظف ، صرَّح فيما بعد أن دمترى فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال ، وأن أغلب الظن اذن أنه كان فى الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهى أوراق من فئة المائة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة .

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدماة . وقد ذكر بطرس ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخيم ، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده ، وأن من الجائز أن يبلغ ألفى روبل وربما ثلاثة آلاف روبل ، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال ، كانت سميكة جداً . أما دمترى فيدوروفتش فلقد كان ، كما ورد فى الشهادة التي أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد ، « فى حالة غير طبيعية ، ولكنه لم يكن ثملاً » ، وانما كان شديد الاندفاع ، عميق الذهول ، رغم أن منظره يُشعر فى الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله ، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح فى الوصول اليه . وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً ، وكان يجيب بأجوبة مباغتة ، وجمل قصيرة ، غريبة . وكان يمكن أن يُظن فى بعض اللحظات أنه فرح لا حزين .

صاح بطرس ايلتش يسأل من جديد وهو يتفرس فى زائره مذهولاً :

- ولكن ماذا بك ؟ ماذا فعلت حتى تملطخت بالدم هذا التلطح كله ؟
أترك سقطت على الأرض ؟ أنظر الى نفسك فى المرأة •

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة • فلما رأى ميتا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه • ودمدم يقول حاتقاً :

- هه ! لم يكن ينقص الا هذا ...

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يدها اليمنى الى يده اليسرى ، وأخرج منديله من جيبه بحركة متشنجة • كان هذا المنديل (الذى استعمله ميتا فى مسح وجهه جريجورى) ملطخاً بالدم ، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتا فى فضاها ، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بطرس ايلتش قائلاً :

- أليس عندك خرقة ... أمسح بها ؟

- تمسح ؟ أأنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب ؟ أأنت جريحاً اذن ؟
اذا كان الأمر كذلك فتمال اغتسل • سأعطيك طشت ماء •

- شكراً •• ولكن أين أضع هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى حزمة الأوراق المالية ، سائلاً بطرس ايلتش بنظراته كأن بطرس ايلتش هو الذى يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتا بماله • قال بطرس ايلتش :

- ضع المال فى جيبيك •• أو ضعه على المائدة هنا ••• فلن يأخذه أحد •

- فى جيبي ؟ طبعا فى جيبي ••• عظيم •••

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله :

- هذا كله سخيف ! ... لا ... يجب أن نسوّى تلك المسألة أولاً ... هات المسدين ... اليك المال ... انتى فى حاجة ماسة الى المسدين ... وأنا مستعجل جداً ... ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها •

قال ذلك ومدّ الى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة • فقال له بطرس ايلتش :

- لا أستطيع أن أبذلها لك ... أليس معك نقود صغيرة ؟

فأجابه ميتيا :

- لا ...

ولكنه جس ورقتين آخرين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه ، ثم أضاف :

- لا ... ليس عندى أوراق صغيرة ... هى جميعاً واحدة •

قال ذلك ونظر الى بطرس ايلتش مرتبكاً •

سأله الموظف الشاب :

- من أين جاءتلك هذه الثروة كلها ؟

ثم أضاف يقول :

- انتظر ! سأرسل الصبى الى مخزن آل بلوتنيكوف • انهم يفلقون

متجرهم فى ساعة متأخرة ، وسيدلون لنا هذه الورقة • هيه ! ميشا !

كذلك نادى الصبى وهو يفتح الباب •

هتف ميتيا يقول فيما يشبه الالهام المبالغت :

— مخزن آل بلوتيكوف ؟ فكرة رائعة ...

ثم قال يخاطب الصبي الذى دخل الغرفة فى تلك اللحظة :

— ميشا ؟ أركض الى متجر آل بلوتيكوف * ، وقل لهم ان دمتري فيدوروفتش يبلغكم تحياته ، وانه سيجي اليكم بنفسه بعد قليل ...
وقل لهم أيضاً هذا : أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولي انهم . نعم ...
ثلاث دسات شمبانيا ... وليحزموها كما فعلوا فى المرة الأخيرة حين
سافرت الى موكرويه ... لقد طلبت يومئذ أربع دسات (كذلك
أضاف يقول فجأة وهو يلتفت الى بطرس ايلتش) . وهم يعلمون على
كل حال ، يا ميشا ... لا تهتم بشيء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً
الصبي) ... ها نعم ! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جنباً ، وفطائر من
ستراسبورج ، وأسماكاً مدخنة ، وشرائح من فخذ الخنزير ، وكافياراً ،
أى شيئاً من كل ما عندهم فى مخزنهم ، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو
مائة وعشرين روبلاً كما فى المرة السابقة ... وقل لهم كذلك أن
لا ينسوا الملابس والساكر الذوابة والكمثرى ، وبطيختين أو ثلاثاً ...
لا بل تكفى بطيخة واحدة ... ولكن لا بد فى مقابل ذلك من شوكولاتة
وسكر شعير ، وفاكهة مرببة وكارامل لين ، تماماً كالمرّة الماضية ؟ فيكون
الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل ... تماماً كالمرّة السابقة ...
هل ستذكر ياميشا ؟ أليس اسمه ميشا ؟ (وجّه هذا السؤال الى بطرس
ايلتش) .

قال بطرس ايلتش الذى كان يصنى اليه ويلاحظه قلقاً :

— لحظة ! ... أليس الأفضل أن تأمرهم أنت باعداد الأشياء ؟

لا شك أن الصبي سيخطئ .

— سيخطئ ، سيرتبك ! أوه ! ميشا ! كنت أريد أن أقبلك منذ

الآن شكراً لك ... اسمع : اذا لم تخطيء في تنفيذ المهمة ، فلك منى عشر روبلات • هيا أسرع ... لا تنس السجانيات خاصة ، يجب أن يحضروا كثيراً من السجانيات ... وكذلك من الكونياك ... أبيض وأحمر ... تماماً كالمرّة السابقة • هم يعرفون ما طلبته في المرة السابقة •

قاطعه بطرس ايلتش قائلاً وقد نفذ صبره :

— هلاً تركنتي أتكم آخر الأمر ؟ أعود فأقول لك : حسب الصبي أن يجيئنا بالنقود ، وأن يوصيهم بأن لا يفلقوا متجرهم قبل وصولك • وستذهب اليهم فوراً ، فتعمل ما يجب بنفسك • اعطني هذه الورقة ... والآن هياً يا ميشا ، وأسرع ... فهمت ؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع في صرف ميشا الذي كان ينظر محمق العينين الى الزائر الذي تلمطخت يداه وتلطح وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية • كان الغلام واقفاً أمام ميتا فاغر الفم ، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له •

فلما انصرف الغلام قال بطرس ايلتش بلهجة جافة :

— والآآن تعال اغتسل • ضع المال على المائدة أو ضعه في جييك ... هكذا ... اقرب ... اخلع عنك هذا الرديجوت !

وساعده في خلع الرديجوت ، فاذا هو يصيح فجأة من جديد قائلاً :

— أنظر ... الرديجوت أيضاً ملوث بالدم •

— ليس هو ... ليس هو الرديجوت ... الكم وحده اتسخ قليلاً في هذا الموضع ... وهنا أيضاً ... ذلك لأنني هنا انما دسست

المنديل ، فنضح الدم ... ولا بد أننى قدمت عليه عند فينا ، فرشح الدم من الجيب .

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر فى سورة من ثقة عجيبة . فقطب بطرس ايلتش حاجيه . وقال متذمراً :

– هأت ذا دبرت أمرك ! أتراك اقتلت مع أحد ؟

وابتدأ التنظيف . تناول بطرس ايلتش جرةً وأخذ يسكب الماء فكان ميتياً من فرط تعجله لا يحسن « تصين » يديه (كانت يدها ترتعشان ؛ تذكر بطرس ايلتش ذلك فيما بعد) ، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيصبّ يديه من جديد . كان الموظف فى تلك اللحظة يسيطر على ميتيا ، وكان سلطانه عليه يقوى شيئاً بعد شيء . يحسن أن تشير هنا الى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع .

– أنظر : لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر . وادلك وجهك الآن . أكثر من هذا ! هنا على الصدغين ، وقرب الأذن أيضاً ... هل تنوى أن تنصرف لابساً هذا القميص ؟ والى اين تريد أن تذهب ؟ ألا ترى أن الكم اليمنى ملأى بالدم ؟

فقال ميتيا وهو يفحص الكم :

– حقا ! انها ملطخة .

– بدّل اذن ملابسك الداخلية .

– لا يتسع وقتى . سأدبر هذا الأمر : أثنى طرف الكم نحو الداخل ، فلا يرى الدم ... هكذا ...

كذلك أجاب ميتيا بتلك الثقة نفسها ، وهو يجفف وجهه ويديه ويرتدى رديجوته .

- قل لى الآن ما وقع لك ؟ هل اقتلت مع أحد ؟ مع من اقتلت ؟
أفى الكاباريه ، كما حدث هذا من قبل ؟ أتراك اقتلت مرة أخرى مع
ذلك الكابتن نفسه الذى جررته الى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً ؟
(ذكر بطرس ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمه) • من ذا ضربت اليوم
••• أم تراك قتلت أحداً ؟

- سخافات !

- سخافات ؟ ماذا تعنى ؟

قال ميتيا :

- دعك من هذا الأمر •

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب الى نفسه :

- دست امرأة عجوزاً فى الميدان •

- دست امرأة عجوزاً •

- بل رجلاً عجوزاً •

كذلك صحَّح ميتيا أجابته ضاحكاً ، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً
أطرش • وكان يسدد نظراته الى عيني بطرس ايلتش •

- رجل عجوز ••• امرأة عجوز ! ••• أصبحت لا أفهم ! •••
أتراك قتلت أحداً ؟

- لا بل تصالحنا • تضاربنا فى أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك •
حدث ذلك هناك • وافترقنا صديقين • ثم انه غيى أبله ••• أوه ! لقد
غفر لى وعفا عني ••• لابد أن يكون قد صفح عني فى هذه الساعة •••
ولو قد نهض ، لما أمكن أن يغفر لى ••• هه ••• فليذهب الأبله الى

الشیطان ! هل تسمعنى يا بطرس ايلتشن ؟ فليذهب الى الشیطان ! لا أريد أن أهتم به بعد الآن ، لا أريد أن يخطر ببالى فى هذه اللحظة !

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة • قال بطرس ايلتشن :

- لا أحب أن أكون كثير الفضول ••• ولكن أية لذة تجد فى التشاجر مع أول قادم ؟ ••• وفى سبيل ترهات وسفاسف ، كما حدث مع ذلك الكابتن ؟ تقتل ثم تمضى تلهو وتقصف ، ذلك طبعك حقاً ! ثلاث دسات شمبانيا ! أين تقدر أن تشرب هذا كله ؟

- أعطنى المسدسين بسرعة • أنا مستعجل جداً ، أحلف لك ! كنت أود لو أترثر معك يا عزيزى ، ولكن ليس فى وقتى متسع • ثم فىم الثرثرة ؟ لقد فات أوان الكلام الآن • آه !••• ولكن ! أموالى ، أين أين وضعتها ؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر •

- أموالك على المائدة ••• هناك ••• وضعتها على المائدة بنفسك • هل نسيت ؟ لكأن المال ليس له أى شأن عندك حقاً ! أما مسدسك فهاكهما • انى لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر ، ثم اذا بك تقبض بيدك الآن على ألوف • كم معك على وجه الدقة ؟ ألفان ، ربما ثلاثة آلاف ؟

أجاب ميتيا ضاحكاً :

- ثلاثة آلاف •

ودس الحزمة فى جيب سرواله •

- سوف تضعها هكذا ؟ أتراك اكتشفت منجم ذهب ؟

صاح ميتيا يقول بصوت قوى وهو ينفجر بضحك صاحبه
مجلجل :

- مناجم ، مناجم ذهب ! هل تهلك المناجم يا عزيزى الشهم
برخوتين ؟ اننى أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور اذا
أنت مضيت باحثاً عن المناجم • لقد أعطتني أنا ثلاثة آلاف روبل ، فالى
هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم ! هل تعرف السيدة هوخلاكوفا ؟

- أعرفها بالنظر ، وبالسمعة أيضاً • أهى التى أعطتك الثلاثة آلاف
روبل ؟ أعطتكها هكذا ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش وقد بدا فى وجهه أنه لم يصدق زعم
صاحبه •

- اذا كنت لا تصدق ما أقول فاذهب اليها غداً منذ الفجر ، ساعة
يرتقى فيبوس قبة السماء مسبحاً بحمد الرب ممجداً عظمتة بشبابه
الخالد • اذهب اليها فاسألها ألم تعطينى ثلاثة آلاف روبل ، وسوف
تعلم •

- لا أتدخل فى علاقاتك • وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن
يكون صحيحاً ••• ولكنك ما ان استلمت المبلغ حتى أخذت تلهو
وتقصص وتبدد ، بدلاً من أن تذهب الى سيبيريا ! ••• الى أين تنوى أن
تذهب فى هذه الساعة ؟

- الى موكرويه •

- الى موكرويه ؟ ليلاً ؟

قال ميتيا فجأة :

- كان العالم ملك يمينى ، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً !

- لا تملك شيئاً ؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل ؟
 - لا قيمة لها عندي ! ألا فليذهب المال الى الشيطان *** وانما أنا
 أتكلم عن طبع النساء ***

فكر النساء سريع التصديق *
وقلبهن كثير التقلب فاسد

ان أوليس هو الذى قال هذا ، وأنا أوافق فى رأى كل الموافقة .
 - لا أفهمك .
 - أظن أنك تحسبنى ثملاً ؟
 - لا ثملاً ، ولكن ربما أسوأ من ذلك .
 - أنا ثمل بالمعنى المجازى يا بطرس ايلتش ، لأن روحى هى
 السكرى . ولكن كفى هذا الآن ***
 - ماذا تفعل ؟ أتخشو مسدسك ؟
 - نعم أخشوه .

كان ميتيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً ، فبعد أن سكب باروداً
 فى خرطوشة ، دسَّ الخرطوشة فى المسدس ؛ وقبل أن يضع الرصاصة
 فى السبطانة ، أمسكها بين اصبعين وأخذ ينعم النظر إليها فى ضوء
 الشمعة .

سأله بطرس ايلتش الذى كان يراقبه بفضول قلق :
 - لماذا تنظر الى الرصاصة ؟

- هى نزوة لا أكثر *** لو كنت تنوى أن تسكن هذه الرصاصة
 فى دماغك ، أفما كنت تنظر إليها حين تخشو المسدس ؟

- أنظر إليها ؟ لماذا ؟

- ما دامت ستفند في جمجمتي أنا ، فانه ليهمنى أن أرى هيئتها قليلاً ! ... هذه سخافات أقولها على كل حال ، لا أدري ماذا أصابني .
ثم أضاف يقول بحرارة وهو يدخل الرصاصة ويرسخها بالمشاقفة :

- انتهى ! ما هذا كله الا سخافات يا عزيزى بطرس ايلتش ، سخافات لا أكثر ... ليتك تعلم مدى ما فى هذا كله من غباء . أعطني ورقة بسرعة !

- هذه ورقة •

- بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه • هذا يصلح على كل حال •

وتناول ميتيا ريشة من على المنضدة ، فكتب على الورقة سطرين بسرعة ، وطوى الورقة أربعة أرباع ، ودسها فى أحد جيوب صدرته • وبعد ذلك أعاد المسدسين الى العلبة ، وأففلها بالمفتاح واحتفظ بها فى يده • ثم راح ينظر الى بطرس ايلتش ملياً ، وهو يتسم ابتسامة حالمة • وقال :

- والآن أمضى ؟

- الى أين ؟ قف ! أملك تفكر فعلاً فى ارسال هذه الرصاصة الى رأسك ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش متدخلًا ، وقد اشتد قلقه •

- هذه الرصاصة ؟ يا للغباء ! ألا فاعلم أنتى أريد أن أحياء ، لأننى أحب الحياة ! انتى أعظم حباً لفيوس وضفائره الذهبية وحرارته من أن

يخطر ببالي الانتحار ... قل لى يا عزيزى بطرس ايلتش : هل تستطيع أنت أن تمحى ؟

- أن أمحى ؟ ماذا تعنى ؟

- نعم أن تمحى ، أن تزول من الدرب • أن تخلق الساحة للانسان الذى تجبه والانسان الذى تكرهه ؟ وأن تحب حتى ذلك الذى كان عليك أن تكرهه ... أن تبعد عن طريقهما قائلًا : « هيا اسعدا ، وليحرسكما الله ، أما أنا فسوف ...

- سوف .. ماذا ؟

- لا شيء ! فلأمض ...

- أحسب أننى سأبلغ أقرباءك ليمنعوك من السفر • ماذا عمسك فعلا فى موكرويه ؟

كذلك قال بطرس ايلتش وهو يتفرس فى ميتيا • فأجابه ميتيا :

- فى موكرويه امرأة ... امرأة ... هأنت ذا عرفت الآن مافيه الكفاية يا بطرس ايلتش ! حسبك هذا !

- اسمع لى : أنت انسان متوحش ، ولكنك كنت دائما محبيا الى قلبى • فانا الآن شديد القلق عليك ...

- شكراً يا أخى ! أقول اننى متوحش ؟ هذا صحيح ! ذلك ما كنت أدعيه دائما : متوحشون ، متوحشون ... آ ... هذا ميشا قد عاد • كنت قد نسيتيه •

وصل ميشا لاهنا يحمل النقود • فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون ويعملون » ، فهم يحملون الزجاجات زيهيئون السمك ويجلبون الشاى ، وأن كل شيء سيكون قد تم اعداده بعد بضع دقائق •

تناول ميتيا ورقة مالية بعشرة روبلات ، فمدّها الى بطرس ايلتش ، ورمى
للمصبي ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها .

- مستحيل ! لا أسمع لك بأن تعطيه « بقاشيش » فى دارى . فان
ذلك سيفسده . أعد هذا المال الى جييك ولا تبدده . قد تحتاج اليه فى
القريب . انتى لأتنبأ بأن تعود الى منذ الغد لتستدين عشرة روبلات ...
ولكن لا ... لا تدسّ جميع هذه الأوراق فى جيب السروال ، والا
ضاعت منك !

- هيه يا صديقى ! ليتنا نذهب الى موكرويه معاً . ما رأيك ؟
- ما ذهابى أنا الى هناك ؟

- اسمع ! سنفتح احدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة .
انتى فى حاجة الى شرب شئ من الشمبانيا . فلنشرب معاً ! أظن أننا لم
نشرب معاً فى يوم من الأيام ! وأنا أحرص على هذا وأصر عليه !
- لك ما تشاء ! فلنذهب اذن الى الكاباريه . لقد كنت أنوى أن
أذهب الى هناك .

- لا الى الكاباريه ! ليس فى وقتى متسع . سنشرب عند آل
بلوتنيكوف ، فى الحجرة التى وراء الدكان . سألقى عليك « فزورة » ،
هل توافق ؟
- أنقها .

أخرج ميتيا من جيب صدرته الورقة التى كان قد طواها ووضعها
فيها ، ففحص الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب . فقرأ هذا الجملة التالية
التي كتبها عليها ميتيا بأحرف كبيرة : « انتى أعاقب نفسى مكفراً عن
حياتى كلها ، وأقبل هذا العقاب » .

قال بطرس ايلتش بعد أن قرأ الجملة :

- أحسب حقاً أن علىَّ أن أبلغ أقاربك ! سأقوم بهذا !

- لن يتسع وقتك يا عزيزي ! هلمَّ نشرب ! ذلك أفضل !

يقع متجر آل بلوتنيكوف في ناحية الشارع قريباً جداً من دار بطرس ايلتش . انه أكبر « بقالية » في المدينة ، وهو مشروع تجارى مزدهر ناجح يحسن أصحابه ادارته ؛ وفي هذا المتجر يباع كل شيء ، كما في المخازن الكبرى بالعاصمة : خمور من « آقية الاخوة السيف » ، فاكهة ، سيجار ، شاي ، سكر ، بن ، الخ . وفيه يعمل ثلاثة مستخدمون مقيمون ، وغلامان متجولان يحملان السلع الى منازل الزبائن . لقد أصيب اقليمنا بفقر شديد ، وغادره أثرياء المالكين ، وبارت التجارة فيه ، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة ، حتى يمكن القول انها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة : ان السلع التي من هذا النوع لا تعدم من يشتريها في كل زمان .

كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول مئبىا الى مخزنهم نافدى الصبر ، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة ، اذ ابتاع ، دفعةً واحدة ، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عدداً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين) ؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده ، كما فى هذه المرة ، حزمة أوراق مالية ضخمة ، وأنه كان يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر فى فائدة تلك السلع الكثيرة التي اشتراها . وقد روى بعد ذلك فى المدينة كلها أنه « حين ذهب الى موكرويه بصحبة جروشنكا ، قد أنفق فى ليلة واحدة وفى النهار الذى أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله ، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد فى جيبه ، كما ولدته أمه

تماماً ، • ذلك أنه قد استأجر فرقة من الفجر (كانوا يسكرون أيامئذ على مقربة من بلدتنا) ، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات ، ومن أجل أن يفتحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات ، مستغلين سكره • وقد روى الناس أيضاً ، في معرض السخر من ميتيا ، أنه قدم شمبانيا لفلاحى موكرويه ، وأنه أشبع بنات الحى فطائر ستراسبورجية وأنواعاً من الحاوى • وكان الناس يتندرون أيضاً ، ولا سيما فى الكابريه (ولكن لا بحضور ميتيا ، والا تعرضوا للمخاطر) ، كانوا يتندرون بتلك الواقعة التى ذكرها هو نفسه على رموس الأَشهاد ، وهى أنه لم يحظ من جروشكا ، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة ، الا بقبلةٍ من قدمها ، ولا شئ غير ذلك •

حين اقرب ميتيا وبطرس ايلتش من البقالية وجدا على بابها مركبة ترويكما مجهزةً تماماً ، مزينة العدة بأجراس ومفارش ، وعربة مزودةً بغطاء مريح • وكان الحوذى آندره ينتظر ميتيا متربعا على مقعده وكان فى الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبى كبير قد ملئ تقريبا بالسلع التى أمر بها ميتيا ، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون الا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعها فى العربة •

دهش بطرس ايلتش ، فسأل ميتيا :
- من أين جاءت مركبة الترويكما هذه ؟

فأجابه ميتيا :

- لقد القيت بآندره حين كنت آتيا اليك ، فأمرته بأن ينتظرنى مع الخيول أمام البقالية • فلقد كان على أن لأضيّع وقتا • ان تيمودى هو الذى قادنى فى المرة السابقة ، ولكنه سافر فى هذا المساء مع ساحرة ، دون أن يحفل بى ... ترالالا ... هل ستأخر كثيراً يا آندره ؟

أسرع أندره يجب :

- لن يسبقونا الا ساعة واحدة في أكثر تقدير •• بل أقل من ذلك ! ••• ساعة قصيرة ! لقد قرنت خيول تيمودى بنفسى ، وأنا أعرف سرعتها • لأفودنك بسرعة غير تلك السرعة يا دمترى فيدوروفتش ! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا ؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة •

كذلك قال أندره مؤكداً بحرارة ، وهو وجل ما يزال شاباً ، أحمر الشعر ، جاف الجلد ، يرتدى قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه •
- لك منى خمسون روبلاً « بقشيشاً » اذا لم تتأخر أكثر من ساعة !

- اعتمد علىّ يا دمترى فيدوروفتش • ساعة ؟ سيكون من حقهم أن يعتروا ويفتخروا اذا هم سبقونا بنصف ساعة ؟

أخذ ميتيا يتحرك فى المتجر فى فوضى مضطربة ، متنقلاً من طلب الى طلب آخر قبل انتهاء الطلب الأول • فرأى بطرس ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدّ من جنونه •

قال ميتيا أمراً :

- أريد أن يكون الثمن اربعمائة روبل على الأقل ، تماماً كالمرّة السابقة • أربع دسات شمباتيا ، هل تسمعون ؟ لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة !

- صرخ بطرس ايلتش :

- قف ! ما عسالك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمباتيا ؟ ماذا يحتوى هذا الصندوق الخشبى ؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوى ثمنه اربعمائة روبل •

أسرع المستخدمون يشرحون له ، بلهجة متلطفة ، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوى الا ست زجاجات من الشمبانيا ، وانه يحتوى كذلك « الأشياء الضرورية جداً » كالمقبات ، والملبس ، والحلوى ، الخ ••• أما « الغلات » الأساسية فستحزم على حدة ، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكأ أخرى تصل بعد « دمتري فيدوروفتش بأقل من ساعة » •

قال ميتيا ملحاً :

— بعد ساعة واحدة ، لا أكثر من ذلك • وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الجاتو والكارامل • ان البنات هناك يشقن الجاتو والكارامل •

كذلك أضاف يقول بحرارة :

قاطعهُ بطرس ايلتش يقول شبه غاضب :

— أوافق على الكارامل ! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دسئات من زجاجات الشمبانيا ؟ تكفيك دسنة واحدة وتزيد !

وأخذ بطرس ايلتش يساوم ، وطلب أن يرى الفتورة ، وتحرك كثيراً ، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ الا مائة روبل ، فقرر أن لايزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل •

ثم صاح بطرس ايلتش يقول وقد نفذ صبره وضاق ذرعاً :

— شيطان يأخذكم ! ما أغباني اذ أتدخل في هذه الأمور ، وأتحمق نفسي فيها ! بدّد مالك كما تشاء ، وارمه من النافذة اذا حلا لك ذلك ، ما دمت قد كسبته بغير جهد !

فقال له ميتيا وهو يجره الى الغرفة التي تقع خلف الدكان :

— هدىء روعك يا معلمى ! سيأتونا الآن بزجاجة ترطب حلقينا !

قل لی یا بطرس ایلتش : لماذا لا تسافر معی ؟ أنت شاب شهم ، وانی لأحب أمثالك من الرجال •

جلس میتا علی مقعد أمام مائدة مغطاة بمفرش غیر نظیف • وجلس بطرس ایلتش قبالة ، وجثا بالشمبانيا • واقترحت علیهما محارات « من نوع فاخر وصلت مؤخرأ ، ، فقال بطرس ایلتش رافضأ الاقتراح فی غضب :

- دعونی من محاراتکم ، فانی لا أحب المحار •

وقال میتا :

- لا یسع وقتنا لأكل المحار ، ثم اتی لا أشتهی أن أكل الآن محارأ •

ثم التفت یقول لبطرس ایلتش وقد تحمس علی حین فجأة :

- اسمع یا صدیقی ، اننی اكره كل هذه الفوضى •

- ومن ذا الذی لا یשמئز منها ؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا ... ولن ؟ لفلاحین ؟ ألا ان هذا لیثیر التقرز وبعث الغیان !

- لیس هذا ما أعنیه • فانما أنا أقصد الفوضى التی تشوش النظام الأعلى ، نظام النفس ، نظام الروح ! لقد أعوزنی دائما ذلك النظام ... لیس فی نفسی انسجام ... ولكن انتهى الآن كل شیء ، فعلام الندم والأسف ؟ فات الأوان ! لا بأس ! ... لم تكن حیاتی كلها الا فوضى طویلة ، وقد آن لی أن أدخل علیها شیئاً من النظام • اننی أستعمل استعارات وکنايات ردیئة ، هه ؟

- بل قل انك تخرف ! ...

قال میتا :

المجد للخالق في الخلق

المجد للخالق في نفسى *

لقد نظمت هذا البيت من الشعر فى الماضى ، انبجس منى فى ذات يوم انبجاس دمعة ... أوه ! لم يكن هو اليوم الذى جررت فيه الكابتن من لحيته !

- لماذا تتكلم عن ذلك الكابتن ؟ انه ! ...

- لماذا ؟ لماذا ؟ آه ... ما كل شىء الا دخان ! كل شىء يتبدد ! كل شىء يزول آخر الأمر !

- اسمع ! ان مسديك يقلقانى ...

- ما المسدسات الا دخان ! اشرب ، وكفَّ عن قول هذه السخافات !
اننى أحب الحياة ... اننى أسرف فى حب الحياة ، حتى لأخجل من ذلك !
كفى ! فلنشرب يا عزيزى ، فلنشرب نخب الحياة ، نخب الحياة ! لماذا أنا معجب بنفسى ! اننى شرير ، ولكننى راض عن نفسى ! ومع ذلك يعذبني أن أحب نفسى هذا الحب رغم صفارى ودمتى ! اننى أبارك الخليفة ، واننى مستعد لأن أسبح بحمد الخالق ، وأن أتغنى بمظلمته ، ولكن ...
يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين ... هيه يا أخى ! فلنشرب نخب الحياة ! أى شىء أفضل من الحياة ؟ لا شىء أفضل من الحياة ، لا شىء ! المجد للحياة ، والمجد المكتى ، ملكة الملكات !

- لك ما تشاء ! فلنشرب نخب الحياة ، ولنشرب نخب ملكة قلبك .

وأفرغ كل من الرجلين كأساً . كان ميتا ، الحذر المبهذار فى آن واحد ، يبدو حزينا ، كأنهما ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده .

- ها ... هاهوذا ميشا ، ها هوذا غلامك ميشا قد دخل ! تعال الى هنا أيها الصبي الطيب ! اشرب كأساً معنا ، تمجيداً لفيوس وضفائره بالشقراء ، تمجيداً للشمس التى ستطلع غداً ...

قال بطرس ايلتش محتجاً حائقاً :

- أأنت مجنون ؟ أتسقيه هو شمباتيا ؟

فقل ميتيا :

- اسمح له بأن يشرب مرة واحدة ! لسوف يسرنى هذا •

- ولكن ... الخلاصة ... ما دمت تصر ! ...

أفرغ ميشا قدحاً ، وسلّم ثم انصرف •

قال ميتيا :

- هكذا سيتذكرنى مدة أطول على الأذنل ... اننى أحب المرأة ، أحب المرأة ! ما المرأة ؟ هى ملكة الأرض .. أوه ! اننى أحس بحزن يا بطرس ايلتش ، أحس بحزن رهيب • هل تتذكر ذلك المقطع من مسرحية هملت : « أشعر بحزن يا هوراسيو ، أشعر بحزن شديد ... واأسفاه ! مسكين يوريك ذاك ! » • لعلنى أنا يوريك ! اننى فى هذه اللحظة بعينها يوريك • وبعد ذلك سأكون الجمجمة •

كان بطرس ايلتش يصفى اليه صامتاً • وصمت ميتيا أيضاً •

ثم اتجه بالكلام فجأة الى المستخدم يسأله شارد اللب وقد رأى فى الركن كلباً صغيراً طويل الشعر متدلى الأذنين أسود العينين :

- لمن هذا الكلب ؟

أجاب المستخدم :

- هو لفارافارا ألكسيينا ، صاحبة المتجر • نسيته هنا منذ قليل •
سيكون علينا أن نذهب به اليها •

قال ميتيا حالماً :

- رأيت في الماضي كلباً يشبهه كل الشبه ... كان ذلك في الكنيسة ... ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق ... بالمناسبة يا بطرس ايلتش ، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً : هل اتفق لك أن سرقت في حياتك ؟

- يالها من فكرة !

- افهمني ! أقصد السرقة الحقيقية ... أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر ، لا من الدولة ، فجميع الناس يسرقون الدولة ... هذا شيء معروف ، وأنت أيضاً تسرق الدولة ، لاشك عندي في ذلك ...
- سحقا لك ...

- هل سرقت مع ذلك ؟ من جيب ، أو من محفظة ؟ ...

- سرقت في طفولتي قطعة نقدية بعشرين كوبكاً من أمي • كان عمري تسع سنين • أخذت القطعة النقدية من على المائدة ، دون أن يراني أحد ، وأخفيتها في قبضة يدي •

- وبعد ذلك ؟

- لا شيء • احتفظت بها ثلاثة أيام ، ثم شعرت بالخجل والعار ، فرددتها متهرباً بالسرقة •

- ثم ؟

- جلدت كما أستحق • ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟ أترك سرقت ؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة مأكرة :

- سرقت !

فسأله بطرس ايلتش قلقاً :

- ماذا سرقت ؟

- سرقت عشرين كوبكاً من أبى • كان عمرى تسع سنين • ثم

رددتها •

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة •

صرخ الحوذى آندره يقول من باب المتجر :

- آن أوان السفر يا دمترى فيدوروفتش •

- هل كل شيء جاهز ؟ هيأ بنا !

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يتحرك هنا وهناك • وأضاف يقول :

- بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة ! كأساً من الخمر لأندره !

بسرعة ! واعطوه أيضاً كأس كونيالك ! ... أما العلبة (علبة المسدسات) ،

فضعوها تحت المخدات • استودعك الله يا بطرس ايلتش ، ما ينبغي لك

أن تؤاخذنى •

- ولكنك ستعود غداً ؟

- نعم نعم ، سأعود •

قال مستخدم وهو يهرع الى ميتيا :

- اسمح لى أن أقدم اليك الحساب •

- آ ... نعم ... الحساب ... طبعاً !

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية ، فسل منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل ، ورماها على البسطة باهمال ، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب ، فرافقه جميع مستخدمي المتجر ، وشيمووف متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون لها ابتداءً كبيراً . وكان آندره قد أفرغ كأساً من الكونياك ، فهاهوذا يسعل لينظف حلقه ، ثم يصعد الى مكانه من العربة . ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة ، انبجست فينا راكضة لاهثة ، فضمت يديها احدهما الى الأخرى ، وجثت على ركبتها أمامه ، وهتفت تتوسل اليه قائلة :

- سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، ملاكى ، لا تصب الآسنة بسوء ، لا تتلها بأذى ! ألا ما كان أغباني حين قصصت عليك كل شيء ! ولا تسئ اليه هو أيضاً ، القديم ... لأنه عرفها قبلك . وهو ينوى أن يتزوج أجرافين ألكسندروفنا ، لقد جاء من سيبيريا لهذا الغرض ... سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، لا تحطم حياتهما ، لا تسفح دم أخيك الانسان !

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه : « آ ... هذا بيت القصيد فى الحكاية كلها ... ستحدث مشاجرة هناك . استبان الآن كل شيء . أصبح كل شيء واضحاً ... » ثم هتف يقول بصوت عالٍ :

- دمترى فيدوروفتش ! أعد الى هذين المسدسين فى الحال اذا كنت رجلاً . هل تسمح يا دمترى ؟

فأجابه ميتيا :

- المسدسين ؟ لحظة يا عزيزى ... سأرميهما أثناء الطريق فى غدير . وانتهى أنت يا فينا . لا تركمى أمامى . ان ميتيا لن يقتل ، ان ميتيا ، هذا الصبى القبى ، لن يحطم حياة أحد بعد الآن .

ثم أردف يقول بعد أن استقر فى المركبة :

- اسمعى يا فينا ، لقد أهنتك منذ قليل ، فأرجو أن تغفرى لى •
اغفرى لهذا الشقى البائس ... على أنه يستوى أن تغفرى وأن لا تغفرى
... لم يبق لهذا قيمة ... هيّا يا آندره ، ولتجر المركبة بأقصى
سرعة •

رفع آندره سوطه ، فجلبجت الأجراس •
- استودعك الله يا بطرس ايلتش ، لك منى آخر دعمة ! ...

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع ينظره مركبة الترويكما
التي أخذت تبعد : « ليس بسكران ، ولكن ما أشد الاضطراب فى
أقواله » • وقد أراد بطرس ايلتش أن يبقى فى المتجر ليراقب نسحن
الخمور والمثونات على عربة أخرى ، لأنه كان يحس أنهم سيفششون
ميتا • ولكنه شعر بحق على نفسه فجأة ، لاهتمامه بهذه التفاصيل ،
وبصق من شدة غضبه ، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كما
كان ينوى ذلك •

وقال فى نفسه أثناء الطريق : « انه رجل أبله ، ولكنه طيب » •
أما ذلك الضابط ، أما صاحب جروشنكا « القديم » ذاك ، فقد سبق أن
سمعت عنه • هل عاد اذن ؟ ... ولكن ما القول فى المسدين ، المسدين
... ألا فليحل الرجلان نزاعهما ... ولن يحدث شيء على كل حال •
سيصرخان كثيراً ، وسيسكران ، وسيقتلان ، ثم يتصالحان • ليسوا
جادين ، لا هؤلاء ولا أولئك ... كلمات جوفاء ! « سوف أتجنى عن
طريقهما ... » « انتى أعاقب نفسى ... » ... دعنا من هذا ! لن يفعل
من ذلك شيئاً • لقد ردّد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة فى الكاباريه
حين كان ثملاً • وهو فى هذه المرة لم يشرب « نفسى سكرى ... » ؟

ان جميع أمثاله من انقاصين يحبون عبارات الرنانة الطنانة • أنا مريبه أخيراً ؟ لقد تشاجر على عادته ، فدمى وجهه • ولكن من ذا الذى تشاجر معه ؟ سأعرف هذا فى الكاباريه حتماً • وذلك المندبل المدمى ؟ ... لقد تركه فى غرفتى ... ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال ! ما لى ولهذا كله ! • •

وصل بطرس ايلتش الى الكاباريه معسكر المزاج جداً ، وأخذ يلعب البلياردو فوراً • وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شيء ، وشرع فى اللعب مرة أخرى ، وأخذ يقص على أحد ملاعيه أن دمتري كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى ، وأنه رأى فى يديه بأمر عنه ثلاثة آلاف روبل • وأضاف أن ميتيا قد سافر فى هذه المرة أيضاً الى موكرويه ليقصف فيها مع جروشكا • أصفى السامعون الى هذه الأنباء بفصول شديد ، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة ، دون مزاح ، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب • حتى لقد انقطع لعب البلياردو •

— ثلاثة آلاف روبل ؟ من أين جاء بها ؟

أخذ الحضور يمطرون بطرس ايلتش بوابل من الأسئلة • ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التى اقترحتها السيدة هوخلاكوفا •

— أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز ؟

— ثلاثة آلاف روبل ! هذا أمر يثير الاشتباه !

— لقد تباهى فى هذا المكان نفسه بأنه سيقول العجوز ، وسمعه جميع الناس ، حتى لقد تحدث فى تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل • •

كان بطرس ايلتش يصفى ، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة ، حتى لكأنه يتهرب من الكلام • ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذى رآه على وجه ميتيا ويديه ، رغم أنه كان ينوى أن يتحدث عن

ذلك حين ذهب الى الكاباريه • ويدى لعب البلياردو مرة ثالثة ، وانصرف
الحديث عن ميتا •

حتى اذا انتهت اللعبة الثالثة ، أعلن بطرس يلتش أنه لا يحب أن
يلعب مزيداً من اللعب • ثم وضع عصا البلياردو ، وخرج حتى دون أن
يتعشى ، خلافاً لما كان يتوهم • فلما وصل الى الميسدان توقف لحظة ،
وسأله مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب الى دار
فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء • « يا للحماقة ! سأوقظ جميع
الناس ، وأحدث فضيحة ، مع أن هذا كله ليس الا تخيلاً ! وما شأنى
أنا ؟ أنا خادمهم ؟ » •

وعاد الى منزله حائفاً مزيداً من الخلق • وفجأة خطرت بباله فينيا •
قال لنفسه فى حسرة : « ما أعبانى ! ان فينيا هى الشخص الذى كان يجب
أن أسأله ، ولو فعلت لقلت لى كل شيء ! » • وشعر عندئذ برغبة قوية
فى أن يكلمها ، وبلغت هذه الرغبة من القوة انه انمطف فجأة ، وهو فى
منتصف الطريق الى داره ، فاتجه نحو منزل آل موروسوف الذى تقيم
فيه جروشتكا • فلما وصل الى الباب طرقه ، فاذا بالطرقات التى ترجعت
فى صمت الليل تردده فجأة الى الواقع ، واذا بحقه يشتد لأنه يقوم بمسمى
غير لائق • قال فى نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً : « سوف
أحدث فضيحة » • ولكنه لم ينصرف ، بل استأنف طرق الباب ، بكل
ما أوتي من قوة فى هذه المرة • دوت طرقات الباب فى الشارع كله •
فردد يقول : « لا خير ! سوف أظل أطرق الباب الى أن يفتحوا ! » ،
بينما كان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طرفة جديدة • لكنه كان
يستأنف الطرق بمزيد من القوة •

هائاذا



دمترى فيدوروفتش يتجبه نحو موكرويه
 بسرعة عظيمة • ان المسافة تزيد قليلاً على
 عشرين فرسخاً • ومن الممكن ، بفضل سرعة
 عدو خيول آندره ، قطع هذه المسافة بساعة
 وربع ساعة • وأنعشت سرعة الجرى فكر ميتيا • كان الهواء قوياً ، وكانت
 نجوم كبيرة تتلألأ في سماء بلا سحب • في تلك الليلة ، وربما في تلك
 الساعة ، انما تهالك اليوشا على الأرض ، « حالفاً بحرارة ليحبسها الى
 الأبد » • كان ميتيا يشعر بضيق شديد ، ولكن نفسه ، رغم ثقل الهموم
 التي تعذبها ، كانت لا تتصرف في تلك اللحظة الا الى المرأة الحبيبة ، الى
 ملكته التي يتعجل لقاءها ليتأملها مرة أخيرة • حسبى أن أقرر ما يلي :
 كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة • وسواء أصدقت
 كلامى أم كذبتموه ، فان الحقيقة تجبرنى أن أقول إن هذا الغيور لم يكن
 يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجديد ، نحو ذلك
 الخصم الذي لم يكن في حسبانته ، نحو هذا الضابط ، الذي دام
 حياته بهذه القسوة الشديدة • لو حاول أى انسان آخر أن يحل
 محل ميتيا لدى جروشكا ، لأسرع ميتيا يرد بحق غيور مسعور ،
 وتلطلخت يده بالدم من جديد • أما تجاه هذا الانسان الذى هو • أول

رجل ، فى حياة جروشنيكا فان ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة ، ولا بأية عداوة ، أثناء ما كانت مركبة الترويكات تقله الى موكرويه . ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد . « الأمر واضح . انها على حق . هو أول حب فى حياتها ، هو الرجل الذى لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنين . معنى هذا أنها لم تقطع عن حبه طوال تلك المدة . أما أنا ، فماذا جئت لأعمل فى حياتها ؟ ما أنا عندها ؟ ابتعد يا ميتيا ! تنحّ عن طريقها ! ثم ما قيمة هذا كله اليوم ، ما دام مصرى قد تقرر ، ما دام كل شيء سينتهى بالنسبة الى ، حتى ولو يكن هو هناك ، حتى ولو لم يجيء ذلك الضابط ؟ .. »

بهذه العبارات تقريباً انما كان يمكن أن يعبر ميتيا عن المشاعر التى كانت تفيض فى نفسه ، لو كان قادراً على التفكير فى تلك الآونة . ولكن ميتيا لم يكن يفكر . ان القرار الذى اتخذه انما وافاه على حين فجأة ، دون أى تفكير ، فاذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتائج التى تترتب عليه ، أثناء انفعاله ذاك الذى أيقظه فى نفسه ما كشفت له عنه فينا من أمور . ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق ، وما يزال يشعر باضطراب أليم : ان قراره لم يردّ السكينة والطمأنينة والسلام الى نفسه . ان أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضى .

كان يقول لنفسه فى بعض اللحظات : « ما أغرب هذا ! »

كان ميتيا قد نطق بحكم نهائى على مصيره ، كان قد كتب على ورقة قوله : « اننى أعاقب نفسى ، وأنا أقبل هذا العقاب » ، وان هذه الورقة موجودة الآن فى جيبه ، معدّة لأن تستعمل ؛ وان مسدسه محشو ، وهو يعلم حق العلم ما الذى سيفعله فى صباح الغد ، حين يطلع « فيبوس ذو الصفائر الذهبية » فيدفىء الأرض من جديد بأولى أشعته . ومع ذلك ... لم يكن ميتيا يستطيع أن يفصل عن ذكرياته التى تلازمه وتحاصره

وتعذبه • فكان يقول مثلاً : لا سبيل الى النسيان ؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمدأ ويأساً • ولقد أوشك في لحظة من اللحظات ، أثناء هذه الرحلة ، أن يأمر آندره بالتوقف ، وأن يفرغ من الأمر كله ؛ يخرج من العربة ، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد • ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت ، كما تنطفئ شرارة طائرة • وكانت مركبة الترويكسكا « تنهب به الأرض نهباً » ، فكلما اقتربت به من غايته ، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأنرة ، طائرة « جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه • « أوه ! أريد أن ألحها مرة أخيرة ، ولو من بعيد ، عابرةً ... » انها في هذه الساعة معه ، وسأراها كليهما ، هي وحييها الأول ، وسأأملهما ، ذلك هو كل ما أتمناه الآن ! » لم يشعر نحو هذه المرأة في يوم من الأيام بمثل الحب الذي يشعر به الآن ، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة حنون لا حدود لها ، من عاطفة الخضوع والمذلة التي تدفعه الى أن يريد نسيان ذاته ، والتضحية بنفسه في سبيلها •

هتف يقول فجأة وقد استبدت به حماسة تشبه أن تكون هذياناً :

— سأتنحي من طريقهما •

العربة تمدو منذ قرابة ساعة • ميتيا صامت • وآندره ، وهو فلاح مهذار في العادة ، لا يتكلم أيضاً ، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت • فهو لا يزيد على أن يحرّض بصوته أحصنته الكمت التحاف على عصية • وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد :

— آندره ! ماذا لو وجدناهم نائمين ؟

في تلك اللحظة انما خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد

ساوره قبل ذلك •

- جائز جداً أن يكونوا فى هذه الساعة راقدين يا دمتري
فيدوروفتشى •

قطب ميتيا حاجبيه مقتاضاً حانقاً. ماذا ؟ أيجىء حاملاً هذه العواطف
... ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً ... هى أيضاً ... ربما الى جانبى !
وغلى الغضب فى قلب ميتيا •

صرخ يقول خارجاً عن طوره :

- اجلد يا آندره ! مزيداً من الاسراع ، مزيداً من الاسراع أيضاً.
قال آندره بعد صمت :

- ما أحسب أنهم ناموا • لقد أسرَّ لى تيموتى أن جمعاً غفيراً قد
اجتمع هذا المساء فى موكرويه ؟
- فى محطة العربات ؟

- بل فى نزل آل بلاستونوف ، وهو محطة عربات أيضاً •

- أعرف • أتقول انهم جمع غفير ؟ كيف هذا ؟ من أين جاءوا ؟
كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذى وقد شدهه هذا النبأ الذى لم يكن
يتوقعه •

- يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون على ما قال تيموتى : اثنان منهم
جاءا من المدينة ولا أدرى من هما ، فان تيموتى لم يذكر لى ذلك ؟
واثنان من هنا ، ثم اثنان آخران هما مسافران عابران فيما يظهر ، ثم
شخص آخر أيضاً اذا صح فهمى • وهم يلعبون بالورق ، على ما يدعى
تيموتى •

- بالورق ؟

- نعم • وما داموا قد أخذوا يلبسون بالورق ، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا • ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن •

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصية :

- اسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع •

واستأنف آتدره كلامه بعد صمت فقال :

- قل لى يا سيدى • هناك أمر أحب أن أسألك عنه ، ولكنى أخشى أن أغضبك •

- ما هو هذا الأمر ؟

- ان فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة اليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر ••• فياسيدى ، ما دمت أنا أفودك الى هناك ، فان ضميرى ••• لا تؤاخذنى يا سيدى ••• اذا كنت غيباً فيما أقول •••

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة ، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسى شديد :

- أنت حوذى ، أليس كذلك ؟ أنت حوذى •

- نعم ، حوذى •••

- فأنت تعلم اذن ما معنى التحدى عن الطريق ، واخلائه • هل يستطيع حوذى أن يمضى الى أمام ، رافضاً أن يمر الآخرون ؟ هل يستطيع أن يقول لغيره : لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق ؟ انه لا يستطيع ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ليس لحوذى أن يدوس المارة ••• لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً ، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره • ومن يدمر حياة شخص آخر ، فانه لا يبقى عليه الا أن يعاقب نفسه

بنفسه بعد ذلك ... اذا هو دمّر حياة أحد ، فلبعض ... فليل
العقاب !

تكلم ميتا جياش النفس ، شديد الاندفاع ، ورغم أن آندره دهنش
من أقواله ، فانه لم يقطع الحديث قال :

- صحيح جداً ما تقوله يا سيدى دمتري فيدوروفتش . أنت على
حق ، ما ينبغي لأحد أن يدوس البشر ، ولا أن يعذبهم ؛ وما ينبغي له
أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها ، فالحيوانات مخلوقات كسائر
مخلوقات الله التى تنفس ! أنظر الى الخيول مثلاً : ان من الناس من
يضربونها بغير طائل ، ويستحثونها أكثر مما يجب . ان بعض الحوذيين
فى بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال ، وهم بذلك يسيرون كالسعورين
لا أدري الى أين وكيف ؟

قاطعهم ميتا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة :

- لعلهم يفعلون هذا ليصلوا الى جهنم بسرعة أكبر . قل لى
يا آندره : انك انسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة
أخرى) هل تعتقد أن دمتري فيدوروفتش كارامازوف سينهب الى
جهنم ؟

- لا أدري يا سيدى الطيب ، ذلك متوقف عليك أنت ... اسمع
يا سيدى : حين مات ابن الله على الصليب ، نزل رأساً الى جهنم فخلص
جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير . وقد تشكى
البحيم عندئذ ، مخافة أن لا يستقبل خاطئين بعد ذلك . فقال الرب
للبحيم : « اطمئنى يا جهنم ، فانك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كثيرة :
ستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء ، وستقبلين من جديد كما كنت
ممتلئة فى الماضى ، الى اليوم الذى أرجع فيه الى هذا العالم ، . ان هذا
الكلام هو الحقيقة ، لأن الرب قاله ... »

- هذه اسطورة شعبية جميلة • أجلد الحصان الأيسر يا آندره !
استأنف آندره كلامه وهو يصفق بسوطه فوق الحصان الأيسر ؛
قال :

- أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم • أما أنت يا سيدي
فنحن نعدك طفلاً ••• ذلك هو رأينا نحن ••• مهما تكن عنيماً غصوباً
••• وانك لعنيف غصوب ما فى ذلك ريب ••• فان الرب سيففر لك
لأنك انسان بسيط •

- وأنت يا آندره ، هل تغفر لى ؟

- ليس هناك ما أغفره لك يا سيدي ، فانك لم تسيء الى •
- انتى أسألك هل تستطيع أن تغفر لى نيابةً عن الجميع ، أن تغفر
لى أنت ، فى هذه اللحظة ، على هذا الطريق ؟ هل تغفر لى باسم الجميع ؟
أجبنى يا ابن الشعب !

- سيدي ! لقد بدأت أخاف ••• انك تتكلم كلاماً غريباً جداً •••
كان ميتاً قد أصبح لا يصنى اليه ، فهو الآن يصلى صلاة حارة ،
مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية :

- يارب ! اقبلنى رغم خطئى ، ولكن لا تحكم على • اللهم اسمح
لى أن أجيء اليك دون أن أمثل أمام محكمتك ••• لا تحكم على • مادمت
قد حكمت على نفسى بنفسى ••• لا تحكم على • لأننى أحبك يا رب !
اللهم انتى خيىث دنى • ولكننى أحبك • وحتى فى الجحيم ، اذا أنت
أرسلتنى الى الجحيم ، سأظل أحبك ، وسأظل أهتف لك بحبى الى الأبد ،
ولكن دع لى أن أحب حبى الأرضى حتى النهاية ••••• اسمح لى أن أظل
أحب ، فى هذه الحياة الدنيا ، خمس ساعات أخرى ، الى أن تطلع

شمسك الدافئة ... اتنى أحب ملكة قلبى ، ولا أملك أن امتنع عن حبها
 اللهم انك ترانى كلى فى هذه اللحظة . سوف أهرع اليها ، فأرتدى عند
 قدميها ، وأقول لها : لقد كنت على حق حين نبذتنى ، وداعاً ... اسى
 ضحيتك ، ولا تدعى لذكرى أن تعذبك يوماً ! » .

صاح آندره يقول وهو يومئ الى القرية بسوطه الممدود فى آخر
 ذراعه :

- هذه موكرويه !

فمن خلال ليل شاحب ، كانت ترى رؤية ضعيفة ، كتلة مظلمة ،
 هى كتلة منازل القرية المبشرة على رقعة واسعة . ان سكان قرية موكرويه
 يبلغ عددهم ألفى نسمة . ولكن كل شيء كان غارقاً فى النوم . وليس
 يرى الناظر الا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك .

صرخ ميّيا يقول محموماً :

- أسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع .

فقال آندره وهو يشير بسوطه الى نزل آل بلاستونوف ، الذى يقع
 عند مدخل القرية ، والذى كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضادة
 اضاءة قوية :

- لم يناموا بعد .

فكرر ميّيا كلام الخوذى فرحاً :

- لم يناموا بعد ! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندره ، حتى ترن
 جلاجلها فيكون لدخولى ضجة وجلبة . ألا فليعلم الجميع من الواصل !
 هو أنا ... هأنذا وصلت !

كذلك صرخ ميّيا وقد بلغ ذروة الاهتياج .

استجحت آندره حصانيه المكودين ، فوصلت العربى الى باب النزول مفرقة قرقة قوية ، وهالك استوقف الحوذى الحصانين الهزيلين وقد أوشكا أن يموتا تعباً . وثب ميتيا من العربى فى اللحظة التى كان فيها صاحب النزول يهيم أن يرقد فى فراشه فلما سمع قرقة العربى ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل فى مثل هذه الساعة بمثل هذه السرعة . هتف ميتيا يسأله :

— أهذا أنت يا تريفون بوريستش ؟

مال صاحب النزول الى أمام ليستطيع أن يميز فى الظلام ملامح وجه القادم ، ثم نزل درجات المدخل راكضاً ، وهرع الى الزائر بحماسة مجاملة ، وهو يقول :

— ماذا ؟ أهذا أنت يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ؟ ما أعظم فرحى برؤيتك من جديد !

ان تريفون بوريستش هذا فلاح قوى البنية مربع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه ، تعبر قسماته فى العادة عن قسوة وغيظ ، ولا سيما حين يكلم فلاحى موكرويه ، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحته فوراً ، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آس منفعة وربحاً . انه يرتدى ثياباً على الزى الروسى ، قميصه مقلوب اليافق ، وصديرتة مطرزة . ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال ، فلقد كان لا يحيا الا لجمع المزيد من الثراء ، وتحقيق المزيد من الارتفاع . ان أكثر من نصف فلاحى موكرويه مدينون له ، واقعون فى شياكه ، خاضعون لتسلطه . كان يستأجر الأراضى من ملاكى المنطقة ، وكان يشتري بعض هذه الأراضى أيضاً ، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون الى التخلص منها أبداً . وهو أرمِل له أربع بنات

كبيرات ، احداهن مات عنها زوجها فهى تعيش عند أبيها مع طفلين صغيرين ، ويعاملها أبوها معاملة خادمة ؛ والثانية زوجة موظف من الموظفين ، فالداخل الى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فوتوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمى الذى يزدان كثفاه بشارات القصب * . أما البنات الأخريان ، فهما فى أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر « موضة » ، ولكنهما تنهضان فى الغداة منذ الفجر كسائر الأيام ، لكنسا الغرف وتصبأ الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها . وكان تريفون بوريستش ، رغم المال المحبأ الكثير الذى جمعه ، يتهيج كثيراً لكل فرصة تمكنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين . وهو يتذكر انه سلب دمترى فيدوروفتش ، منذ أقل من شهر ، مائتى روبل ان لم يكن ثلاثمائة روبل ، فى يوم واحد ، حين تلبث هذا فى نزله ليقصف ويتلف ماله مع جروشنكا . لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض ، مدركاً من طريقة وصول المركبة الى الباب على هذا النحو الصاحب ، أن الفريسة ستكون سهلة .

- عزيزى دمترى فيدوروفتش ، هأنت ذا عندنا من جديد !

فقاطعه ميتيا يسأله :

- لحظة يا تريفون بوريستش . قل لى الأمر الأساسى أولاً : أهى

هنا ؟

فسأله صاحب المنزل الذى فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدف اليه بنظرة نافذة :

- أجرافين الكسندروفنا ؟ هى هنا ... أيضاً !

- مع من ؟ مع من ؟

- مع نزلاء غابرين ... موظف لا شك أنه من أصل بولندي ...
يظهر هذا من لهجته ... انه هو الذى أرسل خيلاً لتجىء بها الى هنا
... وشخص آخر هو صاحب البولندى ، أو رفيق رحلته فحسب ،
لا أدري ... وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية ...

- هل يقصفون ؟ هل يملكون مالا ؟

- يقصفون ؟ دعك من هذا الكلام ! هم أناس عاديون ...

- عاديون ؟ والآخرون ؟

- هناك سيدان من المدينة ... كانا عائدين من تشرنايا ، فلبسنا
هنا لقضاء الليل . أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو ، ولكننى
نسيت اسمه ... أما الثانى فأحسب أنك تعرفه أيضاً : انه الملاك
ماكسيموف الذى ذهب يحجج الى دير كنيستكم فيما يدعى ، وهو الآن
يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف فى الطريق. ...

- أهذا كل شيء ؟

- نعم ، ليس هناك أحد عدا هؤلاء .

- اسكت يا تريفون بوريسشس . شيء واحد يهمنى : ماذا تفعل

هى الآن ؟

- وصلت منذ وقت غير طويل ، وهى الآن معهم .

- أهى مرحلة ؟ أهى تضحك ؟

- لا ... انها لا تضحك كثيراً فيما لاحظت . حتى لقد بدا لى أنها

حزينة . وكانت تلاعب شعر الشاب .

- شعر الضابط ، ذلك البولندى ؟

- دعك من هذا الكلام ! ليس البولندى شاباً ولا هو ضابط • أنا لم أقصد البولندى ، بل الشاب ••• قريب ميوسوف ؟ مالى نسيت اسمه ؟

- لعل اسمه كالجانوف ؟

- تماماً ، كالجانوف •

- طيب ، سوف أرى • قلت أنهم يلعبون بالورق ، أليس كذلك ؟

- كفوا عن اللعب • لقد تناولوا الشاى ، وأمر الضابط بخمور •

- لحظة يا تريفون بوريستش ! هذه كلها أمور ثانوية ، وسأحكم على الموقف بنفسى • أجبنى الآن عن الشيء الأساسى : هل فى القرية غجر ؟

- لم يبق غجر يا دمترى فيدوروفتش ! لقد طردتهم السلطات • غير أن عندنا فى مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان • هم الآن فى رودجستفسكا ، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً •

- استدعهم حالا • ويجب كذلك إيقاظ البنسات ، كما فى المرة السابقة ، ولا سيما ماريا تلك ، ثم ستيانيد وايرين • سأدفع للجوقة مائتى روبل •

- بهذا المبلغ أوقف لك أهل القرية بكاملها ، ولو كانوا نائمين كالأموات • ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخّم كهذا المبلغ ؟ هؤلاء رعاى لا يستحقون هذه الملاحظات ! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمت لهم سيجاراً • هؤلاء أناس تنون • أما النساء فهن جميعاً قدرات وسخات • انى لأوتر أن أرسل اليك بناتى ، ولو بالمجان ، على أن أدعك تبشر هذا المال كله • ان بناتى نائمت الآن ، ولكنى سأوقظهن ، سأوقظهن ركلاً يقدّمى اذا اقتضى

الأمر ، وسأجبرهن على أن يئنين لك • لا أستطيع أن أتصور كيف قدمت شمباتيا لأولئك الفلاحين ! ذلك أمر يبعث على الشفقة !

- تريفون بوريستش ! ألا تذكر أنني أنفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية ؟

- كيف لا أتذكر ؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل . يا ضيفي

العزيز •

- اذن فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه • أنظر !

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل • ثم أضاف قوله :

- اسمع الآن وحاول أن تفهم : بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات وفطائر وسكاكر • فاحمل هذا كله فوراً الى فوق • أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد آندره فيجب أن تنقله الى هناك أيضاً ، ففتحه وتقدم الشمباتيا حالاً • ولكن لا تنس أن الأمر الأساسي هو البنات ، البنات ! وأريد حتماً أن تجيء ماري تلك ! ...

واتجه ميتيا الى العربدة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدسين •

- سأدفع لك دينك علىّ يا آندره • اليك خمسة عشر روبلاً ، أجر العربدة ، واليك خمسين أخرى « بقشيشاً » ، مكافأة لك على اخلاصك ، وتقديراً لصدافتك ... تذكر البارين كارامازوف !

قال آندره بلمهجة مترددة :

- لا أجرؤ يا بارين * ... انني أقبل خمسة روبلات مكافأة ، لا أكثر من ذلك • مستحيل ... هذا تريفون بوريستش شاهد علىّ • اغفر لي حماقتي ...

سأله ميتا وهو يشقله بنظره :

- ممّ تخاف !

ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقي اليه خمسة روبلات :

- أنت وشأنك ! اذهب الى الشيطان ! والآن يا تريفون بوريسش خذنى برفق وهدوء الى موضع أستطيع منه أولاً أن أنفحصهم جميعاً على مهل دون أن يرونى . أين هم الآن ؟ أظن أنهم فى الغرفة الزرقاء ، أليس كذلك ؟

ألقى تريفون بوريسش على ميتا نظرة قلقة ، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده فى حذر خلال دهليز ، ودخل غرفة كبيرة تآخم الغرفة التى كان فيها النزلاء ، فأبعد الشمعة التى كانت تضىء تلك الغرفة ؛ ثم أدخل ميتا الى الغرفة المظلمة بغير ضجة ، وأجلسه فى ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادين دون أن يُرى . غير أن ميتا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم : فما ان رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره ، وحتى اضطرب بصره فلا يكاد يرى . كانت جالسة على مقعد قرب المائدة ، وكان الشاب كالجائوف يجلس قريباً منها على الكنية ، وهو قتي حسن الهيئة وسيم الطلعة . كانت جروشنكا ممسكةً يده وكأنها تضحك ، بينما كان هو يناقش ماكسيموف ممتعض الوجه ، وكان ماكسيموف هذا يجلس الى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا أما « هو » فقد كان جالساً على الكنية نصف مضطجع ، وكان يدخن غليوتاً . وفى جانب ، على كرسى مستند الى الجدار ، لاحظ ميتا رجلاً آخر لا يعرفه . ان الشخص المسترخى على الكنية يبدو رجلاً بدين

الجسم عريض الوجه ، قصير القامة فى أغلب الظن ، أما الثانى فهو طويل جداً • على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك • لقد انقطعت أنفاسه ، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول ، فوضع العلبه على المنضدة ، ودخل الغرفة الزرقاء التى كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة فى ظهره • رآته جروشنيكا أول من رآه ، فصاحت تقول :

- آى ...

الصديق القديم الذى لا يمكن محوّه



ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة لا يلوى على
 شىء • وبدأ كلامه يقول بصوت قوى جداً ،
 بصوت يكاد يكون صراخاً ، ولكنه يتلثم عند
 كل كلمة :

— أنا ... لا شىء ... لا تخافوا ، لن أفعل شيئاً ... (ثم
 قال ملتفتاً نحو جروشنكا التى مالت على كالجائوف مذعورة وتشبثت
 بذراعه) ... لا شىء ... أنا ... أنا هنا عابر كذلك ... سأمكث حتى
 الصباح فقط ... يا سادتى ، هل تأذنون لمسافر ضلّ طريقه فى هذا
 المكان ... ان يجالسكم ، حتى الصباح فحسب ، ولآخر مرة ... فى
 هذه الفرقة نفسها ...

وجّه ميتيا هذا السؤال الى الرجل القصير السمين الذى كان يدخن
 على الكنبه • فما كان من هذا الا أن أقصى الغليون عن شفّيته بوقار ،
 وأجاب بصوت قاس :

— « يا سيد ، هذا اجتماع خاص ، وفى النزول حجرات أخرى •
 فتدخل كالجائوف فجأة يقول :

- أهذا أنت يا دمترى فيدورفتش ؟ فلماذا هذه الكلفة كلها ...
اجلس ... أهلاً بك !

فأجابه ميتا مسرعاً فرحاً :

- يومك سعيد أيها الصديق العزيز ، أيها الصديق الذى لا نظير
له • لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام •

ومدّ اليه يده من فوق المائدة •

قال كالجانوف ضاحكاً :

- أوه ! يالها من قبضة قوية ! لقد أوشك أن يحطّم أصابعى •

فقالت جروشكا مرحةً وهى تبتسم خجلى :

- هذه طريقته فى المصافحة دائماً ...

لقد أدركت جروشكا من النظر فى هيئته أنه لن يعمد الى شئ من
العنف • وكانت تفحصه باستطلاع قوى تداخله بقية من قلق • ان شيئاً
ما فى تعبير وجه ميتا قد خطف بصرها وأسر انتباهها ، لا سيما وأن دخوله
على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً •

وانبرى الملائك ماكسيموف بدوره ، فقال بصوته المتعاذب :

- يومك سعيد يا دمترى فيدورفتش !

وبدا على ميتا أنه سعيد بمصافحته أيضاً • قال له متدفقاً فى كلامه:

- أهذا أنت ؟ ما أسعدنى برؤيتك ! أيها السادة ! أيها السادة !

أنا ... (وقد توجه بكلامه من جديد الى السيد الذى يدخن الغليون ،
وكان واضحاً أنه يعمده أهم شخص فى هذا الجمع) ... أنا قد أسرع
الى هنا ، لأقضى ليلتى الأخيرة ، لأقضى ساعاتى الأخيرة فى هذه الحجرة،

فى هذه الغرفة نفسها ... التى أتج لى فيها ، أنا أيضاً ، أن أعبد ملكتى !
 (ثم هتف يقول بحماسة) اغفر لى يا سيدى • لقد أليت حين جئت الى
 هنا ... أوه ! لا تخش شيئاً ، لأن هذه الليلة هى ليلتى الأخيرة ! فلنشرب
 أيها السيد ، فلنشرب نخب صداقتنا ! سوف يجيئوننا بخمر • ولقد حملت
 معى هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية ، لا يدرى
 أحد لماذا !) ... اسمح لى أيها السيد ... اننى أريد موسيقى ، أريد
 صخباً ، أريد حركة ، تماماً كالمرّة الماضية • ان دودة الأرض ، ان دودة
 الأرض التى لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على
 الأرض ... لسوف تختفى وتزول ... أريد أن استحضر فى ليلتى
 الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتى ! ...

كان ميتيا يختلق اختناقاً • أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة ، ولكنه
 لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه الا بصيحات غريبة عجيبة • لبث
 البولندى جامداً لا يتحرك ، متقللاً بصره بين ميتيسا وكدسة الأوراق
 وجروشكا ، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلّة كبيرة • قال :

— اذا وافقت ملكتى ...

قالت جروشكا مقاطعة :

— ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة فى الكلام ! أنا ملكة ؟ انكما
 لتضحكاني ! اجلس هنا يا ميتيا • ماذا كنت تعنى حين قلت ان هذه الليلة
 هى آخر ليالىك ؟ لا تروّعنى ، أرجوك • لن تروّعنى ، أليس كذلك ؟
 اذا كففت عن تخويفى فسوف أكون سعيدة بمجيئك ...

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه فى الهواء :

— أنا ؟ أنا أروّعك ؟ أوه ... اعبرى ... اعبرى ... لن أكون

عقبةً فى طريقك ...

وما ان قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسى وأجهش ببكى ،
محولاً رأسه ، شاداً يديه ظهر الكرسى كأنه يعاقره . ذلك ما فعله ميتيا
على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، ولا كان يتوقعه هو نفسه .

سألته جروشنكا بلهجة الغتب :

- ما هذا ؟ ما هذا؟ ماذا تفعل ؟ ذلك هو سلوكه حين يأتي الى .
يأخذ يقول أشياء لاتُفهم على حين فجأة ، حتى لقد انفجر ناشجاً متنجباً
فى ذات مرة ... وها هو ذا يعيد الآن الكرة . ألا تستحي ؟ لماذا البكاء؟
ثم أضافت تقول بلهجة ملفزة ، وهى تشدد كلماتها بشئ من
الحنق :

- لو كان هنالك ما يدعوك الى البكاء على الأقل ...

قال ميتيا :

- أنا ... أنا لا أبكى ... هيه ! يومكم سعيد جميعاً !
واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً . ليست ضحكته الآن
تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه ، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة،
ضحكة عصبية ، ممتدة ، مشدودة ، متوترة ، كانت تهز جسمه كله .

قالت جروشنكا ملحة :

- أيضاً ؟ هلاً كنت أكثر مرحاً ، أكثر مرحاً ! انتى سعيدة جداً
بمجيئك يا ميتيا ، سعيدة جداً جداً ، هل تسمعى ؟

ثم قالت بلهجة أمرة وهى تتجه بكلامها الى جميع الحضور فى ظاهر
الأمر ، وان كان كلامها منصرفاً الى الشخص المضطجع على الكنبه فى
الواقع :

- أريد أن يبقى معنا ! أريد ذلك ، أريد ذلك ! فإذا كان عليه أن
ينصرف ، انصرف أنا أيضاً •

أضاف جروشكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً •
قال « السيد » وهو يلثم يد جروشكا بلطف ورقة :

- رغبات ملكتي هي عندى قوانين •

ثم التفت الى ميتيا متحياً متودداً وقال :

- تفضل فاجلس معنا يا سيدى !

وهمّ ميتيا أن يشب عن مكانه ليلقى خطاباً جديداً كما ظهر ذلك
فى هيئته ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا ، واكتفى بأن قال :

- لنشرب أيها السيد !

وأخذ الجميع يضحكون •

هتفت جروشكا تقول بمصية :

- يارب السماء ! ما كان أضلنى حين تصورت أنه سيلقى علينا
خطاباً آخر ...

ثم أضافت مخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد :

- اسمع يا ميتيا ، كفّ عن الوثوب عن كرسيك ، والزم مكانك
هادئاً • أما الشمبانيا فقد أحسنت اذ جثت بها • سيحلولى أن أشرب
شمبانيا ، لأننى أكره الخمر الأخرى • وانتى ليهمنى خاصة أنك قد
خطر ببالك أن تأتى ، فلقد كنا هنا فى ضجر رهيب خائق ... أرى أنك
تنوى أن تقصف وأن تبدد ... خبىء أوراقك المالية هذه فى جييك • من
أين جثت بكل هذا المال ؟

وها هو ذا ميتا الذى كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التى تجعدت والتى كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما « السيدين » البولنديين ، ها هو ذا ميتا يسرع فيدس الكدسة فى جيبه وقد اضطرب واحمر وجهه • وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجة شمبانيا مفتوحة وأقداحاً • فأمسك ميتا الزجاجة ، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها ، فهبّ كالجانوف الى نجده ، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح •

قال ميتا يأمر صاحب النزل :

— هات زجاجةً أخرى ، هات زجاجةً أخرى !

ونسى أن يفرغ كأسه بكأس « السيد » بعد أن دعاه الى شرب الكأس نخب الصداقة ، فها هو ذا يفرغ كأسه فى جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كؤوسهم •

وسرعان ما تغير تعبير وجهه • ان الهيئة التراجيدية الفخمة التى كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتساماً تشبه أن تكون ابتسامة طفل • فهو ينظر الى الحضور بفرح خجول تتخلله فى كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكّر بالكلب الصغير المذب الذى يحس بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد • لكنّه نسي كل شيء عن الماضى ، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد ، بنوع من الحماسة ، ويتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً • أما جروشنيكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً ، حتى لقد قرّب كرسيه من مقعدها • وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً ، فلما « السيد » الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين ، ولهجته البولندية ، وغلونه خاصة • قال ميتا لنفسه : « هل من خير فى أن يدخن ؟ ان من حقه تماماً أن يحب

الغليون ! » • ولم يصدمه فى أول الامر ما لاحظه فى وجه هذا « السيد » الذى يقارب عمره الأربعين ، من غصون واخاديد ، ولا ضائقة انفه الصغير الذى يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشتمان يضيفان على وجهه لا أدري أى نوع من الاستخفاف والوقاحة ؛ لا ولا أزعجه الباروكة البشعة المصنوعة فى سبيرييا والمشوطة مشطاً غياً من خلف الى أمام على الصدغين • قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهناءة : « باروكة ؟ لِمَ لا ؟ » • وأما البولندى الآخر الذى يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من « السيد » ذى الغليون ، فقد كان ينظر الى تجمع بوقاحة مستفزّة ، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار • ان الشيء الوحيد الذى خطف بصر ميتيا فيه انما هو فرط طوله الذى يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه : « لو نهض لكان طوله قريباً من مترين ! » • وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن « السيد » الطويل لابد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيد ، فالقصير هو الذى يأمر العملاق فى أغلب الظن • وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كى السعادة • لم يبق فى قلبه الصغير أثر من خصومة أو تنافس • ولم يكن قد أدرك بعد المعنى الحقيقى لموقف جروشنكا ، وللهجة الملفة التى كانت تقول بها بعض عباياتها • فكل ما عرفه متأثراً فى قرارة قلبه أشد التأثير ، هو أنها لطيفة معه وأنها « عفت » عنه وأنها أذنت له أن يجلس الى جانبها • وقد أصبح لا يملك نفسه تعجباً بها وهى تحسو بضع جرعات من السمتانيا • ولكن الصمت الذى كان يخيم على التزلاء لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة ، فأجال على الحضور نظرة سائلة ، فكأن عينيه تقولان : « ما بالنا لا نفعل شيئاً ؟ ما الذى يمنعنا من أن نلهو وتسلّى ؟ »

قال كاجانوف فى تلك اللحظة ، وكأنه قد حزر ما جال فى خاطره ،
قال مشيراً الى ماكسيموف :

- انظروا الى هذا ! انه لا ينى يكذب ، وقد أضحكنا كثيراً .

فحدق ميتا الى الرجلين واحداً بعد آخر . وسأل وهو يضحك
ضحكته الصغيرة ، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً :

- يكذب ؟ ها ها ...

- نعم . تصور أنه يدعى أن جميع ضابطنا فى سلاح الفرسان قد
تزوجوا نساءً بولنديات بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ؛ هذا سخف ، أليس
كذلك ؟

قال ميتا بالغا أوج السرور :

- بولنديات ؟

كان كاجانوف يدرك حق الادراك نوع العلاقات القائمة بين ميتا
وجروشكا ، وكان يحزر أيضاً دور « السيد » البولندى ، ولكن لم يكن
يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً ، لاستغراقه فى جداله مع ماكسيموف
خاصة ، أو قل لانشغاله بهذا الجدل وحده دون ما عداه . لقد قادته
المصادفة الى صجة ماكسيموف فى هذا النزول الذى التقى فيه بالرجلين
البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن . أما جروشكا فقد سبق أن رآها
بل لقد ذهب الى بيتها فى ذات يوم مع أحد أصدقائه ، ولم تعجبه حينذاك ؛
ولكنها تنظر اليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً . وقد ظل لا يبالى بها فى
ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلامفه وتلامسه قبل وصول ميتا . انه
فى فى العشرين من عمره على أكثر تقدير ، شديد الأناقة ، جميل
الوجه ، شاحب اللون ، له شعر أشقر رائع ، وعينان زرقاوان أخاذتان

تعبان عن ذكاء ، وتعبان في بعض اللحظات عن عمق ، فلا يتفق ذلك مع سنه الفضة ، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أقواله تُشعر في كثير من الأحيان بأنه طفل . على أن هذا لم يكن يضايقه قط ، رغم شعوره القوي به . كان يبدو على وجه العموم انساناً متفرداً ، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات وبدوات ، ولكن ذلك لا يخرجهُ أبداً عن لطفه وعذوبته . وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسى شيئاً يشبه العناد : فهو عندئذ ينظر الى محدثه ويصنئ اليه ، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو ، يتابعها في اصرار لا يجيد عنه . وهو تارة رخو متوانٍ ، وهو تارة أخرى حاد مندفع الى أقصى الحدود ، يضطرب لأيسر الأمور ويحتاج لأتفه الأسباب .

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجز كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا احتيال فيه ولا غطرسة :

- تصور أنني أطوّف هذا الرجل معي منذ أربعة أيام ، منذ اللحظة التي دفعه فيها أخوك الى خارج العربة فسقط ، كما تتذكر ذلك حتماً . لقد اهتمت بأمره عندئذ ، وأخذته معي الى الريف . ولكنه لا ينقطع عن الكذب . انه يكذب بلا توقف ، حتى أخذ كذبه يضايقني ويزعجني . واني أنوي أن أعيده الى داره

قال البولندي ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية :

- ان هذا الرجل لم يعرف في حياته نساءً بولنديات ، وهو يروى أشياء كاذبة .

كان البولندي ذو الغليون يجيد اللغة الروسية اجادة تامة ، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يترامى لمن يسمعه . ولكنه يصرّ على أن

ينطق بها نطقاً رديئاً ، فهو يشوّه الألفاظ ، ويدس في جملة كلمات بولندية •

أجاب ماكسيموف يقول بلهجة ساخرة :
- ولكننى تزوجت أنا نفسى امرأة بولندية •
فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلاً :

- ليست هذه هى المسألة • هل خدمت فى سلاح الفرسان ؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان انما تتكلم ! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان ؟

هتف ميتيا يقول مرحباً ، وكان يصفى الى الحديث بنهم وشراهة :
- هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! يا للفارس الجميل الذى كان يمكن أن يرى فى سلاح الفرسان ! ...

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتقلان بين المتحادين واحداً بعد آخر ، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدري الا الله ما هى !
قال ماكسيموف وهو يلتفت الى ميتيا :

- لا ... لقد أسأت فهمى • فانما أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات ... وهنّ فئات فى الواقع ... ولكنهن يفقدن صوابهن متى رقصن رقصة بازوركا مع أحد فرساننا الرماحين ... يكفي أن ترقص احداهن مع انفارس رقصة مازوركا ، حتى تب بعد ذلك فوراً على ركبتيه ، كقطعة صغيرة يقضاء ... ويكون السيد أبوها والسيدة أمها حاضرين ، فلا يجدان فى ذلك بأساً ولا يحتجان ... بل هما يأذنان ويستحسان ويشجمان ... وفى لفد يمضى الفارس يطلب يد الفتاة ... هل فهمتم ؟ يمضى يخطب الحساء ... أليس هذا صحيحاً ؟ ها ها ...

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً •

- سيد مسكين !

هكذا جميعهم يقول البولندى الطويل ، الجالس على كرسى قرب الحائط ، وأنزل احدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى ، ليصالبيهما فى الاتجاه المعاكس من جديد •

لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمعة التى كان نعلها السميك وسخاً جداً • يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملًا ، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها •

تدخلت جروشكا تقول بلهجة حاققة :

- لماذا يكون مسكيناً ؟ أنا لا أحب الالهات !

فقال البولندى ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشكا :

- سيدتى أجريينا ! لابد أن هذا السيد قد عاش فى بولنده بنات وضيعات لا سيدات من الطبقة النيلة !

فأمّن الرجل العملاق على كلامها صاحبه قائلاً :

- تستطيعين أن تكونى من ذلك على يقين •

قالت جروشكا متجهمة الأسارير :

- كفى ! دعوه يتكلم ! بماذا أساء اليكم ؟ ان المرء ليتسلّى مع أمثاله على الأقل !

فأجاب « السيد » البولندى ذو الباروكه ، أجاب يقول بوقار :

- لست أمنه من الكلام يا سيدتى •

وألقى نظرة طويلة على جروشنكا ، ثم صمت ، ونشق نفساً من غليونه برصانة ورزانة .

قال كالجائوف متحمساً وكان الأمر أمر مناقشة هامة جداً :

- معذرة ! أحسب أن « السيد » على حق . مادام ماكسيموف لم يشق في بولنده فبأى حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد ؟ انك لم تتزوج في بولنده مع ذلك ، هه ؟

قال ماكسيموف شارحاً :

- لا ... وانما تزوجت في اقليم سمولنسك . ان أحد الفرسان هو الذى جاء الى ذلك الاقليم بزوجتى ... أعنى بمن أصبحت زوجتى فيما بعد ... جاء بها الى ذلك الاقليم تصحبها السيدة أمها ، وخالة من خالاتها ، وقرية أخرى لها ابن كبير . لقد جاءت هذه السيدات من بولنده ، فهن بولنديات حقاً ... وقد تنازل لى الفارس عنها . كان هذا الفارس فى أخذاً ... كان فى نيتة أن يتزوجها هو نفسه فى أول الأمر ، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء .

هتف كالجائوف يسأله :

- كيف ؟ تزوجت عرجاء ؟

- نعم ، كانت تمرج . وقد تأمرا كلاهما على خداعى . كنت أنا أظن أنها تتوآب توائباً جميلاً ، وكنت أعزو ذلك الى فرحتها ...

- الى فرحتها بتزوجك ؟

كذلك سأله كالجائوف بصوت رنان طفولى .

- نعم ، الى فرحتها بتزوجى . ولكن اتضح لى أن الأمر لم يكن

كذلك البتة • فبعد زواجنا ، بل في مساء الحفلة نفسه ، اعترفت لى بالحقيقة ، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً : يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير ، فأنكسرت عندئذ ساقها ! ها ها !

انطلق كالجانوف عندئذ فى ضحك كضحك الأطفال تماماً ، وكاد ينقلب على الكبة • وضحكت جروشكا أيضاً • أما ميتيا فقد شعر أنه فى ذروة النبطة والهناء والسعادة •

صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا :

— هل تدري أنه ذكر الآن الحقيقة ؟ انه لم يكذب فى هذه المرة !
اعلموا أنه تزوج مرتين ... وهو عن زوجته الأولى انما تحدث الآن ،
أما الثانية فقد هربت ... هل تعلمون هذا ؟ وهى ما تزال حية • أكنتم تجهلون ذلك ؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة الى ماكسيموف :

— غير معقول !

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع :

— بل لقد هربت فعلاً • نعم ... حدث لى هذا المكروه ! سافرت مع رجل فرنسى • وأسوأ ما فى الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضى التى تتبعها • قالت لى : أنت رجل مثقف ، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك • على هذا النحو انما تركتني • وقد نبهني أسقف محترم جداً فى ذات يوم الى أن احدى زوجتي كانت ساقها عرجاء ، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة ... ها ها ! ...

صاح كالجانوف يقول فى حماسة :

— هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ اذا كذب — وهذا ما يحدث له

أحياناً كثيرة - فهو لا يكذب الا ليلسينا . ليس فى هذا شىء من حطة ، ليس فيه شىء من حطة ! انه يعجبني أحياناً ، هل تعلمون ؟ هو دنىء جداً ، ولكن دناؤه طبيعية ، أليس كذلك ؟ ما رأيكم ؟ غيره ينحطون طمعاً فى منفعة ، أو سعياً الى ربح ، أما هو فيفعل ذلك مجاناً ، يفعل ذلك مدفوعاً اليه بطبيعته المنزهة عن الغرض . تصوروا مثلاً أنه يدعى أن جوجول انما وصفه هو فى كتابه « النفوس الميتة » * . لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق . انكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف ، جلده رجل اسمه نوزدريف ، فحكم هذا الرجل « بتهمة توجيه اساءة شخصية بالسياط ، فى حالة سكر ، الى الملاك ماكسيموف . . . » ان صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذى جلد بالسياط ذلك الجلد الذى يحدثنا عنه كتاب جوجول ، فهل هذا ممكن ؟ فكروا قليلاً ! ان تششيكوف قد سافر سنة ١٨٢٠ ، فالتاريخ اذن غير مطابق أبداً . انه ليستحيل استحالة مادية أن يكون ماكسيموفنا نحن قد جلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد . يستحيل ، أليس كذلك ؟

لقد تحمس كالبانوف تحمساً صادقاً ، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولى هذه المسألة كل هذا الاهتمام ، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن ! وتحيز له ميّياً باقتناع تام ، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً مدوياً :

- ولكن ما دام يعترف بأنه جلد ...

فقاطعه ماكسيموف مصححاً :

- الحق أن ما وقع لى لم يكن هو الجلد تماماً ، بل كان شيئاً من هذا

القبيل .

- كيف هذا ؟ شيء من هذا القليل ؟ اما أنك جُلدت واما أنك لم تُجلد ، ولا وسط بين الأمرين !

سأل « السيد » البولندى ذو الغليون ، سأل صاحبه البولندى الطويل ، متمللاً متذمراً :

- كم الساعة الآن ؟

فرغ البولندى الطويل كفيه • لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة •

تدخلت جروشكا تقول بلهجة هجومية :

- هل أضجركم هذا الحديث ؟ دعوا الآخرين يتكلمون ! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسروا عن أنفسهم ؟

كان يبدو على جروشكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة ، فدُهِشَ مِتِيًا من هذا لأول مرة • أجاب « السيد » البولندى بشيء من العصبية ، أجاب يقول باللغة البولندية :

- سيدتى ! أنا لم أقل شيئاً ، ولا أنوى أن أزعج أحداً •

فهمت جروشكا متجهة بالكلام الى ماكسيموف :

- طيب • اقصص الآن • مالى أراكم تسكتون جميعاً على حين فجأة !

استأنف ماكسيموف كلامه يقول وقد سرَّه الاهتمام به ، وأخذ يصطنع اللطف :

- ليس هناك ما أقصه ! ما هذا كله الا هراء ! ثم ان جوجول قد موَّه أكثر الأسماء فى هذه القصة ، وأبدلها بتسميات رمزية • من ذلك

أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقى نوسوف*، كما ان كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقى شكنفوريف ، والاسمان مختلفان كل الاختلاف . أما فيناردى فكان اسمه فعلاً فيناردى ، ولكنه كان روسياً لا ايطالياً : فيناردى بتروف . وكانت الأنسة فيناردى فتاة أخاذة فتاة ... ليتكم رأيتموها ! ليتكم رأيتم ساقها المغمدين فى سروالها الضيق تحت ثورتها القصيرة ذات الأسلاك المشدودة ! ... وما كان أزوع دورانها ! ... ولكنها لم تدر الا خلال أربع دقائق ، لا خلال أربع ساعات . لقد فتت ألبانها جميعاً يومئذ ...

زأر كالجاثوف يسأله :

- ولكن لماذا جلدوك ؟ هلاً قلت لنا لماذا جلدوك ؟ ذلك هو الأمر الذى يعنينا !

أجاب ماكسيموف :

- جلدونى بسبب ييرون .

فسأله ميتا :

- اى ييرون ؟

- الكاتب الفرنسى الشهير ييرون . كنا جماعة كبيرة فى كاباريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر . حدث ذلك فى أثناء تلك السوق نفسها . دعونى ، فما لبثت أن كِلت لهم أبياتاً شعرية لازعة . قالوا لى : ه أهذا أنت ... الشاعر بوالو ؟ يا للزى الغريب المضحك ! * فأجابهم بوالو بأنه ذاهب الى حفلة تنكرية ، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات ... ها ها ! ... ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم . وعندئذ

أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة في الأوساط المثقفة ، وكانت في الحق كاوية :

انت سافو وأنا فاوون - ذلك امر مر

ولكن اكبر مصائبى

انك تجهلين طريق البحر * .

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينونى اهانات ليست لاثمة . فاردت عندئذ ، لسوء حظى ، أن أصلح ما بدر منى من خرافة ؛ ومن أجل أن أسوئ الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التى لا يعرفها الا المثقفون جداً . فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر ، حين لم ينتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، أراد أن ينتقم لنفسه ، فنظم بيتين لشاهدة قبره ، فقال :

هنا يرقد بيرون ، الذى لم يكن شيئاً ذا بال

حتى ولا عضواً فى الاكاديمية

فما كان منهم الا أن هجموا على فجلدونى .

- عجيب ! لماذا ؟ لأى سبب ؟

- ليعاقبوني على سعة اطلاعى .

وأضاف ماكسيموف يختم كلامه ، مصطنعاً هيئة التصق والحكمة ، قائلاً :

- ما أكثر الأسباب التى يُجلد من أجلها انسان !

قاطعته جروشنكا قائلة :

- كفى ! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة ! لا أريد أن أسممها بعد الآن . لقد توقفت شيئاً أَدْعَى الى البهجة وأبعت على الضحك !
 فسرعان ما وجم ميتيا وكفَّ عن الضحك . ونهض « السيد » البولندى الطويل ، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره ، وقد بدا عليه الكبر والتعالى ، كرجل أوقفته المقادير في صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملك وسأم .

قالت جروشنكا وهى تنظر اليه باحتقار :

- ما أبلد مشيته هذه !

فازداد انفعال ميتيا ، لا سيما وأن « السيد » الجالس على الكنبه كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل اليه . فصاح ميتيا يقول :

- فلنشرب أيها السيد . (ثم التفت الى البولندى الآخر وتابع كلامه) . وأنت أيضاً . . . فلنشرب ، فلنشرب أيها السادة !

وتناول ثلاث كئوس وملأها شيبانيا . وهتف يقول :

- فلنشرب نخب بولنده ! فلنشرب نخب بلادكم بولنده ! فلنشرب نخب الأرض البولندية !

فأجابه « السيد » ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع كأسه :

- بكل سرور يا سيدى ! فلنشرب !

فقال ميتيا مهتماً :

- والسيد الآخر أيضاً • هلاًّ قلتم لى اسمه ! خذ كأساً
يا سيدى •

قال السيد ذو الفليون :

- اسمه السيد فروبلفسكى •

واقرب السيد فروبلفسكى من المائدة متميلاً ، وتناول كأساً ،
ولكنه ظل واقفاً •

هتف ميتا وهو يرفع كأسه :

- فلنشرب نخب بولنده يا سادتى !

وقرع الثلاثة كئوسهم بعضها ببعض • ولم يلبث ميتا أن تناول
الزجاجة فملاً الكئوس الثلاث من جديد • وقال :

- والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة ! علينا أن نتأخى !

قالت جروشكا :

- املا لى أنا أيضاً كأساً • أريد أن أشرب كأس روسيا •

وقال كالبانوف :

- وأنا كذلك !

وزاد ماكسيموف فقال :

- وأنا أيضاً ! اننى احرص على أن أشرب نخب جدتسا المعجوز

روسيا • هى • هى • ! ...

هتف ميتا يقول :

- فلنشرب جميعاً ! فلنشرب جميعاً ! هات زجاجات أخرى

يا ريش !

جىء بالزجاجات الثلاث الباقية • وملأ ميتيا الكؤوس • وصاح يقول
من جديد :

— نخب روسيا !

فشرب الجميع الا البولنديين • أفرغت جروشكا كأسها دفعةً
واحدة • أما البولنديان فلم يمسأ كأسيهما •

قال ميتيا فى دهشة :

— ماذا ؟ أهكذا أتم ؟

فتناول « السيد » فروبلفسكى كأسه ، ورفع ، وقال بصوت
أخف :

— اتنى اشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ ! *

فهتف « السيد » الآخر قائلاً باللغة البولندية :

— عظيم !

وأفرغ الاثنان كأسيهما • فلم يملك ميتيا الا أن يقول :

— ما أغياكما !

فاتصب « السيدان » أمام ميتيا كديكين ، وقالوا له بلهجة التهديد :

— أيها ... السيد !

وكان يبدو على فروبلفسكى أنه خارج عن طوره؛ وها هو ذا يصرخ

قائلاً فى استياء (باللغة البولندية) :

— هل محظور على المرء أن يحب بلاده ؟

وهنا انفجرت جروشكا تقول بصوت صارم وهى تفرع الأرض

بقدمها :

- سكوت ! كفاكم شجاراً ! لا أريد هذه المناقشات !

قالت جروشكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها . كانت
الشمبانيا قد فملت فعلها . خاف ميثا . وأسرع يقول :

- معذرة أيها السيدان ! أنا المذنب . لن أكرر . يا فروبلفسكى ،
يا سيد فروبلفسكى ، سأجلس ساكناً هادئاً بعد الآن .

فقاطعت جروشكا قائلة بانزعاج :

- ليتك تسكت أنت على الأقل ؟ أبله !

جلس جميع الحضور ، وخيم الصمت ، وأخذوا ينظرون بعضهم
الى بعض فى حرج .

لم يدرك ميثا شيئاً عن اندفاع جروشكا ، فاستأنف يقول :

- أنا سبب هذا كله أيها السادة ! يجب أن لا تبقى عاطلين هكذا ..
ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً ... فنسترد مرحنا وانطلاقاً ؟ ...

قال كابلانوف باهمال ودون اكترات :

- حقاً ان المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً .

فقال ماكسيموف مقترحاً :

- ما رأيكم فى لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل ؟ هى . هى !

فقال ميثا مؤيداً مستحسنأ :

- لعبة بالورق ؟ فكرة عظيمة ! هذا اذا وافق هذان السيدان ...

فقال السيد ذو الفليون بلهجة تتم عن اعتكار المزاج ، قال باللفظة
البولندية :

– بوزنو (الوقت متأخر) •

فقال فروبلفسكى مؤمناً :

– هو على حق •

فسألت جروشنيكا :

– بوزنو ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

فأجابها السيد الجالس على الكنية :

– معناها : الوقت متأخر •

فألت جروشنيكا بصوت حاد وقد نفذ صبرها :

– الوقت دائماً متأخر فى نظر هذين السيدين ، وكل شىء مستحيل فى نظر هذين السيدين • انهما لا يجيدان الا الضجر والسأم ، ويريدان أن يحرموا الآخرين من البهجة والمسرّة • انهما ، لى أن جئت يا ميتيا ، لم يفعلوا طوال الوقت شيئاً غير الصمت ، متخذين هيئة تعالى تجاهى •

فهتف « السيد » الجالس على الكنية يقول باللغة البولندية :

– الهتى ! ما قلته صحيح تماماً • لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية •

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل :

– أنا مستعد •

فأجابه ميتيا :

– افتح اللعب يا سيدى •

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلَّ منها
ورقتين بمائتي روبل ووضعهما على المائدة • وقال :

— أريد يا سيدى أن أخسر مالاَ كثيراً مَعك • خذ الورق ، وكن
أنت الخازن •

قال « السيد ، القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته :

— يجب أن نلعب بورق صاحب النزل •

فقال السيد فروبلفسكى مؤيداً :

— ذلك أفضل حقاً !

قال ميتيا وقد أدرك ريبتها :

— تفضلون ورق صاحب النزل ؟ طيب أيها السادة ! سنأخذ ورق

صاحب النزل • أتم على حق •

وقال يأمر صاحب النزل :

— هات ورقاً •

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة ، وأعلن لميتيا أن البنات قد
تجمعن ، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون
بعد هنيهة ، ولكن العربة التى تحمل المون قد تأخرت • فنهض ميتيا
فجأة ، وأسرع الى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة • لم يكن
فى الغرفة الا ثلاث بنات • ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد • وكان ميتيا
لا يعرف فى الواقع ما هى الاجراءات التى كان عليه أن يتخذها ، حتى
لقد تساءل ماذا جاء يعمل فى هذه الغرفة • ومن أجل أن يخرج من
ارتباكهِ أمر بأن يؤتى بالصندوق الذى يحتوى السكاكر ، وأن يؤزَّع

على النبات كارامل • وأضاف يقول متمجلاً : « وقدّموا فودكا لأندره
لأننى جرحت شعوره منذ قليل » • وشعر ميتيا فى تلك اللحظة بأن أحداً
يضع يده على كتفه ، فالتفت فرأى ماكسيموف الذى كان قد تبعه الى
الغرفة •

همس الملاك يقول له :

— هل تستطيع أن تسلفنى خمسة روبلات ؟ اننى أحب أن ألعب
أيضاً ! هـى • هـى • ••••

— عظيم ! عظيم ! خذ هذه الروبلات العشرة ! اليك عشرة روبلات !
وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى ، فتناول
منها ورقة بعشرة روبلات ، وقال له :

— وما عليك اذا خسرتها الا أن تطلب المزيد • سأعطيك غيرها
أيضاً • ••••

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرحة :

— هذا يدبر أمرى !

وأسرع يعود الى القاعة الأخرى •

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به ، واعتذر للجمع عن تغييه • وكان
البولنديان ، الجالسان الآن الى المائدة ، قد فضا الورق قبل وصوله • وقد
أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليكن أن يوصفا باللطف
والدمانة • وها هو ذا • السيد ، القصير ، الذى أشعل غليوفاً جديداً ،
يستمد لخلط الورق بوقار • هتف فروبلفسكى يقول :

— مكانكم يا سادتى !

فقال كالبانوف :

« أتألمن ألب » . فقد سبق أن حسرت معهما خمسين روبلا .

فقال السيد ذو الغليون :

— ان سيدى لم يحالفه الحظ فى المرة السابقة ، ولكن قد يتدارك الآن ما فاتته ...

سأل ميتيا متحمساً :

— كم الخزنة ؟

— يمكن أن تكون مائة روبل ، ويمكن أن تكون مائتين ، فذلك متوقف على المبلغ الذى تحطه .

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

— مليون !

— لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكى * ؟

— أى بودفيزوكى ؟

— حدث فى ذات مساء فى فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال المحفوظة عند الخازن . فأقبل بودفيزوكى ، فرأى ألوف القطع الذهبية ، فحطّ مبلغاً . سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف . فقال بودفيزوكى : « بل اعتماداً على عهد الشرف » ، فقال الخازن « حساً » ، وقطع ، فلمّ بودفيزوكى القطع الذهبية . فإذا بالخازن يقول له : « لحظة أيها السيد » . وفتح الدرج وناول بودفيزوكى مليوناً وهو يقول له : « خذ . هذا ما ربحته . لقد كانت الخزنة مليوناً . قال بودفيزوكى متردداً : « كنت أجهل هذا » ، فقال له الخازن : « يا سيد بودفيزوكى ، أت لعبت بالاعتماد على عهد

الشرف ... وأنا كذلك • فأخذ بودفيزو كي المليون ودسّه في جيبه •

هتف كالجانوف يقول :

- هذا غير صحيح !

فقال السيد ذو الغليون ، يخاطبه باللغة البولندية :

- يا سيد كالجانوف ، ما هكذا يتكلم المرء في صحبة أناس محترمين !

فصاح ميتيا قائلاً :

- لا تحاول أن تقنعا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو !

ولكن ميتيا لم يلبث أن تاب الى نفسه فاستدرك يقول :

- معذرة يا سيدى ! ها أنا ذا أخطئ من جديد ! ان البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة ، تنفيذاً لمهد الشرف ، صوناً للشرف البولندى ... أنا أسلم بهذا ! ... أرى أنتى سأتكلم أنا أيضاً باللغة البولندية آخر الأمر ! ها ها ها ! أخط عشرة روبلات على الأعرج (الفالیه) •

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورقة البنت (الدام) :

- وأنا أقامر بروبل صغير على البنت ، البنت الجميلة ، البنت البستونية ، على « الست » ، هي • هي • هي •

قال ماكسيموف ذلك واقرب من المائدة اقتراباً شديداً ، كأنه يريد أن يخفى ما سيفعله ، ورسم تحت المائدة اشارة الصليب •

ربح ميتيا ، وربح الروبل الصغير أيضاً •

قال ميتيا : -

- أضعف •

وتتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار له فرحاً بريحه
الروبل :

- وأنا ألعب مرة أخرى بروبل ، روبل فقط ، روبل طيب ، روبل
شهم صغير !

صرخ ميتيا :

- خسرت ! أضعف حظتي على السبعة •

وخسرت السبعة أيضاً •

قال كالجانوف فجأة :

- كفوا عن اللعب •

فعاد ميتيا يقول دون أن يضطرب :

- أضعف •

وظل ميتيا يضاعف ، وظل يخسر في كل مرة ، ولكن الروبلات
الصغيرة التي كان يحطها ماكسيموف ظلت تبيع •

صرخ ميتيا حائفاً :

- أضعف أيضاً •

- فقال له « السيد » ذو الغليون :

- خسرت حتى الآن مائتي روبل • فهل تريد أن تقامر بمائتي
روبل دفعة واحدة ؟

- كيف ؟ خسرت مائتى روبل ؟ لا بأس ! أضعاف مع ذلك ! ألب
بمائتى روبل دفعةً واحدة !

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتى روبل ، وهمَّ أن
يلقيهما على البنت (الدام) ، فاذا بكالجانوف يضع يده عليها فيغطيها •
قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان :

- يكفى هذا !

فسأله ميتيا وهو ينظر اليه مندهشاً :

- ماذا بك ؟

- يكفى هذا • لن أدعك تستمر •

- لماذا ؟

- هكذا ! دعهما وامض • هذا أفضل • صدقتى • سوف أمنعك من
متابعة هذا اللعب •

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم •

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة فى صوتها :

- دع اللعب يا ميتيا • ربما كان على حق • ثم انك قد خسرت
ما فيه الكفاية •

فلقى « السيد » القصير فقال يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدث
اليه تحديقاً قاسياً :

- أترأك تمزح ؟

وصرخ « السيد » الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد !

- كيف تجرؤ أن ...

ففضيت جروشكا وقالت :

- لا أسمع بالصراخ هنا • لكأنكم ديكه حانقه !

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد واحد • وفجأة لفت انتباهه في هيئة جروشكا تعبير غريب • وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة عجيبة •

بدأ « السيد » القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً :

- سيدتى أجريينا •••

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه • فقد اقترب منه ، ووضع يده على كتفه وقال له :

- كلمتين أيها السيد النحيل !

فسأله هذا بالبولندية :

- ماذا تريد ؟

فأجابه ميتيا :

- تعال معي الى الغرفة المجاورة • أريد أن أكلمك على انفراد ، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً • ستري أن ما سأقوله لك يرضيك •

بدت الدهشة على « السيد » القصير ، ونظر الى ميتيا في خشية • ومع ذلك رضى أن يتبعه ، ولكنه اشترط أن يصحبه « السيد » فروبلفسكى •

هتف ميتيا قائلاً :

- حارسك ؟ فليات هو أيضاً ••• ثم ان حضوره ضرورى • هيا بنا أيها السيدان !

سألته جروشنكا قلقة :

- الى أين تذهبون ؟

فأجابها ميّيا :

- سنعود بعد لحظة •

من رأى ميّيا فى تلك اللحظة أحسّ أنّ فيه عزمًا وتصميمًا وجراءة، وأحسّ أنّه واثق من نفسه ثقةً لا تُنتظر منه • ان تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله •

قاد ميّيا الرجلين البولنديين الى غرفة تقع على اليمين ، ليست هى الغرفة التى كانت تتجمع فيها جوقة البنات ونُهيّاً فيها المائدة للقاصفين ، ولكنها غرفة نوم ملاءى بالحُفائب والصناديق ، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد • وكان فى الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة • جلس « السيد » ذو الغليون وميّيا متقابلين ، ووقف « السيد » العملاق فروبلفسكى فى جانب ، واضعاً يديه وراء ظهره • ان الرجلين البولنديين يرقبان ميّيا عابسين ، ولكن كان واضحاً أنّهما يشعران برغبة قوية فى معرفة ما يريد أن يقوله •

تمتم « السيد » ذو الغليون يقول بالبولندية :

- ما الخدمة التى يمكننى أن أقدمها لك ؟

- اسمع أيها السيد • لن أراوغ وأختال • خذ المال (قال ميّيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية) ، خذ المال ••• هل تريد ثلاثة آلاف روبل ؟ خذها وانصرف !

حدق « السيد » الى ميّيا بنظرة فاحصة ، مفرقا عينيه فى عينيه • وسأله بالبولندية :

- ثلاثة آلاف روبل أيها السيد ؟
وتبادل وصاحبه فروبلفسكى نظرة خاطفة .
قال له ميتيا :

- نعم ، ثلاثة آلاف ! اسمع أيها السيد : اننى ألاحظ أنك رجل عاقل . خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا ، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكى ، هل فهمت ؟ على أننى اشترط أن تذهب فوراً ، فى هذه الدقيقة نفسها ، والى الأبد . الى الأبد ، فهمت ؟ تخرج من هذا الباب ، هل ترى ؟ ماذا تركت فى الغرفة الأخرى ؟ معطفاً ؟ فراء ؟ سأجيبك به . وسأمر باعداد عربة ترويكاف لك فوراً وأتمنى لك سفرأ سعيداً أيها السيد . هيه ، ما رأيك ؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلئ ثقة . كان لا يراوده شك فى أن الرجل سيقبل هذا العرض . واتخذ وجه « السيد » ذى الغليون هيئة تتم عن غاية العزم والتصميم . وقال يسأل ميتيا :

- أين المال يا سيدى ؟

- اليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال : أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفاً ونفقات سفر . أما لباقى ، وهو ألفان وخمسمائة ، فسأدفعه لك غداً فى المدينة ، أحلف لك بشرفى . سأجيبك بهذا المبلغ من تحت الأرض اذا لزم ذلك ! (هكذا صاح ميتيا) .

تبادل البولنديان نظرة . وأصبح وجه « السيد » ذى الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل . قال ميتيا :

- بل أعطيك سبعمائة، سبعمائة روبل ، لاختمائه، كدفعة أولى . . . أعطيكها حالاً ، فى هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذى

لاحظ أن الأمور أخذت تجرى مجرى لا يبعث على الامل) • ما بك أيها السيد ؟ ألا تصدقنى ؟ لست أستطيع أن أنقذك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال • ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود إليها غداً ••• ثم اننى لا أحمل الآن هذا المبلغ ، وانما هو مخبأ فى مسكنى بالمدينة ، (كذلك تتمم يقول أليوشا الذى كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة ، والذى أصبح يرتش منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق) أحلف لك أن هذا المال فى بيتى ، مخبأ •••

وفى مدى لحظة قصيرة ، اجتاح وجه « السيد » ذى الفليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة وشمم هائل ، فسأل ميتا فى سخرية (باللفة البولندية) :
- أهذا كل ما تريده ؟

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة •
وبصق فروبلفسكى أيضاً •

قال ميتا وقد شعر باليأس يفزوه ، وأدرك أن كل شىء قد ضاع ، قال :

- أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر!
ألا انكما كليكما لمضحكان !

فقال « السيد » ذو الفليون ، وقد احمر احمراراً شديداً (قال باللفة البولندية أيضاً) :

- انك تهيننى الى أقصى حدود الاهانة •

ثم أسرع يتجه نحو الباب ، فى هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام • وسار فروبلفسكى وراءه متميلاً • وتبعهما ميتا مضطرباً حائراً وقد أسقط فى يده • كان يخشى غضب جروشنكا ، لأنه

أوجس أن البولندى سيفضح الأمر • وذلك ما حدث فعلاً • فقد دخل « السيد » ذو الطليون القاعة ، فوقف أمام جروشكا وقفة مسرحية ، وهتف يقول لها باللغة البولندية :

- لقد أٌهنت الى أقصى حدود الإهانة •

فاذا بجروشكا تصيح فى وجهه حاتقة مسعورة :

- باللغة الروسية ، تكلم باللغة الروسية ! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة ! لقد كنت تعرف الروسية فى الماضى ، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها فى خمس سنين !

وكانت جروشكا محمرة الوجه غضباً •

- سيدتى أجريينا •••

- اسمى أجرافين ••• أنا جروشكا ••• تكلم بالروسية اذا كنت تريد أن أسمع لك !

جُرحت كبرياء «السيد» ، فاحمر وجهه ، وأسرع يقول فى تنفخ وفخفخة ، متمعداً تشويه الكلمات :

- أيها السيدة أجرافين ! لقد جئت وأنا أنوى أن أسمى الماضى وأن أغفر ، جئت وأنا أنوى مسح ما حدث حتى هذا اليوم •••

فقاطعت جروشكا قائلة وهى تب من مكانها :

- جئت لماذا ؟ لتغفر ؟ أتريد أن تغفر لى أنا ؟

- نعم يا سيدتى ، كنت أريد أن أغفر لك • ان لى نفساً رجة وقلباً سمحاً • ولكن سلوك خلائك قد أدهشنى • فمذ هنية ، فى الفسرفة المجاورة ، أراد « السيد » ميتا أن يعطينى ثلاثة آلاف روبل لأسافر • فصقت فى وجهه •

صرخت جروشكا تسأله بصوت حاد :

- ماذا ؟ هل تجرأ أن يقدم لك مالا من أجلى ؟ أصبح هذا
يا ميتا ؟ كيف جرؤت ؟ أنا امرأة تباع وتشتري ؟

قال ميتا فى أنين :

- أيها السيد ، أيها السيد ، انها طاهرة كمالك ، ولم أكن خليلها فى
يوم من الأيام . لقد كذبت فى هذا الأمر ...

زارت جروشكا تقول :

- كيف تجرؤ أن تدافع عني أمامه ؟ لئن حافظت على طهارتي ،
فاننى لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة ، بل ليكون من حتى أن أصرخ فى
وجه هذا الرجل حين ألقاه : أنت شقى تمس ! هل يمكن حقاً أن يكون
قد رفض المال الذى عرضته عليه ؟

فصاح ميتا يقول :

- رفض ؟ انه لم يرفض ... لقد رضى ... ولكنه أراد أن أقدمه
الثلاثة آلاف روبل دفعة واحدة ، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو
سبعمائة روبل .

قالت جروشكا :

- اتضح الآن كل شيء : لقد علم اننى أملك مالا ، فأراد أن
يتزوجنى !

صرخ « السيد » يقول :

- يا سيدة أجريينا ، أنا فارس ، أنا بولندى نبيل ، لا شقى تمس .
لقد كنت أريد أن أأخذك حليلاً لى ، ولكنتى أرى الآن أمامى امرأة

تختلف كل الاختلاف عن المرأة التي عرفتها ، أرى أمامي الآن امرأة
راكبة رأسها خالعة عذارها ...

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها :

- اذهب ! عد من حيث جئت ! لأمرن بطردك ، فيضموك على
الباب ! ألا ما كان أشد بلاهتي حين عذبت نفسي خلال هذه السنين
الخمس بسببه ! ... لا ... انتى لم اعذب نفسي هذا التعذيب بسببه ،
وانما عذبت نفسي غضباً وحنقاً ! ليس هذا هو الرجل الذى أحبيته !
أوه ! انه لم يكن هكذا ! ليس هذا الرجل هو من أحبت ! أغلب الظن
أنه أبوه ! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة ؟ لقد كان ذاك
حقيراً ، أما هذا فدجاجة مبتلة ! كان ذاك يضحكنى وينشدنى الأغاني ..
الا ما كان أغبانى اذ لبث أبكى طوال خمس سنين ، وما كان أحطنى ،
وما كان أجبتنى !

قالت جروشنكا ذلك وتهاكت على مقدمها من جديد ، وغطت وجهها
بيديها . وفى تلك اللحظة ، ترجعت فى الغرفة التى تقع على الشمال
أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتى اجتمع شملهن أخيراً . لقد أخذن
يفين رقصة شيطانية .

فصاح فروبلفسكى على حين فجأة يقول :

- هذا محل دعارة ! يا ريس ، اطردها هاته النساء الخليعات !

كان صاحب النزول يلقي على القاعة نظرات استطلاع من حين الى
حين ، فلما سمع الصراخ فأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع
اليهم . وقال يسأل فروبلفسكى بلهجة فظة :

- هيه ! أنت ! مالك تصيح هذا الصباح بحلقك المريض كله ؟

فزأر « السيد » فروبلفسكى يقول له :

- وغد !

- وغد ؟ أنا وغد ؟ هلاً قلت لى بأى ورق لعبت منذ قليل ؟ لقد جئت بحزمة مختومة ، فأخفيتها ، ولعبت بورق مفضوش ! هل تعلم أننى أستطيع أن أرسلك الى سيريا بسبب هذا الفش ؟ ان اللعب بورق مزيف يشبه صنع تقود مزيفة ...

واقترب صاحب النزل من الكنية ، فأغطس يده بين الوسادة والظهر ، فسحب حزمة الورق المختومة ، وقال :

- هذا ورقى ، لم يمس !

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور ، وهو يقول :

- لقد رأيته من ركنى لحظة دس هذه الحزمة فى الشق ، وأحل محلها ورقاً من عنده ! أنت وبش لا « سيد » ...

وقال عندئذ كالجانوف :

- وأنا فاجأت « السيد » بفش مرتين •

صاحت جروشنكا تقول وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

- يا للعار ! آه ... يا للعار ! ... رباة ! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل الى هذا الحد ؟ ...

وكانت جروشنكا قد تخطب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل •

قال ميتا :

— لقد أشتبهت في أنهما يشنان !

فما ان نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت « السيد » فروبلفسكى الى جروشكا متناظراً مضطرباً ، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها :

— موسى !

ولكن ميتيا انقض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسك بجسمه كله ، ورفع ، ونقله بلمحة طرف الى الغرفة التى تقع على اليمين ، الغرفة التى قادهما اليها منذ لحظات . وسرعان ما عاد الى القاعة لاهتافاً من الجهد والانفعال ، فقال للقوم :

— رميته على الأرض ! المسكين يتخبط ، ولكنه لن يسارع الى الرجوع .

وأغلق ميتيا أحد مصراعى الباب ، وترك المصراع الثانى مفتوحاً ، واتجه الى « السيد » ذى القليون يسأله :

— هل تتنازل ، أيها السيد النبيل ، فتلحق بصاحبك ؟ برزبرازنام !
(معذرة !)

فهتف تريفون بوريشتش يقول :

— ولكن يا دمترى فيدوروفتش ، استرد منه المال الذى خسرته فى اللعب ، على الأقل ... لقد سرقاك !

قال كالبانوف :

— أنا أترك لهما روبلاتى الخمسين !

فصاح ميتيا :

- وأنا أتنازل عن روبلاتى المائتين ! لن استردها بحال من الأحوال
فليحتفظا بها عزاءً لهما !

- مرحى ميتيا •

كذلك صاحت تقول جروشكا بصوت فيه شيء من الشر •
فاتجه « السيد » ذو الغليون نحو الباب ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة
شديدة من فرط الحق ، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصاته • ومع ذلك فانه
قبل أن يخرج من القاعة ، التفت نحو جروشكا وقال لها (بالبولندية) :
- سيدتى ، اذا كنت تريدان أن تتبعينى ، فتعالى ! والا ...
فوداعاً ...

ثم اجتاز لباى عابس الوجه مختق الصدر غضباً وخزيًا •
ذلك انسان لا يهزه شيء • فانه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه
« السيدة » ، لأنه يقدر نفسه قدرًا عظيمًا •

أغلقت جروشكا الباب عليهما •

وقال لها كالجنانوف ناصحاً :

- أقفلى الباب عليهما بالمفتاح •

ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة • لقد سارعا هما الى اقفال الباب
بالمفتاح •

هتفت جروشكا تقول بلهجة حاقدة :

- عظيم ! ذلك كل ما كانا يستحقانه !

٨ هذيان



ان مضى البولنديان حتى شمل القاعة مرحاً عام،
وحتى بدأ احتفال يشبه أن يكون مجوناً وكانت
جروشكا أول المطالين بخمر • قالت :
- أريد أن أشرب ، أريد أن أسكر تماماً،

كالمرّة السابقة ، هل تذكر ياميتيا ، يومَ تعارفنا ؟

وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان ، لأنه كان يتنبأ « بسعادته » •
وكانت جروشكا ، مع ذلك ، ما تنفك تصرفه في كل لحظة ، قائلةً له :
- اذهب اليهم ، سرّاً عن نفسك ، مرهم بأن يرقصوا ، حتى يكون
هنالك انطلاق ومرح • أريد قصفاً عنيفاً حاراً ، كالمرّة السابقة ، كالمرّة
السابقة تماماً •

كانت جروشكا محتاجة جائشة النفس • وكان ميتيا يتحرك هنا
وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها • تجمع أفراد الجوقة في الغرفة المجاورة •
ان هذه القاعة التي تجمعوا فيها صغيرة مسرقة في الصغر ، تقسمها الى
قسمين ستارةً من نسيج هندي تخفي وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف
كبير فوقه كدسة من وسائد • وان في سائر الغرف الأربع الأخرى
« النظيفة » سرراً على كل حال • استقرت جروشكا أمام الباب ، حيث

أتاها ميتا بمقعد تجلس عليه • ذلك هو المكان الذى شغلته فى ذلك اليوم • أثناء احتفالها الأول فى الليل • تأمل منه الرقصات وتسمع الغناء • ان البنات اللواتى اشتركن فى ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن • ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان • وأعلن أخيراً أن عربة التروىكا التى طال انتظارها قد وصلت هى أيضاً تحمل المؤن •

شغل ميتا كثيراً • وراح يتحرك هنا وهناك • كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين الى حين ليلقوا نظرة على الفرقة • لقد أوقف الفلاحون والفلاحات فى وسط الليل • وأسرعوا يرتدون ثيابهم • متوقفين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضى • ان ميتا يحبى الوافدين الجدد • ويعانق الأصحاب القدامى • ويثير ذكريات سابقة • ويفتح الزجاجات • ويقدم الشراب لكل قادم • والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا • أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك • ويفضلون « البنش » خاصة • أصدر ميتا أوامره باعداد شوكلاتة للبنات • وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلى ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاي والبنش • يجب أن يكون هنالك شراب للجميع • يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواء أن يسكر • الخلاصة : قامت الدنيا وقعت • وأخذ الناس يشربون فوضى لا يلجمهم شئ • ولكن ميتا كان يحس فى هذا السديم المضطرب بارتياح • ويزداد اتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف فى هذه السهرة • فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالا فى تلك اللحظة • اذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عد • ولمل هذا هو السبب الذى جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته فى أغلب الظن • وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام فى هذه الليلة • لذلك لم يشرب هو نفسه الا قليلاً جداً (اكفى بكأس بنش واحد) •

ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الاتباه ، ولو على طريقته الخاصة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل ، بلهجة متعاذية لينة ، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها ، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الجفافة سيجاراً وملبساً « كما فعل في المرة الماضية » ، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خاصة ، لا سمح الله ! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقتضم ملبساً ، فيقول : « وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين » ولأحملهن على أن يشكرن لى هذا الشرف . ذلك ما هن به جذيرات ! . . . وتذكر ميتيا الحوذى آندره من جديد ، فأرسل إليه شيئاً من البنش . وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف داعم : « لقد أسأت إليه منذ قليل . . . ورفض كالجانوف فى أول الأمر أن يشرب ، ولم ترضه جوفة البنات . ولكن مرحة اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا ، فكان يسير فى خلال الغرفة ضاحكاً مطرباً كل شئ » الأغاني والموسيقى . وكان ماكسيموف الذى بلغ أوج السكر والنبطة منذ ذلك الحين ، لا يتركه لحظة واحدة . وكانت جروشنيكا ، التى نملت قليلاً هى أيضاً ، ما تنفك تقول لميتيا وهى تومئ الى كالجانوف « ما أطفه فتى ! ما أحلاه وما أعذبه ! » ، فكان ميتيا يسرع عندئذ الى كالجانوف فيماثقه ويقبله بحماسة ؛ وكان يقبل ماكسيموف فى هذه المناسبة . آه . . . ما كان أعظم السعادة التى يوجس ميتيا أنه سينالها ! صحيح أن جروشنيكا لم تكن قد وعدته بشئ بعد ، وأنها كانت تبدو راغبة فى تجنب أى شرح الآن ، ولكنها كانت تنظر إليه خلسة من حين الى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً . وما هى ذى تمسك يده على حين فجأة ، فتجذبه إليها بقوة ، وتقول له وهى جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت فى أول الاحتفال :

— ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل ! لوه ! لقد خفت

عندئذ خوفاً شديداً • كيف خطر ببالك أن تتنازل عنى لذلك الرجل ؟
هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً ؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة :

— لم أنشأ أن أفسد سعادتك •

ولكن جروشنكا لم تصغ الى جوابه • وصرفته عنها من جديد
قائلة له :

— اذهب ، اذهب ، سرّ عن نفسك لاهياً معهم • وليس لك أن
تشكى ، فسأناذك بعد قليل •

انصرف ميتيا ، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والاصغاء الى
الأغنيات • فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع اليها • قالت :
— اجلس بجانبى الآن ، واقصص علىّ كيف علمت أمس ننى هنا •
من أول من قال لك ذلك ؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة ، ولكن بفوضى ، فليس فى سرده
تسلسل كثير • والثى الغريب أنه كان فى بعض الأحيان يتوقف عن
الكلام ويقطب حاجبيه • قالت له جروشنكا :
— ما بك ؟

فأجابها :

— لا شئ • • • لقد تركت فى المدينة مريضاً • أرجو أن يشفى • • •
انى لأهب من عمرى عشرة أعوام فى سبيل أن يشفى !

— لا تفكر بعد الآن فى ذلك المريض • قل لى : هل صحيح أنك
كنت تريد أن تتحر فى غد أيها الأحمق ؟ لماذا ؟

ثم دمدت تقول له بلغة متفتحة قليلاً :

- أحب أمثالك ، المجانين قليلاً • أأنت مستعد اذن لأن تتجاوز بكل شيء في سبيلي ؟ أكان في نيتك اذن أن تتحرر من أجل غدأ يا عزيزي الطيب الأبله ؟ ألا فاعلم اذن أن من الأفضل لك أن تنتظر ... قد أقول لك في الغد كلمة صغيرة ... لا اليوم ... بل غدأ ! آ ... لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم ؟ لا ... لا أريد أن أقولها اليوم ... اذهب ، اذهب الآن ، سل نفسك !

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة ، وسألته :

- مالى أراك حزينا هذا الحزن كله ؟ اننى ألاحظ أنك مهموم •

وسددت اليه نظرة نافذة ، وأردفت تقول :

- نعم ، ألاحظ ذلك واضحاً • مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين ، فاننى أدرك أن هناك شيئاً يعذبك • كن فرحاً ! أريد ذلك ! أنا فرحة ، فعليك أن تفرح أنت أيضاً ... تصور أننى أحب أحداً هنا ... أوه ! انظر اليه ! لقد غفا فتاى الصغير ... انه ثمل ، عزيزى !

كانت تعنى كاجانوف • لقد غفا كاجانوف بضع لحظات على الكتبة بتأثير الكحول • على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفى أن تفرقه فى النوم • وانما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل فى وسط هذا الاحتفال ، دون سبب معين واضح ، وذلك ما عبّر عنه بقوله انه « ضجر » • وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز ، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء ، وكذلك كان شأن الرقصات : لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تنكرا دُبَّين ، وأخذت ستيانيد ، وهى امرأة قوية الجسم خلية البال ، « تعرضهما » وفى يدها مراوة ، قائلةً فى صراخ :

- بصف يا ماری ، والا هويت عليك بالهراوة !
وأخذ الدبان يتدحرجن أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً
من الحشمة كل الخلو حقاً ، فكان جمهور الفلاحين والفلاحات الذي
يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل !

قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة النبطة :

- دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم ، ذلك من حقهم مرة •
ان هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً ، فليستهزوها !
وكان كالجأتوف ينظر الى المشهد شاعراً بأنه اتسخ ؛ وابتمد وهو
يقول :

- ما أكرر الابتذال في هذا الفرح الشعبي ! أهكذا يتسلون اذن هم
الذين يعيشون في قلب الطبيعة ؟
وكانت قد آذته أغنية « جديدة » ايذاء خاصاً • هي أغنية تتردد فيها
لازمة تمثّل بايماء وترقص على ايقاع جرى • ؛ وهي تروى قصة بارين
(سيد) مسافر يسبى قلوب البنات •

سأل البادين البنات : *
اتحبينني ؟ اتحبينني ؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً •

سيضربني البادين
ولن احبه

واتفق ان مرّ عندئذ غجرى :

سأل الفجرى البنات :
اتحبينني ؟ اتحبينني ؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من البادين :

**سيكون الفجرى لصا
ولن تكون هذه هي السعادة**

ومرّ رجال آخرون كثيرون ، حتى لقد مرّ جندي :

**سأل الجندي البناات :
أتحييننى ؟ أتحييننى ؟**

ولكن البناات نبذنه باحتقار :

**سيجعل الجندي الكيس
أما أنا فسوف ...**

وكان البيت الثانى بذياً بذاءة صريحة ، وكانت البناات تغنيه دون
أن تحمر خجلاً ، فتثير فى الجمهور حماسة عظيمة . وتقدم أخيراً
تاجر :

**سأل التاجر البناات :
أتحييننى ؟ أتحييننى ؟**

فأجبت البناات ، لأن :

**التاجر سيجنى ثروة كبيرة
ويجعلنى أميرة ...**

نفذ صبر كاجانوف فصاح يقول بصوت عالٍ :

— هذه أغنية حديثة جداً . تُرى من مؤلفها ؟ ليس ينقصها فى
الواقع الا متمهدو سكك حديدية ويهود . فلو وجدوا لأحرزوا النصر !
كان كاجانوف كمن أٌهين تقريباً ، وقال فجأة انه ضجر ، واضطجع
على الكتبة فسرعان ما غفا . وهذا وجهه الجميل ، الشاحب شحوباً خفيفاً ،
ينزلق على الوسادة قليلاً .

قالت جروشكا وهى تجذب ميتيا اليها :

- انظر ما ألطفه ! كنت منذ قليل أسلّى نفسى بملاعبة شعره • ان شعره غزير كثيف ، وهو أشبه بخيوط الحرير نعمة ...

ومالت جروشكا على كالجائونف فى خان ، وقبلت جبينه • ففتح كالجائونف عينه فجأة ، ونظر اليها ، ثم نهض نصف نهوض ، وسألها وقد بدا عليه انشغال ، لبال :

- أين ذهب ماكسيموف ؟

فقالت جروشكا ضاحكة :

- انظروا عن يسأل • ماكسيموف هو الذى يعوزه ! هلاً بقيت ممي بضع لحظات ! يا ميتيا ، ابحت له عن ماكسيموف وجهه به •

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات ، ولا يتعد عنهن من حين الى حين الا ليصب قدحاً من الخمر • وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاتة • وتلوّن خده ، واصطبغ أنفه بحمرة قانية ، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله فى عاطفة وحان • وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على «لحن موسيقى معروف» • وقال شارحاً :

- لقد علمونى فى طفولتى هذه الرقصات الراقية الرفيعة •

فهتف كالجائونف يقول ، مبعداً الفرصة التى عرضتها له جروشكا وهى أن ينفرد بها :

- سأمضى أنا أيضاً • انتى أريد أن اراد عن كتب حتماً •

وتبعوا ماكسيموف • وعرض ماكسيموف رقصته ، فلم تثر حماسة

أحد الـاميتا • هي رقصة قوامها قفزات وتلويّات ، ورفع السيقان الى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء ، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة •

مطّ كالجنانوف شفتيه استياءً ، ولكن ميتيا وثب الى عنق الراقص قائلاً له :

- شكراً لك يا صاحبي الطيب الشهم • يخيّل الى أنّك تعبت •
أأنت تنظر الى السكاكر ؟ أتريد واحدة ؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً ؟

- بل سيجارة •

- ألا تريد أن تشرب شيئاً ؟

- شربت خموراً • أليس عندكم سكاكر بالشوكولاتة ؟

- ما أكثر ما عندنا منها على المائدة • اختر ما يحلو لك يا حمامتى !

- لا هذه ، أريدها سكاكر بالونيلة ••• أريد سكاكر الشيوخ المعجّاز تلك ! هي • هي ! •••

- ليس عندنا منها يا أخى !

ومال المعجوز القصير فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً :

- قل لى : أما من سبيل ••• أليس هناك وسيلة ••• أنظر الى هذه البنية الى مارى اللطيفة هذه ، هي • هي • كم أود لو أتعرف عليها •• اذا كنت ترى ، بما لك من شهامة وأريحية ، أن الأمر ممكن •••

- أوه ! أوه ! أرجو أن تكون هازلاً لا جاداً !

- لا أريد بها شراً

كذلك دمدم يقول ماكسيموف مفتحماً • فقال له ميتا :

- طيب ••• طيب ••• هنا يا أخى غناء ورقص ، ولكن ذلك هو كل شيء • على كل حال ••• اذا كنت تحريص هذا الحرص كله ••• عجيب ! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح • أملكك فى حاجة الى مال ؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً :

- ربما احتاج الى شيء من المال • فيما بعد •

- طيب •••

كان رأس ميتا ناراً مشتعلة • خرج الى الدهليز وصعد الى الرواق الذى يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء • أحسن اليه الهواء الطرى • توقف فى ركن مظلم ، واذا أحس أنه وحيد ، أخذ يفكر • فما هى الا بضعة لحظات ، حتى وضع رأسه بين يديه فجأة • ان خواطره المتفرقة المتباعدة ، وان احساساته الغامضة المبهمة ، قد اتحدت الآن وترتبت وتوضحت ، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب ! تساءل : « اذا كنت أريد أن أطلق رصاصة فى رأسى ، فلماذا لا أفعل ذلك حالا ؟ أمضى فأجىء بمسدسى وأنهى الأمر فى هذا المكان نفسه ، فى هذا الركن المظلم القذر ذاته ؟ » ولبت يتردد دقيقة طويلة • انه منذ ساعات قليلة ، حين كانت عربة الترويكات تقله الى موكرويه ، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم ••• ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك ! لقد كان اتخاذ هذا القرار اسهل منه الآن ، أسهل كثيراً ! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً : كان قد فقد تلك المرأة ، قد تنازل عنها ••• أصبحت لا وجود لها ••• وكان تنفيذ الحكم الذى أصدره على نفسه حيناً يسيراً • لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدّر لا رادّ له ،

لقضاء أعلى لا اعتراض عليه • ما كان حاجته الى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع ؟ لم يكن قد بقي شيء يشده الى هذا العالم ويربطه به • أما الآن فقد اختلف الحال • ان احدى حلقات القدر ، ان أحد أشباح الخوف ، قد تبدد الآن دخاناً ! ان صديقها القديم الذى لا يمكن جوده أو التكر له ، قد اختفى دون أن يخلف أثراً ! ان ذلك انشيع المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً • لقد أخرج من الترفة كطفل ، وأقل عليه الباب بالفتاح ! انها تشعر بالعار من هذا الرجل ؟ وقد استطاع ميتاً أن يقرأ فى عينيها من ذا تحب فى الواقع • الآن انما يمكن أن تكون الحياة جميلة ، جميلة جداً ••• ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع ، مستحيلة ! يا لها من لعنة ! • اللهم ردّ الحياة الى ذلك الذى صرعه قرب السور ! اللهم اجعل الكارثة تمر قريبي دون أن تمسنى ! اللهم انك قد صنعت معجزات لأناس غيرى كانوا مذبذبين مثلى ، فهب لى من لدنك معجزة من تلك المعجزات ! ••• ولكن ماذا اذا كان العجوز لم يمت ! لأمحون عندئذ عار الائم الآخر ، فأرد المال المسروق ، أعيده الى صاحبه ، ولو اضطررت أن أمضى باحثاً عن المال تحت الأرض ••• لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار ••• الا فى قرارة قلبى حيث سيعيش الى الأبد • لا ، لا ، هذا مستحيل • هذه أحلام جبان ، أحلام لا سبيل الى تحقيقها • يا للعذاب ! •••

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار ، شعاع ضعيف فى ظلام الليل • انتزع نفسه من تأمله القاتم ، وأسرع ينزل الى غرف الطابق الأربضى ، اسرع اليها من جديد ، الى تلك التى تحكم قلبه الى الأبد • تسائل : • ألا تساوى ساعة واحدة من حبها ، ألا تساوى دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها • ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً • • استولت هذه الفكرة على ميتا ، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاكل • قال

يحدث نفسه : « أراها ، أراها أيضاً ، أسمعها ، أنقطع عن التفكير فى أى شئ ، أنسى كل ماعداها ، ولو ليلة واحدة ، دقيقة واحدة ! » . وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوريستش عند مدخل الدهليز . كان تريفون بوريستش حزين الهيئة منزعجاً ، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه .

— أتبحث عني أنا يا تريفون بوريستش ؟

فأسرع صاحب النزول يجيبه :

— لا ... لا أنت ... ثم علام أبحث عنك ؟ ولكن ... أين كنت ؟

— مالى أراك مظلم الوجه ؟ أترك غاضباً ؟ اصبر علينا قليلاً ، وسندعك تام هادى . البال . كم الساعة الآن ؟

— هى الثالثة أو تزيد .

— ستصرف .

— لا ، لا ... فى وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا ...

تسأل ميتيا وهو يسرع الى القاعة التى كانت ترقص فيها البنات : « ما ذا حدث له ؟ » . ولكن جروشنكا لم تكن هناك . لا ولا كانت فى الغرفة الزرقاء . وكان كالجائوف ينام على الكتبة نوماً هادئاً . ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر ، فإذا هو يجدها هناك . كانت جالسة فى ركن ، على صندوق ، مسندة رأسها ويديها الى حافة السرير ، تبكى بكاءً مرأ ، محاولة أن تخلق نسيجها ، جاهدة أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه اليها . لمحت ميتيا ، فأومأت اليه أن يقترب ، وأمسكت يده ، فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً . وقالت هامسة :

- أوه ! ميتيا ، ميتيا ، لقد أحبيت هذا الرجل مع ذلك ! أحبيته كثيراً خلال هذه السنين الخمس ! ترى أحبيته أم كنت أحب حقدى ؟ لا بل أحبيته هو ! أوه ! نعم ، هو ، هو ! أكنذب اذا زعمت اننى ما أحبيت الا حقدى ! أواه يا ميتيا ! لم يكن عمري حينذاك الا سبعة عشر عاماً ، وكان يُظهر لى كثيراً من اللطف والأس والوداعة ، وكان يفضى لى أغنيات ... أم تراه لم يظهر لى فتاناً الى ذلك الحد الا لأننى كنت غبية ، لا لأننى كنت طفلة غرة ؟ ... أما اليوم ... رباه ! انه ليس هو ، انه ليس ذلك الرجل نفسه ! لقد تغير وجهه أيضاً ، فهو لا يشبهه البتة . أنكرته حين رأيته أول وهلة . لقد كنت أتساءل طوال الطريق ، وأنا آتية الى هنا مع تيموتى : « كيف أتصرف حين ألقاه ؟ ماذا أقول له ؟ كيف ينظر كل منا الى الآخر ؟ ... ، ، وانهارت نفسى ... لقد صب على رأسى سطلاً من قاذورات . تكلم كما يتكلم معلم مدرسة . اتخذ أوضاع التعالم ، واصطنع هيئة لوقار ، فأرتج على وخرست ! لم يتح لى أن أقول كلمة واحدة . حسبت فى البداية أن وجود ذلك البولندى الطويل يحرجه . كنت جالسة هناك ، أمامه ، أتساءل لماذا أصبحت على حين فجأة لا أجِد كلمة أقولها له . ان زوجته ، ان تلك المرأة الأخرى هى التى أثرت فيه تأثيراً سيئاً ... تلك المرأة التى من أجلها تركنى ثم تزوجها بعد ذلك ... لقد بدلتها تبديلاً كاملاً ... يا للعار يا ميتيا ! انى لأشعر الآن بالعار من حيساتى كلها ! لعنت تلك السنوات الخمس ، الى الأبد .

وتدفقت دموعها من جديد ، ولكنها لم تترك يد ميتيا ، بل ضففتها فى يدها مزيداً من الضغط .

- ميتيا ، حمامتى ، لا تذهب ، انتظر لحظة (ثم دعمت تقول وهى ترفع اليه بصرها) سأقول لك كلمة صغيرة . اسمع . قل لى أنت : من

هو الرجل الذى أحبه ؟ أنتى أحب رجلاً هنا • فمن هو ذلك الرجل ؟
قل لى هذا أنت !

وأضاعت ابتسامته فى وجهها المحتقن من الدموع ، والتهمت عينها
فى الظلام • وتابعت تقول :

— منذ قليل دخل صقر ، فتوقف قلبى عن الخفقان • وقال لى
قلبى : « أينما الفية ، هذا هو ، هذا هو الرجل الذى تحبين ! » لقد
دخلت أنت فاتضح لى كل شيء على حين فجأة • تساءلت : « ولكن مم
هو خائف ؟ • ذلك أنك كنت خائفاً ، وقد بلغت من الخوف أنك لم
تستطع حتى أن تتكلم • قلت فى سرى : « ليس خائفاً منهم مع ذلك » •
أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر ، انتى أعرف ذلك حق
المعرفة • وقلت لنفسى عندئذ : « انه خائف منى ، منى أنا وحدى » ؛
اذ لا شك أن فينيا قد روت لك — أليس كذلك أيها الأحمق ؟ — كيف
أنتى هفت أقول لأليوشا ، من النافذة ، انتى قد أحييت ميتك مدة ساعة ،
وانتى ذاهبة الآن ••• لأحب رجلاً آخر ! أوه ! ميتاً ، ميتاً ، كيف
أمكننى أن أصدق أنتى أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك ؟ ما كان
أعياى ! اغفر لى يا ميتاً ؟ هل ستغفر لى ؟ هل تحبى ؟ هل تحبى ؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة ، ووضعت يديها على كتفيه • أصبح
ميتاً أخرس من فرط السعادة ، فكان لا يزيد على أن ينظر الى عينيها ،
ووجهها ، وابتسامتها ••• ثم عانقها فجأة وغمرها بانقبالات •

— هل ستغفر لى أنتى عذبتك ؟ لقد عذبتكم جميعاً ، من فرط
غضبى وحسرتى ! وبدافع الشر وحده جعلت المعجوز مجنوناً بحبى •••
هل تذكر كيف حطمت فى بيتى قدحاً ، فى ذات يوم ، بعد أن شربت ؟
لقد تعلمت أنا هذه الحركة ، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب « نخب

قلبي الجبان ! ، ، ميتا ، صقري ، لماذا لا تقبلني ؟ لقد قبلتني مرة ثم
أمسكت . انك تنظر الى ، وتصني الى . . . ما قيمة الاصغاء الى ؟
قبلني ، بمزيد من القوة ، بمزيد من القوة ، هكذا ، ما دمت تحبني ! . . .
لأكون بعد اليوم عبدة لك ، مدى الحياة ! ما أحلى أن أكون عبدة . . .
قبلني أيضا ! اضربني ! عذبنى ! افعل بي ما شئت . . . لأنني أستحق
أن تعذبني . . . لا . . . انتظر ! نؤجل هذا ! لا أريد الآن .

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة . وأردفت تقول :

- اذهب يا ميتا ، سأشرب الآن خمرا ، أريد أن أسكر ،
وسأرقص بعد ذلك ، أريد هذا ، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر . تبهما ميتا . كان
كالسكران . « ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟
لديقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله ، . بهذا حدث ميتا نفسه .
شربت جروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت الى رأسها .
جلست على المقعد ، فى مكانها السابق ، وهى تبسم ابتسامة غبطة وهناء
وسعادة . احمرَّت خداه ، احترقت شفتاها ، اضطرب نظرها . وفى
عينها الساطعتين ، كان يُقرأ نداء محموم جامع . كالجانوف نفسه
اضطرب من ذلك ، كأن شيئاً قد لسع قلبه ، فاقرب منها . سأله :

- هل أحسست بالقبلة التى وهبتها لك حين كنت نائماً . أوه !
أحس أنى سكرى . . . وأنت ؟ ألم تسكر ؟ لماذا لا يشرب ميتا ؟ ميتا ،
يجب أن تشرب ! أنا شربت وأنت لا تشرب .

- أنا ؟ أنا سكران بغير شراب . سكران بك . . . ولكنى أريد
أن أسكر بالخمير أيضا .

وأفرغ ميتيا فى جوفه كأساً آخر ، فاذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة ، على حين أن الكئوس السابقة لم تحدث أثراً ... شئ غريب ! أخذ كل شئ يدور فى رأسه منذ تلك اللحظة ، فكأنه فى حالة هذيان . انه الآن يمشى ، ويضحك ، ويكلم كل من يلقاه ، خارجاً عن طوره . وفى بعض اللحظات كانت تستيقظ فى قلبه عاطفة حارة ثابتة « تحرقه حرقاً كجمر » كما قال فيما بعد . وكان يقترب من جروشكا ، ويجلس الى جانبها ، وينظر اليها ، ويسمع لكلامها ... أما جروشكا فقد أصبحت تدفق فى هذرها تدفقاً رهيباً ؛ وهى تتادى الناس اليها ، وتستدعى بنتاً من بنات الجوقة ، حتى اذا دنت البنت منها أخذت قبلها أو رسمت عليها اشارة الصليب ، حتى لو شك أن تجهش باكية . وكان يفرحها ويضحكها « المعجوز الصغير » خاصةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف) . انه يهرع اليها فى كل لحظة ليقبّل يدها ، لائماً كل اصبع من « أصابعها الصغيرة العزيزة » ، واحدةً بعد أخرى . وانتهى به الأمر الى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته . وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التى كانت تتكرر :

الخنزير الصغير ، كـريـو - كـريـو

العجل الصغير ، مـو - مـو

البطة الصغيرة ، قـوا - قـوا

الأوزة الصغيرة ، جـا - جـا

والدجاجة الصغيرة تركن فى الغرفة

منادية صفارها : تـيـوريـو - رـيـو - رـيـو

قالت جروشكا :

— هلاً أعطيتِه شيئاً يا ميتيا ! اهد اليه هدية . انه فقير . أوه ! رباه!

يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً ، يا لهؤلاء المذللين جميعاً ! ... هل تعلم يا ميتيا ؟ أريد أن أدخل الدير ! بلى ! بلى ! سأدخل الدير ذات يوم . لقد كلمني اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حيت ، لن أنساها ما حيت . أما الآن فلنمرح ! اليوم سرور وغداً دير ! أود أن أقوم بأعمال جنونية ! ولسوف يغفر لي الرب . أى ضرر في أن تتسلى أيها الناس الطيبون ؟ لو كنت أنا الله ، اذن لغفرت لجميع الناس ، ولقلت لهم : « يا أعزائي الخاطئين ، قد عفوت عنكم منذ اليوم . » . ولسوف أمضى أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم : « أيها الناس الطيبون ، غفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية ! » . ذلك ما سأفعله لهم . أنا وحش مقترس نعم . ولكننى أريد أن أصلى . لقد وهبت بصلة أنا أيضاً . انتى ، أنا الشقية ، أريد أن أصلى ! دعهم يرقصون يا ميتيا ، لا تعكر سعادتهم ! جميع الناس طيبون ، جميعهم يغفر استثناء ! أه ! ما أحلى أن يحيا المرء في هذا العالم ! نحن شريرون ، ولكن الحياة جميلة جداً ... فينا الخير والشر ، الخير والشر في آن واحد ... قولوا لى أتم جميعاً ! يجب أن أسألكم هذا السؤال ! اقتربوا وقولوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟ انتى طيبة فعلاً ، فقولوا لى ، اشرحوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشكا ، مفرقة فى الهذر المضطرب مزيداً من الاغراق شيئاً بعد شيء ، الى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هى نفسها ، ونهضت عن كرسيها مترنحة .

- ميتيا ، امنعنى من أن أشرب أكثر مما شربت . اذا طلبت خمرأ فلا تعطنى ! يحمل الكحول الى النفس السكينة والهدوء . ان كل شيء يدور الآن أمامى ، الفرفة والمدفأة ! أريد أن أرقص ... فلينظر الى الجميع ، وليعجبوا برقصى ...

كان هذا من جروشكا عزماً أكيداً وقراراً حاسماً . أخرجت

مندبلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق ، وأمسكته من أحد أطرافه بيسدها اليمنى لتلوح به أثناء الرقص . تحرك ميتيا هنا وهناك . صمتت البنات ، ونهيان لأن يصدحن بلحن يرافق الرقص جوقة واحدة عند أول إشارة . وحين علم ماكسيموف بأن جروشكا سترقص ، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسه ، وأخذ يتواثب أمامها ، وطفق يندندن :

**ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران
ولكن ذيلها كالبوبق**

أبعدته جروشكا عنها بحركة من مندبليها ، قائلة :

- شت ! لماذا لا يجيئون يا ميتيا ؟ فليهرعوا جميعاً ... لرؤيتى ...
ونادهما هما أيضاً ، ناد المحبوسين ... لماذا حبستهما ؟ قل لهما اننى
أريد أن أرقص . فليجيئا هما أيضاً ، ليعجبا لى !

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح ، مترنح الخطى من السكر ،
وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين .

- هيه ! أتما ... اخرجا ... انها سترقص وهى تناديكما .

فصاح أحد « السيدين » البولنديين بجييه بالبولندية :

- لا جداك (شقى) !

فأجابه ميتيا :

- وما أنت الا « لا جداك » حقير صغير ... ذلك أنت !

قال كالبانوف وقد ثمل هو أيضاً ، قال بلهجة تتكلف الوقار :

- هلا كففتم عن اهانة بولنده ؟

- اسكت ايها الفتى الصغير ! اننى اذ وصفته بأنه شقى ، لم أهن

بولنـدة كلـها • لـيس مـختالٌ تافـه كلٌ بولـنـدة • صمـتاً أـيـها الطـفل اللـطـيف ،
لـسوف أعـطـيك مـلبـسة •

قالت جروشـنكا مدهوشـة وهى تتقدم الى أمام لترقص :

- يا للأشـرار ! أليس فيهم شىء من انسانية ؟ لماذا يرفضون أن
يتـصـالـحوا ؟

غنت الجوقة لحناً شعيماً • رفعت جروشـنكا رأسـها ، وفـتـحت شـفتيـها ،
وابـتـسمت ، ولوَّحـت بمـنـديـلـها ، ثم توقـفت فجأة وهى تمايل تمايلاً قوياً
فى وسط الغـرفة ، وتشـعر بارتباك شديـد • وأنـت تقول بصوت أليم :
- أحس بوهن • معذرة • انـتى ضعيفـة جداً ••• لا أستطيع •••
أوه ••• هـى غـلطـتى •

وحـيـت الجوقة ، ثم حيـت جميع الحـضور وهى تـلـتـف الى جهات
الغـرفة الأربـع جهـة بـعد جهـة ، وتردد قولها :

- لا تؤاخذونى ••• لا تؤاخذونى !

قالت بـعض الأصوات فى الـجـمـهور :

- أسـرـفت فى الشـراب ، السـيـدة الشـابـة ! •• هـى سـكـرى ، السـيـدة
اللـطـيـفة •••

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً :

- السـيـدة ثـمـلة قـلـيلاً •

وبـدمـدت جروشـنكا قـولـ بصـوت منـطـفىء :

- مـيتـيا ••• خـذنى من هـنا ••• انـقـلنى من هـنا •

فهرع میتیا إليها ، فتناولها بذراعيه ، وأسرع يركض بحمله الثمين الى ما وراء الستائر . قال كالجائوف لنفسه : « فى هذه المرة ، آن أوان الانصراف » ، وغادر الغرفة الزرقاء مقلقاً الباب وراءه . وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد . وضع ميتيا صاحبه جروشنكا على السرير ، وقبلها قبله محمومة على الفم . دمدمت تقول بصوت ضارع :

- لا تلمسنى ، لا تلمسنى ، أنا لست لك بعد ... قلت ' انتى سأكون لك ، ولكن لا تلمسنى ... ارحمنى ، اشفق على ... لا تفعل شيئاً الآن ، بينما هم لا يزالون هنا . ما يبنى هذا ... انه هناك ، على بعد خطوتين ... أوه ! هذا فظيع هنا ..

قال ميتيا متعزراً فى كلامه :

- انتى أطيعك ... لم يخطر ببالى هذا ... أنا أمامك فى نشوة ووجد . نعم ، هذا فظيع هنا . يا للمكان الموبوء !

ودون أن يدع عناقها ، تهالك على قدميه ، قرب السرير .

قالت جروشنكا بصوت رخو :

- أنا واثقة بك . أعرف أنك متوحش ، ولكن نفسك نبيلة . يجب أن يجرى كل شيء بشرف بعد الآن ... أريد أن يكون كل شيء طاهراً ... وأن تكون شرفاء أيضاً ... لا بهائم ، بل بشرأ طيبين اقباء طاهرين ... خذنى الى مكان بعيد ، بعيد جداً عن هنا ، هل تسمع ؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا ... أريد أن أسافر الى مكان بعيد ... بعيد جداً .

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها الى قلبه :

- نعم ، سنسافر ... سأخذك ... سأطير بك ! ... انتى مستعد

لأن أحب حياتي كلها فى سبيل سنة واحدة من سعادة ، شريطة أن أعلم
ماذا جرى لذلك الدم ...

سألته جروشكا مندهشة :

— أى دم ؟

فأجابها ميتا وهو يصرف بأسنانه :

— لا شيء ... انك تريدان يا جروشكا أن تكون شرفاء ، ولكننى
أنا لص . لقد سرت مال كاتنكا ! ... يا للعار ! ... يا للعار !

— كاتنكا ؟ الأنسة ؟ لا ... لم تسرق شيئاً ! رددّ إليها مالها . خذ
مالى أنا ... ما بك ؟ ان كل ما أملكه أنا هو الآن لك . ما حاجتنا الى
المال ؟ سوف نبدده على كل حل فى القصف واللهو . ان أمثالنا
لا يحسنون الاحتفاظ بالمال . اننى لأوثر أن تحرق الأرض معاً . أريد أنا
أن أعمل فى الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما . ان من واجبنا أن
نعمل ، هل تسمع ؟ أليوشا هو الذى شرح لى ذلك . لن أكون خليلتك ،
بل خليلتك ، زوجتك الوفية ، عبدتك لمخلصة ... سأعجب وأجهد فى
سبيلك ... سوف نذهب الى الأنسة ، فنحنى لها بتجبة عظيمة حتى
تفقر لنا قبل رحيلنا . واذا لم تفقر ، فسنرحل مع ذلك . أما المال فسترده
إليها . ان عليك أن تحبنى أنا ... لا أريد أن تحبها هى ! ...
اننى أملك من أن تحبها ... والا فلاأخفئها ... لأفقدان عينيها بآبرة
طويلة ...

— أنت من أحب ، أنت وحدك ، وسأظل أحبك من آخر سيزيا . *

— لماذا تتكلم عن سيزيا ؟ لا بأس ! سنسافر الى سيزيا اذا كنت
ترغب فى ذلك ... ان فى وسعنا أن نعمل هناك كما فى أى مكان آخر

... ان فى تلك البلاد تلجاً كثيراً ... وأنا أعشق الثلج ، وأعشق
الزلاجات التى تنزلق عليه سريعة مجلجلة أجراسها . هل تسمع ؟ لكأن
جرساً يرن فى مكان ما . من أين يأتى رنين هذا الجرس ... لا شك
أنهم مسافرون قد وصلوا الى المنزل ... انقطع الصوت الآن .

وأغمضت جروشنكا عينها ، متعبة الى أقصى حدود التعب ، وغفت ،
بضع لحظات . كن جرس قد رنَّ فعلاً فى بعيد ثم صمت . مال ميتيا
برأسه على صدر جروشنكا . لم يكن قد انتبه الى صوت الجرس والى
انقطاع رنينه فجأة ؛ لا ولا لاحظ أن الأغاني قد توقفت وأن الصخب
الذى كان يسيطر على المنزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محله فجأة صمت
كصمت الموت . وفتحت جروشنكا عينها بعد دقيقة . قالت :

- ماذا يجرى ؟ أنا نمت ؟ نعم ... ذلك الجرس ... لقد نمت
وحلمت بأننى محمولة على زلاجة فوق الثلج ... كان الجرس يرن ،
وكنت أنا نائمة . كنت راكبة عربة ترويكما ، مع رجل عزيز فى قلبى ،
معك أنت . وكنا ذاهبين الى مكان بعيد ، بعيد جداً ... وكنت أقبلك ،
وأشد جسمى الى جسمك ، لأننى كنت أحس ببرد فيما يبدو ... وكان
الثلج يسطع ... ما كان أعجبه من احساس ! الثلج الباهر ، وضياء
القمر ... لكأن ذلك لم يكن على الأرض ... واستيقظت ، فاذا أنا
أراك ، يا حبيبى ، قريباً منى ... ما أحلى هذا ! ...

ردَّ ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها ، وعنقها :

- نعم ، قريباً منك كل القرب .

وأحس فجأة باحساس غريب : خيَّل اليه أنها تنظر الى أمام ،
ولكن عينها بدلاً من أن تستريحاً على وجهه ، تطلعان الى ما وراء رأسه ،

فى جمود عجيب • عبرت قسماى جروشكا عن الدهشة أولاً ، ثم عن
الخوف •

ودمدت تقول :

- ميّيا ! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟
التفت ميّيا فاذا هو يلوح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؟
حتى لقد أحسّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك • فنهض من مكانه
بسرعة وقوة ، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولى • فاذا هو يسمع صوتاً
يقول :

- هل تفضل فتجئى الى هنا يا سيد •

كان المئادى المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع •
خرج ميّيا من وراء الستائر ، فاذا هو يتجمد فى مكانه • كانت
القاعة مملأى بالناس ، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون
ويقصفون منذ قليل • لقد احتل الغرفة أشخاص جدد • شعر ميّيا برعدة
تسرى فى ظهره كله • ان ميّيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وها هو
ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة • ان الرجل العجوز السمين الطويل الذى
يرتدى معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات ترس وشارات ، هو رئيس
الشرطة ميشيل ماكروفتش • وهذا الشاب الذى يوحى مظهره بأنه
مصدور والذى يتأنق فى ملبسه تألقاً عظيماً ويلتصم حذاءه دائماً انما هو
وكيل النيابة • « انه يملك ساعةً من ذهب قيمتها أربعمائة روبل • لقد
أرانيها فى ذات يوم لأعجب بها » • أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة
الذى يضع على عينيه نظارتين ••• فلم يتذكر ميّيا اسمه ، ولكنه يعرفه
أيضاً وقد سبق أن رآه : انه قاضى التحقيق الذى تخرج من « مدرسة
الحقوق » منذ مدة غير طويلة • وهذا موظف الشرطة موريس ماكريفتش

الذى يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد • ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صدورهم صفائح معدنية * ؟ وهذان الفلاحان ؟ •• وبعد هؤلاء جميعاً ، لمح ميتيا ، عند فرجة باب المدخل ، كالجانوف وتريقون بوريسشس •••

قال ميتيا :

- ماذا أيها السادة ؟ ماذا جرى ؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته ، كأنما تدفعه الى ذلك قوة سيل الى مقاومتها :

- ف ••••• همت !

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة :

- كنا نريد ••• الخلاصة ••• أرجوك أن تجلس هنا ، على الكنبه ••• ان علينا أن نلقى عليك بعض الأسئلة •

قال ميتيا خارجاً عن طوره :

- المعجوز ••• والدم المسفوح ••• ف ••••• همت !

و كأنما انهارت قواه على حين فجأة ، فتهالك على كرسى كان هناك •

فاذا برئيس الشرطة المعجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا :

- آ ••• فهمت ؟ فهمت ؟ يا قاتل أبيه ! أيها الشيطان ! ان دم

أبيك يتهمك !

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب ، وكان جسمه

كله يرتجف •

فصاح الشاب القصير القامة :

- ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش • يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ••• ما كنت أتوقع منك سلوكاً كهذا السلوك •

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

- هذا هذيان ••• هذا مشهد هذيان • انظروا اليه ••• تخرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ••• هذا هذيان ، هذا هذيان •••

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلاً :
- أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ••
ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملة ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلم له بوقار ، وبصوت عال صارم :

- أيها السيد الملازم التقاعد كارامازوف ، ان من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة •••

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاً واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ••• ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصفى ، أصبح لا يفهم شيئاً ، وانما هو يتفرد وجوههم مجنون العين •••

الباب التاسع التحقيق التمهيدي

البدايات الموفقة للموظف برخوتين



بطرس ايلتش برخوتين الذى تركناه يطرق
طسقات ما تنفك تزداد وتقوى ، على الباب
السميك من منزل آل موروسوف ، قد توصل
طبعاً الى أن يحملهم على أن يفتحوا له . وحين
سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول ، وكانت لما تفق بعد من الذعر
الذى أصابها قبل ساعتين ، ولا عزمَت أمرها على أن تنام ، من سسدة
اضطرابها ، حين سمعت فينيا هذا الصخب استبد بها هلع قاتل مرة
أخرى : ذلك أنها ظنت أن دمترى فيدوروتش قد عاد (رغم أنها رآته
يسافر على عربة ترويكاً) . لقد قالت فينيا لنفسها : « أى انسان غيره
يمكن أن يطرق الباب بمثل هذا لعنف ؟ » . وهرعت الى البواب الذى
أيقظته الضجة وهمَّ أن يفتح الباب ، فتوسلت اليه أن لا يسمح لأحد
بالدخول . ومع ذلك سأل البواب الطارقَ عن اسمه من خلال الباب،
فلما عرف صفته ، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا فى أمر هام
جداً ، قرر أن يفتح له .

مضى بطرس ايلتش رأساً الى المطبخ ليرى فينيا التى أصرَّت ، من
باب الحفاظ على الشكل ، أن يحضر البواب المقابلة . أخذ الموظف يلقى
الأسئلة على المرأة ، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسى : هو أن دمترى

فيدوروفتش حين مضى يسعى الى جروشكا قد أخذ مدقّ الهاون ، وأنه رجع بعد ذلك دامى اليدين ولم يكن المدق معه •

— كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض •

كذلك هتفت تقول فينيا التى اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلى الرهيب اختراعا على غير شعور منها • وكان بطرس ايلتش قد رأى الدم فى يدى ميتيا بنفسه على كل حال ، وان لم يكن يسيل ، وقد ساعده على غسل يديه • ولم يكن يهم بطرس ايلتش أن يتساءل على كل حال : أجفّ الدم بسرعة أم لا ، وانما كان يهمه أن يعرف : ماذا فعل دمترى فيدوروفتش بمدق الهاون هذا ، والى عند من ذهب ؟ هل يمكن أن يستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب الى منزل أبيه ، وعلى أى شيء يستند هذا الاستدلال ؟ لذلك أنحّ بطرس ايلتش على هذه النقطة لالحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى الى الاقتناع التام ، رغم أن فينيا لم تقدم اليه أية قرينة واضحة دقيقة ، بأن دمترى فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب الا الى منزل أبيه وأن « شيئاً ما » لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً •

أضافت فينيا تقول متأثرة أشد التأثر :

— حين رجع ، قصصت عليه كل شيء ، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه دامتين ، فأجاب بأن هذا دم انسانى ، وبأنه قد قتل انسانا منذ برهة • اعترف لى بذلك فى هذا المكان نفسه ، فى هذا المطبخ ، ثم ولّى هارباً كعجنون • وأخذت أفكر بعد انصرافه : « الى أين يركض هذا الركض ؟ لا شك أنه ينوئ أن يسافر الى موكرويه ليقنسل مولاتى ، فاندفعت لاحقه ، لأتوسل اليه أن لا يسير الى الأسمّة المسكنة ؛ وكنت أأمل أن أجده فى مسكنه ، ولكننى لمحتة أمام متجر آل بلوتيكوف وهو يهم أن

يسافر ، وكانت يداه عندئذ نظيرتين (لقد لاحظت فينا هذا الأمر التفصيلي وحفظته) •

وقد أكدت جدة فينا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل • وبعد أن ألقى بطرس ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطراباً وقلقاً مما كان عند وصوله إليه •

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بطرس ايلتش الى منزل فيدور بافلوفتش مستطعماً هل حدث له شيء ، وأن لا يبلغ رئيس الشرطة الا بعد ذلك ، مستنداً الى معلومات ثابتة • وهذا ما خطر ببال بطرس ايلتش في أول الأمر فعلاً • ولكن الليل حالك الظلام ، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة ، فسيكون عليه اذن أن يطرق من جديد ، وأن يحدث ضجة وصخباً ، وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش الا قليلاً جداً • فما عسى يحدث اذا قيل له ، بعد أن يفتح له الباب ، ان شيئاً لم يقع ؟ ان فيدور بافلوفتش الساهر لن يفوته أن يروى للمدينة كلها في الغد ، من باب التندر ، أن الموظف برخوتين ، الذي ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة ، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد • ليكون هذا فضيحة ! وبطرس ايلتش لا يهرب شيئاً في هذا العالم كما يهرب الفضيحة ! غير أن العاطفة التي كانت تدفعه الى العمل وانحركة قد بلغت من القسوة أنه بعد أن قرع الأرض بقدمه غاضباً وشمتم نفسه ، أسرع يتخذ قراراً جديداً : هو أن يذهب لا الى دار فيدور بافلوفتش بل الى السيدة هوخلاكوفا • سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت دمترى فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات ، فإذا أجابته بالنفي ذهب الى رئيس الشرطة لا يلوى على شيء ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش ؟ والا أرجأ مساعيه الى الغد ورجع الى بيته • واضح أن بطرس ايلتش حين يذهب في الساعة الحادية عشرة من الليل الى

سيدة من سيدات المجتمع لا يعرفها ، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقى عليها سؤالاً قد يبدو فى مثل هذه الظروف سخيفاً مضحكاً ، انما يتعرض لاحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه الى فيدور بافلوفتش . غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها ، فى ظروف كهذا الطرف ، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس وروية تفكير . فما بالك وقد فقد بطرس ايلتش فى تلك اللحظة كل برودته وكل رويته ! لسوف يظل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل الى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شئ ، ثم استحال أخيراً الى عذاب حاد دفعه فى تلك الليلة الى أن يتحرك ويتدخل ، على غير ارادة منه تقريباً . والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق ، وقرّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة ، ولكنه حلف « ليسيرن » الى آخر الشوط ، مهما كلف الأمر ، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه . وقد برّ بيمينه ، فمضى الى آخر الشوط فعلاً .

كانت الساعة هى الحادية عشرة تماماً حين دخل منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد فُتح له الباب بغير مشقة ، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أُرقدت السيدة أم لا ، واكتفى بأن ذكر له أنها تمام عادةً فى مثل هذه الساعة . وأضاف يقول له :

— اصعد الى فوق ، وأعلن عن نفسك ، فاذا شئت استقبلتك ، فكل شئ رهن بارادتها .

صعد بطرس ايلتش الى الطابق الأول . وهناك أخذت تتمتع الأمور . رفض الخادم أن يبلغ السيدة هوخلاكوفا وصوله ، ونادى الخادمة . فرجاءها بطرس ايلتش ، بأدب ولكن بالحاح ، أن تبلغ السيدة هوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً ، وأنه ما كان له

أن يزعمها لولا أن الأمر الذى يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقا !

— انقلى اليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً !

بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها .

انتظر بطرس ايلتش فى الدهليز . وكانت السيدة هوخلاكوفا فى غرفة نومها ، ولكنها لم تكن قد زامت بعد . لقد هزنتها زيارة مينيا ، وهى تتنبأ بأنها لن تنجو فى هذه الليلة من الصداغ الشديد الذى يلم بها عادة فى أعقاب انفصالات من هذا النوع . فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهِشت ، ومع ذلك أمرت خادمتها ، بلهجة حاتقة ، أن تصرف هذا الزائر الذى يجيىء فى غير أوان الزيارة ، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجيىء « الموظف برخوتين » اليها فى مثل هذه الساعة ، على غير توقع ، قد أثار فيها فضولاً قوياً . ولكن بطرس ايلتش عندَ فى هذه المرة عناد بغل . فلما علم أن السيدة هوخلاكوفا ترفض استقباله ، طفق يلجُ من جديد إلحاحاً شديداً على أن تنقل الخادمة الى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً : وهى أنه جاء « لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم اذا هى لم تستقبله » . وقد روى فيما بعد أنه أحسنَ فى تلك الدقيقة أنه « يسقط فى هاوية » . تفرست فيه الخادمة مندهشة ، وأسرت تقصوم بالواجب الذى عهد اليها أن تقصوم به . ذُهِلت السيدة هوخلاكوفا ، وفكرت بضع لحظات ، وسألت عن مظهر الزائر ، فقيل لها انه « حسن الهندام ، شاب ، مهذب جدا » . يجب أن نذكر هنا عابرين أن بطرس ايلتش فتى جميل جدا ، وانه كان شاعراً بذلك . عندئذ قررت السيدة هوخلاكوفا أن تسمع له . واذ كانت بثوب المنزل والخفين ، فقد أُلقت على كتفها شالاً أسود . وأدخل الموظف الى الصالون ، حيث استقبل.

دمترى فيدوروفتش قبل بضع ساعات • تقدمت ربة المنزل نحو الزائر بوجه متجهم مستجوب ، وسألته دون أن تدعوه الى الجلوس :

— ماذا تريد منى أيها السيد ؟

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً :

— لقد جازفت فجئت أزعجك فى أمر يتعلق بصديقنا المشترك

دمترى فيدوروفتش ...

ولكن ما ان نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة هوخلاكوفا حلق شديد ، فهمت أن تصرخ ، ولكنها أمسكت ، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة :

— الى متى ، الى متى أظل أعذب بسبب هذا الانسان الفظيع ؟ كيف تجرات أيها السيد ، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها ، أن تجيء تضيقها فى منزلها ، فى مثل هذه الساعة ... متحدثا اليها عن شخص أراد منذ ثلاث ساعات ، فى هذا الصالون نفسه ، فى هذا المكان نفسه ، أن يقتلها ... وقرع الأرض بقدمه ، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها فى منزل محترم ! اعلم أيها السيد أنتنى سأشكوك الى رؤسائك ... أنتنى لن أسكت لك عن هذه الواقعة ... وأرجوك أن تخرج من مسكنى فوراً .. أنا أم .. وأنا .. أنا ...

— أراد أن يقتلك ؟ أراد أن يقتلك أنت أيضا ؟

— هل قتل اذن أحداً ؟

كذلك سألت السيدة هوخلاكوفا بحرارة • فأجابها برخوتين بصلاية :

— اذا وافقت على أن تسمى لى ، ولو نصف دقيقة ، يا سيدتى ،

شرحت لك كل شيء فى بضعة كلمات • فى هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم ، جاء الى السيد كارامازوف ورجائى رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات • وأنا أعلم علم اليقين أنه كان فى تلك اللحظة خالى الوفاض ؛ وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة التاسعة ، رجع الى ممسكاً بيديه حزمة من أوراق مالية تقدر بألفى روبل أو بثلاثة آلاف روبل • وكانت يدها ووجهه ملطخة بالدماء ، وكان يتصرف تصرف مجنون • فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله ، أجابنى اجابة واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات ، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم ...

ظهرت على وجه السيدة هوخلاكوفا علامات انفعال شديد عنيف أليم • وصاحت تقول وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

- يا رب السماء ! لقد قتل أباه العجوز ... أنا لم أعطه مالا قط ، لم أعطه مالا قط ... آه ... أركض ، اركض بسرعة ، لا تقل كلمة واحدة أخرى ، لا تضع الوقت ! انقذ أباه ، أسرع الى نجاته ، أنقذه ! - اغفرى لى الحاحى يا سيدتى • أنت تؤكدين أنك لم تعطيه مالا ، فهل ذكرياتك واضحة فى هذه النقطة ؟

- لم أعطه شيئاً ، لم أعطه كوبكاً واحداً • رفضت أن أقرضه ، لأنه لم يقدر توابى حق قدرها • وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه • وقد هجم علىّ ، فلم يكذب يتسع وقتى للاحتماء منه ... وانى لأسر اليك أيضاً ، لأننى قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن ، أنه قد بصق علىّ ، هل تستطيع أن تتخيل هذا ؟ اجلس ... أرجوك ... معذرة ... أنا ... لا بل اركض ، اركض بسرعة • واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيمة •

- ولكن ما دام قد قتله وانتهى الأمر ...

- آ ... نعم ... ربه ! هذا صحيح ... نسيت ... فماذا نفعل الآن ؟ هل فى ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله ؟

ومع ذلك أجلس بطرس ايلتش وجلس أمامه • بسط لها بطرس ايلتش ، بايجاز ولكن بوضوح ، لبّ القضية ، فى حدود ما شهده بنفسه فى ذلك اليوم على الأقل • وروى لها أيضا أنه زار فينيا ، وما ذكرته له عن مدق الهاون • فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزّت السيدة الطيبة هزاً عنيفا فلم تستطع أن تجلس ، أثناء هذه القصة ، صرخات الارتياح والهول حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات ...

- فقطع ... رهيب ! تصور مع ذلك أننى أوجست بالنبوءة كلّ شئ • لقد أوتيت موهبة عجيبة فى التنبؤ • وما أتنبأ به يتحقق لا محالة • كم من مرة قلت لنفسى وأنا أنظر الى هذا الرجل الكريه : « سيقتلنى هذا الرجل أخيرا فى ذات يوم • • • » وذلك ما وقع • • • أقصد أنه اذا كان لم يقتلنى بل قتل أباه ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى تدخل العناية الالهية • لا شك أن الله قد حمانى ونجانى فى ذلك الحين • أضف الى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلنى لأننى كنت قد علقت فى عنقه ، هنا فى هذا المكان نفسه ، الأيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة • • • ولم يكن يخطر ببالى عندئذ أننى ألامس الموت ملامسة قريبة فى تلك اللحظة • اقتربت منه ، ومسته تقريبا ، فمدّ لى عنقه • • • يجب أن أقول لك يا بطرس ايلتش (معذرة ، أليس اسمك بطرس ايلتش ؟) ، يجب أن أقول لك اننى كنت لا أؤمن بالمعجزات حتى الآن ، ولكننى أشعر باضطراب شديد حين أذكر أن تلك الأيقونة التى علقتها فى عنقه قد أقذنتى بمعجزة من مية فظيعة ! آم • • • ربه ! اننى أحس بأننى متأهبة للايمان من جديد بكل شئ • • • لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسما تلك ، أليس

كذلك ؟ أراني أتيه ، فلا أعرف ماذا أقول ... تصور أنه ، رغم تلك الأيقونة ، قد بصق على ... بصق فحسب ، صحيح هذا ، ولم يقتلني ... أهذا إذن ما مضى يفعله بعد ذلك ؟ ماذا يجب أن تقرر الآن ، ما الذى يجب أن نعمله ، قل لى ؟ -

نهض بطرس ايلتش معلناً أنه سيذهب حالاً الى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر ، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله .

- تذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ انه رجل ممتاز ، ممتاز ، أنا أعرفه . انتى أنتى بسداد رأييه وصواب حكمه . ميشيل ماكاروفتش : ذلك هو بعينه الرجل الذى يجب ابلاغه الأمر . فكرت رائة ، وما كان لها أن تخطر ببالى أنا ، لو كنت فى مكانك .

قال بطرس ايلتش ، وهو ما يزال واقفاً ، محاولاً أن يضع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التى لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف ، قال :

- لا سيما وأنتى أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية .
تابعت السيدة هوخلاكوفا تقول دون أن تأس :
- اسمع ، اسمع ، يجب أن تجيء الى حتماً لتطلعن على ما تكون قد علمته ... على الوقائع التى أمكن أن تعرف ... وكذلك على العقوبة التى سيحكم بها . أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا ، أليس كذلك ؟ تعال الى حتماً ، ولو فى الساعة الثالثة من الصباح ، أو فى الساعة الرابعة ، أو حتى فى الساعة الرابعة والنصف . اطلب ايقاظى ، وليجرونى من السرير جراً عند الحاجة ، اذا أنا أصرت على النوم ... انتى أقول مسخافات على كل حال . أنتى لى أن أرقد بعد كل هذا ؟ تراودنى فكرة : ما رأيك فى أن أرافقك الى عند رئيس الشرطة ؟

- لا ... لا داعى الى هذا يا سيدتى • ولكن اذا وافقت ، فى مقابل ذلك ، أن تكتبى لى ، بخط يدك ، تصريحاً فى ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطى دمترى فيدوروفتش مالاً قط ، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا ... عند الاقتضاء •

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة ، متجهة الى مكتبها الصغير :

- طبعاً ! طبعاً ! هل تعلم أنك تدهشنى بسداد رأيك ، ونفاذ بصيرتك ؟ صدقنى اذا قلت لك اننى معجبة أشد الاعجاب بما تبرهن عليه فى هذا المجال من حذق ومهارة ! أأنت تعمل موظفاً فى ادارة مدينتنا ؟ ما أسعدنى اذ أعرف أن سلطتاناً تملك معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك !

وفىما كانت السيدة هوخلاكوفا تتكلم ، خطت بسرعة ، على ورقة ، الأسطر التالية ، بأحرف كبيرة :

• لم أقرض دمترى فيدوروفتش ، العاثر الحظ ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقى عاثر الحظ) • لم أقرضه كوبكاً واحداً ، لا اليوم ، ولا فى أية لحظة أخرى ، أبداً أبداً • أحلف على هذا بكل ما هو عندى مقدس فى هذا العالم •

هوخلاكوفا

ثم التفت بقوة نحو بطرس ايلتش فقالت له :

- اليك تصريحى • فاسرع الآن • يجب انقاذ هذا الرجل • هذا عمل نبيل تقوم به •

ورسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم شيعته الى الدهليز •

- ما أعظم شكرى لك ! لا تستطيع أن تصور مدى امتنانى منك لأنك جئت الىّ أولاً ! خسارة أننى لم أعرفك قبل الآن ! لسوف يسعدنى فى المستقبل أن أستقبلك فى منزلى . انه لما يعزى النفس ويشد الأزر أن تملك مدينتنا فى شخصك موظفاً له مثل كفاءتك وقيمتك ... موظف دقيق هذه الدقة ، حضيف هذه الحصافة خاصة ... أنا على يقين من أن رؤساءك يقدرونك حق قدرك . صدقنى اذا قلت لك انهم سيفهمونك آخر الأمر ... واعلم على كل حال أننى مستعدة من جهتى لأن أقول كلمة طيبة فى حقك كلما لزم ذلك ... أوه ! اننى أحب الشباب ، اننى مغرمة بالشباب حقاً ! الشبية فى أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمة الشقية روسيا ! أنتم أملنا ... أنتم مقصد رجائنا ... هيّا ، هيّا ، أسرع ...

ولكن بطرس يلتش كان قد نزل الى الشارع ، والا لجبسته زمناً آخر . يجب أن نقول من جهة أخرى ان السيدة هو خلاكوف قد أحدث فى نفسه أثراً متمماً خفّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله فى قضية مزعجة . انكم تعلمون ان الأذواق فى هذا العالم مختلفة متنوعة . قال بطرس يلتش لنفسه راضياً مسروراً : « ليست متقدمة فى السن كثيراً . كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها » .

أما السيدة هو خلاكوف فقد افترست به افتتاناً . « ما أروع هذا الحندق وهذه الدقة فى شاب ، ذلك عدا آدابه الكيّسة ومظهره اللطيف الجذاب ! تلك مزايا نادرة فى هذه الأيام ! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له . فهذا مثال يبرهن على نقىض ما يدعون ، الخ ، الخ » . وقد انتهت السيدة هو خلاكوف من ذلك الى نسيان « الحادث الفظيع » ، ولم تذكر الا على سريرها أنها « لامست الموت ملامسة قريبة » . فدمدمت تقول : « شئ رهيب ، شئ رهيب » ، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً هادئاً . على أننى

ما كان لى أن أسهب فى ذكر هذه التفاصيل الثانوية ، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذى يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة ، وهو هذا اللقاء الذى وصفته الآن ، انما كان نقطة انطلاق فى حياة هذا الموظف الدقيق المنظم . ان الناس فى مدينتنا ما يزلون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين ، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه فى نهاية هذه القصة الطويلة التى نكتبها عن الاخوة كارامازوف .

٢ التبليغ



رئيس شرطتنا ميشيل ماكاروفتش ماكاروف ،
وهو ليوتان كولونيل محال على التقاعد ويحمل
رتبة « مستشار قضائي » ، رجل أرمل يمتاز
بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة . لقد
استطاع منذ ثلاث سنين في مدينتنا ، أن يكسب مودة جميع الناس له ،
ولا سيما لما أوتى من موهبة فذة في « جمع وجوه المدينة بمنزله » .
يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوما واحدا دون أن يستقبل في داره
عددا من الأصدقاء . كان لا يخلو بيته يوما من ضيف على العشاء ، ولو
كان عدد الضيف شخصا أو شخصين ؛ وما كان ليجلس أحد الى المائدة
في منزله بغير مدعوين . وكان يتفق له في بعض الأحيان أن يولم ولائم
كبيرة ، متمللا بحجج كثيرة متنوعة ، حجج قد لا تخطر بالبال . ولئن
لم تكن أصناف الطعام فاخرة لقد كانت وافرة . ومع ذلك كان لفظائر
السك التي تقدم في بيته شهرة ذائعة . وقد لا تكون أنواع الخسور
أجود الأنواع ، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال .

ان الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعة للعب البلياردو ، وأُنشئت
تأنيثا أنيقا ، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق انجليزية ، وتلكم هي

كما تلمون الزينة المألوفة التي تزيّن كلّ قاعة بلياردو في منزل رجل عازب • وكان يلعب بالورق كلّ مساء في منزل ميشيل ماكاروفتش ، وإن يكن عدد اللاعبين محدوداً في كثير من الأحيان • على أن الاستقبالات التي تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة ، وكانت الأمهات تصطحب اليها بناتها ، لأنها كان يُرقص فيها • وكان ميشيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل ، في صحبة ابنته التي ترملت هي أيضاً منذ مدة طويلة ، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنها تحصيلهما • لم تكن الفتاتان ديميتين البتة ، وكاتتا بما تنعمان بها من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا ، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهراً • ولم يكن ميشيل ماكاروفتش لامع الذكاء ، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر • وإذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضيل الحظ من الثقافة ، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الادارية • كان معنى بعض الاصلاحات * التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه ، وكثيراً ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة ، لا لعجز منه بل لقسلة اكترات ، فانه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة • وكان يحب أن يقول عن نفسه : « ان لي روح رجل عسكري لا رجل مدني » • ورغم أنه كان من ملاكّي الأراضى ، فان ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالاصلاح الزراعى قد ظلت غامضة مهمة ، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة ، على غير ارادة منه ان صح التعبير ، فانما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية •

كان بطرس ايلتش يعلم أنه سيلتقى عند رئيس الشرطة في ذلك المساء بضيوف ، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء

الضيوف • ومن المصادفات أن ميشيل ماكاروفتش كان فى ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفسكى الذى وصل من سان بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجى مدرسة الطب) • فأما النائب العام هيوليت كيريلوفتش - وكان يسمى نائباً من قِبل المجاملة ، لأنه لم يكن فى الواقع الا وكيل نيابة - فهو رجل على حدة ، ما يزال شاباً ، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فيه استعداد للإصابة بمرض السل ، متزوج امرأة سمينة عاقراً • انه شديد الشعور بكرامته وكبريائه ، سريع الغضب والحق ، ولكنه يملك مزاجاً واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب • يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ فى تقدير قيمته ، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه فى نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر • وكانت له مطامح عليا ، بل ومطامح فنية ، وكان يعتر خاصة بمقدرته فى علم النفس ، فهو يعتقد أنه أوتي مواهب خاصة فى النفاذ الى أسرار النفس الانسانية ، وفى اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين • وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة ، وكان يعيش على قناعة تامة بأن الناس لم يقدروه حق قدره ، أو أن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه فى وظيفته • وكان فى ساعات حزنه وبأسه يمضى الى حد التهديد بالانتقال الى صف المعارضة ، فيعمل محامياً أمام المحاكم الجنائية • وقد استأثرت قضية مقتل الأب كارامازوف واستهضت همته ، فحدث نفسه قائلاً : « هذه قضية ستستهر غداً فى روسيا كلها • • • ولكن أرانى أستبق تمة القصة •

وفى الغرفة المجاورة كان قاضى التحقيق الشاب يقولان يارفينوفتش نيلودوف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ شهرين ، يثرثر مع الفتاتين • لقد دُهِش الناس بمدينتنا ، فيما بعد ، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين فى مساء وقوع الجريمة ، نفسه ، فى منزل أحد ممثلى السلطة

لتنفيذية ، كأنما هم اتفقوا على ذلك • والحق أن تحليل هذه المصادفة طبعى جدا : ن زوجة هيوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة فى الأسنان ؟ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر الا فى الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنيها • فالى أين يمكن أن يذهب اذا هو لم يذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ أما الطيب فانه ، بحكم مهنته ، كان لا يستطيع أن يقضى سهراته الا لاعباً بالورق ، لذلك كان وجوده فى منزل رئيس لشرطة أمراً لا بد منه ولا مجيد عنه • وأما يقولوا بارفينوفتش تليودوف ، فلقد كان ينوى منذ ثلاثة أيام أن يزور ميشيل ماكاروفتش فى ذلك المساء ، وأن يجيء اليه • بما يشبه المصادفة ، • بغية أن يفاجئ • بعد ذلك كبرى الفتاتين ، أولغا ميخائيلوفنا ، بأنه عالم بسرّها : وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها ، وأنها أرادت أن تخفى الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقص فى منزلها • وكان يقولوا بارفينوفتش يتصور أهازيج كثيرة سيقوم بها فى تلك المناسبة ، ويتلذذ سلفاً بهذه الأهازيج : كالإشارة الى أنها تختبئ أن تعلن عن سنّها ، وكالتهديد بإذاعة الأمر فى المدينة كلها غداً ، الخ • ان هذا الشاب الفتان « عفريت » كبير ، حتى ان سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب ، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو • وكان ينتمى من جهة أخرى الى أسرة ممتازة ، وكان جمّ الكياسة رفيع الشاعر • ورغم انه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على اللذات ، فقد كان كذلك على براعة وكان لا يخل بالمواضع المقررة ولا يسىء الى الآداب الاجتماعية • وهو قصير القامة ، ضعيف البنية ، رقيق مرهف ، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كثيرة • وكان فى قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة ، قوى الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه • وكان يمتاز خاصة بمهارته فى أن يحير القتل وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته ، وكثيرا ما كان يثير فيهم من الدهشة ان لم يثر فيهم الاحترام •

حين وصل بطرس ايلتش الى منزل رئيس الشرطة صمقه نعلًا أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر • كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب ، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون في الحادث بحرارة ، وقوفًا • لقد هرع يقولون بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للمهجوم • وما كان أشدّ ذهول بطرس ايلتش حين علم بالنبا الرهيب : وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قتل في منزله فعلاً هذا المساء ••• قُتل وسُرق • وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية :

لا شك في أن مارفا اجناتيفنا ، زوجة جريجورى ، كانت نائمة نومًا عميقًا في اللحظة التي ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور • وكان يمكن أن تستمر في نومها زمنًا طويلاً أيضا • ولكن شامت المصادفة أن تستيقظ فجأة ، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي يرقد في الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائبا عن وعيه • انها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة ، فهذه الصرخة انما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف • وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها ، وخلّفت في نفسها أثراً مرضياً ، ولم تستطع أن تتعافى في يوم من الأيام • نهضت مارفا متفضضة وهي ما تزال نصف نائمة وأسّعت الى الغرفة التي يرقد فيها سمردياكوف ، على غير شعور منها تقريبا • كان الظلام حالكًا ، فلا يرى شيء ، وانما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط • أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هي أيضا ، منادية زوجها ، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن الى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها ، فأسّعت الى السرير وأخذت تجس العطاء ، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد • تساءلت : فالى أين ذهب ؟ هل خرج ؟ ولماذا خرج ؟ وهرعت الى درجات المدخل

وأخذت تناديه فى الظلام وجلى ، ولكنها لم ت تلق جوابا . وفجأة خيل إليها أنها تدرك فى حلكة الليل أناتٍ مخنوقة كأنها آتية من الحديقة . فأصاحت بسمعها ، فكررت الأناث . دمدمت تقول مضطربة « ربه ! يشبه هذا ما حدث فى الماضى يومَ موت اليزابث سمردياستشايا ! » . وهبطت الدرجات خائفة ، فلاحظت أن باب الحديقة مفنوح ، فقالت لنفسها : « لاشك أن زوجى الطيب هناك » ، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت فى هذه المرة زوجها جريجورى نفسه يناديها بصوت ضعيف مخنصر مروّع : « مارفا ، مارفا ! » . فقالت مارفا متلثممة « نجسنا من الشرايا رب ! » ، واندفعت فى الاتجاه الذى كان يصدر عنه النداء . وهكذا اكتشفت جريجورى . ومع ذلك لم تجده قرب السور ، فى المكان الذى صُرع فيه ، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان . وقد عُرِفَ فيما بعد أن جريجورى ، حين أفاق من اغماثه وناب الى رشده ، جَرَّ نفسه على الأرض مدة طويلة ، فأغمى عليه أثناء ذلك عدة مرات ، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه . وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه ، فأخذت تصرخ . وكان جريجورى يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها ، قائلاً : « قتل ... قتل أباه ... لساذا تصرخين يا امرأة غبية ؟ هلمى ! أركضى ! نادى ! » . ولكن مارفا اجتاتينا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن اطلاق صرخاتها الوحشية . فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاهم مفتوحة ومضاءة ، أسرعت الى هناك تسادى فيدور بافلوفتش . واذ لم تسمع جوابا نظرت من النافذة ، فرأت عندئذ مشهداً قظيما : رأت فيدور بافلوفتش راقدًا على الأرض جثةً هامدة .

بلفت مارفا اجتاتنا ذروة الهلع ، فاندفعت عندئذ الى خارج الحديقة ، ففتحت الباب الكبير ، وهرعت الى عند جارتها ماريا كوندرايتينا . كانت المرأتان ، الأم وابنتها ، نائمتين حينذاك ، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة

على مصراعى الباب ، ولشدة الصرخات الحادة ، التى كانت تطلقها مارفا اجناتيفنا ، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة . فقصت عليهما العجوز المسكينة ما نزل بدارهم من شقاء ، قصت عليهما ذلك بأقوال مضطربة مشوشة تقطعها أنات . ومن المصادفات أن توماس الذى يسكن مستأجراً فى منزلهما ، والذى يتنقل عادة فى البرارى ، كان بيت فى المنزل فى تلك الليلة . فسرعان ما أوقف من نومه ، وخفّ الجميع الى مكان الجريمة . وتذكرت مارى كوندرايتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، عويلاً صادراً من الحديقة أرعبها . لقد كان ذلك هو الصرخة التى أطلقها جريجورى لحظةً أمسك بيديه احدى ساقى ميتا الراكب السور ، قائلاً : « يا قاتل أبيه » .

قالت ماريا كوندرايتيفنا شارحةً : « ان أحداً قد صرخ عندئذ صراحاً قويا جداً ثم صمت فجأة » . ووصل الثلاثة الى قرب جريجورى ، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس ، ونقلوه الى الملحقات . وأشعلوا شمعة . وحين مروا أمام الغرفة التى يرقد فيها سمردياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط فى تشنجاته وقد جحظت عيناه وخرج الزبد من فمه . غسلوا رأس جريجورى بماء ممزوج بخل ، فجعله ذلك يصحو تماماً ، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال : « أقتل مولاه أم لا ؟ » . وأرادت الجارتان عندئذ أن تصبجا توماس الى غرفة فيدور بافلوفتش . فلما اجتازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة ، وانما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً ، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم أقفال الباب بالفتاح كل ليلة ، ولا يسمح حتى لجريجورى بأن يدخل عليه لأى سبب من الأسباب ، وبأى عذر من الأعذار . فلما رأَت المرأتان وتوماس هذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول الى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات» ، وعادوا الى الملحقات ، فطلب جريجورى ابلاغ رئيس الشرطة بالحادث

فورا • فتولت ماريا كوندرا تفننا القيام بهذه المهمة ، فأهاج وصولها ضيوف ميشيل ماكاروفتش ، وأقامهم وأقدمهم • لقد وصلت ماريا الى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بطرس ايلتش بخمس دقائق لا أكثر ، وهكذا مثل بطرس ايلتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول انسان يريد أن ينقل اليهم شكوكه واستدلالاته ، بل مشول شاهد عيان ، فلم تزد التفاصيل التي ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بطرس ايلتش نفسه قد ظل الى آخر لحظة يشك في أن يكون ميتا هو القاتل) •

وتقررت المبادرة الى العمل فورا • وأبلغ مفوض الشرطة المساعد، وتم القيام بالتحريات الأولى في مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش ، وفقا للأصول القضائية التي لا داعي لى وصفها هنا • وقد أصر طيب زمستفوف ، وهو طيب مبتدى • متلهم • وحماسة ونشاطا ، أصر على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضى التحقيق • وسأقصر هنا على تلخيص ما شاهدوه : لقد صرغ فيدور بافلوفتش ، وكسرت حجمته، ولكن ما هو السلاح الذى استعمل فى قتله ؟ لعله ذلك السلاح نفسه الذى استعمله القاتل بعد ذلك فى ضرب جريجورى • واكتشفت أداة الجريمة أخيرا بفضل ما استطاع جريجورى أن يذكره لهم على نحو متيق ، ولو بصوت واهن متقطع ، بعد أن أَسف الاسعافات الطيبة التي تتطلبها حالته • استكشف رجال الشرطة الأرض التي تجاور السور مستعينين بمصباح ، فلم يلقوا غناءً فى الثور على مدق الهاون النحاسى • وجدوه ملقىً وسط الممر الذى يشق الحديقة ، فى موضع يلفت الأنظار على الفور • ولم تكن الثرقة التي يرقد فيها فيدور بافلوفتش فوضى ، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفا ملقى قرب السرير • وكان ظرفا كبيرا مصنوعا من ورق سميك ، وقد كسب عليه ما يلى :

• هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهدبها الى ملاكى جروشنكا اذا هم رضيت أن تجيء ، وفى أسفل الطرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه : « الى حمامتى » • وكان الطرف الذى ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة قد فُصَّ وأُفرغ مما فيه : لقد سُرق المال الذى كان يضمه الطرف • واكتشفوا كذلك على أرض الفسرفة الشريط الوردى اللون الذى كان يلف الطرف • وقد أحدثت أقوال بطرس ايلتش أثرًا عميقًا فى وكيل النيابة وقاضى التحقيق وهزتهما هزاً قوياً ، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمترى فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزمًا مطلقاً على أن يتحرر قبل طلوع الفجر؛ وان دمترى فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه ، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه ، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذى يدعوه الى الاتحار ودسَّها فى جيبه ، الخ ، حتى اذا قال له بطرس ايلتش الذى لم يشأ أن يصدق قراره انه سيلغ أقرابه ما عزم عليه حتى يضمنوه من انفاذه ، أجابه مبتيا بلهجة ساخرة : « لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزى » • معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع فى العمل ، والوصول الى موكرويه على عجل ، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ماعقد النية عليه •

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطربا اضطرابا شديدا :
- القضية واضحة وضوح ماء الصخر • ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأثقياء حين يقعون فى الجريمة • غداً أنتحر ، أما الليلة فآلهو وأتسلى •

وازداد احتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث فى المتجر حين اشترى ميتا الشمبانيا وأنواع الحلوى •
- هل تذكرون ، أيها السادة ، ذلك الشاب الذى قتل التساجر

أولسوفيف ليسلبه ماله ؟ انه بعد أن استولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحيته ، فكّر قبل كل شيء فى أن يصفى شعره متموجاً عند حلاق ، ثم أسرع الى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء اخفاء المال ، فكان يمسكه بيديه تقريباً ، مثل هذا القاتل الجديد تماماً .

على أن التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والاجراءات القانونية الشكلية ، كل ذلك قد استغرق وقتاً ، لذلك تقرر أن يوفد الى موكرويه ، على جناح السرعة ، موظف الشرطة موريس مافريكيتش شمرستوف الذى جاء الى المدينة فى الليلة البارحة لقبض مرتبه . أصدرت اليه تعليمات بأن يذهب الى موكرويه ، منتحلاً عذراً من الأعذار ، بحيث لا يلفت الانتباه ، وأن يراقب المجرم فى الخفاء دون أن يغيب عن بصره ، الى حين وصول لسلطات . وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون فى عداد الخفراء الذين سيقادون المتهم . نفّذ موريس مافريكيتش الأوامر التى تلقاها ، ولزم التخفى ، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذى يعرفه منذ عهد بعيد بعض الايضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه . وفى ذلك الوقت انما التقى ميتيا بصاحب النزل فى أسفل السلم المفضى الى الشرفة ، فلاحظ تفسيراً غريباً فى تعبير وجهه وطريقة كلامه . وعلى هذا النحو لم يستطع أحد ، لا ميتيا ولا سائر الضيوف ، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون . أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها فى مكان مأمون على الفور . ولم تصل السلطات الى موكرويه الا فى الساعة الخامسة ، عند طلوع الفجر . استقل وكيل النيابة ، ورئيس الشرطة ، وقاضى التحقيق ، وحاشيتهم ، عربتى ترويكاه . ومكث الطبيب فى منزل فيدور بافلوفتش ، ليأشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح . ولكنه كان مهتما اهتماما خاصا بحالة سمردياكوف .

— ان نوبات الصرع التى تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل

هذه المدة مستمرة يومين ، هي حالات نادرة كل النادرة ، حالات يهتم بها العلم ويكب على دراستها •

كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا الى موكرويه ؛ وقد مازحه صحبه وهناؤه على ما أوتى من فرصة موالية وحظ نادر •

وقد تذكر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فيما بعد ، تذكرأ واضحاً أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما زعمه الطبيب الشاب •
بعد هذه الشروح التى كانت طويلة بعض الطول ، ولكنها كانت لا بد منها ولا غنى عنها ، سنستأنف الآن قضيتنا من حيث قطعناها فى نهاية الباب السابق •

محن نفس المحنة الأولى



ميتاً يتصفح وجوه محدنيه ، مجنون العنين ،
ولا يفهم ما يقال له • وما هو ذا ينهض فجأة ،
فيرفع ذراعيه الى السماء ويهتف قائلاً بصوت
قوى :

- لست القاتل ! أنا لم أسفح ذلك الدم ! لم أسفح دم أبى •••
كنت أريد أن أقتله ، ولكننى لم أفعل • لست أنا القاتل !

فما ان قال ميتاً هذه الكلمات حتى اندفعت جروشكنا من وراء
الستائر وسقطت عند قدمى رئيس الشرطة ، وأعولت تقول بصوت
ممزق ، وهى تبكى بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور :

- أنا المذنب ، أنا الشقية المذنبه • بسببى انما قتل ! أنا التى قدته
الى ذلك من كثرة ما عذبه ••• ولقد عذبت المعجوز المسكين الراحل
أيضاً ، بدافع الشر الذى فى نفسى ••• أنا سبب كل شئ ، أنا ، أنا
وحدى • أنا القاتلة فى حقيقة الأمر •

- أما أنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! أنت مجرمة كبيرة ،
أيتها المرأة الضالة الفاسقة ! أنت المسئولة عن هذه الجريمة •

كذلك صاح يقول رئيس الشرطة وهو يلوح بقبضة يده مهددًا •
ولكن سرعان ما حمل رئيس الشرطة على السكوت ، حتى أن وكيل
النباة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه ، قائلاً له بصوت عال وهو
يكاد يختنق غيظاً :

- لقد أحدثت فوضى يا ميشيل ماكاروفتش ، هذا لا يجوز ! انك
تشوش التحقيق وتفسد كل شيء •

وقال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره :

- يجب اتخاذ اجراءات ... حالاً ... يجب اتخاذ اجراءات •
واستأنفت جروشكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهى ما تزال
جانية على ركبتيها :

- احكموا علينا معاً ، أعدمونا معاً ، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة
القصوى !

فهتف ميتيا يقول وهو يرتدى على الأرض فيجثو الى جانب جروشكا
ويماتقها :

- جروشا ، حياتى ، روحى ، دمى ، قدستى ! لا تصدقوا ما تقولوه،
انها ليست مذنبه فى شيء ، انها لا تشارك أية مشاركة فى المسؤولية عن
هذا الدم المسفوح ، انها لم تفعل شيئاً !

تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشكا
التي أقصبت عن الغرفة ، وأنه فى اللحظة التي تاب فيها الى وعيه ، وجد
نفسه جالساً أمام المائدة • وكان يقف وراءه رجال يضمون على صدورهم
صفائح من معدن • وفى الجهة الأخرى من المائدة ، كان قاضى التحقيق
نيقولا بارفينوفتش الذى جلس على الكنبه ، يلح عليه أن يشرب قليلاً

من الماء مشيراً الى الكأس الموضوعة على المائدة ، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً :

- اشرب ، الماء ينشك ويهدئك • لا تخش شيئاً •

خطفت انتباه ميتيا ، على حين فجأة ، الخواتم الكبيرة التي كانت فى أصابع قاضى التحقيق • أن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت ، والثانى يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوى السطوع • سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم فى نفسه من افتتان حتى أنه طوال الساعات الرهية التي استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها ، ولم يقطع عن النظر اليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة • الى يسار ميتيا ، فى المكان الذى كان يشغله ماكسيموف فى بداية السهرة ، كان يجلس وكيل النيابة ؛ الى يمين ميتيا ، فى المكان الذى جلست فيه جروشسكا بضع ساعات قبل ذلك ، كان يجلس شاب زاهى اللون ، يرتدى ستره عتيقة جداً مما يلبسه الصيادون ، وأمامه مجبرة وورقة • ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضى التحقيق • أما رئيس الشرطة فقد كان وقفاً قرب النافذة ، فى الطرف الآخر من الغرفة ، على مقربة من كالجانوف الذى كان جالساً على كرسى •

كرر قاضى التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة :

- اشرب ماء •

فصاح ميتيا يقول ، وهو يثبت على قاضى التحقيق نظرتة الجامدة جموداً رهيباً فى عينيه الجاحظتين :

- شربت يا سادتى شربت ••• والآن فاسحقونى ، اعدمونى ،

قررروا مصيرى !

سأله القاضي بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح :

- أأنت تصر اذن على أنك برىء من مقتل أبيك ؟

- برىء ! لقد سفحت الدم ، سفحت دم المجوز الآخر ، ولكننى لم أسفح دم أبى • آه • • • • • لشد ما يؤسفنى ما فعلت • لقد قتلت ذلك المجوز المسكين ، صرعت • غير أنه يشق علىَّ أن أصبح بسبب هذه الجناية مسئولاً عن جريمة أخرى ، جريمة فظيعة لم أرتكبها • • • • • ذلك اتهام رهيب يسقط علىَّ سقوط الصاعقة ! ولكن من ذا الذى قتل أبى ؟ من هو القاتل ؟ من عسى يكون القاتل اذا لم أكن أنا ؟ هذا جنون • • • • •

بدأ قاضى التحقيق يقول :

- أنسأل من هو القاتل ؟ سأقول لك ذلك • • • • •

ولكن وكيل النيابة هيولت كيريلوفتش سارع يسكنه بنظرة منه ، ثم قال مخاطباً ميتيا :

- تخطفىء اذا قلقت على مصير الخادم المجوز جريجورى فاسيليف • اعلم أن هذا الخادم لم يمت ، وأنه أفاق من اغمائه واسترد وعيه • حتى أن لطيب يرى أنه ليس فى خطر رغم الضربة الفظيعة التى شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها •

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى (وقد أشرق وجهه فرحاً) :

- أهو حى ؟ اللهم انى أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التى تهبها لى ، لى أنا الخاطيء المجرم ؟ اللهم انى أحمدك على أنك استجبت لدعائى • • • • • ذلك أن دعائى هو الذى قبل • • • • • لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت •

ورسم ميتا اشارة الصليب ثلاث مرات وهو يختنق انفعالا •
استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً :

- من جريجورى هذا نفسه نما حصلنا على معلومات خطيرة جدا
فى شأنك ...

ولكن ميتا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً :

- دقيقة واحدة أيها السادة ! اسمحوا لى بدقيقة واحدة ، دقيقة
واحدة ، أناشدكم الله ... أريد أن أكلمها هى ...
فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد ، ناهضاً عن مقعده
على حين فجأة هو أيضاً :

- آسف ! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن •

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن ،
أمسكوا ميتا ، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج ، وقال :

- هذا يؤسفنى أسفاً عميقاً يا سادتى ، لأننى لم أكن أريد أن أراها
الا لحظة قصيرة ... لأبذلها أن ذلك الدم قد امحى من حياتى ، ذلك
الدم الذى عذبنى طوال هذه الليلة ، واننى لست قاتلاً ! انها خطيئتى أيها
السادة ، هل تعرفون هذا ؟ (هكذا صاح يقول فجأة وهو ينقل بصره على
محدثيه جازماً) • أوه ! شكراً لكم أيها السادة ! لقد رددتمونى الى الحياة
بهذه الكلمة وحدها : حى ! ان ذلك العجوز كان يحملنى بذراعيه أيها
السادة ، وكان يفسلنى فى جرن حين كنت فى السنة الثالثة من عمرى
وتركنى الجميع • كان لى بمثابة أب !

هم القاضى أن يتكلم قائلاً :

- وهكذا ، فأنت ...

ولكن مبتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويفطى وجهه يديه:
 - اسمحوا لى بدقيقة تفكير أيها السادة ، دقيقة واحدة • دعونى
 أنتفس لحظة ، وأحاول أن أرى رؤيـة واضحة • ان هذا الأمر قد هزنى
 هزاً قوياً وقلب نفسى رأساً على عقب ، هذا فطيع ••• ليس يُقرع انسان
 كما يقرع طبل أيها السادة !

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول له :

- عليك أن تشرب جرعة أخرى من الماء •

أبعد مبتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك • ان فى نظـرته الآن
 لثقة ، وقد تبدل تعبير وجهه فى طرفة عين • وتغير موقفه كذلك ، فهو
 يتكلم بلهجة غير اللهجة التى كان يتكلم بها من قبل • هو يحس الآن أنه
 عاد نداءً لهؤلاء لرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم ،
 البارحة ، فى سهرة تضم عليه القوم ، فكأن شيئاً لم يكن • يحسن أن
 نشير هنا الى أن مبتيا كان قد استقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس
 الشرطة ، فى بداية اقامته بمدينةنا ، ولكنه انقطع عن التردد الى هذا
 المنزل بعد ذلك ، ولا سيما خلال الشهر الأخير • وأصبح رئيس الشرطة،
 منذ زمن ، يقطب حاجبيه حين يرى مبتيا فى الشارع ، ولا يرد على تحيته
 الا من باب الأدب ، وقد لاحظ مبتيا هذا • أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة
 مبتيا به أقل من ذلك أيضا ، رغم أن مبتيا قد زار زوجته ، وهى امرأة
 عصية ذات هواجس ، عدة زيارات شكلية تماما ؛ كان يذهب اليها دون
 أن يعرف لماذا ، وكانت تستقبله حتى هذه الأسابيع الأخيرة بكثير من
 البشاشة والمودة ، بل وكانت تبدى شيئاً من الاهتمام به • وأما قاضى
 التحقيق ، فلم تكن بينه وبين مبتيا علاقات اجتماعية ، واقصر كل شئ
 بينهما على حديث أو حديثين تبادلًا خلالهما كلاما غامضا عن جنس
 النساء •

قال ميتيا مرحباً :

- أرى يا نيقولا بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جداً ، ولكن أحسب مع ذلك أن علىَّ أن أساعدك . أوه ! لقد تنفست أيها السادة ... لا تؤاخذوني إذا أنا كلمتكم بشيء كلفة . ثم انتى نمل قليلاً ، أتعرف لكم بذلك صراحة . أظن يا نيقولا بارفينوفتش أنتى قد سبق لى أن سُرت وشرفت بملقاتك ، عند ميوسوف ، قرييى ... معذرة أيها السادة ! لست أدعى المساواة بكم الآن ، فانا أعرف موقفى أمامكم حق المعرفة ... هناك تهمة رهبة تجسم علىَّ ... طبعاً ... إذا كان جريجورى قد شهد علىَّ ... فلا بد أن تكون القرائن قوية فى الظاهر ... نعم ... أنا موضع شبهة خطيرة ! فطليح ! فطليح ! انتى أفهم هذا حق الفهم ، تقوا من ذلك ! ولكن فلنصل الى الوقائع أيها السادة ! انتى مستعد ... وسنوضح الأمور فى بضع دقائق يا سادتى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ما دمت بريئاً ... اصفوا الىَّ ، اصفوا الىَّ ! ما دمت أعلم أنتى لم أرتكب هذه الجريمة ، فسوف تبدد سوء التفاهم فى طرفة عين ، أليس كذلك أيها السادة ؟

كان ميتيا يتكلم متعجبلاً متدفقاً على نحو عصبى ، وبنسوع من الاصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه .

قال نيقولا بارفينوفتش بلهجة رصينة :

- سنسجل الآن اذن أنك تنكر انكاراً قاطعاً التهمة الموجهة اليك . ثم التفت نحو الكاتب ، وأملى عليه بصوت خافت خلاصة انكارات

ميتيا .

- آ ... أأنتم تسجلون أقوالى ؟ أتريدون تدوينها ؟ طيب ... اكتبوا إذا شئتم ... أوافق على هذا ... لا أرى فى هذا ضيراً أيها السادة ... ولكن ... لحظة من فضلكم ! أريد أن تكتبوا كما يلى :

« ارتكب جرم استعمال العنف ، فضرب عجوزا مسكينا ، وهو يعترف بذلك ، ثم اتنى فى أعماق نفسى ، فى قرارة ضميرى ... ولكن لا داعى الى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتا الى الكاتب) ... تلك حياتى الخاصة التى لا شأن لكم بها أيها السادة ، هذه أغوار قلبى ... أما قتل أبى فأنا برىء منه ! تلكم تهمة حمقاء ! ذلكم افتراض سخيف ... سأبرهن لكم على هذا ، فتقتنمون اقتناعا تاما . سوف تضحكون أيها السادة ، سوف تضحكون أنتم أنفسكم من الشكوك التى راودتكم ، سوف تنفجرون ضاحكين .

تدخل قاضى التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب يهدونه هو مثلاً
لميتا المتدفع المضطرب :

— هدىء نفسك يا دمترى فيدورفتش ! أحب أن أرجوك ، قبل أن تتابع الاستجواب ، أن تؤكد لى — اذا كنت توافق على ذلك — أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيرا ، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما . لقد صرحت أنت نفسك ، منذ ربع ساعة ، فى هذا المكان نفسه ، اذا لم يخطئ ظنى ، أنك كنت تنوى أن تقتله . لقد صحت تقول : « كنت أريد أن أقتله ولكننى لم أقتله . » .

— أقلت أنا هذا ؟ أوه ! جازز أيها السادة ! نعم ... وا أسفاه ! لقد تميت أن أقتله ، وراودتنى نفسى على هذا مرارا ... وا أسفاه ! وا أسفاه !

— كنت تنوى اذن أن تقتله . فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذى كنت تحمله لأبيك ؟

قال ميتا بلهجة متجهمة وهو يرفع كفيه ويخفض رأسه :
— ليس هناك ما يُشرح أيها السادة ! أنا لم أخف عواطفى ، والمدينة

كلها تعرفها ، حتى أن الناس يتحدثون عنها في الكاباريه • ومنذ بضعة أيام لا أكرر ، عبرت عنها في الدير ، في حجرة الشيخ زوسيم • وفي مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبي وأوشكت أن أقتله ، وحلفت أمام شهود لأعودنَّ فأجهز عليه • أوه ! في وسعكم أن تجدوا ألف شاهد على ، بغير غناء • انى لم أزد على أن هدأت كرهى له خلال هذا الشهر ••• الناس جميعاً يشهدون ••• الوقائع متوفرة ••• الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها ، بل هى تصرخ ••• أما عواطفى أيها السادة فأمرها أمر آخر ! يخيل الى أيها السادة (وهنا قلب ميتاً حاجيه) أنه ليس من حقكم أن تسألونى عن عواطفى • ان وظائفكم تخولكم سلطات ، أنا أعرف هذا وأفهمه ، ولكن عواطفى هى من شأنى أنا ؛ هى تتصل بحياتى النفسية ، الحميمة ••• على كل حال ، ما دمت لم أكنمها حتى الآن ••• لم أكنمها فى الكاباريه مثلاً ، وكنت أكاشف بها أول قادم ، فليكن ما تريدون ! فلن أخفيها عنكم أتم أيضاً • أيها السادة ، انى أدرك حق الإدراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية : فلقد أعلنت لجميع الناس أننى سأقتله ، وما هو ذا يُقتل • فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه ؟ هاها ! انى أعذرکم أيها السادة ، أعذرکم كل العذر • أنا نفسى قد أذهلنى هذا الحادث : من عسى يقتله اذا لم أقتله أنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا لم أقتله أنا فمن يقتله ؟ من ؟ (ثم صاح فجأة يقول :) أريد أن أعرف منكم أيها السادة ، أطلبكم بأن تقولوا لى الحقيقة : أين وُجد مقتولا ؟ وكيف قتل ، بأى سلاح وفى أية ظروف ؟ قولوا لى هذه الأمور ! (كذلك ردّد بقوة ، وهو ينظر الى وكيل النيابة وقاضى التحقيق واحداً بعد آخر) •

أجابه وكيل النيابة قائلاً :

— وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الفرفة ، مكسور الجمجمة •

قال ميتا مرتجفاً وهو يضع كوعه على المائدة ويخفى وجهه بيده اليمنى :

- هذا فطع أيها السادة !

وتدخل يقولان بارفينوفتش قائلاً :

- لتتابع الاستجواب • لأى سبب كنت تكره أباك ؟ لقد صرحت على رموس الأشهداء ، فيما أظن اننى أعلم ، أن لغيره هى التى كانت تؤلبك عليه ، فهل هذا صحيح ؟
- هى الغيره ان شئت • ولكن الغيره ليست السبب الوحيد لموقفى منه •

- لعل هناك خصومات على مال ؟

- نعم ، نعم ، مسائل مالية •

- كان الخلاف يدور ، اذا لم يخطئ ظنى ، على ثلاثة آلاف روبل هى من حقت فى الميراث ولم يدفعها لك •

قال ميتا مستاءً :

- ثلاثة آلاف روبل ؟ بل أكثر كثيراً ، أكثر كثيراً • كان مديناً لى بأكثر من ستة آلاف روبل ، وربما بأكثر من عشرة آلاف • قلت هذا لجميع الناس ، صحت به فى كل مكان ! ولكننى كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تساهلاً ، لأننى كنت فى حاجة مستعجلة رهية الى هذا المبلغ ... فكان ذلك الطرف الذى يضم ثلاثة آلاف روبل والذى يوجد تحت وسادته ، (أنا أعلم ذلك) والذى أعدّه هو لجروشنكا ، كان فى نظرى مالاً سُرّق منى • هل تفهمون أيها السادة ؟ كنت أعد ذلك المبلغ حقاً من حقوقى ، وملكاً شرعياً لى •

بادل وكيل النيابة قاضى التحقيق نظرة ذات دلالة ، وغمره بعينه غمرة خفيفة •

أسرع القاضى يقول :

- سنعود الى هذه المسألة . واسمح لى أن أسجل هذه النقطة بعينها : وهى أن ذلك المبلغ المودع فى الطرف كان فى رأيك حقاً مشروعا لك .

- اكتبوا أيها السادة ! اننى أدرك أن هذا قرينة جديدة على ، ولكننى لا أخشى شيئاً ، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى . سوف أمدكم أنا نفسى بقرائن أخرى ، هل تسمعوننى ؟ يبدو لى أيها السادة أنكم ترون فى رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عما أنا فى الواقع (كذلك أضاف يقول حزينا مظلم الوجه) . ان أمامكم أيها السادة انسانا صادقا مستقيما لا يعرف طبعه الالتواء والمخالطة ، ان أمامكم انسانا - لا ينب هذا عن بالكم - ان يكن قد ارتكب حقرات كثيرة ، فانه ظل دائما فى قرارة نفسه ، أعنى فى أعماق قلبه ، طاهرا ... الخلاصة ... اننى لا أحسن الإفصاح عما بنفسى ... لقد تأملت طول حياتى بسبب اندفاعات روحى الى ما هو خير وسمو ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الانسانية بحث ديوجين عنه ان صح التعبير ، حاملاً مصباحا ... ورغم ذلك قارفت دناءات فى كل خطوة من خطواتى ، كما تقارف جميعا هذه الدناءات أيها السادة ... أقصد ... لا ... لا كما تقارفها جميعا ، بل كما أقارفها أنا وحدى ، لقد أسأت التعبير يا سادتى ... نعم ، كما أقارفها أنا وحدى ... ان بى صداعا أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسماً وجهه على ألم) ... نعم يا سادتى ... كنت أكره مظهره ؟ كان فى جسمه شئ يوحى بالدنس ، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس ، كان فيه سخرية وكفر ! أوه ! كان هذا دنيئاً ، دنيئاً جداً ! ولكننى أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود .

- غير هذا التفكير ؟ ماذا تعنى ؟

- لا غير هذا التفكير ، ولكننى آسف لأنى كرهته ذلك الكره الشديد كله .

- أنت نادم اذن ؟

- لا ، لا يعنى ذلك اننى نادم ، لا تكتبوا هذا ! أنا نفسى ملئ بالميوه أيتها السادة ! أنا لست مثال جمال النفس ، فلم يكن من حقى اذن أن أنفر منه ذلك النفور كله ... هذا ما تستطيعون أن تكتبوه .

وبدا على ميتيا ، بعد هذا الجواب الأخير ، أنه قد خارت قواه جداً على حين فجأة . وكان وجهه قبل ذلك بيض دقات قد أخذ يزداد اكفهراراً وجهامة كلما تابع الاستجواب . وهذا مشهد لم يكن فى الحسبان يقع بغتة فى تلك اللحظة نفسها . كانت جروشكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً ، ولكنهم لم يقصوها الى مكان نائم ، وانما أودعوها فى الغرفة الثالثة ، وهى غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التى يجلس فيها ميتيا والقاضى الا القاعة التى قام فيها الرقص وتم فيها القصف أثناء الليل . هى غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشكا بصحبة ماكسيموف الذى روعته الأحداث فكان يتشبث بجروشكا تشبث الغريق بلوح النجاة . وعلى باب تلك الغرفة كان يربط فلاح على صدره صفيحة من معدن . كانت جروشكا تبكى ، وها هى ذى تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها ، فإذا هى تنهض وتضم يديها احدهما الى الأخرى ، وتصح قائلة : « يا للشقاء ! » ، ثم تندفع الى خارج الغرفة ، متجهة اليه ، الى عزيزها ميتيا ؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يشع وقته لصدّها . وقد سمع ميتيا صرختها ، فارتعش ، ووثب عن كرسيه ، وأطلق من صدره نوعاً من العويل ، واندفع نحوها طائش العقل ، كأنه نسى الوضع الذى هو فيه . لم يترك لهما أن يلتقيا ، وان تكن نظراتهما قد التقت . أمسك ميتيا بقوة ، فأخذ يصارع حائهاً مسموراً ، ولم تمكن

السيطرة عليه الا بتعاون ثلاثة رجال أو أربعة • وأمسكت هى أيضاً ، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد اليه ذراعها فى لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها • حتى اذا رجع كل شيء الى الهدوء وجد ميتيا نفسه مرة أخرى فى ذلك المكان نفسه ، أمام المائدة ، قبالة القاضى ، فصاح يسأل القاضى قائلاً له :

— ماذا فعلت لكم ؟ لماذا تعذبونها ؟ انها ليست مذنبة ، انها لم تصنع شيئاً ...

فحاول وكيل النيابة وقاضى التحقيق أن يهدئاه • وانقضت على هذه الحال عشر دقائق • وأخيراً عاد الى الغرفة ميشيل ماكاروفتش الذى كان قد غاب ؟ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد :

— بعدناها من هنا • هى الآن تحت • هل تأذنون لى أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الانسان العائر الخط ، كلمتين لا أكثر ؟ بحضوركم أيها السادة ، بحضوركم ...
فأجابه القاضى :

— لك ما تشاء يا ميشيل ماكاروفتش ، نحن لا نرى فى هذا أى بأس ، فى هذه الحالة الخاصة •

فبدأ ميشيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا :
— دمترى فيدوروفتش ، بنى المسكين ، أصغ الى ...
كان وجهه ، المحمر من الانفعال ، يعبر عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب • وتابع كلامه قائلاً :

— لقد توليت بنفسى أخذ أجرافين الكسندروفنا الى الطابق الأرضى ، وعهدت بها الى بنات صاحب المنزل ؟ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف

أصبح لا يتركها • وقد كلمتها ، وطمأنتها ، هل تسمعى ؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك ، أن تبرى نفسك ، فما ينبغي لها أن تمنع من ذلك بشيوشك ، والا فقد تدلى من شدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك ، هل تفهمنى ؟ الخلاصة ... أقنها فقالت انى على حق • انها ذكية وطيبة جداً ! كانت تريد أن تقبل يدى لأننى شيخ عجوز ، وتضرعت الى من أجلك ؟ وطالبتى ملحة بأن أجيء اليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها • يجب أن تطمئن يا عزيزى ، وأريد أن أعود اليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنسك لا تخشى عليها من شيء • هدىء نفسك يا عزيزى ، ذلك واجبك • أنا أحس بأننى مذبذب فى حقها • ان لها نفساً مسيحية ؟ نعم يا سادتى : هى طفلة وديعة بريئة • هل أستطيع أن أبلغها يا دمترى فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن ؟

كان الرجل الطيب يخطط فى كلامه خبط عشواء • ان ألم جروشنسكا ، هذا الألم الانسانى ، قد نفذ الى قلبه رأساً ، فكان فى عينه دموع • نهض ميتاً واندفع نحوه ، وصاح يقول :

- باذنكم يا سادتى ، باذنكم • انك يا ميشيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير • شكراً لك من أجلها • نعم ، أنا هادىء ، قل لها هذا ، وسأكون مرحاً ... قل لها ، بما لك من طيبة وأريحية ، اننى مرح ، مرح جداً ، حتى لأنتهى أن أضحك ، لعلنى بأنها فى حماية ملاك حارس مثلك • سأنهى هذا الالتباس بسرعة ، حتى اذا انتهت ، خفت اليها • فلتعتمد علىّ ولتنتظرنى واثقة • أيها السادة (كذلك قال يخاطب قاضى التحقيق ووكيل النيابة) ، سوف أفتح لكم نفسى كلها ، سوف أسرد اليكم بكل شيء ، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهى منه مرحين ضاحكين ، لأننا سنضحك جميعاً فى النهاية ، أليس كذلك يا سادتى ؟ ... ان هذه المرأة هى ملكة قلبى ! أوه ! اسمحوا لى أن

أقول لكم اننى أشعر بالحاجة الى أن أفضى اليكم بما فى قلبى ... لأنتى، أرى أن أمامى أناساً لهم نفوس نبيلة • انها ضيائى وحياتى أيها السادة ! آه ... ليتكم تعلمون ! هل سمعتم كيف صرخت تقول : « سأشاركك العقوبة القصوى ! » ؟ فماذا أعطيتها أنا الذى لا أملك شيئاً ، حتى أستحق منها مثل هذا الحب ؟ لست جديراً بهذا الحب ، أنا الانسان السيء ، بوجهى المنفر ، وسلوكى الأخرق ، ومظهرى الثقيل • أنا جدير بمثل هذا الحب ؟ ماذا فعلت فى سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تبغضنى الى سجون الأشغال الشاقة ؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة فى سبيل ، هى السماء التى لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه • فكيف لا أعبدها ، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة ؟ اغفروا لى أيها السادة ! ولكننى قد تأسيت الآن ...

قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسي ، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكي ناشجاً منتحباً • ولكن دموعه فى هذه المرة كانت دموع التخفف والسكينة والطمأنينة • كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع الى نفسه • وأشرق وجه رئيس الشرطة ، وظهر الرضى والارتياح على رجلى القضاء أيضاً : لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة • ورجع ميتيا اليهما بعد أن شيع رئيس الشرطة ، عاد هادئ النفس مطمئن الجنان • وقال :

— والآن أيها السادة ، أضع نفسى تحت تصرفكم • ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتكبوا بجميع تلك التفاصيل ، فنتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة • اتى آتية فى تلك التفاصيل • أنا مستعد أيها السادة ، ولكن صدقونى اذا قلت لكم : ان الثقة المتبادلة لا بد منها ولا غنى عنها فى مثل هذه الحالة • يجب أن تصدقونى كما أصدقكم ، والا فلن نصل أبداً الى

النهاية • أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم • فهيّا بنا أيها السادة ، هيا بنا الى
الوقائع ! ولكن كفوا خاصة عن النّيش في نفسى ، ولا تعذبونى فى سبيل
سفاسف وترهات ؛ ألقوا علىّ أسئلةً تتصل بالقضية وحدها دون غيرها •
اطلبوا وقائع ، وقائع ، ولأجيبنكم بما يرضيكم كل الارضاء • دعونا من
التفاصيل !

كذلك صاح ميتيا ، واستؤنف الاستجواب •

المحنة الثانية



يقولون بارفينوفتش كلامه قائلاً :

- لا تستطيع أن تتصور يا دمترى فيدوروفتش
الى أى مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه ...

كان الرضى يُقرأ فى عينيه الشهابيين
الواضحين الحسرتين اللتين رفع عنهما النظارتين حين بدأ كلامه . وتابع
يقول :

- ان ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صادق كل لصدق صحيح
كل الصحة . ان هذه الثقة المتبادلة شرط أساسى فى قضية لها هذه
الخطورة ، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين
يكون فى امكانه أن يبرىء نفسه . نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق
بنا ، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجرى هذا الاستجواب ...
أنت توافقنى على هذا يا هيوليت كيريلوفتش ، أليس كذلك ؟ (أضاف
هذا مخاطباً وكيل النيابة فجأة) .

أجاب وكيل النيابة مؤيداً ، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف ،
لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضى التحقيق من اندفاع حار :
- بدون شك .

ولنذكر مرة واحدة أن يقولون بارفينوفتش الذى وصل الى مدينتنا

منذ زمن قصير والذي هو فى بداية عهده بمهنته ، قد شعر دفعةً واحدة باحترام عظيم لشخص وكيل النيابة عندنا هيوليت كيريلوفتش ، فانتقدت بين الرجلين صداقة قوية • وكان على كل حال هو الانسان الوحيد المؤمن حقاً بالموهب السيكلوجية والخطابية الفذة التى ينعم بها هيوليت كيريلوفتش « الذى لم يقدر حق قدره » • وكان يعتقد هو أيضاً ، اعتقاداً جازماً ، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذى سمع عنه فى سان بطرسبرج قبل أن يجرى الى مدينتنا • وكان يقولوا بارفينوفتش ، الشاب جداً ، هو كذلك الانسان الوحيد الذى شعر نحوه صاحبنا « المجهول القدر » بعاطفة صادقة • وقد اتسع وقتها فى طريقهما الى موكرويه ، لأن تتفق آراؤهما فى هذه القضية ، ولأن يجعلا على الموقف الواجب اتخاذها ، والطريقة الواجب تبنيها ، بحيث أن الفكر المرهف الذى ينعم به يقولوا بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التى تجول فى ذهن زميله الأكبر منه سناً ، ويحزرها بنصف كلمة ، بأشارة خاطفة ، بحركة فى عضلات وجهه ، بغمزة من عينيه •

استأنف ميتا كلامه متحمساً :

- دعونى أتكلّم أيها السادة دون أن تقاطعونى مستوضحين تفاصيل تافهة ؟ وسأبسط لكم القضية كلها بسرعة •

- موافق • شكراً لك • على أننى قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنى كثيراً ، هى مسألة تلك الروبيلات العشرة التى اقترضتها أمس مساءً ، فى نحو الساعة الخامسة ، من صديقك بطرس ايتلتش ، وأودعته مسديك رهناً •

- صحيح أيها السادة ، نعم ••• رهنتهما ! أى شئ خارق فى هذا ؟ اننى ما ان عدت الى المدينة بعد تلك الرحلة ، حتى رهننت المسدين ••• الأمر بسيط جداً •

- بعد تلك الرحلة ؟ هل تفتت اذن ؟

- طبعاً ! سافرت الى خارج المدينة ، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا . أكنتم تجهلون ذلك اذن ؟ تبادل وكيل النيابة وقاضى التحقيق النظرات .

- لملك تحسن صنماً اذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح . اسمح لى أن أسألك مثلاً ، ماذا كان الغرض من تفتيك ، ومتى سافرت ، وفى أية ساعة رجعت . ان جميع هذه الوقائع ...

قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

- كان ينبغي أن تسألنى عن ذلك فوراً . بل اننى لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول ، من صباح أمس الأول ، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة ، وماذا كان هدفى منها ، وما هى الظروف التى أحاطت بها . فى صباح أمس الأول ، أيها السادة ، ذهبت الى التاجر سامسونوف على نية أن اقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماما . ذلك اننى احتجت الى هذا المبلغ احتياجا مستعجلا على حين فجأة ، احتياجا مستعجلا جدا أيها السادة ...

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب :

- اسمح لى أن أسألك لماذا احتجت فجأة الى المال ، ولأى غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً ؟

- ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة ؟ لماذا ومتى وكيف وأين ... ما فائدة هذا كله فى الواقع ؟ لأن أحتاج الى ثلاثة آلاف روبل أو الى أى مبلغ آخر ... لن نفرغ من الأمر أبداً اذا نحن تهنا

فى هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذ الى ثلاثة مجلدات على الأقل ، عدا المقدمة ! ...

كان ميتا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة رغم التملل ، لهجة انسان يريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحركه أطيّب النوايا . واستأنف كلامه فجأة يقول :

— لا تؤاخذونى أيها السادة على هذه الخشونة . تقوا أننى أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم على ، واننى مدرك موقفى تمام الادراك . وهأنذا أكرر ما سبق ان قلته : لا تظنوا كذلك أننى نمل . فقد صحوت من سكرى كل الصحو . ولكن حتى لو كنت نملًا ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئًا ، ولن يكون له أى تأثير فيما سأوضحه لكم . أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر :

انا ان صحوت رايتنى غيبا

فاذا سكوت غلوت عبقرى !

ها ها ها ! ولكننى ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بى الآن أن أنكّ ، الى أن نفرغ من ازالة هذا الالتباس على الأقل . فاسمحوا لى اذن أن أحافظ على وقارى . اننى أدرك حق الادراك التفاوت القائم بيننا الآن : فانا على كل حال انما أقف أمامكم موقف مجرم ، فهيها أن أكون لكم نداء . ان مهمتكم هى أن تراقبوني . ولا شك أنكم لن تلافسونى وتلاعبوا بأيديكم شعرى وتمشونى على الحوادث الذى وقع لى مع جريجورى . فليس من الجائز للانسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه ، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يحكم على بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة ، معاقبة لى على هذا الفعل الذى اجترحته ، ولكن دون سقوط مدنى . أنا لست معرّضاً للحرمان من حقوقى المدنية ، أليس

كذلك يا وكيل النيابة ؟ قلت اذن أيها السادة اننى أدرك حق الادراك الفرق بين موقفى وموقفكم ... ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهنكم بأن الله نفسه يمكن أن تربيكه أسئلة من هذا النوع : كم خطوة مشيت ، فى أى لحظة رفعت قدمك اليسرى ، فى أية لحظة أنزلت قدمك اليمنى ، على أى شئ سرت ؟ اذا أخذتم تلفون على مثل هذه الأسئلة ، فسأرتبك أخيراً ، وستسجلون الخطأ الذى سأتبع فيه ، وسينشأ عن ذلك أن لا تصل الى شئ . وما دمت قد بدأت ببعض الكذب ، فلا بأس أن أستمع فى الكذب ، وستفرون لى كذبنى ، لأنكم أناس مهذبون متقنون ثقافة عالية . أحب فى الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية فى الاستجواب ، أعنى البدء بالقاء أسئلة تافهة : كيف نهضت من نومك هذا الصباح ؟ ماذا أكلت ؟ أين بصقت ؟ ثم المبادرة ، بعد « تنويم يقظة المجرم » على هذا النحو ، الى مباغتته فجأة بهذا السؤال : « أين قتلت القتل وسلبت ماله ؟ » ها ها ! ذلكم هو روتينكم ، ذلكم هو علمكم كله ، تلكم هى الحيلة الكبرى فى أسلوبكم ! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر ، ولكن ذلك لا ينطلى على أنا ! أنا نفسى خير فى هذه الشئون ، لقد عملت أنا أيضاً فى هذا المجال ... ها ها ها ! لا تزعلوا يا سادتى ، واغفروا لى هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر اليهما ببراعة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذى يتكلم بهذه الطريقة ، فان التسامح والتساهل ممكن ، لأن ما لا يمكن غفرانه اذا هو صدر عن رجل ذكى ، يجب أن لا يكثر به حين يكون ميتكا هو الذى يقوله ! ها ها ! ...

كان يقولان بارفينوفتش يضحك أيضاً وهو يصفى الى ميتا ، ولكنه كان يلاحظه بالجاح ، ولا يحول عنه بصره النافذ ، ويحاول أن يسجل

كل كلمة من كلماته بل وأيسر حركة من حركاته ، وحتى أخف الاختلاجات فى عضلات وجهه •

قال القاضى وهو ما يزال يضحك :

- يجب أن تصفنا هذا الانصاف على الأقل ، فمتعرف بأنا لم نستعمل معك هذا الأسلوب • اتنا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من نومك فى الصباح وماذا أكلت ، وانما واجهنا الأمر الأساسى دفعة واحدة ، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضا •

- اننى أفهم هذا وأقدره حق قدره • وأقدر كذلك ما أظهرتموه نحوى من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم • اتنا جميعا ، نحن الثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر • فليجر كل شىء بيننا كما ينبغي أن تجرى الأمور بين أصحاب شىء بعضهم ببعض ، وتربطهم روابط النبالة والشرف ! اسمحوا لى على كل حال أن أعبدكم أصدقاء فى هذه الدقيقة من حياتى ، فى هذه الساعة التى يذل فيها شرفى أكبر الازلال ! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتى !

قال نيقولا بارفينوفتش مؤيدا :

- بالعكس ! لقد عبرت أحسن تعبير ، ووجدت أنسب الكلمات ! صاح ميتيا يقول بحماسة :

- أما التفاصيل ، أما تلك التفاصيل الزخرفية السخيفة كلها ، فلندعها وشأنها ، والا لم تعلم الى أين يمكن أن ينتهى هذا كله ، أليس ذلك صحيحا يا سادتى ؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة :

- أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة ، ولكننى

لن أستطيع مع ذلك أن أعيد عن سؤالى • فانه لعل جانب عظيم من خطورة الشأن. فى نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله الى هذا المبلغ ، أعنى الى الثلاثة آلاف روبل •

- لماذا احتجت الى ذلك المبلغ ؟ احتجت اليه لأسباب عدة •••
الخلاصة : لأردّ ديناً على •

- ديناً لمن ؟

- ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة ! أرفض أن أقوله لكم لأننى لا أستطيع أن أقوله لكم ، لا عن خوف من أى شىء ، بل لأن الأمر فى الواقع هو من السفساف التى لا قيمة لها البتة • ولئن صمتُ عنه مع ذلك ، فلأن القضية قضية مبدأ : ان هذا السؤال يمس حياتى الخاصة ، ولن أسمع لكم بالتدخل فى حياتى الخاصة • لا ••• هنا لا تسامح ولا تنازل ! ان ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية ، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتى الخاصة ! لقد أردت أن أردّ ديناً هو دين شرف ، ولكننى لن أذكر لكم اسم الشخص الذى كنت أريد أن أردّ له هذا الدين •

قال وكيل النيابة :

- اسمح لنا بتسجيل تصريحك •

- سجلوا ما شئتم ! اكتبوا أننى لن أجيب عن هذا السؤال بحال من الأحوال ! اكتبوا أن فى الاجابة عن هذا السؤال اخلاقاً بشرفى ! ليس الوقت هو ما يوزكم فيما يبدو !

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت قاسياً رصيناً على حين فجأة :

- أعتقد أن من واجبي أن أنبهك أيها السيد ، إذا كنت تجهل ذلك ، أن من حقل طبعاً أن لا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك ، وأنت لا تملك أن تجبرك على الإجابة إذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفى هذه النقطة أو تلك من النقاط . ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك الى الأذى الذى يمكن أن تلحقه بنفسك إذا أنت رفضت الادلاء بالمعلومات المطلوبة .

دمدم ميتا يقول وقد اضطرب من اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة :

- ولكننى يا سادتى لم أغضب .. أنا .. أنها .. ان سامسونوف ذاك الذى ذهب اليه حينذاك .. يا سادتى ..

لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التي ذكرها ميتا ، فإن القارئ يعرفها. لقد أراد ميتا أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً ، وكان من جهة أخرى يستعمل إنجاز هذا العرض . لذلك كان يتكلم متسرعاً . غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شيء ، فكان هذا يضطره الى التوقف دائماً من حين الى حين ، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه ، فكان يتوقف عن الكلام وهو يدمدم متلمللاً ، ولكن دون أن يخرج عن طبيته وبساطته . كان يتفق له أن يصبح قائلاً فى بعض الأحيان : « أيها السادة، لو كان الله نفسه فى مكانى لضاق صدره فى هذه الظروف ! » أو « لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابى على هذا النحو ! » ، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذى كان عندئذ منطلقاً ودوداً . روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به) . وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر ، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضى التحقيق، وقد لفت انتباههما وظهر عليهما أنها اهتمتا بها اهتماماً شديداً. فكان من شأن

الحاحهما على هذه النقطة أن أخرجا ميتاً عن طوره ، لأنهما رأيا أن من الضروري تسجيل هذه الواقعة ، دليلاً جديداً على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً . ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجههم وجه ميتاً مزيداً من التجهم شيئاً بعد شيء . وبعد أن روى قصة سفره سعيّاً الى لياجافي ، وقضائه ليلةً في الكوخ الذي يملؤه الدخان ، وصف عودته الى المدينة ، وأخذ يَصوّر ، من تلقاء نفسه في هذه المرة ، دون أن يُطلب منه ذلك ، جميع تبايرج غيرته على جروشنكا . فكان القاضيان يصغيان اليه باتباه صامتين . وقد سجلنا خاصةً أنه كان قد أُنشأ منذ زمن طويل ، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش في حديقة ماريا كوندرايفنا ، وأنه كان يترصد جروشنكا من هناك ، وأن سمر دياكوف كان ينقل اليه أخباراً ويطلعه على ما يجري في منزل أبيه . هذه الظروف كلها قد سَجَلَتْ بكثير من العناية والاهتمام . وتكلم ميتاً عن غيرته بافاضة وانفعال . فانه رغم الحرج النفسي الذي شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه تمريةً تسمى الى شرفه أمام الناس ، قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصاً منه على أن يقول الحقيقة صادقاً . غير أن النظرات القاسية الباردة التي كان يصيها عليه قاضي التحقيق ووكيل النيابة محدّقين اليه متفريسين فيه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر . قال في سرّه حزناً : « ان هذا الصبي الغر يقولون بارفينوفتش الذي بادلت منذ مدة أحاديث تافهة غثة عن النساء ، وان وكيل النيابة هذا المريض النفس ، لا يستحقان أن يسمعا ما أقضي اليهما به من اعترافات نفسي . يا للعار ! » ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذي يقول : « قلبي اعتصم بالصبر والأذعان » . وتابع يروي قصته مجاهداً متجلداً . فلما وصل من حديثه الى الكلام على زيارته للسيدة هوخلاكوفا انبسطت

أساريه من جديد وشاع فى نفسه المرح ، وأوشك أن يروى نكتة عن هذه السيدة كانت تشيع فى صالونات المدينة ، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً . لذلك استوقفه القاضى عن الكلام بلطف وكياسة ، راجياً منه أن ينتقل الى وقائع أهم . وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذى اجتاح نفسه فى الشارع ، لم يسقط من حديثه تلك الواقعة ، وهى أنه قد خطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب . أنه لم يبق له الا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ . • عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه « قد خطر بباله أن يذبح أحداً » ، وأسرعاً يسجلان ذلك • وتركهما ميتاً يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج • فلما وصل من حديثه أخيراً الى اللحظة التى علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف الى منتصف الليل ، مع أنها فى الواقع قد تركت التاجر المعجوز بعد أن ودّعها ميتاً ببضع دقائق أمام باب منزل كوزميتش ، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً :

— لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ ، فإن السبب الوحيد يا سادتى هو أنتى قد أعوزنى الوقت •

سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام • فكان ميتاً ينتظر ، عابس الوجه مكفهر الأساير ، أن يفرغ الكاتب من كتابته • وهم أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع الى حديقه أبيه ، ولكن قاضى التحقيق قاطعه فجأة ، اذ فتح محفظة أوراقه الموضوعه على الكتبة قربه ، وأخرج منها مدق الهاون النحاسى ، وسأله :

— هل تعرف هذه الأداة ؟

فقال ميتاً وهو يتسهم ابتسامة شاحبة :

- هذا ؟ آ ... نعم ... طبعاً أعرفها ! أرينها ... بل لا داعى لأن أراها ... ما فائدة ذلك ؟
- نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا •
- صحيح • كان ينبغي أن أذكر هذه الواقعة ، فلولا هذا المدق لما وقع شيء ، ولكن الأمر كان قد خرج من ذهني •
- هلاًّ ذكرت لنا الظروف التي تسلمت فيها بهذا المدق !
- بكل سرور يا سادتي •
- وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون من مطبخ فينيا عرضاً •
- ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح ؟
- ماذا كان هدفى ؟ لم يكن لى غرض ، وإنما أخذته هكذا ...
- ما هذا الكلام ؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف ؟
- غلى ميتيا حقناً • كان يتفرس فى « الفتى الغر » مبتسماً ابتسامة عداو وكره • ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزى والعار ، شيئاً بعد شيء • ، من أنه ارتضى أن يصف « لأناس مثلهم » ، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفى كله فوق ذلك ، مشاعر الغيرة التي كانت تعذبه •
- مالنا ولهذا المدق اللعين ؟
- ولكن ...
- ولكن .. ولكن .. طيب .. كنت أريد أن أدافع عن نفسى من كلاب الشارع .. فى الظلام .. احتياطاً للمفاجأة ..
- هل اعتدت ، من قبل ، حين تخرج ليلاً ، أن تسلمح خوفاً من الظلام ؟

- هوو ! حقاً انه ليستحيل الحديث معكم أيها السادة ...
 كذلك صاح يقول ميتا وقد بلغ أوج الفيط والحقق .
 ثم التفت نحو الكاتب ، فقال له بصوت فيه احتياج غريب ، وقد احمر وجهه غضباً :
- اكتب ... اكتب حالاً » اتنى أخذت المدق على نية الذهاب فوراً الى أبى فيدور بافلوفتش .. لقتله .. لتحطيم جمجمته .. »
 ثم هتف يقول مخاطباً قاضى التحقيق ووكيل النيابة ، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة :
- أأنتم راضون الآن أيها السادة ؟ هل طبتم نفساً ؟ هل اغتبطت قلوبكم ؟
 فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة :
- نرى انك قد أعطيت هذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التى تظن أنها تافهة . ولكننا مضطرون الى القاء هذه الأسئلة عليك لأنها فى الواقع هامة جداً .
- أرجوكم أيها السادة ! أخذت هذا المدق ... طيب ! ان المرء يشعر أحياناً بالحاجة الى أن يكون فى يده شئ ... الحق اتنى أجهل لماذا أخذته . لقد أخذته راكضاً ، هذا كل شئ . ألا تخجلون أيها السادة ؟ دعونا من هذا ، والا فيميناً لن أحكى شيئاً بعد الآن !
- قال ميتا ذلك ووضع كوعه على المائدة ، وجعل رأسه فى يده .
 كان جالساً الى جانب بالنسبة الى الرجلين ، وكان ينظر الى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه . وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة » ولو سيق الى الموت » .

قال فجأة وهو يجاهد فى سبيل أن لا ينفجر :

- أتعرفون أيها السادة ؟ اننى ، وأنا أصنى اليكم ، أشعر باحساس غريب ... يذكرنى هذا الاحساس بحلم ... بحلم ما ... يعاودنى فى كثير من الأحيان أثناء النوم ... أحلم أن أحداً يطاردنى فى الليل ، فى الظلام ... أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً ... انه يبحث عني ، يحاول أنا أن أختبئ منه ، أن أغيب عن بصره ... فألوذ جباناً وراء باب أو وراء خزانة ، فألظو هناك جامداً لا أتحرك ... والرجل الآخر يعرف أين أنا ، يعرف مخبئى ، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطلق عذابى ... ولتتمتع بهلى زمناً أطول ... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم فى هذه اللحظة أيها السادة ! ذلك هو بعينه تماماً !

- أترادك اذن أحلام فيها خوف وقلق ؟

- أى نعم ... ألا تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً ؟

- لا ... لن نسجله . ولكنه اشارة هامة فى الواقع . الحق انك ترى أحلاماً غريبة ...

- غير أن ما أراه الآن ليس حلماً ! انه واقع أيها السادة ، هو واقع الحياة الرهيب ! أنا ذئب وأنتم الصيادون . فهلموا وراء الذئب !

قاطعه قاضى التحقيق قائلاً له برقة ولطف :

- تخطئ أن ترى الأمور هذه الرؤية . لماذا هذا التشبيه ؟

فقال مبتاً غاضباً :

- بلى أيها السادة ! ان هذا التشبيه يصدق على الظروف الحاضر كل

الصدق !

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه ، فهذا قليلاً ، وأخذت الطيبة
تفزوه من جديد ، فتابع كلامه قائلاً :

- من حقكم أن تشكوا في مجرم أو متهم تمذبونه باستجوابكم ،
ولكن حين يكون أمامكم انسان مستقيم نبيل أيها السادة ، وحين يكلمكم
هذا الانسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه ، فما ينبغي لكم عندئذ أيها
السادة أن تشكوا في كلامه ... لا يحق لكم أن لا تصدقوه ... لا يحق
لكم ذلك حينذاك ...

... عليك بالصمت قلبي*

اصبر واذهن ، وصمتا !

ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه :

- أأستأنف سرد قصتي ؟

فأجابه يقولون بارتينوفتش :

- طبعاً ! لقد هممت أن أرجوك أن تفعل •

المحنة الثالثة



مبتيا سرد قصته بصوت كالح ، ولكنه يحاول
لأن ، أكثر مما كان يحاول قبل ذلك ، أن
لا يشقط أى واقعة من الوقائع التفصيلية • روى
كيف وثب فوق السور ليدخل الى حديقة أبيه ،
ووصف مشيته الصامتة للاقترب من النافذة ، وعرض عرضا دقيقا ماجرى
أثناء اللحظات التي ظل فيها متربعا مراقبا وراء الشجيرات ، وصور
تصويرا واضحا - وهو يفصل كلماته - المواطن التي هزت نفسه حين
كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا • ولكنه استغرب
أن يرى أن وكيل النيابة وقاضى التحقيق يصفيان اليه فى هذه المرة وقد
ظهرت فى وجهيهما قسوة ، واصطنعا الجد والكلفة ، أصبحا لا يسألانه
عن شئ • كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران
فيه • قال فى نفسه : « لا شك أنهما غاضبان مستاءان ؟ فليكن ما يكون ! » •
حتى اذا وصل من حديثه الى « الإشارة » التي قرر أن يستعملها حتى
يظن أبوه أن جروشنكا وصلت فيفتح النافذة ، لا حظ أن قاضى
التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أى انتباه ، فكأنهما لا يدركان
خطورته ولا يفهمان ما هى تلك « الإشارة » التي يتحدث عنها ، فاستغرب
مبتيا ذلك أشد الاستغراب • فلما وصل أخيرا الى اللحظة التي رأى فيها

أباه يميل من على النافذة ، فشمس بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه ، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تمعد ذلك ، وأخذ يحدق الى الجدار ، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه باتباه شديد • قال وكيل النيابة :

- هيه ، أخرجت السلاح من جيبك ••• ثم ••• ثم ••• ماذا حدث بعد ذلك ؟

- بعد ذلك ؟ قتلته ••• ضربته على صدغه وكسرت جمجمته ••• هذا ما حدث فى زعمك ، أليس كذلك ؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً • لقد تأجج الغضب فى نفسه من جديد ، بغف متزايد •

قال يقولون بارفينوفتش :

- ذلك فى زعمنا نحن • طيب • فماذا فى زعمك أنت ؟

خفض ميتيا عينيه • وخيم صمت طويل •

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادئ :

- فى زعمى أنا ، اليكم ما حدث أيها السادة • لا أدري أبتهلت أمى الى الله فى تلك اللحظة ، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لابعاد الشر ، أم أمسكنى من يدى ملاك لا يرى ؟ المهم أن الشيطان قد غلب • ابتعدت عن النافذة ، وركضت متجهاً نحو السور ••• دعر أبى ، وعرفنى فجأة ، وأطلق صرخته ، وغاب عن النافذة ••• أتذكر هذا تذكراً واضحاً • اجتزت الحديقة ، وأسرعت أبلغ السور ، وفى تلك اللحظة انما ظهر جريجورى الذى أدركنى حين كنت قد جثمت على السور • قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه • فلاح له أنهما كانا

ينظران اليه بغير اكرات • قالت به رعدة من غضب • وقال لهما :

- ألاحظ يا سادتي أنكم تسخرون مني !

فسأله يقولان بارفينوفتش :

- ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك ؟

- انكم لا تصدقون كلمة واحدة مما أقول ، أنا أدرك هذا • أوه !
فهمت : لقد وصلت الى عقدة القضية • المعجوز يرقد الآن جثة هامة
محطم الجمجمة ، وأنا ، بعد أن وصفت لكم وصفا فاجعا كيف أردت أن
أقتله ، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبي لهذا الغرض ، أصرّح
لكم فجأة بأنني لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة ! ... هذه قصيدة
حقا ، أليس كذلك ؟ كان ينبغي أن يقال هذا الكلام كله شعرا ! كيف
يمكن أن يُصدّق رجل مثلي ؟ آه ... ألا أنكم لتعرفون كيف
تسخرون وتضحكون دون أن يظهر عليكم ذلك •

قال ميتيا هذا الكلام ، واستدار ثقيلًا على كرسيه ففرقع الكرسي •

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكرات باضطراب
ميتيا :

- هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفتوح الى
الحديقة في الطرف الآخر من المبنى مفتوحا أم كان مغلقا ؟
- كان مغلقا •

- مغلقا ؟ أنت متأكد ؟

- كل التأكيد • كان ذلك الباب مغلقاً • ثم انه ما كان لأحد أن
يستطيع فتحه • هذا • هذا الباب • لحظة ! (كذلك صاح ميتيا يقول

مرتبشاً ، كأن فكرةً قد ومضت في ذهنه فجأة) • أملككم وجدتم ذلك الباب مفتوحاً ؟

– نعم ، كان مفتوحاً •

– فمن عسى يفتحه ان لم تفتحوه أتم أيها السادة •

كذلك قال ميتا مندهشاً كل الاندهاش •

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء ، مقطعا كلماته :

– كان الباب مفتوحاً ، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى اذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضاً • تلك نقطة ندها مفروغاً منها • فمما لا يخالجن فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته في الغرفة لا من خلال النافذة • ان هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه ، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى • لم يبق أى شك من هذه الناحية •

عبر وجه ميتا عن دهشة عميقة • وصاح يقول زائغ الوجه :

– ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة • أنا ... أنا لم أدخل البيت ! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقاً أثناء وجودى في الحديقة ، وأنه كان مغلقاً أيضاً حين هربت • انتى لم أتحرّك من مخبئى ؛ ومن النافذة وحدها انما رأيت ... من النافذة وحدها ... انتى أتذكر جميع التفاصيل • وهبنى لا أتذكرها ، فانتى على يقين من أن الباب كان مغلقاً ، لأن أحداً لم يكن يعرف « الاشارات » الا أنا وسمردياكوف ، والتسوفى طبعاً ؛ وبدون الاشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب •

– الاشارات ؟ عن أى اشارات تتكلم ؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم آفقه وضع الرصانة

والوقار في لحظة • كان في نبرة سؤاله شيء من مذلة ، شيء من ضراعة ، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها ، وهو يخشى أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها •

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويتسم ابتسامة مأكرة :

- آ ••• أنت لا تعلم ؟ فما رأيك اذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الاشارات ؟ من عسى يطلعك على ذلك في هذه الحالة ؟ ذلك أن هذه الاشارات لا يعرفها أحد الا أنا وسمردياكوف والمتوفى • ان أحداً لم يُطْلَع على السر ، فليس يعرفه ، عدنا ، الا الله ••• ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر ؛ وهو أمر هام الى أبعد الحدود ، لا يعرف الا الشيطان جميع النتائج التي يسمح بالوصول اليها • ها ها ها ، مغاوتكم حقاً ! انكم لا تعرفون الانسان الذي تخاطبونه • ان أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التي تشهد عليه ! آ ••• نعم يا سادتي ! ذلك أنني أنا فارس شرف ، ولكنني لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أتم !

بلع وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة برفق ولطف ، لأنه كان يحترق رغبة في معرفة الواقعة الجديدة • تكلم ميتيا بافاضة ودقة عن كل ما يتصل بالاشارات التي تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال سر دياكوف ، وأوضح معنى كل طريقته من تلك الطرق المختلفة في قرع النافذة ، ومثلها هو نفسه بالضرب على المائدة • فسأله يقولان بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالاشارة المتفق عليها لينبئ فيدور بافلوفتش بأن « جروشكا وصلت » ، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لاعلان وصول السيدة الشابة • وختم ميتيا كلامه قائلاً :

- فهأتّم أولاء اطلعتن على الأمر • هلموا اجمعوا القرائن فوق القرائن ، وتابوا استدلالكم واستخرجوا نتائجكم •

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار •
سأله يقولان بارفينوفتش مرة أخرى :

- أنت تؤكد اذن أنه لم يكن أحد غيركم ، أنت وأبوك والخادم
سمر دياكوف ، يعرف هذه الاشارات ، أليس كذلك ؟ ألم يطلع عليها
أحد غيركم البتة ؟

- لم يطلع عليها أحد غيرنا ، أنا وسمر دياكوف والله • لا تنسوا
أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر • قد يكون العون الالهى ضرورياً
لكم أنتم أيضاً فى هذه القضية •

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل • ولكن بينما كان الكاتب
يكتب ، قال وكيل النيابة فجأة كأن قراضا جديدا قد ومض فى ذهنه على
حين بفتة :

- ولكن اذا كان سمر دياكوف يعرف هذه الاشارات هو أيضا ،
واذا كنت تتكبر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك ، أفلا يمكن
أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الاشارة المتفق عليها ، فاستدرج أباك
الى فتح الباب ، ثم ... ارتكب الجريمة ؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف فى آن واحد؛
وظل يحدث الى مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، حتى أن
عيني وكيل النيابة أخذتا تطرفان • ثم انفجر ميتيا يسأله أخيرا :

- أتريد أن تقبض على الثعلب من جديد بهذا السؤال المفردى ؟
ولكن الثعلب قد هرب •• هاهاها •• لقد أدركت لمبتك يا وكيل
النيابة ! خيّل اليك أتنى سأب على هذا « الطعم » الذى تمدد الى ،
وأتنى سأبني هذا التعليل الجميل الذى توحى به ، أليس كذلك ؟ لاشك
أنك كنت تتوقع أن أصبح ملء حنجرتي قائلا : « نعم نعم ، هو

سمردياكوف ؟ سمردياكوف هو القاتل ؟ ، اعترف " بأن هذه هي فكرتك الخفية ، اعترف بذلك ، فأتابع قصتي .

ولكن وكيل النيابة لم يعترف ، بل ظل ينتظر صامتا . قال ميتيا :
- خطأ ! لن أتهم سمردياكوف .
- لا ولا يساورك أى شك فيه ؟
- وأنت هل يساورك هذا الشك ؟ هل تشبه فيه ؟

- لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضا .

أطرق ميتيا الى الأرض . ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة :

- كفى مزاحاً . واليك ما أريد أن أقوله لكم اذا شئتم الجدل لا الهزل . اتى منذ البداية ، وفى اللحظة التى أزعجت فيها الستائر متقدما نحوكم ، فى تلك اللحظة تقريبا ، ومضت فى ذهنى هذه الفكرة " أياكون هو سمردياكوف ؟ ... ، . ثم ، حين جلست أمامكم ، وبينما كنت أصيح قائلاً اننى لم أسفح دم أبى ، كنت أقدر فى قرارة نفسى أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، ولم يبارح هذا الافتراض ذهنى بعد ذلك . وفى هذه الدقيقة نفسها ، بينما كنت تلقى على هذا السؤال ، قلت لنفسى مرة أخرى : " انه سمردياكوف ! " ، ولكننى سرعان ما انتهيت الى هذه النتيجة قائلاً فى سرى : " لا ... ليس هو سمردياكوف ! " . ليست هذه الجريمة من صنعه .

سأل نيقولا بارفينوفتش محاذرا :

- هل تشبه اذن فى شخص آخر ؟

فقال ميتيا جازما :

- لا أدرى من عسى يكون القاتل ، اللهم الا أن يكون الله أو أن

يكون الشيطان هو الذى تدخل فى الأمر ... ولكن لا يمكن أن يكون
سمردياكوف هو القاتل .

- ما الذى يدفمك الى أن تؤكد جازماً هذا الجزم ، ملحاً هذا

اللاح ، أن القاتل ليس سمردياكوف ؟

- هو اقتناع داخلى يستند الى احساسات كثيرة . اننى أعتقد أنه
ليس القاتل ، لأنه انسان ذو طبيعة حقيرة جدا ، ولأنه رعديد فوق كل
شيء . ليس سمردياكوف رجلاً جباناً بل هو جميع أنواع الجبن فى هذا
العالم قد تجسدت كائناً حياً يسمى ؛ ان هذا الانسان هو الخوف نفسه
متجسداً أيها السادة . لقد ولد هذا الرجل فى خم ! كان ، كلما كلمته ،
يرتجف خوفاً من أن أقتله ، مع أننى لم أكن أرفع يدى عليه . كان
يرتمى على قدمى باكيةً ويقبل حذامى ضارعاً الى أن لا أخيفه . هل
تسمعون ؟ أن لا أخيفه ! ، ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ومع ذلك كنت لطيفاً
معه على الدوام ، وكنت أهدى اليه الهدايا . هذا فرخ مريض مصاب
بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل فى الثامنة من عمره . أهذا
رجل ؟ لا يا سادتى ، ليس لسمردياكوف ضلع فى هذا الأمر . ثم انه
لا يحب المال ، ولقد كان يرفض المكافآت التى كنت أريد أن أهياها له .
وما عسى يكون الباعث له على قتل المعجوز ؟ ربما كان سمردياكوف ابن
المعجوز ، ابنه غير الشرعى ، هل تعرفون هذا ؟

- نعرف هذه الشائعة . ولكنك أنت أيضاً ابن فيدور بافلوفتش ،
ثم لم يملك ذلك من أن تعلن فى كل مكان أنك تنوى قتله .

- وهذا حجر آخر فى حديقتى ! انه لصغار وحطة منكم أن تأخذوا
على هذا ! هيّا أيها السادة ، أنا لا أخشى غمزاتكم ولمزاتكم ! ولكن
ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لآلها أن ترموا وجهى بما أسررت به
اليكم أنا نفسى ؟ هيه ... طيب ... أنا لم أشأ أن أقتله فحسب ، بل

كان فى وسعى أن أفصل ، وقد اتهمت نفسى أمامكم بأننى أوشكت أن أصرعه ذات يوم • غير أننى لم أقتله ، فان ملاكى الحارس قد حمانى من ارتكاب هذه الجريمة ••• ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزنا لهذا الكلام • ذلك هو الشر فى موقفكم ، ذلك هو فى موقفكم ما يستحق الاحترار ! اننى لم أقتله ، اننى لم أقتله ، لا ، لم أقتله ، هل تسمع يا وكيل النيابة • أنا لم أقتله !

كان ميتا يوشك أن يختنق • انه لم يضطرب هذا الاضطراب الشديد كله فى أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب • وسأل بعد صمت :
- فما الذى قاله لكم صاحبنا سمردياكوف ؟ هل يجوز لى أن أسألكم عن هذا ؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلمهجة قاسية جافة :

- من حقت أن تلقى علينا ما نشاء من أسئلة • اننى أسمع لجميع الأسئلة التى تتصل بالظروف المادية للقضية • أعود فأقول لك ان من واجبنا أن نطلمك على جميع النقاط التى قد تثيرها • لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذى سألت عنه الآن رافداً على سريريه مغشى عليه يعانى من نوبة صرع شديدة ، هى النسوبة العاشرة فيما أظن ، لأن الثوبات تتلاحق بلا انقطاع ، حتى لقد صرَّح الطبيب الذى رافقنا صرَّح ، بعد أن فحصه ، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة •
- فالشيطان هو الذى قتل أبى اذن !

بهذا هتف ميتا ، كأنه لا يزال يتسامل حتى تلك اللحظة : « أهو سمردياكوف أم لا ؟ » •

قال يقولان بارفينوفتش حاسماً المناقشة :

- سنعود الى هذه المسألة فيما بعد • هل يمكننى أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع ؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات ، فوافق وكيل النيابة على ذلك بلطف وكياسة . وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير ، ولكن كان واضحاً أنه أصبح خائر القوى ، وأن الاستجواب قد أزهقه ، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة . ثم ان وكيل النيابة كان يبدو أنه يعتمد الآن أن يثير أعصابه بتصديمه فى كل لحظة بأسئلة تتناول أموراً تافهة لا قيمة لها . من ذلك مثلاً أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجورى الذى تثبت بساقه اليسرى وكيف سارع يثب الى الحديدية بعد ذلك ويميل على الضحية ، حتى استوفقه وكيل النيابة راجياً منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور . فدهش ميتيا من هذا الالاحاح ، وقال يجيبه :

- جلست .. هكذا .. راكبا .. كركوبى على حصان ... فى كل جهة ساق .

- ومدق الهاون ؟

- مدق الهاون ؟ كنت أمسكه بيدي .

- لا فى جييك ؟ هل تذكر هذا تذكرآ تاماً ؟ هل اندفعت اندفاعاً قوية لتضربه ؟

- لا بد ... ما دمت قد ضربت ضربة قوية . لماذا هذا السؤال ؟

- هل لك أن تجلس على هذا الكرسي بالطريقة التى جلست بها على السور ، وأن تقلد الحركة التى قمت بها ، والاندفاع التى اندفعت بها بذراعتك ، والجهة التى سددت اليها الضربة ، زيادةً فى الايضاح ؟

سأل ميتيا محدثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة :

- أتراك تسخر منى ؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه . فاستدار ميتيا فوق كرسيه

بحركة عصبية ، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان ، ورفع ذراعيه ،
وقال :

- انظروا كيف ضربته ، انظروا كيف قتله ! أنتم راضون الآن ؟
ماذا تريدون أيضا ؟

- شكراً . هلاً شرحنا لنا ، لأن لماذا وثبت بعد ذلك الى الحديقة ،
وماذا كان هدفك من هذا ؟ ما هو الدافع الذى خضعت له حين تلبثت هذا
التلبث قرب ضحيتك ؟

- عجيب ... هل أعرف لماذا ؟ ملت عليه وكفى ، لست أعرف
السبب الذى دفعنى الى ذلك .
- لقد قفلت راجعاً الى الحديقة مع انك كنت تعاني انفعالا شديدا
وكنت تريد أن تهرب . فهلاً شرحنا لنا هذا ؟

- نعم ، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب .
- فهل كان فى نيتك أن تسعفه ؟
- لا ... على كل حال ، لا أدري . لعلى أشفقت عليه ، لا أتذكر
الآن .

- لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل ؟
- بل كنت واعيا كل الوعى ، وانى لأتذكر أيسر التفاصيل . دعونا
من ذلك الكلام ! لقد أردت أن أرى الحالة التى كان عليها ، وأن أسمح
دعه بمتبدلى .

- عثرنا على المتبدل . هل كنت تأمل اتخاذ حياة الانسان الذى
صرعته ؟

- لا أدري هل كنت آمل ذلك . لقد أردت ، بكل بساطة ، أن
أعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟

- ها ؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟ فماذا وجدت عندئذ ؟

- لم أستطع التأكد ، لأننى لست طبيياً . ثم هربت معتقداً أننى قتله . وها هو ذا صفاً من اغمائه ...
قال وكيل النيابة أخيراً :

- عظيم . شكرآ . ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه . هلاً تفضلت فتابع سرد الوقائع ؟

وا أسفاه ! لم يخطر ببال ميتيا - رغم أنه يتذكر تذكراً واضحاً - أن يذكر أنه انما وثب الى الحديقة بدافع الشفقة ، وأنه حين مال على المعجوز جريجورى قد نطق بكلمات تمبر عن الشفقة على ذلك المعجوز الذى ألمه أن يراه مجندلاً فى هذا المكان . ان كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور « فى لحظة كتلك اللحظة ، رغم الاضطراب الشديد الذى كان يعاينه » ، دون أن يكون له من هدف الا أن يعرف هل الشاهد « الوحيد » على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات . وحدث وكيل النيابة نفسه قائلاً : « ان هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل » ، ثم أضاف يقول لنفسه : « وأخيراً ! لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه السفاسف ، فإذا هو يفضح نفسه . . »

وتابع ميتيا سرد قصته فى غناء ومشقة ، ولكن يقولوا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد . سأله :

- كيف ذهبت الى الخادمة فيندوسا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك ، كما ثبت ذلك فيما بعد ؟

- لم ألاحظ عندئذ أننى كنت مضرجا بالدم .
قال وكيل النيابة وهو ينظر الى قاضى التحقيق :

- انه يقول الحقيقة الآن ، فذلك ما يحدث عامة فى مثل هذه الحالة .

فقال ميخا مؤيدا كلامه بحرارة :

- لم ألاحظ ذلك عندئذ ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة !

بقى عليه أن يروى كيف قرر فجأة أن « يتحنى عن الطريق » ، وأن « يخلى الدرب للحسين السعدين » . ولكنه أحس أنه لا يملك الآن ، كما كان يملك فى بداية الاستجواب ، القدرة على أن يفتح قلبه ، وأن يتحدث عن « ملكة قلبه » حديثاً طلقاً حرّاً . ان شعورا بالاشمئزاز أمام هذين الانسانين القاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما ، بل يفرسانها فى لحمه غرساً كحشرات تمص دمه ، أقول ان شعورا بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق فى الكلام . فاقصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة .

- نعم قررت أن أنتحر . لم يبق ثمة ما يربطنى بالحياة ويشدنى اليها ، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه . ان صديقها القديم الشرعى الذى هجرها فى الماضى قد عاد اليها بعد خمس سنين ممتلئ القلب حباً ، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها ، ويزيل عنها الأذى الذى ألحقه بها . أدركت عندئذ أن كل شيء قد انتهى وعدا هذا كان يلاحقنى ذلك العار ، وكان ورائى دم جريجورى هذا فقيم الحياة بعد ذلك كله ؟ هكذا ذهبت الى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين ، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق فى رأسى رصاصة منذ الفجر وبانتظار ذلك ، قررت أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال

الليل ؟

- نعم نعم ، قررت ذلك ! هلاًّ اتهمنا من هذا أيها السادة ! لقد

عزمت عزماً أكيدا على أن أتحر هناك ، فى أقصى هذه القرية ، وكان ينبغي أن أنفذ عزمى هذا فى الساعة الخامسة من الصباح . وقد هأت كلمة أنشرح فيها السبب ، كلمة كنتم ستجدونها فى جيبى . لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسى . اليكم الورقة التى كتبت عليها تلك الكلمة ، اقرأوها ان شئتم .

وأضاف يقول فجأةً باحتقار :

- ولست أروى هذا كله من أجلكم أنتم .

ثم سلَّ من جيبه ورقة ورمأها على المائدة . قرأ وكيل النيابة وقاضى التحقيق الورقة باستطلاع شديد ، وضمَّأها الى الملف وفقاً للأصول .

- ألم يخطر ببالك أن تفصل يديك قبل أن تذهب الى السيد برخوتين ؟ ألم تكن تخشى اذن أن توقف شبهات وشكوكاً ؟
- شبهات وشكوكا ؟ ماذا يهمنى هذا ؟ كنت سأجىء الى هذا المكان لأطلق على رأسى رصاصة فى الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تحم حولى شبهة ارتكاب جريمة . وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم . فلولا المصيبة التى حلت بأبى ، لما عرفتم شيئاً ولما وُجِدتُم الآن هنا . ذلك من صنع الشيطان ، هل تعلمون ؟ ان الشيطان هو الذى قتل أبى وتولى مهمة ابلاغكم بهذه السرعة ! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا الى هنا بعد وقوع الجريمة بزمان قصير هذا القصر ؟ ذلك أمر لا يصدق !

- ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيدك .. بيدك الداميتين .. أوراقا مالية .. مبلغا ضخما .. حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبل ؟ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضا .

- صحيح . فعلا . أظن أنني أتذكر هذا .

قال نيقولا بارفينوفتش بصوت رقيق جداً :
- هنا ينتق سؤال صغير • ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك
هذا المال ، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى
للمرور بمنزلك ؟

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقي دفعةً
واحدة بهذه الطريقة المفاجئة ، ولكنه لم يقاطع قاضي التحقيق •

أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر ، ولكن مطرقاً الى الأرض :
- لم أمر بيتي فعلاً !

فعاد نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامر :
- فاسمح لي اذن أن أكرر سؤالى : من أين جئت بهذا المبلغ مادام
ينتج من تصرفاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر كنت ...
ولكن ميتيا قاطعه بعصية قائلاً :

- فى الساعة الخامسة ؟ كنت فى حاجة ملحة الى عشرة روبلات ،
فذهبت الى السيدة هوخلاكوفا لأقرض
منها ثلاثة آلاف روبل ، فرفضت أن تقرضنى ، وهلم جرا ... أعرف
القصة (كذلك أضاف ميتيا يقول بلهجة هجومية) • كنت لا أملك قرشاً
واحداً ، أليس كذلك أيها السادة ، ثم اذا بى أملك ألوف الروبلات على
حين فجأة ، هه ؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفاً من أن أرفض
أن أذكر لكم مصدر هذا المال ، أليس كذلك ؟ طيب ... أنا أرفض ،
نعم أرفض أن أشير لكم الى مصدر المال • لقد حذرتم • لن أتكلّم ، ولن
تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة •

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة •

وساد صمت •

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق واذعان:

• - اعلّم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال

- أدرك ذلك ، ولكننى مع هذا لن أقول لكم شيئاً .

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً ، فذكر مبيتاً مرة أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه اذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى عليه ، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى ، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الخطورة ...

فقاطعہ میتیا قائلان بفظاظۃ :

- وعلمَ جراً أيها السادة ، وهلمَّ جراً ! كفى ! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المأداة المكرورة ! ثم انتي أدرك أنا نفسي خطورة هذا السؤال الذي تلقونه علىَّ ، وأعلم أنه النقطة الرئيسية في القضية ، ولكنني مع ذلك لن أتكلم .

فقال نيقولا بارفينوفتش بلهجة عصية :

- هي مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاهم حالتك ما دمت حريصا على ذلك !

رفع میتیا عینیه ، ونظر الیہما بصلابة وثبات قائلاً :

- اسمعوا أيها السادة • سأكون صريحا • لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة • ولكن حين بدأت قصتي هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لي في مكان بعيد غامم ، كأنه غارق في الضباب ، حتى لقد بلغت من السذاجة في تلك اللحظة انني اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة • وانني لأدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة ، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أو آجلاً ... وها نحن أولاء نصطدم به ... فمن المستحيل أن نستمر •

هذا كل شيء . ولست ألوكم على كل حال ، فانتى أفهم حق الفهم أنكم ليس فى وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف .
قال ميتيا ذلك وصمت مظلم الوجه .

- ألا تستطيع على الأقل ، دون أن تترشحزح عمّا عزمت عليه من صمت حول النقطة الأساسية ، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو بإشارة يسيرة البواعث القوية التى أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا فى ساعة خطيرة وخطرة لى هذا الحد بالنسبة اليك ؟

ابتسم ميتيا حزينا واجما مفكرا .
- أنا خير مما تصورون أيها السادة ، سأشرح لكم هذه البواعث، سأذكر لكم ما تطلبونه ، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيرا ! انتى أرفض أن أتكلّم لأنّى أخشى العار . ان الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة الىّ على دناة اذا قيست بها جريمة قتل أبى وسلبه المال بدت أمرا هينا يسيرا ، حتى ولو كنت أنا المجرم . ذلكم هو سبب اضطرارى الى الصمت . ان الشعور بالعار يخفقنى . ماذا تفعلون أيها السادة ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضا ؟

تمتم يقولون بارفينوفتش يقول :

- نعم سنسجلها .

- ما ينبغى لكم أن تسجلوا ما قلته عن « الدناة » . لقد فتحت لكم قلبى من قبيل المجارة . كان يمكننى أن أمنع عنكم هذا الايضاح . لقد قدمت اليكم هذا الايضاح بغير داع الى ذلك ، فهل تسارعون الى تسجيله أيضا ؟ لكن أيها السادة ! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا ، أنا لا أخشاكم ، ولن أطاقىء رأى أمامكم .

بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً .

دمدم نيقولا بارفينوفتش يسأله :

- هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدنائة التى تمنىها ؟

- انتهى ! لا تلحوا ! اننى اذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسى بما فيه الكفاية ، فعلام أدنس نفسى مزيداً من الدنس ؟ ... كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة •

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً ؛ فاعتقد نيقولا بارفينوفتش أنه لا جدوى من الالحاح ، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيوليت كيريلوفتش أن هذا لم يئأس بعد •

- قل لنا على الأقل مقدار المال الذى كان بيدك حين وصلت الى السيد برخوتين • كم روبلاً كان المبلغ ؟
- لا أستطيع أن أقول •

- ألم تحدث الى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك أقرضتها من السيدة هوخلاكوفا ؟
- ربما ذكرت له شيئاً من هذا القيل • كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة •

- أوضح لنا اذن كيف جئت الى هنا ، وماذا فعلت منذ وصولك الى موكرويه !

- ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتهم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا • على كل حال ، لا أرى بأساً فى أن أروى لكم هذا •

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التى يعرف القارىء جميع تفاصيلها • وكان يتكلم هذه المرة فى جفاف ، مقتصرأ على اشارات مقتضبة ، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة • ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب « ظروف جديدة » • ولم يتحدث عن حالته

النفسية ، بل اقتصر على الوقائع المادية وحدها • ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك ، فلقد كان واضحاً في نظر وكيل النيابة وقاضى التحقيق أن الأمر الأساسى ليس هنا •

قال نيقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب :

- ستحقق من صدق أقوالك ، وسنعود إليها حين نسمع أقوال الشهود ، بحضورك طبعاً • أحب أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التى مئك ، ولا سيما الأموال ••• جميع المبالغ التى هى فى حوزتك الآن •

المال أيها السادة ؟ طيب ، طيب ••• أنا أفهم أن هذا لا بد منه ، بل انتى لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن • وما كان لى أن أتهرب طبعاً ، ما دمتم تراقبوتنى • اليكم المال • عدّوه • خذوا • أحسب أن هذا كل شىء •••

أفرغ ميتيا جيوبه افراغاً كاملاً ، وأخرج حتى النقود الصغيرة ، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبيكات ، أخرجها من جيب صديرتة • وجُمعت الأموال ، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبكاً •

سأله القاضى :

- أهذا كل شىء ؟

- نعم •

- لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل ، أثناء سرد الوقائع ، أن نمن ما اشتريته من متجر آل بولتيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل ، فاذا أضعنا إليها العشرة روبلات التى رددتها الى برخوتين ، والعشرين روبلاً التى أعطيتها الخوذى ، والمائتى روبل التى خسرتها فى اللعب بالورق أثناء الليل ، ثم •••

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع تفصيلاً ، وكان ميتيا يساعده راضياً ، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات ، وحسب نيقولا بارفينوفتش الحاصل ، فقال :

- فاذا حسبنا الثمانمائة روبل التى بقيت لك ، كانضى هذا انك كنت تملك ألف وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟

- ممكن

- فكيف يُجمع الشهود اذن على أن المبلغ أكبر من ذلك .
- لهم أن يقولوا ما يشاءون .
- لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا .
- لملنى أكدت ذلك .

- ستمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين .
أما المال فلا تخش عليه . سنحتفظ به فى مكان مأمون ، وسيُردُّ اليك فى نهاية ... هذا التحقيق ... اذا ظهر عندئذ أو قل اذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك ...

قال نيقولا بارفينوفتش هذا ، ونهض فجأة ، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه « مضطراً » الى أن « يقتس ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً » .

- افعلوا أيها السادة . سأقلب جيوبى ان شئتم .
- وأخذ يقلب جيوبه .

- لا هكذا . لا بد من أن تخلع ملابسك .

- ماذا ؟ أخلع ثيابى ؟ عجيب ... ألا يكون ثبش جيوبى أسهل

من ذلك ؟

- بل لا بد من خلع ثيابك يا دمتري فيدوروفتش • يجب أن تخلع
ثيابك •

قال ميتيا عابساً مذعناً :

- كما تشاءون • ولكن لا هنا ، بل وراء الستائر ••• أرجوكم •••
من يتولى التفتيش ؟

قال قاضي التحقيق وهو يحني رأسه موافقاً :

- طبعاً وراء الستائر •

وطاف بقسمات وجهه الدقيقة عندئذ تعبير عن وقار خاص •

وكيل النيابة يشوش ميتيا



ما حدث عندئذ لم يكن في حسابان ميتيا أبداً •
 ما كان له أن يتخيل ، قبل دقيقة واحدة ، أن من
 الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة ، هو ، دفتري
 كارامازوف ! ان في هذا « اذلالاً » له ،
 « وازدراء متعالياً » منهم ! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع الا ردتجوته !
 لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها ••• بل لم يكن هذا منهم رجاءً ، وانما
 كان في الواقع أمراً ، وقد فهم هو ذلك ، فخضع للأمر دون تذمر ،
 كبرياءً واشمئزازاً ! وقد دخل الى ما وراء الستائر ، عدا وكيل النيابة
 وقاضى التحقيق ، عددٌ من الفلاحين أيضاً ، فقال ميتيا يحدث نفسه :
 « لقد دخل هؤلاء للمساعدة في اجبارى على خلع ملابسى ، وربما لبواعت
 أخرى كذلك » •

سأل ميتيا بصوت يصطنع الحزم :

— هيه ! هل أخلع القميص أيضاً ؟

ولكن نيقولا بارفينوفتش لم ير داعياً الى الاجابة • لقد كان مشغولاً
 مع وكيل النيابة بتفتيش الردنجوت والسروال والصديرة والقبعة •
 وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما الى أقصى حد • قال ميتيا

فى نفسه : « أصبحا لا يتحرجان من شيء ، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب والدقة ! » وقال يسألهما :

- أسألكم مرة أخرى : أيجب أن أخلع القميص أم لا ؟
فأجابه يقولان بارفينوفتش قائلاً بلمهجة جافة آمرة (هذا احساس ميتا على الأقل) :

- لا تقلق ، سنقول لك ذلك فى حينه .

كان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يتبادلان الرأى بصوت خافت . ان هناك بقع دم ، غير متخثرة تخشراً كاملاً ، تظهر على الرديجوت ، ولا سيما فى الظهر وفى الحافة اليسرى . وان هناك بقع دم أخرى ترى فى السروال أيضاً . وعدا ذلك أخذ يقولان بارفينوفتش ، بحضور الفلاحين المكلفين ، يجلس الياقة وطيات الأكمام ، ويجس كذلك مختلف خياطات الثياب ، كأنه يقدر أن يكتشف فيها شيئاً ... هو المال طبعاً ... وأخطر ما فى الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك ، بحضور ميتيا ، على انهما يريدان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق فى بطانات الثياب . فجمعهم ميتيا يقول :

- اننى أعامل الآن معاملة لص ، لا معاملة ضابط .

لقد كانا يتبادلان الآراء بصوت عال وصراحة تامة دون اكترات بوجوده . من ذلك مثلاً أن الكاتب ، الذى كان كثير الحركة هو أيضاً ، قد لفت انتباهه يقولان بارفينوفتش الى القبة التى أخذ يجسها أيضاً ، قائلاً له :

- تذكروا المستخدم جريدنكا . لقد أوفد فى هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفى الدائرة ، فلما عاد صرّح بأنه فقد المال وهو فى حالة سكر . فأين وجدوا المال بعد ذلك ؟ وجدوه فى شريط قبعته ! لقد صنع

من أوراق المائة روبل لفاتٍ صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط ،
ثم خاط الشريط •

لم يكن وكيل النيابة وقاضى التحقيق قد نسيا قضية جريدنكا ،
فوضعا قبة ميتيا فى جانب وفى نيتهما أن يقتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد
من التدقيق أيضاً

ورأى يقولان بارفينوفتش قبضة الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخة
بالدم ومقلوبة ، فهتف يقول فجأة :

- هل تسمح ؟ هذا دم أيضاً أن لم يخطئ ظنى •

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع :

- نعم ، هو دم •

- دم ؟ أى دم ؟ ... ولماذا قلبت الكم ؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تطلع كنه أثناء اهتمامه بجريجورى ، قد
شممه عند برخوتين الذى غسل يديه عنده أيضاً •

قال يقولان بارفينوفتش :

- سيجب أن تنزع قميصك أيضاً ... هذا أمر هام جداً لاستكمال

المشاهدات المادية •

فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً :

- أأصبح عارياً الآن ؟

- اطمن ... سنرتب هذا • وبانتظار ذلك ، أنزع جوربك من

فضلك •

سأل ميتيا وقد سطع فى عينيه حنق :

- أأنتم تمزحون ؟ أهذا ضرورى حقاً ؟

فأجابه القاضى قائلاً بلهجة قاسية :

- ما نحن فى موقف الزاح فنمزح !

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه :

- ليكن ... ما دام هذا ضرورياً ... أنا ...

كان يشعر بخزى لا يطاق ، اذ يرى نفسه خالماً ثيابه هكذا بين
أناس يظنون مرتدين ثيابهم • شئ غريب : انه حين خلع ثيابه شعر فجأة
بأنه مجرم • كاد يسلم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمة
على حين بفته ، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه • قال يحنّ
نفسه : « حين يكون الجميع عراة فلا عار ، أما حين أكون وحدى عارياً
فذلك هو العار ! لكأننى فى حلم ! لقد سبق أن عانيت فى الحلم انحطاطات
من هذا النوع » • وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه : انهما وسخان ،
كسائر ملابس الداخلية أيضاً ، ففى وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن •
ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصابعهما بشعة ،
ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التى كان أحد أطرافها مسطحة تماماً فلا ينحنى
الا فى نهايته • سوف يراه الجميع الآن • اجتاحه الشعور بالخزى والعار ،
ففارت نفسه ، وأصبح فقطاً عن عمد • قال :

- ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم الى أبعد من هذا اذا كان الحياء
لا يصدكم ؟

- لا ، لا داعى الى ذلك الآن •

وسأل ميتيا بلهجة حاتقة :

- هل على أن أنتظر عارياً ؟

- لابد من ذلك • تفضل فاجلس هنا • فى امكانك أن تتدثر بغطاء

السرير ... وسأحاول أن أتدبر الأمر •

أظهر الفلاحون على ملابسهم ليكونوا شهوداً • حتى اذا انتهى
تحرير المحضر خرج نقولا بارفينوفتش • وأخذت الملابس ، وانصرف

وكيل النيابة أيضاً • لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوّلون عنه أبصارهم • تدثر ميتيا بالغطاء ، لأنه كان يحس ببرد شديد ، ولكنه لم يستطع أن يحمي قدميه ، لما ريتين على أى نحو تلف • وتأخر نيقولا بارفينوفتش عن العودة ، كأنه يريد « اطالة تعذيبه » •

وجمجم ميتيا يقول وهو يكرز بأسنانه :

— يحسننى صيباً ! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك ...
احتقاراً فى أغلب الظن ... واشمئزاً من رؤية رجل عار •
وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون اليه ثيابه بعد تثبيت جديد •
فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولا بارفينوفتش يعود اليه ووراء فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه •

قال له القاضى بلهجة ودود طلقة :

— اليك هذه الثياب التى حصلنا لك عليها أخيراً •

وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التى وصلت اليها مساعيه ، وتابع كلامه يقول :

— ان السيد كالجانوف هو الذى تفضل ، فى هذا الطرف الغربى ،
فقدم اليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما فى حقييته من حسن الحظ • أما ملابسك الداخلية وجورباك ففى امكانك أن تحتفظ بها •
انفجر ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد :

— لا أريد هذا الرداء الذى ليس لى • ردوا الى رداى •

— مستحيل •

— أريد رداى أنا • شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه !

ولم يمكن رده الى الصواب الا بكثير من العناء ولكنه هدأ آخر الأمر بعد أن شرحوا له ضرورة « ضمّ الثياب الى وثائق الابات » مادامت ملطخة بالدم • وقد حرص قاضى التحقيق على أن يقول له « انه لم يكن من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة ، فليس يدرى أحد ما هو المجرى الذى قد تجرى فيه القضية » • اقتنع ميتا أخيراً بهذه الحجج ، وأخذ يرتدى الثياب الجديدة ، مع محافظته على صمت متجهم عايس • واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف ان هذا الرداء آمن كثيراً من رداءه ، وانه يكره أن « يستفيد » منه ؟ وأضاف يقول :

— ثم انه ضيق علىّ فهو يجعلنى مضحكاً • هل علىّ أن أظهر للناس مضحكاً ... لتسلوا أتم ؟

وحاولوا أن يقتنوه من جديد بأنه يبالغ ، وبأن قامّة السيد كالجانوف كقامته هو ، وان يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً ، وبأن السؤال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول • ولكن اتضح ان السترة مشدودة جداً عند الكتفين ، فجمعهم ميتا قائلاً من جديد :

— يستحيل عقد أزرارها • أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف أنني لست أنا الذى رغبت فى أخذ ثيابه ، وأنتى أكرهت على ارتدائها كمهرّج !

فدمدم قاضى التحقيق يقول :

— هو يفهم هذا ، وهو يأسف ... لا يأسف على حرمانه من ثيابه ... لا ... بل يأسف لما وقع لك •

— لا حاجة بى الى أسفه ! أين يجب أن أذهب الآن ؟ أم أنا مضطر الى البقاء هنا ؟

— أرجو أن تنتقل الى « الغرفة الأخرى » من جديد • دخل ميتا الى هناك متقبضاً الوجه غضباً ، يحاول أن لا ينظر الى

أحد • كان يحس وهو في ثيابه المستعرة أنه مثل حتى في نظر الفلاحين ، وفي نظر تريفون بوريستش الذى لاح وجهه خلسة من خلال باب شقه . ثم أسرع يفلقه • قال ميتا في نفسه : « أراد أن يتأملنى وأنا في هذا الزى المضحك » • وجلس على الكرسي الذى كان يشغله منذ قليل • كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً ، أنه يعيش كابوساً ، وكان يتساءل ألم يفقد عقله ؟

التفت ميتا نحو وكيل النيابة متقبض الفكين :

— هيه ، والآن ، هل تأمرون بجلدى ؟ لم يبق لكم إلا هذا !

لم يشأ أن يخاطب يقولاً بارفينوفتش ، لأنه أصبح يده غير جدير باتباعه بعد الآن • وقال يحدث نفسه : « لقد تلذذ بتأمل جوربى زماً طويلاً جداً ، حتى لقد أمر بقلبيها عامداً — يا للشقى ! — بغية أن يظهر الجميع على أن ملابسى الداخلية فذرة جداً ! » •

قال يقولاً بارفينوفتش وكأنه يجب عن سؤاله :

— سنبدأ الآن استجواب الشهود •

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضى ساهماً :

— نعم نعم •

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر فى أمر ما • وتابع القاضى كلامه فقال :

— لقد بذلنا تصارانا يا دمترى فيدوروفتش لنساعدك فى موقفك • ولكن بعد أن رفضت رفضاً خشناً أن تلبى طلبنا فتقدم لنا بعض الايضاحات عن مصدر المبلغ الذى فى حوزتك ، فاتنا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن • •

قاطعته ميتا سائلاً :

— من أى نوع من أنواع الحجارة الكريمة صنع هذا الخاتم ؟

كان ميتيا يتكلم كمن هو فى حلم ، مشيراً الى واحد من الخواتم
الثلاثة التى تزين يد القاضى الصغيرة • فسأله القاضى فى دهشة :
- خاتمى أنا ؟

- نعم ، هذا الخاتم ••• ذلك الذى يزين الاصبع الوسطى •••
ما هذا الحجر الكريم ؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر ، كطفل
عنيد ذى نزوات • فأجابه يقولان بارفينوفتش مبتسما :

- « هو زمرد أدكن ! هل تريد أن تراه ؟ سوف أنزعه ف •••

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد تاب الى رشده ، واضطرب وخجل
وثار على نفسه :

- لا ••• لا تنزعه ••• ليس يعنينى هذا ••• آه ••• لقد دنستم نفسى
أياها السادة ! هل تظنون اذن أننى كان يمكن أن أكذب عليكم لو أننى
قلت أبى فعلاً ، هل تظنون اننى كان يمكن أن أرتضى لنفسى هون
الانكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم ؟ انكم لاتعرفون
دمترى فيدوروفتش ! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة ! يمينا ،
لو كنت مجرماً لما انتظرت أن تصلوا الى موكرويه ، ولما بقيت حيا الى
الفجر كما كنت أنوى ذلك ، وانما كنت أقتل نفسى فوراً ! لقد تعلمت
فى هذه الليلة الواحدة المتحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى
عشرين عاما من الحياة ! أكان يمكن أن أنصرف كما تصرفت هذه الليلة ،
أكان يمكننى فى هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن ،
أكنت أبجد هذه اللهجة ، أكنت أقوم بهذه الاشارات ، أكنت أستطيع أن
أنظر اليكم وجهاً لوجه ، أتم والعالم بأسره ، لو كنت قاتل أبى حقا ؟
على أن مجرد تصورى أننى ارتكبت جريمة قتل جريجورى عرضاً قد ظل
يعذبنى طوال الليل ، لا خوفاً ••• أبداً ••• لا خشية من عقابكم !

... يا للعار ! ثم تريدون بعد ذلك ، أيها العابثون الهازلون ، تريدون أن أفضي إلى أناس مثلكم ، أناس لا يصدقون شيئا ولا يرون شيئا ، تريدون أن أحكي لكم ، أيها المناجذ المعى ، دناءة أخرى ارتكبتها ، حتى يزداد عارى؟ أبدا ... لن أفعل ذلك ولو أدى إلى تبرئتي من اتهاماتكم ... أبدا ، أبدا ... انى لأوتر على هذا سجون الأشغال الشاقة ! ان القاتل هو الشخص الذى فتح الباب ودخل إلى بيت أبى من ذلك الباب ... انه ذلك الشخص هو الذى سرق مال أبى ! من هو ذلك الشخص؟ اننى أتبه فى مجاهر الظن والتخمين ، وأنقى عناء كثيرا فى محاولة حزره . ولكن ذلك الشخص ليس هو دمترى كارامازوف على كل حال ، فاعلموا هذا ... ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم ... وهو كافى ، فلا تلجوا ... اصنعوا بى ما شئتم ، أرسلونى إلى سيريا ، أو نفذوا فى الحكم بالاعدام ، ولكن لا تهيجوا حقى وغيطى بعد الآن . هأنذا أسكت . أدخلوا شهودكم .

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا فى وجهه أنه عازم عزمًا مطلقا على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة . وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه ، منتظرا أن ينهى كلامه ، فما أن ختم ميتيا قوله حتى قال له يهدوء بارد ، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جدا بسيطة جدا .

— فى موضوع ذلك الباب بعينه ، ذلك الباب المفتوح الذى جئت على ذكره الآن ، نستطيع أن نطلعك — وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن — على واقعة من أغرب الوقائع ومن أخطرها شأنًا كذلك ، بالنسبة اليك وبالنسبة إلينا معا ، وهى واقعة تنتج من أقوال المعجوز جريجورى فاسيليف الذى جرحته . لقد صرّح هذا المعجوز ، بعد أن أفاق من اغماؤه وثاب إليه وعيه ، صرح على نحو واضح جازم قاطع ، فى الاجابة على أسئلة ألقيناها عليه ، أنه حين خرج من باب مسكنه فسمع

ضجة مشبوهة ، قرر أن يدخل الحديقة ماراً بابها الحديدى الذى لم يكن مغلقاً ؛ ولكنه قبل أن يلمحك فى الحديقة أثناء هروبك فى الظلام مبتعداً عن النافذة التى رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل ، قد لاحظ أيضاً ، من مكان أقرب إليه كثيراً ، لاحظ أيضاً ذلك الباب الذى تزعم أنه ظل مغلقاً طوال مدة وجودك فى الحديقة ، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لدعواك . ولا أستطيع أن أكتفك أن فاسيليف يستتج من ذلك ويؤكد جازماً أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب ، رغم أنه لم ير هروبك بعينه وإنما لمحك حين كنت قد أصبحت من الباب على مسافة ما ، وسط الحديقة ، راکضاً نحو السور

وثب ميتا عن كرسيه دون أن يدع لو كيل النياية أن يتم كلامه ، وأعول يقول خارجاً عن طوره :

- هذا كذب . هذا كذب دنى ! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحاً ، لأن الباب كان مغلقاً فى تلك اللحظة انه يكذب !
- من واجبي أن ألفت انتباهك الى أن أقواله واضحة جداً فى هذه النقطة ، وإن شهادته لم تختلف ولم تتناقض ، بل هو ظل مصرراً عليها بالحاح ، لأننا سألناه عن هذا الأمر مراراً كثيرة .

قال نيقولا بارفينوفتش مؤكداً كلام زميله بشيء من الحماسة :

- أنا نفسى استجوبته .

فاستأنف ميتا كلامه صارخاً :

- هذا كذب ! هذا كذب ! لا يمكن أن يكون هذا الا وشاية تستهدف الايقاع بى ، أو أن يكون أوهام رجل يهذى . لا بد أن العجوز قد رأى حلماً أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه فقص عليكم ما رأيتم فى الحلم حين صحت من غمسه وأغلب الظن أنه ما يزال يهذى .

- أتمنى لو أصدق ما تقول ، ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحاً

بعد أن أفاق من اغمائه ، وانما لاحظته قبل أن يُجرح ، لحظة دخوله الحديقة .

- هذا كذب ، هذا كذب ، ذلك لا يمكن أن يكون ! ان الكره هو الذى يدفعه الى اتهامى ... لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب ... أنا لم أهرب من الباب !

هكذا صاح ميّتا مخنتقا .

فالتفت وكيل النيابة الى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة :
- أره الطرف .

فإذا بالقاضى يضع على المائدة ظرفاً كبيراً من ورق قوى ، ترى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمس ، وقد أفرغ الطرف بتمزيقه من أحد أطرافه ؛ قل القاضى يسأل ميّتا :

- هل تعرف هذا ؟

فقدم ميّتا يقول :

- لا شك انه الطرف الذى كان عند أبى ... الطرف الذى كان يضم ثلاثة آلاف روبل ، اذا كان عليه كتابة ... هل تسمح لى بأن أرى ؟ نعم ، هذه هى الكتابة : « الى حمامتى » ، وهنا : « ثلاثة آلاف روبل » .

وصاح ميّتا :

- ثلاثة آلاف روبل ... أرايتم ؟

- طبعا رأينا ... ولكننا لم نثر على ذلك المبلغ . كان الطرف ممزقا ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز .

لبث ميّتا يضع ثوان كالمصوق . ثم صاح يقول بقتة بكل ما أوتى من قوة :

- هو سمردياكوف ، أيها السادة ! انه هو القاتل والسارق • انه الانسان الوحيد الذى كان يعرف الموضع الذى خبأ فيه المعجوز الطرف • انه هو ، كل شىء واضح الآن !

- ولكنك كنت أنت أيضا تعلم بوجود هذا الطرف ، وتعرف انه موضوع تحت الوسادة •

- بل كنت أجهل ذلك كل الجهل • لم أر هذا الطرف حتى الآن ، ولم أكن أعلم بوجوده الا من مسارات سمردياكوف • • • كان سمردياكوف وحده يعرف أين خبأ المعجوز الطرف • • • أما أنا فكنت لا أعرف • •

كذلك قال ميتا متقطع الأنفاس •

- عجيب ! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الطرف كان موجودا تحت وسادة المتوفى أبيك • لقد حددت بنفسك أنه كان مخبأ تحت الوسادة • معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ !

وأمن نيقولا بارفينوفتش على كلام زميله قائلا :

- لقد سُجِّلَت تصريحاتك فى محضر الاستجواب •

- سخف • • • جنون ! • • • لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة • • • ولعله كان فى موضع آخر • لقد ذكرت الوسادة مصادفة • • • ماذا قال لكم سمردياكوف ؟ هل سألتموه أين كان الطرف مخبأ ؟ فماذا قال لكم ؟ تلکم هى النقطة الرئيسية ! • • • أما أنا فقد كذبت عامداً • • • كذبت وكنت لا أعرف أن الطرف كان تحت الوسادة ، وهاتم أولاء سوف • • • كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً • • • يخطر بباله أن يقولها • • • لقد كان سمردياكوف وحده عارفاً بالأمر ، ولم يكن

يعرفه أحد سواء ! رفض أن يكشف لى عن المخبأ ، حتى أنا رفض أن يكشف لى عن المخبأ . انه هو ، هو القاتل ! هو القاتل لا محالة ، لقد وضع الأمر الآن وضوح النهار .

كذلك صاح ميتا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد ، وقد أصبحت عباراته مفككة غير متماسكة ولا منسجمة من فرط الانفعال .

- افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضعوا لحظة واحدة ! ...
لقد أصبح واضحاً انه قتل أبى بينما كنت أنا أهرب وكان جريجورى راقداً فى الحديقة بلا حراك . أصبح كل شيء واضحاً ... قرع الباب بالإشارة المتفق عليها ، ففتح له أبى الباب ... ذلك أنه الشخص الوحيد الذى كان على علم بالإشارات التى ما كان لأبى أن يفتح الباب لولا أن سمعها . استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً : بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار فى نبرة صوته :

- يظهر أنك تنسى من جديد أن الاشارات تصبح زائدة لا داعى ليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحاً من قبل ، بينما كنت أنت ما تزال فى المكان ، أعنى فى الحديقة ...
قال ميتا متلعشماً :

- الباب .. الباب ...
وسكت ، وحدق الى وكيل النيابة بنظرة منجهمه . ثم تهالك على الكرسي كالنهار . وساد صمت . ثم هتف يقول زائع الوجه :

- نعم .. الباب ! .. كان هذا شبحاً ! الله ضدى ! ...

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة :

- أرايت ؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمترى فيدوروفتش . هناك من

جهة أولى هذه الشهادة اقوية الدامغة ، فى نظرك وفى نظرها ، أعنى الشهادة بأن الباب كان مفتوحا وأنت هربت منه • وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذى لا يفهم ، هذا الصمت الذى تلوذ به عن مصدر المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات ، فيما صرحت به أنت نفسك ، مضطرا الى رهن مسديك للحصول ولو على عشرة روبلات • فماذا نصدق وعلى أى شىء نستند ؟ هلاّ قلت لى ••• فلا تأخذ علينا ، ظلماً وعدوانا ، أننا أناس مستهزئون بإردون مستهترون ، عاجزون عن أن نفهم ما فى نفسك من اندفاعات نبيلة ، بل ضع نفسك فى مكاننا ••• وحاول أن تفهمنا أنت أيضا •••

كان ميتا مضطربا • وشجب لونه • ثم هتف يقول فجأة :

— طيب ! سأكشف لكم عن سرى ، سأطلبكم على مصدر المال •••
سأكشف عن عارى ، حتى لألوم نفسى ولا ألومكم فى المستقبل •

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان :

— ثق يا دمترى فيدوروفتش أن اعترافا صادقا كاملا منك الآن قد يخفف عنك كثيرا فى المستقبل ، حتى لقد •••

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزه خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضى فى الوقت المناسب • وكان ميتا لا يصفى اليه على كل حال •

السرا الكبير الذى يحفظ به ميتايتخذ هزاة



ميتا كلامه فقال منفعلًا أشد الانفعال :

- أيها السادة ... أريد أن أعترف بالحقيقة كلها ... كان هذا المبلغ لى أنا ...

استطال وجهها وكيل النيابة وقاضى التحقيق .

لقد خاب فآلهما وأخفق انتظارهما ، لأنهما كانا يتوقعان اعترافا يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف .

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

- كان ذلك المال لك أنت ؟ كيف هذا ؟ أنت تقول فى اعترافاتك نفسها انك فى الساعة الخامسة بعد الظهر ...

- سحقا للساعة الخامسة ولاعترافانى ! ليس هذا هو الموضوع الآن ! لقد كان ذلك المال لى أنا ... أتصد أننى استوليت عليه ، سرقة ، نعم سرقة . هو مبلغ ألف وخمسمائة روبل ... كنت أحملها دائما معى ، معى ...

- من أين أخذتها ؟

— من صدری آیاها السادة ، من هذا الصدر الذى ترون ... كنت أخبئها هنا ، معلقةً بنقعى ، مخيطة فى خسرقة ... هكذا كنت أحمل عارى منذ زمن طويل ، منذ أكثر من شهر ...

— ولكن من عند من ... استوليت ... على هذا المبلغ ؟

— تريدون أن تقولوا من عند من « سرقته » ، أليس كذلك ؟ سمعوا الأشياء بأسمائها ! أنا أعتقد فعلاً أننى سرت هذا المال ، أننى « استوليت » عليه اذا كنتم تؤثرون هذا التعبير . وأنا أرى أنه سرقة . وأمس مساء ، اكتملت السرقة .

— أمس مساء ؟ ولكنك قلت انك ... حصلت على هذا المال منذ

شهر .

— نعم ، ولكن لا من عند أبى ، لا من عنده ، اطمثوا ! لم أسرقه من عند أبى ، بل من عندها . دعونى أروى لكم الوقائع دون أن تقاطعوني . انه لأمر قاس على نفسى أن أتكلم ، هل تفهمون ؟ منذ شهر ، نعم منذ شهر استدعتنى كاترين ايفانوفنا فرخوفتزيفا ، خطيبتى السابقة .. هل تعرفونها ؟

— كيف لا ؟

— أعلم أنكم تعرفونها . هذه انسانة ذات نفس نبيلة ، لا تضارعها فى نبليها أحد ... ولكنها كانت تكرهنى منذ زمن طويل ... طويل جداً ... وكان من حقها أن تكرهنى على كل حال ... هناك أسباب تحملها على كرهى .

سأله القاضى مندهشاً :

— كاترين ايفانوفنا ؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً .

قال ميتا :

- أوه ! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ الى ذلك ! ما كان أشقاني حين ذكرت اسمها هنا ... نعم ، كنت أعلم انها تكرهنى ... منذ زمن طويل ... منذ اليوم الأول ، فى مسكنها هناك ... ولكن كفى ! كفى حديثاً فى هذا الأمر ! انكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء ، ولا داعى الى ذكر هذه الأشياء على كل حال .. يكفىكم أن تعلموا أنها استدعتنى منذ شهر وأعطتنى ثلاثة آلاف روبل كلفتى بأن أرسلها الى أختها الى قرية أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها ؟) .. وأنا ... كانت تلك الساعة هى بعينها الساعة الحاسمة فى حياتى ، كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى .. الخلاصة .. هى اللحظة التى كنت قد أحبيت فيها امرأة أخرى منذ قليل ، هى اللحظة التى كنت فيها قد أحبيتها «هى» .. امرأة هذا اليوم .. تملون ... تلك التى أودعت تحت ، جروشنكا .. فجئت بها الى هنا ، الى موكرويه ، فأنفقت خلال يومين من الاحتفال والقصص ، نصف ذلك المبلغ اللعين ، أغنى ألفاً وخمسمائة روبل ، واحتفظت بالنصف الآخر . فهذه ، ألفاً وخمسمائة روبل الباقية هى ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقا بعنق مخططا فى كيس . وقد فتحت الكيس أمس ، فأنفقت هذا المال فى القصف هنا . وان الثمانمائة روبل التى وضعتها فى مكان مأمون يا نيقولا بارفينوفتش هى كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التى أخرجتها من الكيس أمس .

- اسمح لى ! هناك شئ ليس واضحاً . فى المرة الماضية ، أغنى فى الشهر الماضى ، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة . ذلك أمر يعرفه جميع الناس .

- من أين عرفوه ؟ من ذا الذى حسب نفقاتى ؟ أنا لم أطلع على ذلك أحداً .

- كيف ؟ لقد حكيت لكل انسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل .
 - صحيح ، حكيت هذا ، بل لقد حكيت للمدينة كلها ، والناس يتحدثون عنه في كل مكان ، وما من أحد الا ويعتقد اعتقادا جازما بأنني أنفقت ثلاثة آلاف روبل . وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضا . ولكنني مع ذلك ، لم أنفق في الواقع الا ألفا وخمسمائة روبل ، ثم خُطت باقي المبلغ في كيس . تلکم هي الحقيقة أيها السادة ، ذلكم هو مصدر المال الكثير الذي كان في حوزتي أمس .

دمدم يقولون بارفينوفتش يقول :

- يشبه هذا أن يكون من المعجزات .

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتا :

- اسمح لي أن أسألك هل أفضيت بهذا السر الى أحد قبل هذا اليوم ... أعني : هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا ؟

- لم أفض بذلك الى أحد .

- غريب ... لم تذكره لأحد في العالم كله ؟

- في العالم كله . لم أذكره لأحد البتة . أؤكد لك ذلك .

- فلماذا هذا السكوت ؟ ما هي الأسباب التي دفعتك الى الاحتفاظ به سرا لا يذاع ؟ سأشرح ما أريد أن أقوله . لقد كشفت لنا أخيرا عن سرّك الذي تراه « مخزيا » الى هذا الحد في نظرك ، رغم أن هذا الفعل ليس في الواقع - اذا قيس بغيره طبعا - الا هفوة صغيرة . ان استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التي عهد بها اليك واؤتمنت عليها واحتفظت بها لنفسك .. مؤقتا ... أنا متأكد من هذا ... انما ينبغي أن يُعَد طيشا ، انما ينبغي أن يُعَد خطأ مرده الى الخفة ، ولكنه ليس فعلا يدنس الشرف ، ولا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى طبيعتك

••• فلنفرض أن هذا القفل فعل يؤسف له •• وأنا أسلم بذلك ••• ولكنه ليس ديانة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك ••• واعلم على كل حال أن كثيرا من الناس ، في هذه المدينة ، قد حزرُوا ، أثناء هذا الشهر ، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتك عليها الأنسة فرخوفتريفا • لقد اشتبهوا فيك واعتقدوا أنك بددت المال ، رغم أنه لا أدلة على ذلك ، حتى لقد وصلت هذه الشائعة إلى أسماعنا ، وعلم بها ميشيل ماكاروفتش أيضا ، فليس الأمر أمر سرّ اذن ، وإنما هو كلام يقال ويردد في كل مكان ••• ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة ، أثناء حديث خاص ، إذا لم يخطيء ظني ، بأن ذلك المبلغ مصدره الأنسة فرخوفتريفا ••• لذلك استغرب أشد الاستغرب حين أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولى هذه الألف وخمسمائة روبل ، فيما تدعى ، اهتماما خارقا وتضفى عليها خطورة عظيمة ، ولا أفهم البتة أن تجعلها سرا لا تكلم عنه ، سرا مصحوبا بنوع من الهلع الأخلاقي ••• ليس من المعقول أن يسبب لك سر من هذا النوع عذابا كهذا العذاب ، وأن يبدو لك الاعتراف به صعبا إلى هذا الحد ••• ألم تعلن منذ قليل أنك تؤثر السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة ؟

سكت وكيل النيابة • وكان قد تحمس أثناء الكلام ، واشتعل فيه استياء متزايد يشبه أن يكون غضبا ، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة ، ودون كثير من التسلسل أيضا ، وإنما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجارا في جمل مقطعة •

قال ميتيا بصوت جازم :

- ليس العار في الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل ، بل العار في أنني ادخرت نصف هذا المبلغ ، أي ألفا وخمسمائة روبل !
فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة اغتيال :

- حقاً ؟ هلاً قلت لى أين العار فى أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق ، أو استيلاء مخزياً ، ان كنت تؤثر أن تصفه بهذه الصفة ؟ أن الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كثير من الأمانة ، لا أنك تصرفت فى المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء ! بالمناسبة : هل تستطيع أن تقول لى لماذا قسمت المبلغ نصفين ، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين ؟

صاح ميتا يقول :

- ذلك بعينه هو الدراما كلها ! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة ، أى عن حساب . ذلك أن الحساب هو بعينه النداءة والحقارة فى مثل هذه الحالة ... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره !

- كلام لا يفهم !

- أستغرب هذا منكم . ولكننى سأشرح ما أريد قوله . اننى أسلمت بأن كلامى قد يبدو من أول وهلة أنه لا يفهم . فاصغوا الىّ وتبعوا ما أقول : لنفرض اننى استوليت على ثلاثة آلاف روبل ، أو تممت عليها ، فأنفقتها فى القصف الى آخر كوبك منها . ان فى امكانى أن أذهب الى آستى فى الغد وأن أقول لها : « كاتيا ، اغفرى لى ، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتنى عليها » . ليس هذا خيراً بطبيعة الحال ، وإنما هو سوء أمانة ، وضعف خلق ؟ هو سلوك انسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته . ولكننى فى هذه الحالة لن أكون سارتماً ، لن أكون لصاً . لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . هل توافقوننى على هذا ؟ لقد بددت المال الذى أوتمنت عليه ، ولكننى لم أسرقه . فلنفرض الآن فرضاً ثانياً ، فرضاً أفضل من الأول أيضاً . تابعوا ما أقول ، والا فقد أرتبك من جديد . أن رأسى يدور قليلاً ... اليكم الفرض الثانى : لنفرض اننى

أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط ، أى ألفاً وخمسمائة روبل ، ولنفرض أننى ذهبت إليها في الغد حاملاً ما بقي من مال ، وقلت لها : « استردى منى المال يا كاتيا لأننى لست ، لا انساناً شقيقاً طائش العقل محموم الرأس . استردى نصف المبلغ الذى ائتمنتى عليه ، والا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول . اننى لا أريد أن أتعرض لهذه النغاية ! » فماذا أكون عندئذ ؟ أكون ما شئت ، أكون شيطاناً وأكون شقياً ، ولكننى لن أكون لصاً ، لن أكون قد أصبحت لصاً حقيقياً . لأننى لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية ، وإنما كنت أحتفظ بها لنفسى . كانت ستدرك هى عندئذ أننى ما دمت أرد إليها نصف المبلغ ، فسأرد إليها النصف الثانى آخر الأمر ، فى يوم من الأيام وأننى قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتى مدخراً قرشاً فوق قرش لأجمع المال الذى أنفقته فى القصف فأرده إليها فى ذات يوم . صحح أننى أكون فى هذه الحالة رجلاً جباناً ، ولكننى لا أكون لصاً ؛ أكون ما شئت ، ولكننى لا أكون سارقاً على الأقل .

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة :

« لنسلم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً . اننى أظن أستغرب أن تصفى على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة !

« بالعكس . ليس هذا لفرق زهيداً بل هو فرق رئيسى . ان أى انسان يمكن أن يكون جباناً ، ولا شك أننا جميعاً جبناء بدرجات متفاوتة . ولكن ليس كل انسان لصاً . لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً . أحسب أننى لا أجيد التعبير لأننى تعوزنى الرهافة ... ولكن اللص أحقر الحقراء وأدنا الأوغاد . تلکم هى قناعتى العميقة ! اصفوا لى » . لقد حملت هذا المال فى عنقى مدة أربعة أسابيع ، وكنت أستطيع

فى كل لحظة أن أذهب فأرد إليها هذا المال ، فلو فعلت لما كنت وغداً حقيراً ، أما وأنتى لم أستطع أن أتخذ هذا القرار ، فذلك هو الأمر الخطير ! كنت كل يوم أفكر فأقول لنفسى : « قرر أيها الشقى ، يجب أن ترد المال ، » ولكن القرار لم يجرى ، وطالت القضية شهراً بأكمله . فما رأيكم ؟ أملككم ترون هذا جميلاً ؟
أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم :

- أعترف بأن ذلك شر . أنا أفهم هذا حق فهمه ، ولا يخطر ببالى أن أجدد . ولكننى أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هذه الفروق ، وأن تدع هذه الرهافة فى التمييز بين الأمور ، وأن تعود الى جوهر القضية . لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا ، فى الاجابة عن سؤالى ، السبب الذى دفعك الى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتتق النصف الأول منه فى النصف وتحفظ بالنصف الثانى مئ . ماذا كان هدفك من ذلك ، وعلى أى غرض وقفت هذه الألف وخمسمائة روبل التى احتفظت بها ؟ انتى أصرى على هذا السؤال يا دمترى فيدوروفتش !
صاح ميتا وهو يلطم جبينه :

- ها .. ولكن .. هذا صحيح .. معذرة .. انتى أعذبكم بهذه المناقشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر . لقد نسيت أن أفعل ! سأقول لكم ، لأن فسرعان ما تفهمون . ذلك أن العار كله يكمن هنا . اسمعوا : لقد كان المعجوز ، المتوفى ، يلاحق أجرافين ألكسندروفنا بالحاحه ولحاجته ، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة . وكنت أتخيل فى ذلك الحين أنها مترددة بينى وبينه لا تعرف أختارنى أم تختاره ، فكنت أتساءل كل يوم : « ما عسى يحدث اذا هى حزمت أمرها فجأة وكفت أخيرا عن تعذيبى وصارحتنى قائلة : أنت الذى أحبه لا هو ، فلنسافر ... خذنى الى مكان بعيد ، الى أبعد مكان تستطيع أن تأخذنى اليه ! » . كنت

أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك فى جيبي الا بضعة كوبيكات ! أين ثنا المال الذى نساقر به ؟ ما عساي فاعلا حينذاك ؟ كان ذلك هو الهوة ، هو اليأس ! لاحظوا أتنى لم أكن قد عرفتها حق معرفتها فى ذلك الأوان . كنت أظن أنها لا تستغنى عن المال ، وأنها لن تغفر لى فقرى . ذلكم هو السبب الذى من أجله قررت ، جيانا ، أن أحتفظ بنصف الثلاثة آلاف روبل ، وأن أخيط المبلغ فى كيس . وذلك ما فعلته ببرود ، بحساب ، من قبل أن أسكر ! وبعد ذلك ، بعد أن طويت الكيس وخطته ، انما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى . لا ... لا ... لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة . هل فهمتم الآن ؟ انفجر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فى ضحكك صاحب . وقال نيقولا بارفينوفتش ساخرا :

- فى رأيى أن قرارك كان عين العقل ، بل وعين الأخلاق ، على عكس ما تقول ، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعة واحدة . أين فى هذا ما يثير السخط ؟

- أتنى سرت ، هنا الحقارة ! آه ... يا رب ! ان عجزكم عن الفهم يروغنى ! كنت أتناء حملى هذه الألف وخمسمائة روبل فى عفتى ، أردد على نفسى كل يوم وكل ساعة : « أنت لص ، أنت لص ! » . وبسبب هذا العار الذى يرهقنى ، بسبب هذا الشعور بأتنى سارق ، انما كنت شرسا تلك الشراسة كلها غيفا ذلك العنف كله خلال هذا الشهر الأخير . ذلكم هو السبب فى أتنى تشاجرت واقتلت فى الكاباريه ، وأتنى ضربت أبى . وحتى أليوشا أخى لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة فى موضوع الألف وخمسمائة روبل ، فالى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة ! ولاحظوا أيضا أتنى طيلة مدة احتفاظى بالمال المودع فى الكيس سليما لا أمسه ، كنت أستطيع أن أقول لنفسى كل يوم وكل ساعة :

« لا يا دمترى فيدوروفتش ، ربما لم تكن لصاً ! » • لماذا ؟ لأننى كنت أستطيع فى كل لحظة أن أذهب الى كاتيا فأرد إليها هذا المال • وأمس فقط ، بعد أن تركت فينيا ، وفى طريقى الى منزل برخوتين ، انما قررت أن أفصّ الكيس • أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمرى • ولكنى منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل ، لصاً لا يمكن انكار انه لص ؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه الى آخر الحياة • لأننى حين مزقت الكيس قد مزقت فى الوقت نفسه أملى فى أن أذهب الى كاتيا وأن أقول لها : « أنا جبان هذا صحيح ولكنى لست لصاً » • هل تفهموننى الآن أيها السادة ؟

— فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس ؟

— لماذا ؟ يدهشنى سؤالكم ! لقد اتخذت قرارى لأننى عزمت على الانتحار ، فى هذا المكان ، عند الفجر • قلت لنفسى : « ما قيمة أن اموت شريفاً أو وغداً بعد الآن ؟ » • ولكنى أدركت أن الأمرين لا يستويان • صدقونى أيها السادة ! ان العذاب الأكبر الذى عانيت فى هذه الليلة الرهيبة لم يكن شعورى بأننى قتلت الخادم العجوز ، ولا تصورى أننى سأحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة • لا صحيح أنه أمر رهيب أن أرحل الى السجن فى اللحظة التى أخذ فيها حبى يتصر ، فى اللحظة التى انفتحت فيها سماوات السعادة أمامى • ولكن ذلك لم يكن عذابى الأكبر • ولا كان يساوى ، على الأذل ، عذابى من تصور أننى فتحت ذلك الكيس اللعين ، وأتلفت ذلك المبلغ المخوس ، وأصبحت بهذا لصاً الى الأبد ! أيها السادة ، اننى وقد تهديمت الى أعماق أعماق كيانى ، أعود فأقول لكم : لقد تعلمت أشياء كثيرة فى هذه الليلة • لم أعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء جباناً ، وانما تعلمت أيضاً أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً حقيراً • لا ، لا يمكن أن يموت المرء الا وهو

يشعر انه انسان شريف ! ...

كان ميتيا شاحب اللون ، مشدود العضلات ، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم ، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام .
قال وكيل النيابة بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف ، قال ببطء :

- بدأت أفهمك يا دمترى فيدوروفتش . ولكنى أعتقد أنك تبالغ قليلا ، وأن أعصابك ، أعصابك المريضة ، هى السبب الحقيقى لعذابك...
هم... فمثلاً : لماذا لم يخطر ببالك ، حتى تتخلص من الآلام النفسية التى قاسيت منها خلال شهر بأكمله ، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب الى تلك الانسنة التى ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد اليها الألف وخمسمائة روبل ؟ ألا يكون أبسط من هذا كله ، بعد أن تشرح لها الخطيئة التى ارتكبتها فى لحظة ضلال ، أن تعتمد الى حلٍ يخطر على البال من تلقاء نفسه ، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذى كنت فيه كما تقول ؟
لقد كان فى وسعك ، بعد أن تعترف لها اعترافاً مليئاً بالنبل ، كان فى وسعك أن تطلب اليها أن تقرضك المبلغ الذى كنت فى حاجة اليه ؛ وانى لعلى يقين ، لمعرفة بسمو نفسها ، أنها ما كان لها أن ترفض اقراضك ذلك المبلغ ، ولا سيما وأنت فيما أنت فيه من ضياع نفسى ... خاصة وأنت كنت تستطيع أن توقع لها سنداً أو أن تقدم اليها الضمانات التى عرضتها على التاجر سامسونوف ، وعلى السيدة هوخلاكوفا أيضاً ! أظن طبعاً أنك ما تزال تمد تلك الضمانات موثوقة تماماً .

احمر وجه ميتيا فجأة . ثم هتف يقول مستاءً وهو يحدث الى عيني وكيل النيابة تحديق من يشك فى أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع :
- هل يُعقل أن تصورونى منحطاً الى هذه الدرجة ؟ أنا لا أستطيع

أن أصدق أنكم تتكلمون جادين !

فدهش وكيل النيابة هو أيضاً ، وانبرى يقول له :

- أوكد لك اننى جاد كل الجد • لماذا تشك فى ذلك ؟
 - عجيب ! نو قد فعلت ذلك لكان حطة ما بعدها حطة ! هل تعلمون
 أيها السادة أنكم تعذبوننى تعذبا رهيا ؟ طيب ! سأقول لكم كل شيء ،
 اننى أذعن لأرادتكم فأقول لكم كل شيء • سأتيح لكم أن تروا الحقيقة
 الجهنمية ؟ فتعرفوا ، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزى ، الى أى جبن
 يمكن أن ينحدر ضمير انسان • ان هذا الحبل الذى ذكرته الآن
 يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالي • نعم يا سادتى ! لقد فكرت فى هذا
 الحبل أيضا خلال هذا الشهر المنحوس ، وكنت على وشك أن أذهب الى
 كاتيا من فرط حطنى وصغارى ، أذهب اليها فأعترف لها بخيائتى ، ثم
 أطلب اليها بعد ذلك الاعتراف ، أن تقرضى مالا لأنفذ هذه الخيانة ،
 لأسدد الفقات التى كانت ستقتضيها هذه الخيانة • أطلب مالا منها هى ،
 كاتيا ، أطلب ، أتضرع ، هل تسمعون ؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى ، مع
 غريمته ، مع امرأة تكرهها ، امرأة أساءت اليها وأهانتها • ألا انك لمجنون
 يا سيادة وكيل النيابة !

- أما أن أكون مجنونا ، فقد لا أكون مجنونا ؛ ولكننى أثناء احتدام
 النقاش لم يخطر ببالي عنصر القيرة النسبوية هذا اذا افترضنا أن من
 الممكن أن يكون ثمة غيرة فى هذه الحالة كما تقول ... والحق أن من
 واجب المرء أن لا يغفل عن عاطفة من هذا النوع ...
 كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة •

زأر مبتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :
 - ان عملا كهذا العمل يكون فيه من الصغار والحطة والدناءة ،
 ويبلغ من شدة ما يبعثه فى النفس من اشمئزاز ، أننى قد تراجعت عنه
 أنا نفسى ! هل تعلمون أنه كان يمكن جدا أن تعطينى ذلك المال ؟ أنا
 على يقين من أنها كانت ستعطينى ذلك المال ، بدافع الانتقام ، لتلذذ بالتأثر

تظهر لى احتقارها ، لأنها هى أيضا نفس جهنمية عنيفة غضوب ! وكنت سأخذ منها المال . هذا أكيد ، فأظل طول حياتى ... أوه ... رباه ! معذرة يا سادتى ! لئن صرخت الآن ، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد ساورتنى ، ساورتنى أمس الأول ، بينما كنت أخطب ليلاً قرب ليانجافى ... وعادتنى أمس مرة أخرى ... نعم ... اننى أتذكر هذا ... وحاصرتنى طول النهار الى حين وقوع ذلك الحادث .

— أى حادث ؟

كذلك تدخل يسأله يقولان بارفينوفتش مستطعماً ، ولكن ميتا لم يابه
لسؤاله . وختم ميتا كلامه يقول مظلم الوجه :

— لقد قدمت اليكم اعترافاً رهيباً ، فاددروه حق قدره أيها السادة ، بل انه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب ، وانما ينبغي لكم أن تعرفوا بقيمته ... والا ... اذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم ، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تضرعون لى أى احترام ، انكم تحقروتنى ؟ ولأموتن عندئذ من شعورى بالعار لأننى فتحت قلبى لأناس مثلكم . لأطلقن عندئذ رصاصة فى رأسى ! ولكننى أرى أنكم لا تصدقوننى ، أرى ذلك ! ماذا ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً ؟

هكذا صاح ميتا مروّعاً جداً . فأجاب يقولان بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتا :

— لن نسجل الا التصريح الذى أدليت به الآن ... سنسجل انك كنت تنوى ، حتى الدقيقة الأخيرة ، أن تذهب الى الآمنة فرخوفتريفا لتقرض منها هذا المبالغ ... تلك واقعة هامة جداً بالنسبة اليانا يا دمتري فيدوروفتش ... صدقنى ... هذه التفاصيل كلها هامة ... ولا سيما بالنسبة اليك ، اليك أنت .

هتف ميتيا يقول وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى متوسلاً :
 - أضرع انيكم يا سادتى ! اعدلوا عن تسجيل ما ذلرته لكم الآن ،
 اعدلوا عنه من باب الحياء والخفر على الأقل ! لقد فتحت لكم نفسى ، فاذا
 أنتم تسرعون فتمسسون فيها أيديكم لتبشوا آلامى . آه ... رباه !
 قال ذلك وأخفى وجهه يديه كمدأ وكرهاً وقنوطاً !
 فتدخل وكيل النيابة يقول :

- اطمئن يا دمترى فيدوروفتش . ان كل ما نسجله الآن سيقرأ
 عليك بعد ذلك ، وسنعدّل عندئذ الفقرات التى لا توافق عليها متقيدين
 بما تذكره . ولكن يجب على الآن ، مرةً ثالثة ، أن ألقى عليك سؤالاً
 صغيراً : هل يعقل فعلاً أن لا يكون أحد ، أن لا يكون أحد على
 الاطلاق ، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخبئة فى الكيس ؟
 اعترف لك بأن هذا يبدو لى غير معقول كثيراً ...
 - قلت ان أحداً لم يعلم بهذا الأمر . لم أحك هذا الأمر لأحد .
 اذن لم تفهموا شيئاً البتة ! دعونى وشأنى أخيراً .

- طيب . لن ألح . سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة ، ولكن
 ما يزال لدينا وقت كثير . على اننى أرجوك أن تفكر فيما يلى : ان عندنا
 عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروى أنت نفسك ،
 حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً من فوق سطوح المنازل ، أنك قد أنفقت
 فى القصف فى المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل ، لا ألف وخمسمائة .
 وحتى فى هذه المرة ، قلت لعدة أشخاص بصدد المال الذى أصبح فى
 حوزتك فجأة ، انه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً ...
 صاح ميتيا يقول :

- الشهود ؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيحجىء ماتنا
 شخص يؤكدون ذلك ، وربما جاء ألف شخص . ستجدون من الشهود
 ما تشاهون .

- هانت ذا ترى اذن • لقد سمعتك جميع الناس تقول هذا الكلام •
وهم جميعاً يؤكدونه اليوم • هل تفهم ماذا تعنى كلمة « جميع الناس »
هذه ؟

- لا تعنى شيئاً ! أنا كذبت وكرر الناس كذبتى ...
- فلماذا « كذبت » ؟ على حد تصيرك ...

لا يعلم ذلك الا الشيطان ! لعلنى كذبت افتخاراً ... أو لأسباب
أخرى ... لألعج بالكلام عن قصص بلغ ذلك المبلغ من اليزخ ...
أو لأسى ذلك المال المخيط فى الكيس ... نعم ، ذلك هو ، ذلك هو
الباعث الحقيقى الذى دفعنى الى الكذب ... أنا أحس هذا ! ... الى
الشيطان على كل حال ! انكم تمودون قلقون على نفس الأسئلة • لقد
كذبت وكفى ! هذا كل شئ • هل يعلم أحد ما الذى يمكن أن يدفع
الانسان الى الكذب ، فى بعض الأحيان ؟
قال وكيل النيابة بصوت رزين :

- حقاً ان من الصعب ان يعرف المرء ما قد يدفع الانسان الى
الكذب • ولكن قل لى : ماذا كانت ابعاد الكيس الذى كنت تحمله معلقاً
يرقبك ؟ هل كان كبيراً !

- لا ، لم يكن كبيراً البتة •

- ماذا كانت أبعاده تعريباً ؟

- أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوى الورقة نصفين •

- هل بقيت لك منه قطع ؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع ؟

- قطع الكيس ؟ أتريد أن تضحك ؟ اننى لا أدرى ما الذى صارت

اليه •

- عجب ! أين ومتى نزعنا الكيس عن عنقك ؟ لقد صرّحت أنت

تفسك بأنك لم ترجع الى منزلك •

- نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فيينا لأذهب الى برخوتين •
- نزعته عن عنقي وأخرجت منه المال •
- فى الظلام ؟
- هل كان علىَّ أن أشعل شمعة ؟ لقد توصلت اليه باللمس فى مثل
- لمح البصر •
- فى الشارع ؟ بدون مقص ؟
- نعم • تمَّ ذلك فى الميدان اذا لم يخطئ ظنى • ما الداعى الى
- مقص حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية ؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها •
- ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ ؟
- رميتها •
- أين ؟
- عجيب ! فى الميدان ! أتنى لى أن أتذكر المكان الذى رمت فيه
- الخرقة على وجه التحديد ؟ لماذا هذه الأسئلة ؟
- ذلك هام جدا يا دمترى فيدوروفتش • ألا تفهم أن هذه الخرقة
- يعن أن يكون وثيقة اثبات لصالحك ؟ من ساعدك فى خياطة الكيس على
- المال ، منذ شهر ؟
- لم يساعدنى أحد • قمت بذلك وحدى •
- أأنت تعرف اذن أن تخط ؟
- لا بد أن يعرف الجندى كيف يخط • ثم ان هذا لا يحتاج الى
- أية براعة •
- أين وجدت القماش ، أعنى تلك الخرقة التى خطتها على
- المال ؟
- أأنتم تسخرون منى ؟
- أبدا • ثق أننا لا نرغب فى الضحك أية رغبة يا دمترى
- فيدوروفتش !

- لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقه • لا بد أنني لمبتها من مكان ما •

- كيف يمكن أن تنسى ذلك ؟

- أحلف لكم أنني لا أعرف • لعننى قد مزقت أحد الملابس •

- هذا شيء هام • قد نشر غدا في منزلك على ذلك اللباس الممزق الذى انتزعت منه قطعة ، وربما كان قبصا من قمصانك ... ما نوع صبيح تلك الخرقه ؟ أكانت من كتان أم كانت من قطن ؟

- أنا أعرف ؟ لحظة .. لا ... لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس .. كانت الخرقه من قماش خاص .. أظن أنني خطت المال في طاقة لصاحبة المنزل الذى أقيم فيه •

- لصاحبة المنزل الذى تقيم فيه •

- نعم ، اختلست هذه الطاقة من عندها ؟

- اختلستها ؟

- أظن أنني أتذكر فعلاً أنني فى ذات يوم أخذت طاقة من عندها • كنت فى حاجة الى خرقه ، ربما لأمسح قلمنى ، فأخذت تلك الخرقه دون أن أقول لأحد ، لأنها طاقة لا قيمة لها ... طاقة عتيقة من قماش قطنى غُسل وأعيد غسله مائة مرة ... وظلت الطاقة ملقاةً فى غرفتى منذ ذلك الحين ... فلما أردت أن أخبئ تلك الألف وخمسمائة روبل ، تناولت الطاقة وخطتها على المال ...

- هل تذكر هذا تذكرًا واضحًا ؟

- لا أدرى هل هذه الذكرى واضحة جداً • يخيل إلى أنها

الطاقة ... ولكن ما قيمة هذا !

- فى هذه الحالة تستطيع صاحبة المنزل أن تذكر أنها افقدت

طاقة ، أليس كذلك ؟

- لا ... أبداً • انها لم تلاحظ غياب الطاقة • تلك خرقة عتيقة
غير ذات فائدة ...

- والابرة ؟ من أين أخذت الابرة ؟ والخيوط ؟

- أتوقف عن الكلام • أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة •
كفى !

كذلك حسم ميتا المناقشة وقد نفذ صبره •

- انه للغريب حقاً أن تنسى فى أى مكان على وجه الدقة ريمت ذلك
الكيس فى الميدان !

- ليس عليكم الا أن تأمروا بكس الميدان غداً ، فربما عثرتم
عليه •

بهذا أجاب ميتا ساخراً • ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود :
- هذا يكفى أيها السادة ، يكفى ويزيد • اتنى لأرى رؤية واضحة
أنكم لا تصدقوننى ! انكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول • وذلك
خطئى أنا لا أخطؤكم أنتم : كان على أن أصمت بدلاً من أن أفشى بذات
نفسى أمامكم فى غباء وبلاهة • آه ... لماذا ، لماذا أسففت ذلك الاسفاف
فكشفت لكم عن سرى ؟ انكم لا تريدون على أن تضحكوا من ذلك ،
أنا أفرأ هذا فى نظراتكم • أنت الذى دفعتنى الى الكلام يا وكيل النيابة •
أنتم الآن متصرون أيها الجلادون المناحيس !

قال ميتا ذلك ، وخفض رأسه وأخفى وجهه فى يديه • وصمت
وكيل النيابة وقاضى التحقيق • وبعد دقيقة رفع ميتا رأسه ونظر اليهما
فارغ العينين • ان قسما وجهه تعبر فى هذه المرة عن بأس كامل لا يبرء
منه ؛ وظل جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن
نفسه • وكان الوقت أثناء ذلك ينقضى ، فلا بد من الانتهاء ، ولا يمكن
تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير • لقد دقت الساعة الثامنة من

الصباح ، وذابت الشموع منذ زمن طويل • وهذا ميشيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن الغرفة مراراً أثناء الاستجواب ، يخرجان الآن من جديد • وان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يدوان متبعين هما أيضاً إلى أقصى حدود التب • والصباح كالح مكفهر ، والسماء تغطيها الغيوم ، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة • وميتيا ينظر من خلال النافذة كالآلة •

قال ميتيا يسأل ويقولان بارفينوفتش :

- هل أستطيع أن ألقى نظرة من النافذة ؟

فأجابه هذا بقوله :

- ما شئت أن تنظر ...

فنهض ميتيا واقترب من النافذة • المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً • وأمام المنزل يرى طريق قدر • وبعد الطريق ، فى الضباب الماطر ، تلمح الكتل السوداء الباسية ، كل الأكواخ التى تبدو فى المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والحزن • فكر ميتيا فجأة فى « فيوس ذى الصفائر الذهبية » ، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر • فقال فى نفسه وهو يتسم ابتسامة مرة : « هذا صباح كان يناسب مشروعى جداً » ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده ، والتفت الى جلاديه وصاح :

- أيها السادة ، أرى أننى ضعت • ولكن ماذا عنها هي ؟ قولوا لى ، أضرع اليكم ، هل سيكون عليها أن تهلك معي • انها لا شأن لها بالأمر ؟ وفى لحظة من ضلال انما اتهمت نفسها أسن بأنها • مسئولة عن كل شيء • • هي لم ترتكب أى خطيئة ، هي غريبة عن هذه الدراما كل الغريبة • لقد تأملت طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبوننى • ألا تستطيعون أن تقولوا لى ما هو المصير الذى ينتظرها ؟

بادر وكيل النيابة يجيبه :

- اطمنن عنها يا دمترى فيدوروفتش • ليس هناك حتى الآن أى سبب يدعونا الى افلاق الانسانه التى تهتم بها هذا الاهتمام كله ، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق فى خارج القضية نهائيا ••• وسنعمل من جهتنا كل ما فى وسعنا فى سبيلها • فلا تخش عليها شيئاً !

- شكراً ياسادنى • كنت أعلم حق المعلم فى الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء • لقد أرحمتم عن صدرى عبثاً قليلاً •••

ماذا أنتم صانعون بى الآن ؟ اننى مستعد •

- لم يبق لنا وقت نضيقه • يجب أن نبادر الى سماع الشهود حالاً وهذا لا يكون الا بحضورك • لذلك ••

قاطع يقولون بارفينوفتش قائلاً :

- ألا يكون من الأفضل أن نحصى فنجانا من الشاي أولاً • أحسب أننا نستحق فنجانا من الشاي !

وتقرر احتساء شئ من الشاي اذا وجد شاي ساخن تحت (وهذا مرجح ، والا فهل كان يتغيب ميشيل ماكاروفتش الا لطلب الشاي ؟) • وبعد الشاي يستأنف الاستجواب ويتابع بلا كلال • أما الافطار بمعنى كلمة الافطار ، أما الافطار مع « الزاكوسكى » * فيؤجل الى ما بعد • واتضح أن هناك شاباً مهياً بالفعل تحت ، فجىء بالشاي الى الفرقة • رفض ميتيا فى أول الأمر أن يتناول الكأس التى مدّها اليه يقولون بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة ، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناول الكأس واحتسى الشاي بشراهة • كان يبدو مرهقا ارهاقا غريباً ما كان ليلة قصف ، ولو حفلت بانفعالات عنيفة ، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه • ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه ، وكانت الأشياء الموجودة فى الفرقة تدور أمام عينيه فى بعض اللحظات • قال يحدث نفسه : « لحظات ثم أهذى » •

أقوال الشهود الصبي



استجواب الشهود • ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله ، كما فعلنا باستجواب ميتا • لن نحكى اذن كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملة ، وأنه

سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين ؟ لا ولن نصف الشكليات الاجرائية، كتذليل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم. وحسبنا أن نشير الى أن الأسئلة التي أُلقيت على مختلف الأشخاص انما دارت فى الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل : لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمترى فيدوروفتش ، فى موكرويه ، أثناء سهرة القصف السابقة ، فى الشهر الماضى ، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب ، وهل كان معه فى الليلة البارحة ، فى أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة. واحزنناه ! لقد شهدوا جميعا عليه ولم يشهد أحد له • حتى أن عددا منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه •

وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداتهم • تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أى خجل ، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم ، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعا قويا من

الصدق ، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيها كثير من الكرامة والمهابة والوقار . وكان موجزاً في كلامه ، متحفظاً في أقواله ، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها ، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل . وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذى أنفق فى الشهر الماضى لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل ، وأن جميع فلاحى المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه « دمتري فيدوروفتش » بلسانه نفسه ، وانه يكفى أن يسألوا عن ذلك . وختم صاحب النزول كلامه بقوله :
- لقد أنفق على الفجر وحدهم ثروة طائلة ، أعطى النساء ألف روبل فى أقل تقدير .

فعلق ميتا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه :
- لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل . من المؤسف أننى لم أحسب ، لأننى كنت نملأ ، ولولا ذلك ...
كان ميتا جالسا عندئذ فى جانب ، جاعلاً ظهره الى الستائر ، وكان يبدو كالحال الوجه خزين النفس متعب الجسم ، يستمع الى أقوال الشهود مستسلماً مدعنا بغير انفعال ، فكأنه يقول لهم : « هياً ... قولوا ماشتم ... يستوى عندى كل شئ بعد الآن ! » .
رداً عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة :

- لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمتري فيدوروفتش . كنت ترمى اليهم المال بدون حساب ، وكانوا يلتقطونه من الأرض . ان هؤلاء الفجر أوغاد ... ذلك معروف .. هم لصوص خيل ... وقد طردوا من المنطقة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك فى تلك الليلة . لقد رأيت بعينى الحزمة التى كنت تمسكها بيدك . ولئن لم أعد الأوراق المالية التى كانت تضمها الحزمة ، لأنك لم تتح لى ذلك ، فأتى أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمائة روبل ، اذا

صدق النظر .. أكثر كثيراً على كل حال ! أنظن أننا لم نر مبالغ ضخمة في حياتنا اننا نستطيع نحن أيضاً أن نقدر ما يقضيه جزم الأوراق المالية

أما عن المبلغ الذي جاء به ميّتا في الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريسش بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن ميّتا ما ان نزل من عربة الترويكّا حتى قال له ان معه ثلاثة آلاف روبل .

فحاول ميّتا أن يحتج قائلاً :

- ما هذا يا تريفون بوريسش ؟ أنا زعمت بمثل هذا القطع والجزم ان معي ثلاثة آلاف روبل ؟

- أنت قلت ذلك يا دمترى فيدوروفتش ! وقد قلته بحضور آندره . وهو ما يزال هنا لم ينصرف ، فاسألوه . وبعد ذلك بقليل صحت تقول في القاعة ، وأنت تغدق على أفراد الجوقة ، انك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات ، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى في حسابك طبعاً . ولقد سمع كلامك ستيفان وسيمون ، وسمعه بطرس فومتش الذي كان إلى جانبك عندئذ ، فلعله يتذكره هو أيضاً

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شديداً . ان هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم : ثلاثة آلاف في المرة الأولى + ثلاثة آلاف في هذه المرة = ستة آلاف فملاً .

واستجوب الفلاخان اللذان ذكرهما تريفون بوريسش ، وهما ستيفان وسيمون ، واستجوب الخوذي آندره ، واستجوب كذلك بطرس فومتش كالجانوف . فلما الفلاخان والخوذي قد أيدّا تصريحات صاحب المنزل بلا تردد . وقد سُجِّلَتْ ، بوجه خاص ، التفاصيل التي أوردها آندره عن الحديث الذي جرى بينه وبين ميّتا أثناء الطريق حين مآله ميّتا : « هل سيذهب ، هو دمترى فيدوروفتش ، إلى جهنم أم إلى الجنة »

وهل سيُغفر له في السماء أم لا . • وقد تذكر هيوليت كيريلوفتش في هذه المناسبة مواهبه الرفيعة في « النفاذ السيكولوجى » ، فاستقبل ما رواه آندره بإبتسامة مفهومة ، وأمر بضم هذا التصريح الى ملف القضية .

واستدعى بعد ذلك كالجانوف ، فدخل القاعة وقد بدا فى وجهه التملعل والضجر والتجهم ، وأظهر أثناء الاستجواب كثيرا من النزوات وأبدى كثيرا من سرعة الغضب . تحدث مع وكيل النيابة وقاضى التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة ، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل ، ومع أنهم التقى بهما مرارا فى المجتمع . وقد بدأ كلامه بقوله « انه يجهل كل شيء عن هذه القضية » ، ولا يجب أن يقحم نفسه فيها » . ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا فى موضوع الألف السادس من الروبيلات ، وأنه كان الى جانبه فى تلك اللحظة . فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال : « لا أعرف عن هذا شيئا » . وأكد فى مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشأ أثناء اللعب بالورق . وذكر كذلك ، بعد الحاح القضاة عليه إلحاحاً متكرراً ، أن ميتيا قد حظى ، بعد طرد البولنديين ، برضى أجرافين ألكسندروفنا ، وأن أجرافين ألكسندروفنا قد أكدت أنها تجبه . وقد تكلم كالجانوف عن أجرافين ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام ، ولم يسمح لنفسه مرة واحدة بأن يسميها «جروشنيكا» . ورغم الانزعاج الواضح الذى كان يحسه هذا الشاب من اضطرابه الى الادلاء بشهادته ، فان هيوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة ، حتى علم منه جميع التفاصيل التى تألفت منها خلال الليل « رواية » ميتيا . وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه ، وصُرف الشاب أخيرا ، فابتعد دون أن يخفى استياءه وامتعاظه .

واستجوب البولنديان أيضا . كانا قد استقرا للنوم فى الغرفة التى حُبسا فيها ، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل ، وأسرعاً يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة ، لأنهما كانا يقدّران أنهما سيستدعيان

للدلاء بشهادتهما • قدما نحو القضاة برصانة ووقار ، ولكن بشيء من الخوف والخشية مع ذلك • وعُرف عندئذ أن « السيد » الصغير الذى كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين ، موظفٌ محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة ، قد خدم فى سيريا طيبيا بطريا • وأن اسمه موزيالفوكتش • أما « السيد » فروبفسكى فقد صرح بأنه « طيب • أسنان حر » ، وهذا اصطلاح يعنى فى الروسية أنه « خالغ أسنان » • منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميشيل ماكاروفتش ليجيا عن الأسئلة كان يلقيها عليهما يقولان بارفينوفتش • كان واضحا أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة ، المتحى قليلا ، هو أرفع الشخصيات الموجودة فى الغرفة رتبةً ، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما : « سيادة الكولونيل » • ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديتهما الى يقولان بارفينوفتش الا بعد احتجاجات كثيرة من ميشيل ماكاروفتش ، مصحوبة بإيضاحات وتعليمات • وقد تيسر أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق • عرض « السيد » موزيالفوكتش علاقته الحاضرة والماضية بجروشنيكا ، متكلمًا بلهجة مسرحية ، مظهرًا كثيرًا من الحرارة والكبرياء ، فكان من شأن ذلك أن أحقق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول انه لا يحتمل أن يتحدث انسان «حقير» على هذا النحو أمامه • فصرعان ما ألحَّ « السيد » موزيالفوكتش على أن يُسجَّل فى المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير» • فصاح ميتيا يقول :

— حقير ... نعم ... حقير ! سجلوا هذا الكلام ، وسجلوا أيضا أنني لا أعبأ بالمحضر • ولن يمنعنى المحضر من أن أصرخ فى وجهك مرة أخرى قائلا : أنت حقير !

أمر يقولان بارفينوفتش بتسجيل الاهانة ، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فاقمة • دعا

ميتيا الى التزام الهدوء بلهجة قاسية ، وعدل بعد ذلك فورا عن القاء أمثلة جديدة تتناول الجانب الروائى من القضية . وعلى وجه الإجمال ، كان فى أقوال «السيد» البولنديين نقطة لغتت اتياء القاضيين لغتاً خاصاً ، وأثارت فيهما اهتماما شديدا ، ألا وهى محاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيا لوفكتش بأن يطليه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا ، منها سبعمائة روبل ينقده اياها فورا ، والباقى وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، يدفعه له « منذ صباح الغد فى المدينة » . وقد ذكر «السيد» البولندى أن ميتيا حلف له أنه لا يملك المبلغ كاملا فى موكرويه ، ولكنه يملكه مخبأ فى المدينة . احتد ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده باكمال المبلغ منذ الصباح فى المدينة . غير أن «السيد» فروبلفسكى أيد أقوال رفيقه . ففكر ميتيا قليلا ، ثم وافق ، مقطبا ، على أن من الجائز فعلا أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذى يذكره «السيدان» البولنديان ، وقال انه كان مهتاجا أشد الاحتياج أثناء ذلك الحديث ، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام . وهكذا بدا ثابتا الآن (وذلك ما لم يفهم الاستناد اليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التى صارت الى يدى ميتيا انما هو مخبأ فى المدينة ، وربما فى موكرويه نفسها . بذلك تبدد ذلك الظرف الذى كان يعرف الانهزام ، أعنى كون ميتيا لا يحمل الا ثمانمائة روبل ، وهذا أمر كان الى ذلك الحين هو العنصر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى دعم صدق أقواله ، وان تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة . هكذا انهارت المشاهدة الوحيدة التى كان يمكن أن تدافع عن ميتيا . فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخذ ما ينقصه ، وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، من أجل أن يدفع «للسيد» البولندى ، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة ، وما دام قد وعد باكمال المبلغ فى الغد ، أجاب ميتيا

جائزاً بأنه كان لا ينوى أن يعطى البولندى المبلغ مالا سائلاً ، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه فى أراضى تشرماشنيا ، وهى الحقوق التى سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة هوخلاكوفا . فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص» .

— هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلاً عن ألفين وثلاثمائة روبل عدلاً وتقداً ؟

أجاب ميتا قائلاً بحرارة :

— طبعاً كان سيقبل . ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفى روبل . ان فى وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل ، وربما قبض ستة آلاف . كان سيسرع الى توكيل بعض المحامين ، اليهود أو البولنديين ، فيجبر العجوز على التخلي لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا !

سُجِّلَتْ أقوال «السيد» موزيالوفكتش طبعاً ، بجميع تفاصيلها ، ثم صُرف البولنديان . ولم يزعجهما أحد بموضوع القش فى اللعب بالورق . لقد كان يقولان بارفينوفتش شاكراً لهما تصرّيحاهما فلم يشأ أن يصدّعهما بسفاسف وترهات ، لا سيما وأن الأمر لا يبدو أن يكون بعد كل شئ خلافاً فى اللعب بين قاصفين سكارى . ألم تكن اللبسة كلها حافلة بفضائح وخوادث شتى ؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكاً حلالاً «للسيدين» البولنديين .

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف . بدا عند وصوله وجلاً كل الوجلى ، واقترب من القضاة بخطى صغيرة ، حزين الوجه شهيد الارتباك . كان قد ظل طول الوقت فى صحبة جروشكا ، لاطياً بها كأنما لتحمية . وكان فى كل لحظة ينفجر باكياً ، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذى مربعات ، كما روى ذلك ميشيل ماكاروفتش فيما بعد . وقه بلغم من قوط الكرب واليأس أن المرأة الشابة اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه

مرارا • اعترف العجوز دفعة واحدة ، والدموع فى صوته ، أنه يعد نفسه مذنباً لأنه اقترض من دمتري فيدوروفتش عشرة روبلات « بسبب شدة فقره » ، وأنه مستعد لردّها • • • فلما سأله يقول بارفينوفتش هل يعلم كم كان فى يدي ميتيا من مال ، لأنه استطاع أكثر من أى شخص آخر أن ينعم النظر فى الحزمة حين تناول العشرة روبلات ، أجاب على الفور باقتناع : « كان فى الحزمة نحو عشرين ألف روبل » .

فسأله يقول بارفينوفتش مبتسماً :

– هل أتبع لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل ؟
 – هل رأيت ؟ طبعاً رأيت ، ولكننى لم أر عشرين ألفاً بل رأيت سبعة آلاف ، وذلك حين رهنّت زوجتى قريتنا الصغيرة • لقد تباهت أمامى بالمبلغ الذى أعطيته ، وأذنت لى أن أنظر الى الحزمة ، ولكن من بعيد • كانت حزمة كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التى كانت مع دمتري فيدوروفتش •

ولم يظلموا استجوابه • واستدعيت أخيراً جروشكا • كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها ، حتى لقد اعتقد يقول بارفينوفتش أن من الضروري أن يقول له بضع كلمات من باب النصيح • ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلاً ، كأنه يريد أن يقول : « لن يحدث اضطراب ! » •

ان ميشيل ما كاروفتش هو الذى أدخل جروشكا • وقد دخلت عابسةً مقطبةً ، ولكن على هدوء ظاهر ، وجلست بغير ضجة على كرسي أشار لها اليه يقول بارفينوفتش أمامه • وكانت شاحبة الوجه جداً ، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد ، وكانت تلتفح بشالها الأسود الرائع • والحق أنها كانت تشعر برعادات حمى هى بداية ذلك المرض الطويل الذى أصيبت به منذ تلك الليلة • وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادئ أن أحدثت فى نفوس الجميع أثراً

عظيما . حتى لقد «فتن» بها يقولوا بارفينوفتش بعض الشيء . فقد روى فيما بعد ، حين وصف مشاعره في ندوة من ندوات المجتمع ، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك . وقال انه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين الا « غانية ريفية » . وقد صاح يقول ذات مرة في مجتمع نسوى : « ان لها أداباً عظيمة » فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً في نفوس سامعائه ، فصرعان ما وصفه بأنه «فاسق» ، فسرَّ هو بهذا الوصف سرورا عظيما .

حين دخلت جروشكا الغرفة أَلقت على ميتيا نظرة خاطفة ، فتأملها قلقلًا ، غير أن منظر هبوطها لم يلبث أن طمأنه . سألها يقولوا بارفينوفتش ، بعد الاجراءات الشكلية وبعد بضعة كلمات تشجيعية ، سألها متردداً بعض التردد ، ولكن بكثير من الأدب والتعذيب « ماذا كانت علاقاتها باللازم المتقاعد دمترى فيدوروفتش كارامازوف » ، فأجابته جروشكا بصوت حازم رقيق عذب :

— كان أحداً من أعرف من الناس ، وبهذه الصفة انما كنت أستقبله في بيتي أثناء الشهر الأخير .

وألقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقا محرجا ، فكانت تجيب في كل مرة بصراحة تامة . وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها « في بعض الساعات » ولا شك ، غير أنها لم تكن قد أحبه ، وانما كانت تلمب به لعبا « بدافع الخبث المنحط وحده » ، كما كانت تلمب « بالعجز » من جهة أخرى ؟ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغاز جدا من فيدور بافلوفتش ، ومن رجال آخرين أيضا ، ولكن ذلك لم يكن عندها الا موضوعا جديدا للتسلية والضحك . أما فيدور بافلوفتش فانها لم تزره في يوم من الأيام ، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت . وأضافت تقول :

- ثم اتيت قد كانت لى خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف • فقد كنت لا أفكر فيهما ، لأتى كنت أنتظر وصول رجل أعده آمناً فى حتى • • ومهما يكن من أمر ، فأتيت لحسب أنه ليس لكم أن تدخلوا فى هذا الشأن ، وليس على أن أروى هذه التفاصيل ، لأن هذا من حياتى الخاصة •

أسرع يقولون بارفينوفتش يخضع أمام هذه الحجة ، فكف عن سؤال جروشكا عن العناصر الروائية فى القضية ، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً ، أعنى مسألة الثلاثة آلاف روبل • فأيدت جروشكا أن المال الذى أنفق فى موكرويه فى الشهر الماضى يرتقى الى ثلاثة آلاف روبل • فلتن لم تعدّ المال ، لقد سمعت دمترى فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم •

سألها وكيل النيابة :

- هل أسرّ اليك بهذا الرقم على انفراد أم بحضور أشخاص آخرين ؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يذكر لآخرين ؟

فأوضحت جروشكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين ، ولكنه حدثها عنه أيضا ، على انفراد وبحضور آخرين •

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى :

- هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات ؟
فأجاب :

- بل عدة مرات •

رضى هيوليت كيريلوفتش عن هذه التصريحات رضى عظيما • وقد أتاحت تمة الاستجواب أن يعرف ، عدا ذلك ، أن جروشكا كانت

على علم بمصدر هذا المبلغ ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من
كاترين ايفانوفنا .

- ألم تسمى أبدا أن المبلغ الذى أنفق فى القصف فى الشهر
الماضى لم يكن ثلاثة آلاف روبل ، بل دون ذلك كثيرا ، وأن دمترى
فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال ؟

- لا ، أبدا . لم أسمع هذا فى يوم من الأيام .

واذ طلبوا الى جروشكا أن تزيد هذه النقطة وضوحا ودقة ، فقد
تأدوا بها الى أن تصرح بأن ميتيا ، خلافا لذلك ، قد أكد لها طوال هذا
الشهر أنه لم يبق معه كوبك واحد . وختمت جروشكا كلامها قائلة :
- وكان يأمل دائما أن يأخذ مالا من أبيه .

هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها :

- هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو فى
سورة من غضب أنه ينوى أن يقتل أباه ؟

فأجاب جروشكا متتهدة :

- قال ذلك وا أسفاه !

- أقاله مرة واحدة أم قاله مرارا ؟

- قاله مرارا ، ولكن فى لحظات الغضب دائما .

- هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه ؟

- لا ، لم أصدق هذا فى يوم من الأيام ، لأننى كنت على ثقة بنبل
خلقه .

كذلك قالت جروشكا بلهجة حازمة .

فصاح ميتيا يقول فجأة :

- اسمحوالى أيها السادة ! هل أستطيع أن أقول كلمة ، كلمة واحدة ، بحضوركم ، لأجرافين ألكسندروفنا ؟

قال نيقولا بارفينوفتش :

- افعل !

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه :

- أجرافين الكسندروفنا ، صديقى ، فان الله على ما أقول شهيد : أنا لم أسفح دم أبى !

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه . فنهض جروشكا ، ورسمت إشارة الصليب بخشوع وتقى وهى تتجه الى أيقونة ، وقالت بصوت حار مؤثر :

- الحمد لله !

ثم أضافت تقول مخاطبة نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود تجلس :

- ان ما قاله هو الحقيقة ، وعليكم أن تصدقوه . أنا أعرفه . قد يمزح لعباً أو عناداً ، ولكنه لن يكذب فى يوم من الأيام مخالفا ضميره . سيقول الحق دائما فى الأحوال الخطيرة . كونوا من هذا على يقين ! قال ميتيا بصوت يهدّجه الانفعال :

- شكراً أجرافين ألكسندروفنا ! ان أقوالك قد واست قلبى . وفى موضوع المال الذى كان مع ميتيا فى الليلة البارحة ، صرحت جروشكا بأنها لا تعرف مقداره ، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل . وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشكا أن ميتيا اعترف لها ، لها وحدها ، بأنه « سرقه » من

كاترين ايفانوفنا ، وانها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة ، وان عليه أن يرد اليها المال منذ القد . فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذى يدعى ميتيا أنه سرقه من كاترين ايفانوفنا - أهو الثلاثة آلاف روبل التى كانت معه فى الليلة البارحة ، أم هو الثلاثة آلاف روبل التى أنفقها بموكرويه فى الشهر الماضى - أجابت بأن ميتيا قد تكلم من الثلاثة آلاف روبل التى أنفقت فى الشهر الماضى ، وأن هذا ما فهمته هى من كلامه .

هنا انتهى استجواب جروشسكا . وأسرع يقولون بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع الى المدينة ، فاذا كان فى وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها ، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيئ لها خفراً ، فانه سوف يسعده أن . . .

فقاطعت جروشسكا تقول وهى تمنحني انصاعة توديع يسيرة :
- أشكر لك لطفك . ولكننى أنوى البقاء فى صحبة هذا العجوز المسكين ، هذا الملاك الذى أرغب فى أن أوصله الى منزله . وياتنظار ذلك أوتر أن أبقى تحت ، اذا أذتم بذلك ، ريشما تقررنا مصير دمترى فيدوروفتش .

وخرجت جروشسكا من الغرفة . كان ميتيا هادئاً ، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش وطمأنينة البال ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ان وهناً جسيماً شديداً كان يغزوه شيئاً بعد شيء ، وان عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب ؛ ولم يكن قد بقى شهود يُستمع الى شهاداتهم ، وقد بدأت كتابة المحضر فى صورتها الأخيرة . فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه ، ويتجه الى زاوية الغرفة قرب الستارة ، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة ، فسرعان ما ينام ، فيرى فى منامه حلمة غريباً لا يتفق مع هذه الظروف فى شيء من الأشياء - رأى نفسه فى عربة

تجتاز سهوياً فى المنطقة التى كان قد خدم فيها ضابطاً ، والعربة يقودها خلال السهل الموحد فلاح يعمل حوزياً • ان ميتيا يشعر ببرد • هذه أوائل شهر تشرين الأول (نوفمبر) • الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما ان تلامس الأرض حتى تذوب • الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوِّحاً بسوطه • ان له لحية حمراء طويلة جداً • ما هو بالعجوز • قد يكون فى الخمسين من عمره • انه فلاح بسيط يرتدى قفطاناً فقيراً أشهب • وهذه ضيعة صغيرة تترامى فى مكان قريب • ان الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها الا هياكل محترقة • وعند مخرج الضيعة تصطف نساء ، تصطف كثرة من النساء • انهن هزيلات هزالا رهيا • وجوههن بلون التراب • بينهن واحدة تلفت النظر خاصة ، قد وقفت على حافة الطريق • هى امرأة بارزة العظام طويلة القامة ، تبدو فى الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين • وجهها مستطيل جاف • وعلى ذراعها طفل يبكى • لا شك أن نديها قد نضبا ، فلم يبق فيهما قطرة من لبن • الطفل يبكى ، وما ينفك يبكى بلا انقطاع ، ماداً ذراعيه الصغيرتين ، ذراعيه العاريتين البائستين اللتين ازرققت قبضاهما من شدة البرد •

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة :

— لماذا يبكون ؟ لماذا ؟

فأجابه الحوزى :

— الصبى هو الذى يبكى •

فوجئ ميتيا من قول الفلاح : « الصبى » ، بدلا من أن يقول :

« الطفل » • أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية • ان فى كلمة

« الصبى » من العطف والشفقة ما ليس فى كلمة « الطفل » •

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بضاعة سؤاله :

- ولكن لماذا يبكي ؟ لماذا ذراعاه عاريتان ؟ لماذا لا يغطون ذراعيه ؟
قال الفلاح :

- الصبي قد تخدر من البرد ؟ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه .
عند ميتا فظل يسأل في غباء :
- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

- هؤلاء نساء فقيرات ، احترقت دورهن ، ولم يبق معهن خبز ،
فهن يستجدين .
قال ميتا وكأنه لا يفصح في أن يفهم :

- لا ، لا . قل لي : لماذا هن هنا ، تلك الأمهات اللواتي احترقت
دورهن ، لماذا هن فقيرات الى هذه الدرجة من الفقر ، لماذا هذا الصبي
يبكي ، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العري ؟ نعم ، لماذا لا يتعانقن
جميعا ، لماذا لا يرتمي بعضهن في أذرع بعض منشدات أغنية فرح ؟ لماذا
أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس ، لماذا لا يطعمن
الطفل ؟

ان ميتا يحس في قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه
يشعر بحاجة قوية الى القائها . ويعلم أنها يجب أن تلقى . وهو يشعر
كذلك بشفقة كبيرة تشب في قلبه ، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل ،
وهو يريد أن يبكي ، ويتمنى أن يفعل شيئا يساعدن حيا ، حتى يكف
الصبي عن الأنين ، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبر ،
وحتى لا يبكي أحد في هذا العالم بعد اليوم . انه يريد أن يعمل شيئا
على الفور ، بغير انتظار ، وبدون أن يحسب حساب أى شيء ، مندفعاً
ذلك الاندفاع الجامح الذي يتميز به آل كارامازوف .

- سأكون معك ، لن أتركك بعد الآن ، سأبقى الى جانبك مدى

الحياة .

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشكا الرقيق الحنون المتأثر •
اشتعل قلبه مندفعاً نحو ضياء بعيد • انه يريد أن يحيا ، أن يحيا ،
أن يمضى ، أن يمضى بلا توقف نحو ذلك الضياء الذى يناديه ، أن يسافر
حالا ، بمزيد من السرعة ، على الفور ، على الفور !
هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيبة ، كأنه يصحو من
غيوبة :

- أين ؟ كيف ؟

وكانت بسمة مشرقة تضيء وجهه •

كان يقولان بارفينوفتش واقفا أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر
وأن يوقمه • أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر • ولم ينتبه أى انتباه الى
كلام يقولان بارفينوفتش ، لأنه لاحظ أن وسادة كانت موضوعة تحت
رأسه ، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الحقيبة مهدود القوى •
هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس ، وفي صوته دموع ، كأنه قد
منَّ عليه بفضل عظيم :

- من وضع وسادة تحت رأسي ؟ من عطف على هذا العطف

النيل ؟

غير أن الانسان الذى قام بإدارة العطف النيلة هذه قد ظل مجهولا •
لعل أحد الشهود أو لعل كاتب يقولان بارفينوفتش هو الذى أمر باحضار
الوسادة • أحس ميتيا بتأثر شديد يرقق الدموع فى العينين • واقترب
من المائدة ، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاءون أن يضع توقيعه
عليه •

وقال بصوت غريب :

- رأيت حلماً جميلاً يا سادتي •

ان قسما ت وجهه لا تعبر الآن عما كانت تعبر عنه أثناء الليل •
لأنه قد بدّل اسما آخر • ان محيّا غارق فى ضياء مشرق •

اقتياد ميتيا



تمّ توقيع المحضر التفت نيولاً بارفينوفتش نحو ميتيا في أبهة ، وقرأ عليه نص « قرار » يتضمن أنه في يوم كذا ، سنة كذا ، وفي مكان كذا ، استجوب قاضي التحقيق فلانا (أى ميتيا) ؛ وحيث أن المتهم ، رغم انكاره التهمة المنسوبة اليه ، لم يكن قادراً على أن يبرىء نفسه ؛ ونظراً للتهم المنسوبة اليه من الشهود (وتليت قائمة بأسماء الشهود) ، ونظراً لظروف القضية ، فقد قرر قاضي التحقيق ، بالاستناد الى مواد القانون (وتليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن . . . حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة ، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة ، الخ .

الخلاصة : أعلم ميتيا أنه معتقل ، وأنه سينقل الى المدينة ليسجن في مكان ليست الاقامة فيه بالمتعة . وقد أصنى ميتيا الى قراءة هذه الورقة بانتباه ، ولكنه لم يزد على أن رفع كفيه قائلاً :

- ليكن ما تشاءون يا سادتي . . . لست أؤاخذكم ، أنا مستعد . . . اننى لأدرك حق الادراك أنكم ما كان في وسعكم أن تفعلوا غير ما فعلتم . فشرح له نيولاً بارفينوفتش ، في لين ورفق ، أن موريس مافريكيتش الذى كان في المكان بما يشبه المصادفة ، هو الذى سيقناده .

هتف ميتا يقول فجأة فى سورة جامحة لا تقاوم ، متجها بكلامه الى
جميع الحضور فى القاعة :

- لحظة يا سادة ! نحن جميعا قساة ، نحن جميعا وحوش مقترسة ،
نحن سبب الدموع التى تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضع ،
ولكننى أنا - أقول هذا جهارا على رموس الأَشهاد هنا - أنهل الناس ،
وأدناهم طرا . انتى أسلِّم بهذا . وما من يوم انقضى فى حياتى الا
وحلفت فيه ، وأنا ألطم صدرى ، لأصلحن أمرى ولأفوق من عوجى ،
ولكننى كنت أهوى الى أخطائى منذ القد . انتى أدرك ليوم أن رجلا
مثلى محتاجون الى أن يضربهم القدر ، محتاجون الى أن يضربهم القدر
ضربة تدمر كيانهم وتوقف فى أنفسهم قوى الحقيقة العليا . ما كان لى
أبدأ ، أبدأ ، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسى ! ولكن الصاعقة قد
نزلت على . وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه الى ، وأقبل العار الذى تُلغى
به شرفى أمام الناس . أريد أن أتألم ، وأن أتطهر بالألم . لأننى سأفدى
نفسى بالألم ، أليس هذا صحيحا أيها السادة ؟ ولكننى تؤكد لكم آخر
مرة : أنتى لم أسفح دم أبى ! انتى أقبل العقاب لا على قتله ، بل على أنتى
أردت أن أقتله ، وربما كنت سأقتله فى النهاية ولكننى سأكافح لدفع
التهمة عن نفسى ، فأعلموا هذا ! سأدافع عن نفسى حتى النهاية ، وسيقرر
الرب مصيرى . الى اللقاء أيها السادة . واغفروا لى ما ظهر منى من
غضب أثناء الاستجواب . آه .. ما كان أغباني عندئذ ! بعد يضع ثوان
لن أكون الا سجيناً ؛ ولآخر مرة انما يمسد دمترى فيدوروفتش
كارامازوف يده اليكم مصافحا مصافحة رجل حر طليق . وانى اذ
أودعكم انما أودع العالم ..

أخذ صوته يرتجف ، وقدم يده ، لكن يقولوا بارفينوفتش الذى

كان أقرب الحضور إليه ، سحب يده فجأة بحركة تشبه أن تكون
متشنجة . فلاحظ ميتا ذلك فارتعش وسقطت يده .

دمدم يقولان بارفينوتش يقول محررا :

- لم يتنه التحقيق . وسنستأنفه في المدينة . وأنا من جهتي أتمنى
لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك . لقد كنت أُميل دائما
يا دمترى فيدوروفتش الى أن أعودك إنسانا عاثر الحظ ان صح التعبير ،
لا إنسانا مجرما ... ونحن جميعا مستعدون - اذا جاز لي أن أنطق
بلسان الآخرين أيضا - لأن نرى فيك شابا نبيل الخلق في قرارة نفسه،
لكنه ، وا أسفاه ، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعا ربما كان فيه
افراط .

وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل
وضع مهابة قصوى ووقار عظيم . وأحس ميتا فجأة أن هذا « الولد
الصغير » سيمسكه من ذراعه فينتحى به جانبا ويستأنف معه حديثه الأخير
عن « النساء الصغيرات » . هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن
في ظروف كظروف هذه اللحظة أن تومض في ذهن الإنسان ، ولو كان
هذا الإنسان مجرما يُساق الى التعذيب ؟

سأل ميتا :

- سادتي ، أتم أناس طيبون إنسانيون . فهل تسمحون لي بأن
أراها مرة أخيرة لأودعها ؟

- طبعاً ... ولكن ، بالنظر الى الظروف الخاصة ... أقصد ...
لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود .
- لا أرى أي ضرر في أن تحضروا اللقاء .

مضى بعضهم يحضر جروشكا • ولكن الوداع كان موجزا ، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش • اتحت جروشكا تحيى ميتا تحية عميقة • وقالت له :

- قلتُ اننى سأكون لك الى الأبد • سأصحبك حيثما تذهب ، مهما يكن مصيرك • استودعك الله ، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنباً •

واختلجت شفتاها ، وسالت الدموع من عينيها •

- اغفرى لى يا جروشكا ، اغفرى لى أتنى أحبتك • فسيبت لك الضياع بهذا الحب •

أراد ميتا أن يضيف شيئا آخر ، ولكنه انقطع عن الكلام فجأذ وخرج من الغرفة • وسرعان ما وجد نفسه محاطا برجال لم يرغب عن أنظارهم • وتحت ، أمام درجات الباب الذى وصل اليه الليلة البارحة على عربة آندره محدثا ضجة كبيرة ، كانت تنتظره عربتان • ان مويريس مافريكفتش ، وهو رجل سمين قصير مغمضن الوجه ، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارىء ما ، فهو يفضب ويصيح • وها هو ذا يدعو ميتا الى ركوب العربة بلهجة عدوها ميتا مسرفة فى الخشونة • قال ميتا يحدث نفسه : « حين كنت أسقيه خمرأ فى الكاباريه ، كان يبدى غير ما يبدى الآن » • • • وظهر تريفون بوريستش فى أسفل درجات الباب أيضا • واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تنفرس فى ميتا •

هتف ميتا يقول لهم من مكانه :

- استودعكم الله أيها الناس الطيبون ! سامحونى !

فترجعت أصوات تقول له :

- اغفر لنا نحن أيضا •

- أستودعك الله أنت أيضا يا تريفون بوريستش !

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت • لعله كان مشغولا جدا ،
فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكا هو أيضا : والحق أن العربية الثانية
التي يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن
بعد مستعدة للسفر كل الاستعداد • كان الفلاح القصير الذى كلف
بسوق العربية يصرُّ على أن يزعم ، بينما هو يرتدى قفطانه ، أن الدور
دور آكيم ، لا دوره هو ، فى القيام بهذه المهمة • ولكن أين آكيم ؟ ان
أحداً لم يستطع العثور عليه • لقد بحثوا عنه فى كل مكان • والفلاح
القصير ما يزال يصرُّ ويتوسل أن ينتظروه مزيدا من الانتظار •

هتف تريفون بوريستش يقول :

- ان هؤلاء الناس الذين ينتمون الى سقط الشعب وقحون وقاحة
فظيمة يا موريس مافريكيفتش ، أنظر كيف يتصرفون !

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير :

- لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبكا ، فشربت
بها خمرا ، وتريد الآن أن يحل محللك وأن ينوب عنك •

وعاد تريفون بوريستش يخاطب موريس مافريكيفتش :

- يدهشنى يا موريس مافريكيفتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين
الأدنياء من رقة وتسامح • ذلك كل ما أستطيع أن أقوله •

تدخل ميتيا قائلا :

- لماذا هذه العربية الثانية ؟ تكفينا عربية واحدة ، ألا تظن ذلك
يا موريس مافريكيتش ؟ اتنى لن أتمرد ولن أزعجك في شيء ! لاحاجة
الى خفر من أجلى !

فأجابه موريس مافريكيتش قائلاً بشراسة :

- تعلم كيف يجب عليك أن تكلمنى يا سيد اذا كنت لا تعرف
ذلك بعد . أنا لست رفيقك ، واننى أملك من مخاطبتى بصفة المفرد .
مفهوم ؟ أما نصائحك ففى وسعك أن تمتنع عن اسداها الى فى المستقبل .
كان واضحاً أنه يسعد أنه يفرّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه .
صمت ميتاً . وكان قد احمر احمراراً شديداً . وها هو ذا بعد لحظة
يشعر ببرد . لقد انقطع المطر عن الهطول ، ولكن السماء الشباء مغطاة
بالسحب ، وان ريحا جافة جدا تسفع وجهه . تسأل ميتاً بينه وبين
نفسه وهو يضم كتفيه فى تشنج : « أهذه رعدة حمى ؟ » . وركب
موريس مافريكيتش العربية أخيراً . جلس فى مكانه ثقيلًا ، واسترخى
على راحته دافعاً ميتاً الى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك .
الحق أنه كان معتكر المزاج جدا ، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه
المهمة التى عهد اليه بها .

- استودعك الله يا تريفون بوريستش !

كذلك صاح ميتاً يقول مرة أخرى ، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب
صاحب البزل فى هذه المرة بروح المودة ، وشعر بأن الغضب هو الذى
اتزعج منه هذه البسجة ابتزازاً بغير ارادته .

ظل تريفون بوريستش ساكناً لا يهتز ، واضعاً يديه وراء ظهره .

وحدّق الى ميتيا دون أن يجيب ، ناظرا اليه نظرة مثقلة بالكبرياء والتعالى
زاخرة بالاستنكار والاستياء •

ودوَّى صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدرى أحد
من أين :

- الوداع يا دمترى فيدوروفتش ، الوداع !

كان كالجانوف يجرى نحو العربة عارى الرأس ، ماداً يده الى
ميتيا ، فاستمع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه ، قائلاً له :

- الوداع أيها الصديق الشهم • لن أنسى كرمك ما حيت ! ولكن
العربة تحركت ، فانفصلت يداهما ، ورنّت الجلاجل • اقتيد ميتيا •

انسحب كالجانوف الى الدهليز ، فجلس فى ركن ، واضعاً رأسه
فى يديه ، وأخذ يبكى • وظل يبكى زمناً طويلاً ، كصبي صغير ،
لا كشاب فى العشرين من عمره • لقد كان شبه مقتنع ، واأسفاه ! ، بأن
ميتيا قد قتل أباه • فكان يهتف بغير انقطاع ، وهو يشعر بحسرة مرة
ولوعة شديدة : « ما قيمة البشر بعد هذا ؟ كيف ينق المرء بالبشر بعد
الآن ، • وبدا له فى تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا ، فهو
يتساءل قائلاً : « فيم الحياة ؟ فيم الحياة ؟ » •

حواش

- ١٤ * « Sosna Kak So Sna » : ها هنا لعب بالالفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosna ومعناها الصنوبر وبين So Sna بمعنى : « فى الحلم » .
- ٣٢ * « أنا الآن فى موقف فاموسوف » : اشارة الى المسرحية الهزلية التى كتبها جريبيودوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » ، ودوستويفسكى كثيرا ما يستشهد بهذه المسرحية . فى المشهد الاخير من هذه المسرحية يفاجئ فاموسوف ابنته صوفيا متحدثا مع تشاتسكى على السلم الكبير فى المنزل .
- ٣٧ * « بقوة عظيمة انجذب » : أغنية يقول دوستويفسكى فى رسالة كتبها سنة ١٨٧٤ انه سمعها فى موسكو قبل أربعين عاما ، وكان يغنيها الخدم . (وسوف تذكر أيضا فى الصفحة ٤٢ من هذا المجلد) .
- ٣٩ * «لأن أمى امرأة نتنة» : اشارة الى معنى اسم أمه «سمردياشتيايا» (راجع حاشية الصفحة ٢٣٦ من المجلد السابق) .
- ٤٠ * « نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى » : واضح خطأ سمردياكوف فان نابوليون الاول هو عم نابوليون الثالث الذى حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٠
- ٥١ * «وريقات الاشجار الطريات النديات» : استعمل دوستويفسكى هذه العبارة مرارا ، وهى مستمدة من قصيدة للشاعر بوشكين فى وصف الربيع .
- ٦٠ * « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه » : هنا استشهاد بعبارة للكاتب الفرنسى فولتير فى « رسالة الى صانع الخدع

ملحة

- الثلاث ، ، وقد تحولت عبارة فولتير قليلا ، لانها فى الاصل :
« اذا لم يكن اله ... » .
- ٦١ * يجب أن نتذكر أن العالم الروسى نيقولاى لوباتشفسكى قد عرض سنة ١٨٢٦ مذهباً جديداً فى «هندسة غير اقليدسية» ، فسبق بذلك أنيشتاين ومهد له .
- ٦٥ * « يوحنا الرحيم » : يخطئ دوستوفسكى هنا ، فلا شك أن المقصود هو « جوليان الرحيم » الذى اتخذ الكاتب الفرنسى فلوير موضوعاً لحدى قصصه ، وقد قام تورجنيف بترجمة هذه القصة الى اللغة الروسية سنة ١٨٧٧ .
- ٧٠ * ينقل دوستوفسكى هنا نقلاً أميناً مضمون وأسلوب النشرة التى أصدرتها « لجنة توزيع الكتب الدينية فى إقليم « فو » بسويسرا ، وعنوان النشرة « جذوة جديدة تنتزع من النار ، أو القصة الحقيقية التى تروى اهتماماً وموت لويس فردريك ريشار الذى أعدم بمدينة جنيف فى ١١ حزيران يونية ١٨٥٠ » .
وإن تنفيذ عقوبة الإعدام هذه التى أنزلت فى ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص ، قد وصفت فى نشرات أخرى ، منها النشرة التى أصدرها ارنست كرامر فى جنيف سنة ١٨٥٠ ، وعنوانها : « قصة اللحظات الأخيرة التى عاشها لويس فردريك ريشار » .
- ٧٢ * يجب أن نتذكر أن الليوتنان إيلنسكى لم يحكم عليه ، بتهمة قتل أبيه ، عام ١٨٤٨ ، إلا بالسجن مع الأشغال الشاقة عشرين سنة .
- ٧٣ * أن الشاعر ن. آ. نكراسوف قد صور هذا المشهد فى قصيدته « تأملات فى هذا الزمان » (١٨٥٩) ، وتحت تأثير هذه القصيدة أنا ألف دوستوفسكى حلم راسكولينكوف فى الفصل الخامس من الجزء الأول من روايته « الجريمة والعقاب » .
- ٧٤ * هى قضية ابن صاحب البنك كرونبرج ، الذى أحيل الى المحكمة لسوء معاملته ابنته ، ثم برأته هيئة المحلفين بفضل المرافعة الداهية التى ألقاها المحامى فلاديمير سباسوفكتش . وقد وقف

دوستوفسكى على هذه القضية فصلا كاملا من «يوميات كاتب»
(شباط فبراير ١٨٧٦) .

٧٦ * هما مجلستان كانتا تصدران بانتظام منذ ١٨٦٣ ، وكان
دوستوفسكى يقرؤهما في كثير من الاحيان . غير أن الواقعة
التي يذكرها هنا مأخوذة عن « مذكرات قن » التي كتبها
كاتكوف ، وهو من أنصار السلافية ، ونشرتها مجلة «الرسول
الروسي» سنة ١٨٧٧ .

٧٦ * « محرر الشعب » : هو اللقب الذي أصبح يلقب به الاسكندر
الثاني بعد إلغاء نظام القنانية في ١٩ شباط فبراير سنة ١٨٦١

٨٥ * وصف دوستوفسكى كتاب فكتور هوجو «أحلب نوتردام» بأنه
عمل عبقرى قوى ، وقد نشر في مجلته «الزمان» أول ترجمة
روسية لهذا الكتاب ، سنة ١٨٦٢

٨٥ * « وعندنا في موسكو » : نظم القسيس جريجورى عروضا
مسرحية في موسكو منذ سنة ١٦٧٢ ، لبلات القيصر الكسى .
وقد بدأها بمسرحيتين اقتبسنا عن اللغة الالمانية وهما «استير»
و « توبى » .

٨٦ * « نزول العذراء الى الجحيم » : هي قصيدة بيزانطية منسحولة
حظيت برواج كبير في روسيا ، ولعلها أثرت في كتاب دانتي
« الكوميديا الالهية » .

٨٦ * « ساعدو قريبا » : قول المسيح في رؤيا يوحنا الرسول ،
(الاصحاح الثاني والعشرون ، ١٢) .

٨٧ * بيتان من قصيدة شيللر « الرغبة » ، نظمها الشاعر سنة
١٨٠١ . وترجمها الى الروسية ف.جوكوفسكى

٨٧ * « ظهرت هرطقة » : اشارة الى حركة «الاصلاح» .

٨٨ * « أيتها الارض التي ولد فيك ملك السماوات » ، الخ : آخر
رباعية من قصيدة للشاعر ف.اى. تيوتشيف عنوانها : «هذه
القرى الفقيرة ، هذه الطبيعة الهزيلة » ، وقد كتبها الشاعر

صفحة

سنة ١٨٥٥ ، وان قوله « فى صورة عبد » تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول الى أهل فيليبى (الاصحاح الثانى ، ٦) .

٨٨ * « فى نيران رائعة » الخ : بيتان مستمدان من قصيدة للشاعر أنكسندر بوليغايف (١٨٠٤ - ١٨٣٨) .

٨٨ * « تمجيذا للرب » : هو شعار اليسوعيين .

٨٨ * « كبرق يسطع من الشرق الى الغرب » : هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها انجيل متى (الاصحاح الرابع والعشرون ، ٢٧ : « كما أن البرق يخرج من المشرق ويظهر الى المغرب ، هكذا يكون أيضا مجيء ابن الانسان ») .

٩٠ * من معجزات المسيح فيما أورده انجيل متى (الاصحاح التاسع ، ٢٥) وانجيل مرقس (الاصحاح الخامس ، ٤١) .

٩٠ * « الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون » : هكذا يصف الشاعر بوشكين مدينة اشبيلية فى قصيدته عن دون جوان .

١٠٠ * « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب ... » : جاء فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٥ - ٦) : « ثم أخذه إبليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أباديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك » . ومثل هذا جاء فى انجيل لوقا (الاصحاح الرابع ، ٩-١١) .

١٠٢ * « ان رسولك الكبير يروى ... » : هو يوحنا الرسول فى رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول ، الاصحاح السابع ، ٣ - ٨) . يذكر فلاديمير سولوفييف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستوفسكى المفضل فى السنين الأخيرة من حياته .

١٠٤ * « فمئذ ثمانية قرون ... » : اشارة الى انشاء دولة البابا سنة ٧٥٦

١٠٨ * صورة من رؤيا بولس الرسول (الاصحاح السابع عشر) ولعلها رمز الى روما الوثنية .

١١٨ * « الاب سيرايفيكوس » : أطلق هذا الاسم من أسماء القرون

الوسطى على القديس بونافانتورا ، وهو يظهر في المشهد الأخير من الجزء الثاني من « فاوست » جوته .

١٢٤ * « تشرماشنيا » : هو اسم قرية ملحقة بأملاك والد دوستويفسكى . وقد زار دوستويفسكى هذه الاماكن منذ طفولته حتى سنة ١٨٧٧

١٤١ * « كولاك » : كان اسم « كولاك » يطلق على المحتكرين وعلى انفلاحين الاغنياء ، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد .

١٤٢ * « نياجافى » : نعت معناه « كلب راقد » .

١٥٧ * « اذا لم تكن حبة القمح ... » : قول المسيح بعد قيام عازر من الموت ، كما ورد في انجيل يوحنا (الاصحاح الثاني عشر ، ٢٤ - ٢٥) . وبهذا القول صدر دوستويفسكى روايته هذه .

١٦٧ * « أثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيميا » : فى رسالة تاريخها ٧ آب (اغسطس) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن . ليوبينوف ، وهو نائب محرر مجلة « الرسول الروسى » ، يقول دوستويفسكى حين بعث اليه بالنص : « ان فى هذا الفصل حماسة وشاعرية ، مثله كمثل بعض تعاليم تيخون زادونسكى ، وسداجة التعبير فيه مستوحاة من الكتاب الذى عنوانه « أسفار الراهب بارثين » .

١٦٨ * « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » : قالت أرملة دوستويفسكى : « فى هذا الكتاب انما تعلم فيدور ميخائيلوفتش القراءة » . وهو موجود الآن فى متحف دوستويفسكى بموسكو .

١٦٨ * « على أننى أذكر أن الانفعال الدينى الاول ... » : تقول أرملة دوستويفسكى : هنا يروى فيدور ميخائيلوفتش ذكريات طفولته الشخصية ، فقد سمعته يتكلم عنها مرارا .

١٦٨ * « كان يعيش فى أرض عوص ... » : اشارة الى الفصل الاول من سفر أيوب .

صفحة

- ١٧٩ * « ٠٠٠ فى موضوع حدث كان قد وقع ٠٠٠ » : اشارة الى ثورة
الديسمبريين فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ .
- ٢٥٨ * « كانت حياته هادئة وادعة » : يضيف دوستوفسكى هنا
حاشية الشرح التالية : « حين انهاض جيشان راهب بسيط
(لنقله من الحجرة الى الكنيسة ، ونقله بعد قداس الجنائز
من الكنيسة الى المقبرة) تتلى الآية : كانت حياته هادئة وادعة ، اما
اذا كان الراهب من اصحاب النذور ، من المرتبة الثانية ، فانه
يرتل له النشيد « ربنا هب لنا من لدنك عوناً واحمنا » .
- ٢٧٨ * « فينيا » : تصغير اسم فيدوسيا .
- ٢٩٠ * فى رسالة تاريخها ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى
ن . ليوبينوف ، كتب دوستوفسكى يقول : « ارجو أن تعتنى
بتصحیح أسطورة «البصلة» . لقد أخذت هذا النص الثمين من
فم فلاحه ، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة . أنا على الأقل ،
لم يسبق لى أن رأيته » .
- ٣٠٦ * « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ٠٠٠ » : من
انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى ، ١ - ٩ .
- ٣٥٨ * « كفى ! » اشارة الى قصة تورجنيف التى تحمل هذا العنوان
وانتهى ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على
الانقطاع عن الكتابة ، ويودع قراه .
- ٣٦١ * « شتيدرين » : أحد محررى مجلة « المصائر » ، وهى مجلة
لبرالية ، أوقفها الرقابة عن الصدور سنة ١٨٦٦ .
- ٣٨٤ * « متجر آل بلوتينيكوف » : ذكرت ارملة دوستوفسكى أن
زوجها كان يذهب كثيرا الى بقالية ب.ج. بلوتينكوف ، فى
مدينة شتريايا روسا ، ليشتري منها مقبلات وحلاوى .
- ٣٩٠ * بيتان من الشعر يقولهما أوليس فى المقطع الخامس من قصيدة
للشاعر شيللر عنوانها « عيد النصر » ، وهى تصور معسكر
اليونان بعد أخذ طروادة ، وقد قام بترجمة القصيدة الى اللغة
الروسية ف.ج. تيوتشيف سنة ١٨٥١ .

- صفحة ٣٩٩ * شطران ألفهما دمترى نفسه ، وقد سبق ورودهما في الصفحة ٢٥١ من الجزء الأول من هذه الرواية .
- ٤١٦ * كان موظفو دوائر الدولة في روسيا يرتدون زيا رسميا .
- ٤١٩ * « بارين » : بهذا الملقب كان يخاطب الخدم سادتهم في روسيا قبل الثورة (١٩١٧) .
- ٤٢١ * يا « سيد » : قال البولندي السمين كلمة «سيد» هذه باللغة البولندية . والبولنديان كلاهما سيدور أكثر كلامهما بهذه اللغة البولندية مزوجة بالفاظ روسية . وكان ينبغي أن نميز البولندي من كلامهما في هذه الترجمة العربية بأحرف طباعة خاصة لو لم يتعذر ذلك .
- ٤٣٦ * « النفوس الميتة » هي رواية جوجول الشهيرة (١٨٤٢) التي كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكى . أما نوزديوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية .
- ٤٣٨ * «نوزديوف كان اسمه الحقيقي نوسوف» : ها هنا تلاعب لفظي بكلمتي mozdri ومعناها « المتخرن » و moss ومعناها « الأنث » .
- ٤٣٨ * « أهذا أنت ... الشاعر بوالو ؟ ... » : مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى . آ . كريلوف تستهزئ بما فعله الكونت د . ج . خفوستوف ، وهو شاعر ضعيف ، حين ترجم كتاب بوالو «فن الشعر» ترجمة رديئة .
- ٤٣٩ * أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها « قصيدة الى سافو جديدة » ، وفيها يتهمك بالشاعرة الروسية الاولى أنا بونينا ، أسفا على أنها لم تفرق كما غرقت الادبية اليونانية الشهيرة سافو .
- ٤٤٢ * « روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ » : ابتداء من سنة ١٧٧٢ انما استردت روسيا بعض الاقاليم ، بعد اقتسام بولنده ثلاث مرات ، وهذه الاقاليم التي سبق أن احتلها اللتوانيون كانت أحد مطالب الثوريين البولنديين .

صفحة

- ٤٤٧ * « قصة السيد بودفيزوكى » : فى رسالة الى محرر مجلة « الرسول الروسى » ، كتب دوستوفسكى يقول : « سمعت هذه القصة ثلاث مرات فى حياتى ، فى أماكن مختلفة ومن بولنديين مختلفين » .
- ٤٦٦ * فى رسالة تاريخها ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن. ٢٠ ليوبينوف ، كتب دوستوفسكى يقول : « هذه الاغنية ، التقطتها بنفسى ، وهى مثال على الفن القروى الحالى » .
- ٤٨١ * « من آخر سيبيريا » : فى سيبيريا انما كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يقضون مدة العقوبة .
- ٤٨٤ * كانت السلطات التى ينتخبها الفلاحون فى قرية من القرى تحمل على صدورهم صفائح معدنية تشير الى رتبتها أثناء ممارستها عملها ، وهى تقوم بدور الشهود أثناء تحقيق قضائى .
- ٥٠٢ * « معنى بعض الاصلاحات » : اشارة الى اصلاحات الكسندر الثانى فى سنوات ١٨٦١ - ١٨٦٦ (الغاء القنانة ، الاصلاح القضائى ، الخ) .
- ٥٤٢ * « عليك بالصمت قلبى . . . » : من قصيدة «الصمت» للشاعر الفيلسوف ف. ج. تيوتشيف (١٨٣٣) .
- ٥٩٨ * « الزاكوسكى » : مائدة مقبلات باردة ، مع فودكا ، يصيبها الطاعمون عادة فى حجرة مجاورة لقاعة الطعام ، ويمضون اليها قبل الوجبة .

الصفحة

الباب الثامن (ميتيا)

٣١٣	١ - سامسونوف
٣١٥	٢ - لياجانى
٣٢٣	٣ - مناجم الذهب
٣٤٧	٤ - فى الظلام
٣٦٧	٥ - قرار مفاجئ
٣٧٧	٦ - هانازا
٤٠٧	٧ - الصنديق القديم الذى لا يمكن جوده
٤٢٣	٨ - هذيان

الباب التاسع (التحقيق التمهيلى)

٤٨٧	١ - البدايات الموقفة للموظف برخوتين
٤٨٩	٢ - التبليغ
٥٠١	٣ - محن نفس - المحنة الاولى
٥١٣	٤ - المحنة الثانية
٥٢٩	٥ - المحنة الثالثة
٥٤٣	٦ - وكيل النيابة يشوش ميتيا
٥٦٥	٧ - السر الكبير الذى يحتفظ به ميتيا يتخذ هزاة
٥٧٩	٨ - اقوال الشهود - الصبى
٥٩٩	٩ - اقتياد ميتيا
٦١٥	حواش
٦٢٣	

اعمال دوستويسكى الادبية الكاملة

المجلد ٧	المجلد ١
المقامر	الفقراء
الزوج الأبدى	المثل
المجلد ٨	قلب ضعيف
الجريمة والعقاب ١	المجلد ٢
المجلد ٩	نيتوتشكا نرفانوفنا
الجريمة والعقاب ٢	الليال البيضاء
المجلد ١٠	بروخارتشين
الأهبل ١	المجاعة
المجلد ١١	المهرج
الأهبل ٢	الساوق الشريف
المجلد ١٢	البطل الصغير
الجن ١	قصة في تسع رسائل
المجلد ١٣	شجرة عيد الميلاد والزواج
الجن ٢	زوجة آخر ، ورجل تحت السرير
المجلد ١٤	المجلد ٣
المراحم ١	قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
المجلد ١٥	حلم العم
المراحم ٢	المجلد ٤
المجلد ١٦	مذلون مهانون
الأخوة كارامازوف ١	المجلد ٥
المجلد ١٧	ذكريات من منزل الأموات
الأخوة كارامازوف ٢	المجلد ٦
المجلد ١٨	في قبوى
الأخوة كارامازوف ٣	قصة اليمى
المجلد ١٩	ذكريات صيف عن مشاعر شتاء
من « يوميات كاتب »	التمساح
رسائل	



. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالمطبعة



المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي

Bibliotheca Alexandrina



0647345

الثنون ٩٥ قرشا